

غير مخصص للبيع
الفيصل
مجلة ثقافية شهرية ـ العدد (231) ـ رمضان 1416 هـ ـ يناير/ فبراير 1996م
ALFAISAL MAGAZINE - ISSUE (231) JAN.FEB 1996
Mngool.com
رمضان ..
شهر المغفرة
الدين والدولة
عند برهان غليون
العطور
ملف العدد
على مر العصور
www.ahlaltareekh.com

مروج الذهب
ومعادن الجوهر
تأليف:
أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي
(المتوفى سنة 346هـ - 957م)

المؤلف من أشهر المؤرخين والجغرافيين في الإسلام، وهو من ذرية الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.
والكتاب كذلك من أشهر كتب التاريخ والجغرافيا عند المسلمين، وشهرته تغني عن التعريف به.
وما يهمنا في هذه العُجالة هو إشارة المسعودي - رحمه الله - إلى ما يسمى في وقتنا الحاضر «حقوق التأليف»؛ حيث يقول:
«... فمن حرّف شيئًا من معناه، أو أزال ركنًا من مبناه، أو طمس واضحةً من معالمه، ولبّس شاهرةً من تراجمه، أو غيّره أو بدّله، أو انتخبه أو اختصره، أو نسبه إلى غيرنا، أو أضافة إلى سوانا، فوافاه من غضب الله تعالى ووقوع نقمه وفوادح بلاياه، ما يعجز عنه صبره، ويحار له فكره، وجعله مُثلَةً للعالمين، وعبرة للمعتبرين، وآية للمتوسمين، وسلبه الله ما أعطاه، وحال بينه وبين ما أنعم عليه من قوة ونعمة مبتدع السماوات والأرض، من أي الملَل كان والآراء، إنه على كل شيءقدير.
وقد جعلت هذا التخويف في أول كتابي وآخره، ليكون رادعًا لمن ميّله هوى، أو غلبه شقاء، فليراقب أمر ربّه، وليحاذر منقلبه، فالمدة يسيرة، والمسافة قصيرة، وإلى الله المصير».

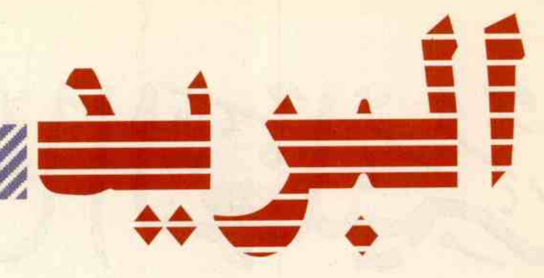




والمخطوطة من مقتنيات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض، برقم 6022.

إعداد: إبراهيم باجس عبدالمجيد

في العدد القادم:
- نظرات في غرس القيم
- سلطان الشعر أم سلطة الرواية؟
- توني موريسون وجغرافيا النقد



سؤال كبير وإجابة محيرة للعقول!

تساءل د. زيد بن عبدالمحسن الحسين رئيس التحرير في «إطلالة» العدد 219 بعنوان «البحث والتحدي الحضاري» قائلا: «إلى أين نحن سائرون ولم يبق بيننا وبين القرن الحادي والعشرين سوى سنوات تعد على أصابع اليد الواحدة؟». ولمحاولة الإجابة عن هذا السؤال الكبير، عميق الدلالات، أقول: قرأت أن ثلاثمئة خبير نووي التحقوا بأمريكا وكندا وغيرها للعمل بها. وقد شاهدت في كندا عقولاً علمية مهمة تعمل لتحريك أجهزة الآخرين، وأعرف نوابغ كباراً استقروا في فرنسا، يبيعون خبراتهم للعالم، ومنه العالم العربي. والحديث يطول.. لذلك فإن الإجابة عن سؤال د. زيد هي: إننا سائرون إلى القرن التاسع عشر، فالثامن عشر، فالسابع عشر، إلى آخر القرن الأول، وذلك بخطوات جبارة عملاقة.. والله المستعان.

د. عبدالسلام الهراس
جامعة محمد بن عبدالله
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، شعبة اللغة العربية وآدابها
فاس، المغرب.

تحيز أم ماذا؟

أشكر لكم حسن اهتمامكم بإصدار «كشاف المجلة»، وأتمنى لكم المزيد من التقدم والازدهار.

ولي عتب بسيط أود أن يتسع له صدركم اتساع صفحات الفيصل العامرة بشتى الفنون الثقافية والأدبية والعلمية والاجتماعية. وعتبي هذا هو إهمالكم التعريف بالكاتبات في المجلة.

فالقارئ كما يهمه أن يعرف كاتبه يهمه أيضاً أن يتعرف شخصية الكاتب.. ولم يعد ـ بحمد الله ـ اسم المرأة عورة حتى تحرم من التصدر بين فترة وأخرى ضمن قوائم الكتاب في كل عدد، ولا يمنع عدم ظهور صورتها من إدراج معلومات عنها، وخاصة إذا علمنا أن هناك إصداراً معنوناً بـ «دليل الكتاب والكاتبات»، وآخر قريب الإصدار عبارة عن معجم للنساء السعوديات البارزات على مختلف الأصعدة. فهل نسعد بتحقيق هذه الأمنية.. ويكون الفضل بعد الله للفيصل. وفقكم الله وسدد خطاكم.

صالحة السروجي
كاتبة و قاصة
ص.ب 20374، المدينة المنورة.

التحرير:

لايوجد هناك تحيز ضد المرأة، فنحن نرحب بمشاركاتهن، ويتم تعريفهن؛ بل إن المجلة حريصة على هذا الجانب حرصاً كبيراً، ولعلك تطالعين الملاحظات العامة المدونة في صفحة 144 التي نطلب فيها من الكاتب ـ وهذا بالطبع يشمل الكاتبة أيضاً ـ الذي لم يسبق له الكتابة في المجلة إرفاق الاسم والمؤهلات العلمية والنتاج الفكري ـ إن وجد ـ وعنوان المراسلة في ورقة مستقلة.

وما يدل على عدم التحيز أن العدد السابق تضمن تعريفاً بالدكتورة شذى الدركزلي، كما أن نظرة متفحصة إلى الكشاف العام تثبت لك صحة ما ذكرناه.

علوم شرعية

أحيي فيكم العمل الدؤوب والجهد المتواصل الذي يحقق مع كل يوم نجاحاً مثمراً، وكيف لا؛ وقد حملتم مشعل التحدي لتكون مجلتكم هذه عالمية شاملة تهتم بكل الجوانب؛ فيجد فيها الأديب ضالته، وطالب العلم بغيته، والطبيب والعالم والشاعر والمؤرخ والمفكر ما يرجوه.

فأسأل الله العلي القدير الدوام والبقاء لمجلتكم، ومزيداً من العمل والسعي الجادين.

وبما أن مجلتكم لاقت كل هذا القبول وهذا الرضا من جميع فئات الأمة، فإنني أود أن أقترح عليكم تخصيص صفحات أكثر للعقيدة والعلوم الشرعية الأخرى إلى جانب ركن «طريق الهدى»، لتصحيح عقيدة المسلمين مما شوهها من البدع والخرافات.

لخضر حمزة
طالب العلوم الشرعية
ص.ب 245، عين وسارة
ولاية الجلفة. الجزائر.

التحرير

هناك كثير من المقالات في العقيدة والعلوم الشرعية تنشرها المجلة في أعدادها المختلفة، والمجلة مستمرة على هذا النهج بإذن الله.

أسئلة صعبة !!

أقترح أن تكون المسابقة من ستة أسئلة بدلاً من خمسة، على أن تكون الإجابة عن خمسة منها فقط؛ حيث إنكم في بعض الأحيان تضعون سؤالاً تصعب الإجابة عنه، مع أننا نجدُّ في البحث. آمل أن يؤخذ اقتراحي بعين الاعتبار.

حميدة حميد الحلواجي
المنامة، البحرين.

«البريد» زاوية تستقبل فيها المجلة رسائل القراء، ويمكن أن ترد على بعضها، وتترك الردّ على البعض الآخر للقراء

يمكن أن تقوم المجلة بتحرير بعض الرسائل من أجل مساحة الصفحة، أو لزيادة الإيضاح

فقط الرسائل التي ترد بعناوين وأسماء ترسل باسم المحرر (زاوية بريد المجلة) ص.ب(٣) الرياض ١١٤١١

إطلالة

إنما التعليم



مثلت ندوة توظيف العمالة الوطنية في القطاع الأهلي التي عقدت في الرياض برعاية صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبدالعزيز وزير الداخلية (في الفترة من 10 - 12 رجب الماضي)، وإعلان ميزانية العام المالي الجديد حدثين مهمين فيما يتصل بمستقبل تنمية الموارد البشرية في المملكة العربية السعودية؛ فقد تناولت الندوة قضايا ملحة تتصل بتدريب القوى البشرية وتأهيلها، ودور القطاع الخاص في الوفاء بهذه المسؤولية، ومسؤوليته كذلك في توطين التقنية والإسهام الفاعل في تحقيق طموحات الدولة في التنمية الشاملة، وبخاصة ما يتعلق منها بتنمية الموارد البشرية، وكان الإنفاق على التعليم في ميزانية العام الجديد قد تجاوز 27 مليار ريال.

وتحتاج قراءة مضامين الميزانية والوقوف على نتائج ندوة التوظيف وتوصياتها إلى رؤية عميقة تتناول ما تمثله الموارد البشرية من أهمية بالنسبة لدول العالم المختلفة. فالتقدم التقني المتزايد الذي يشهده العالم اليوم يمثل تحديًا حقيقيًا يجابه الإنسان أينما كان؛ سواء في الدولة المتقدمة أو النامية. فإنسان العالم المتقدم في سعي دؤوب لتطوير قدراته وزيادة مهاراته وإمكاناته من أجل تطويع كل ما في هذا الوجود من ثروات ومكونات لخدمته وتحقيق راحته وسعادته بأفضل السبل والوسائل، وبأقل جهد ممكن، متبعًا في ذلك طرائق المنهج العلمي وأساليبه التي فتحت له دروب التقدم المادي، في حين أن دول مايسمى بالعالم الثالث في لهاث دائم لمواكبة ما يحدث في هذا العالم من تقدم، وللّحاق بركب لايعرف التوقف. وبهذه الطريقة تظل مشغولة باتساع الفارق في التقدم التقني بينها وبين الدول المتقدمة، وهي مع ذلك تواجه مشكلة كبيرة تتمثل في هجرة عقولها العلمية إلى العالم المتقدم، مما يشكل هدرًا لثرواتها البشرية، وإضافة كبيرة للدول المتقدمة أصلاً، تزيد من فرص تطورها وتقدمها. وهذه الأخيرة لاتبخل على هذه العقول بالدعم المادي والمعنوي الذي يضمن لها إمكانات الإبداع وتقديم أفضل أداء لديها.

وقد كشفت دراسات ترمي إلى معرفة أسباب التفاوت بين الدول أن مقدار ما يجده الإنسان من اهتمام وتكوين شامل أحد أهم هذه الأسباب؛ بوصفه العنصر الذي يملك قدرات توظيف كل معطيات الحياة، والطاقة الحقيقية المحركة للتطور. ولئن كانت الموارد الطبيعية كلها قابلة للنضوب، فإن الطاقة البشرية تبقى المورد الوحيد الذي يتجدد، وتعظم قدراته وملكاته. وإيجاد الحوافز الدافعة للإيجابية في الحركة والتفاعل يحتاج إلى توفير بيئة ملائمة تستنفر الملكات الكامنة، وتحث على التفكير وإعمال العقل في قضايا المجتمع وما يواجهه من تحديات على الأصعدة كافة، من أجل إيجاد حلول مبتكرة لها، واستحداث الوسائل والأساليب الكفيلة لتحقيق طموحاته في استشراف غد أفضل.

ولايكتمل فهم الأبعاد الحيوية للاهتمام بالفرد، تنشئةً وتربيةً وتعليمًا، ومردودها في مستقبل الأمم والشعوب إلا بتعرف الصياغة التي تريد الأمة أن يكون عليها ذلك الفرد. فالخطة الاجتماعية (التربوية والتعليمية والثقافية) التي تعتمدها الدولة، ينبغي أن تجيب عن سؤالين مهمين هما: ما سمات الإنسان الذي نريد؟ وما سبل تكوينه؟ فهذان السؤالان يجب أن يكونا المنطلق، وعدم الإجابة عنهما يفضي بكل المحاولات إلى كثير من الهدر، والدخول في حلقة مفرغة، ويتضح ذلك عند الموازنة والتقويم حيث تتواضع النتائج إلى جانب كم الأهداف والطموحات التي لم تُحدَّد بدقة ووضوح، ولم تؤطَّر لها آليات التنفيذ التي تترجمها إلى واقع.

في ضوء هذه المحاذير المصاحبة لخطة التنمية البشرية وبناء الإنسان، تكون الدول الساعية للّحاق بركب العصر - وما يشهده من تطور متسارع الخطى - مطالبة بوقفة متأنية لإعادة قراءة تجربتها وتنقيتها وتحديثها وتأصيلها وصولاً إلى الإنسان الفاعل بوصفه الوسيلة في السباق الحضاري المحموم، الذي يلفظ كل متقاعس يعجز عن إيجاد أدواته المتسمة بالخصوصية والتميز، ولايتأهل في هذا السباق إلا كل من يعتد بمنهج التفكير العلمي ويملك القدرة على تعرف محيطه، والربط بين الظواهر وقياسها والاستنتاج منها بموضوعية وفهم مؤسس. فالإنسان المؤهل لخوض معترك القرن الحادي والعشرين - عصر سيادة المعلومات والتخصصات المتناهية في الدقة - هو ذلك الفرد الذي يُعَدّ إعدادًا علميًا ونفسيًا لخوض غمار التجارب واتخاذ مواقف نفسية بشأنها، ويكون متفتحًا على التغيير والتجديد بهدف إثراء التجربة الذاتية والمضيّ بها قدمًا نحو بلوغ غاياتها في الرقي والتقدم. أي إن إنسان العصر يجب أن يتصف بهذه المواصفات البناءة بعيدًا من الاتكالية والسلبية، وانتظار الأخذ دومًا، دون استعداد للعطاء؛ لأن المبادرة في تقديم الإبداع الذاتي الذي يسهم في تطور الإنسانية أصبحت شرطًا للتمتع بثمرات هذا التطور، ولأن من لايملك القدرة على المبادرة، لن يملك قدرة استيعاب مايستجد، ذلك أن الملكات التي يقتضيها هذا الاستيعاب تتوازى والقدرات التي تستلزمها المبادرة في ظل تعقد المستجدات والابتكارات وتزايدها.

وقد ألزمت التطورات المتزايدة على صعيد التقدم المادي الدول بمراجعة خططها التعليمية والتربوية الرامية إلى بناء إنسان مؤهل لاستلهام أسس هذا التقدم وركائزه؛ بحيث يستطيع تبني وسائل جديدة تدعمها وتؤسسها وتؤصلها في الإطار الاجتماعي الذي ينتمي إليه، لتكون جزءًا أصيلاً منه، تنبئ عن خصوصيته، وتعبر عنه مواهبه وقدراته الذاتية. وهذه المراجعة ليست قاصرة على الدول النامية التي تحاول الوصول إلى صياغة خطط تحقق آمالها وطموحاتها في التقدم المادي؛ وإنما هي أسلوب تمارسه الدول المتقدمة كذلك بهدف تفعيل خططها لتكون أكثر تلبية لأهدافها في بلوغ آفاق جديدة من التقدم، ليكون لها السبق في ذلك. بل كشفت هذه المراجعة في دول العالم الأول كثيرًا من السلبيات التي تكتنف واقعها التعليمي والتربوي، ولعل تقرير «أمة معرضة للخطر» - الذي صدر في الولايات المتحدة الأمريكية في العام 1981م، وتطرق إلى ما يواجهه النظام التعليمي الأمريكي من سلبيات يهدد بفقدان الولايات المتحدة مكانتها التي تتبوأها الآن بفضل امتلاكها مفاتيح التقدم التقني - يعد من أوضح المراجعات لسياسات التعليم وخططه لملامسته الأسباب الحقيقية لتراجع مستويات الطلاب، وكشفه الأدواء

لِلْحَيَاة

التي يعانيها النظام التعليمي، مع وضع تصورات عملية للنهوض به قبل فوات الأوان. وقد توالت بعد ذلك، في الولايات المتحدة الأمريكية، الطروحات التي تتناول التفاصيل الدقيقة لسلبيات نظامها التعليمي، وتقترح أساليب علاجها، وتضع وسائل تجعل النظام التعليمي أكثر فاعلية، مما يحقق للولايات المتحدة إمكانات الاستمرار في دروب التقدم التقني، محافظة على مركز الصدارة الذي تتبوأه. وقد عكف على إعداد الدراسات والبحوث التي تُقوِّم النظام التربوي والتعليمي وتعالجُ سلبياته فريق من التربويين وعلماء النفس والسياسيين والاقتصاديين وغيرهم.

وشارك في المداولات صناع القرار على أعلى المستويات، بحسبان أن النظام التعليمي يقدم صورة صادقة لمستقبل الأمة، إذ يتحدد وفقًا له معالم هذا المستقبل. فكلما كان النظام التعليمي راسخ البنيان، قوي الأساس، جاءت الأجيال القادمة المنخرطة فيه راسخة في علمها، معتدة بذاتها، قادرة على تحمل المسؤوليات في المحافظة على المنجزات، ومجابهة التحديات التي تزداد كلما زاد رصيد البشرية من الإنجازات المادية والتقنية. وهذا - بالطبع - ما قاد إلى المراجعات التي تمت للأنظمة التعليمية في كثير من الدول المتقدمة الأخرى، التي شعرت باحتداد المنافسة فيما بينها، واعتقدت جازمة أن فعالية النظام التعليمي ستكون المحك الرئيس الذي سيحسم السباق لصالحها.

وإذا كان النظام التعليمي على هذا النحو من الأهمية بالنسبة لبلدان بلغت أقصى درجات التقدم في امتلاك أسباب القوة المادية؛ فإنه يبدو أكثر إلحاحًا وضرورة لبلدان تنشد بلوغ أطوار من التقدم تجاوزتها تلك البلدان المتقدمة منذ زمن بعيد، إضافة إلى التفاؤل بتضييق الفوارق في التقدم التقني.

والتقويم لايعني بالضرورة وجود أخطاء في التجربة، إنما هو من ضرورات كل عمل بشري، بوصف الإنسان قاصرًا عن بلوغ المثالية والكمال المطلق. وإذا كان الإنسان مطالبًا بمراجعة أدائه على المستوى الفردي - المحدود تأثيرًا ومدى زمنيًا -، فإن مراجعة ما يتصل بمسيرة المجتمع وتقويمه يعد أكثر أهمية؛ نظرًا لاتساع دائرة التأثير التي تنداح باستمرار في دوائر متعددة تشكل احتياجات المجتمع ومصالحه وتطلعاته التي تتباين من مرحلة إلى أخرى، مما يستوجب التقويم وإجراء عمليات إحلال وإبدال متصلة، وبخاصة أن الممارسة تكشف دومًا عن كثير من السلبيات التي تغيب عند التخطيط، مهما كان هذا التخطيط محكمًا ومدروسًا.

والتقويم بما يتوصل إليه من خلاصات ونتائج ومؤشرات في مسارات المجتمع المختلفة وامتداداتها المستقبلية يفرض طرح تصورات عملية تبنى على الواقع الذي يعايشه المجتمع، دون جنوح إلى التمني وتغليب العاطفة.

وفي ضوء السؤال الكبير: ما سمات الإنسان الذي تريده كل أمة تحرص على مواكبة العصر وتتطلع إلى المستقبل، وكذلك في ضوء ما سبق ذكره عن مفردات تحدد أطرًا لصياغة جوهر هذا الإنسان، تبقى منظومة التعليم هي محور الإجابة، من حيث تحديث المناهج، وأساليب التدريب وربطها باحتياجات المجتمع وبيئته، وبناء الأهداف والسياسات التعليمية وفق مقتضيات البرامج والمشروعات التنموية، التي ينبغي ترتيبها وفق أوليات محددة، بحيث تأتي مخرجات التعليم متوازنة ومتفقة مع تلك الأوليات، فيكون الاتجاه نحو التخصص - مثلاً - مبنيًا على حقيقة احتياجات المجتمع، فلايغلب تخصص على آخر، كما هو الحال في كثير من بلادنا العربية، حيث يزداد عدد المتخصصين في فروع العلوم الإنسانية على الحاجة، بينما تواجه قصورًا في أعداد المتخصصين في مجالات العلوم التطبيقية - والموازنة هنا من حيث الكم لا الكيف -. ولن يكون الإنسان المتخصص - أيا كان مجاله - الذي يصبغه النظام التربوي والتعليمي فاعلاً ومؤثرًا في بيئته ما لم يكن قادرًا على إجراء الحوار والنقاش وطرح التساؤلات والأفكار بوضوح، لأنه من دون هذه القدرة يعجز عن الإبداع والابتكار، فلا يكون للمعلومات قيمة تذكر؛ حيث تبقى أرقامًا وأشكالاً صماء لا توظيف لها، فيظل الإنسان أسيرًا لما هو سائد من غير أدنى تفكير في آثاره ونتائجه، حيث إن قيمة المعلومات لاتتمثل في زخمها؛ بقدر ما تتمثل في توظيفها واستعمال العقل لها ربطًا ونقلاً وإبدالاً واستنتاجًا، وصولاً إلى المرمى من أقصر الطرق وفي أسرع وقت.

إذن، فإن فعالية النظام التعليمي مرهونة بمدى نجاحه في تنمية القدرة على النقد والخيال المبدع، والانتقال بالإنسان من إطار التلقين والتقليد وحشد المعلومات إلى إطار التساؤل وتزكية روح النقد العلمي؛ مما ينمي في النفوس الصفات العقلية والفكرية والوجدانية والخلقية التي تؤصل فيها الاستقلالية والاعتداد بالذات ومشاعر الانتماء. وبناءً على ذلك يبقى الاعتماد على المعايير الكمية في تقويم نتائج النظام التعليمي ورصد تطوراته مضللاً، ما لم يرتبط ذلك بمقاييس ومعايير تستطيع تعرف الجوهر وكشف حقيقته.

ولايمكن الوقوف على إيجابيات النظام التعليمي وسلبياته بمعزل عن محيط العمل الذي ينخرط فيه خريجوه بعد ذلك، والذي يمثل مختبرًا لمستوى المعلومات والمهارات المكتسبة، ومجالاً لاستكشاف إمكانات التكيف والتطور وتنمية القدرات الشخصية وتوسيع الآفاق، والإفادة من التجارب وصولاً إلى أداء رفيع متقن، يعكس قدرات الاستيعاب والمواكبة وارتفاع مستوى الإحساس بالمسؤولية. ولايتحقق ذلك ما لم تتوافر إدارة مؤهلة تدرك مسؤولياتها في رفع مستوى القوة البشرية، فتضع الهياكل والنظم والسياسات التي ترفع مستوى الخبرات العلمية والتقنية وتغير القناعات السلبية لها، وتهيئ الظروف النفسية المواتية لذلك، مما ينعكس ايجابًا على الإنتاج والظروف المحيطة به.

ولاشك أن وجود إدارة تحقق مثل هذه الأهداف يصلح دليلاً على نجاح النظام التعليمي، لأنها في الأساس أحد مخرجاته، ونتاجًا من نتاجاته.

وهكذا، فإن حيوية سوق العمل وتوازنه وفعاليته، كل ذلك متصل بما يتلقاه الطالب من علم في مدرجات الدراسة ومختبراتها، وما يضبط هذا العلم من مبادئ وقيم أخلاقية، إضافة إلى ما يكتسبه من معارف ومهارات من خلال التدريب والتأهيل والممارسة العملية. ولايمكن أن يتم إعداد الإنسان على هذا النحو من العلم والممارسة والأخلاق ما لم تكن هناك رؤية شاملة تحقق توازن التكوين عاطفيًا ووجدانيًا وإدراكيا؛ بحيث تتوافر للشخصية المندفعة إلى التعليم خصائص الثقة في النفس والشعور بالمسؤولية والاعتماد على الذات. وبهذا توجد الإنسان الذي ينظر إلى العمل بوصفه قيمة معنوية كبيرة، تتضاءل إلى جوارها قيمته المادية. وهذه الفلسفة تتجسد فيما يجده النظام التعليمي من دعم معنوي ومادي، وما يلقاه سوق العمل من تقويم دائم وتشجيع من أجل مزيد من الحركة الفاعلة التي تستوعب قدرات كل إنسان، ولعل ندوة التوظيف والميزانية المرتفعة لتعليم هذا العام تجيئان لتوكيد هذا التوجه.





العدد (231) ـ السنة (20) ـ رمضان 1416هـ ـ يناير/ فبراير 1996م



كليوباترا ومنشم والرميكية: علاقة تاريخية أساسها العطر

من الوقائع المشهودة في تاريخ الوجود العربي بالأندلس قصة «يوم الطين»؛ إذ طلبت اعتماد الرميكية من زوجها المعتمد بن عباد أن تخوض في الطين، فأمر لها بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد وصيرها طينًا في قصره. وفي يوم غضبت من المعتمد وأنكرت أن تكون قد رأت منه يومًا طيبًا، فرد عليها المعتمد: حتى يوم الطين؟

في هذا العدد تورد «الفيصل» وقائع وطرائف متنوعة لها صلة بالعطور في ثقافات الأمم والشعوب، وذلك ضمن ملف شامل يتناول تاريخ العطور وأنواعها، ويبحث في معاني الطيب والعطور في القرآن الكريم وفي الأدب العربي، وتم تخصيص دائرة معارف لما جاء في السنة المطهرة من ذكر لأسماء الطيب وأنواعه والتوجيهات النبوية بشأن استخداماته. وهناك دراسات تسلط الضوء على الروائح بوصفها لغة اجتماعية ومؤشرًا لتعرف ثقافات الأمم ومعتقداتها، والشم وعلاقته بالذاكرة ومثبطات حاسة الشم ومنشطاتها وأسباب فقدانها. كما يناقش الملف رحلة الطيب من العطارة التقليدية حتى نشأة البيوتات العالمية.

طالع من ص 12 - 37

التمر منجم غذائي وطبي



تكشف الأبحاث والدراسات كل يوم عن جديد مما ينطوي عليه التمر من فوائد صحية وغذائية. وفي شهر رمضان المبارك يتخذ التمر مكانة خاصة لدى المسلمين اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم الذي نصح الصائمين بالإفطار على التمر؛ لكون هذه الثمرة ـ على ضآلة حجمها ـ تعد منجمًا غذائيًا متكامل العناصر التي يحتاج إليها جسم الإنسان.

د. فوزي الفيشاوي عرض موازنة بين خصائص التمر وغيره من الثمار والفواكه الأخرى، وذلك من خلال الوقوف على تفاصيل جداول التحليل الكيماوي لكل منها، والفوائد التي يحصل عليها الصائم عند إفطاره على التمر.

طالع ص 83

مدرسة الصيف: للراسبين والموهوبين معًا!

الكسل واللعب والاسترخاء: ثلاثة مفاهيم تتصل دومًا بالإجازة المدرسية، ولكن هناك محاولات بذلها التربويون الأمريكيون لتكون الإجازة أكثر فائدة للطالب والمجتمع معًا، لذلك أنشئت مدارس الصيف التي أعانت كثيرًا من الطلاب الراسبين. ولم تكتفي هذه المدارس بذلك، وإنما رمت إلى معرفة أسباب الرسوب، كما أنها تبنت برامج خاصة للطلاب الموهوبين.

د. محمد عبدالعليم مرسي عرض كتاب د. دوجرتي: «مدرسة الصيف: نظرة جديدة»، متسائلاً عن مدى استعدادنا لاستثمار الوقت الذي يضيع هدرًا من أبنائنا الطلاب في إجازة تمتد إلى أكثر من أربعة أشهر.

طالع ص 95

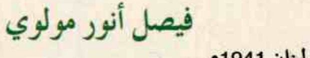
ملف العدد:

العطور على مر العصور

أدب وفكر

في رحاب رمضان

رئيس التحرير
د. زيد بن عبد المحسن الحسين



من كتاب العدد



فيصل أنور مولوي

- من مواليد طرابلس، لبنان 1941م.
- ليسانس حقوق، كلية الحقوق، الجامعة اللبنانية، بيروت، وليسانس شريعة، كلية الشريعة، جامعة دمشق 1967م.
- من الوظائف التي تقلدها: قاضي بيروت الشرعي منذ عام 1968م، ورئيس جمعية التربية الإسلامية في لبنان، ويشغل حاليا منصب الأمين العام للجماعة الإسلامية في لبنان، ورئيس بيت الدعوة والدعاة في لبنان، ومستشار المؤسسة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع في بيروت، والمرشد الديني لاتحاد المنظمات الإسلامية في أوربا.
- أسهم في تأسيس الكلية الأوربية للدراسات الإسلامية في شاتو شينون بفرنسا، وهو مدرس بها، وكان عميدًا لها.
- حضر العديد من الندوات والمؤتمرات.
- من مؤلفاته:

دور المرأة المسلمة في العمل الإسلامي، نظام التأمين وموقف الشريعة منه، المرأة في الإسلام، الإسلام والرق.

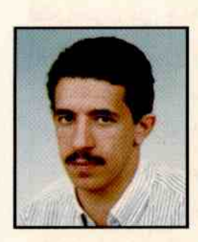


د. محمد عبدالعزيز الموافي

- أستاذ الأدب بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ومعار حاليًا إلى كلية التربية، فرع جامعة الملك عبدالعزيز بالمدينة المنورة.
- ناقش وأشرف على أكثر من خمس عشرة رسالة ماجستير ودكتوراه.
- من مؤلفاته:

قراءة في الأدب الجاهلي، من أعلام الشعر الجاهلي، قراءة في الأدب الإسلامي والأموي، حركة التجديد في الشعر العباسي، المسرح الشعري بعد شوقي، رثاء الزوجة بين عزيز أباظة وعبدالرحمن صدقي، الأدب والبلاغة للصف الثاني الثانوي بمصر (بالاشتراك).

- له مقالات منشورة في الصحف والمجلات المحلية والعربية، كما شارك في إعداد برامج إذاعية في مصر والمملكة العربية السعودية.



محمد بوراس

- من مواليد أيت عتاب، المغرب 1970م.
- حاصل على الإجازة في الدراسات الإسلامية من جامعة القاضي عياض، بني ملال، المغرب.
- له مقالات ودراسات منشورة في بعض المجلات والصحف المحلية والعربية.



عبدالغني أحمد ناجي

- من مواليد المنوفية، مصر 1929م.
- حاصل على الشهادة العالية مع علوم التربية، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر1957م.
- تدرج في سلك التعليم حتى أصبح موجهًا عامًا للغة العربية بوزارة التربية والتعليم المصرية، وهو الآن بالمعاش.
- من مؤلفاته:

من أدب القرآن الكريم، مع فقهاء الإسلام، الأمومة والطفولة في الإسلام.



اختبارات العاطفة

بدلاً من اختبارات القدرات العقلية

صمم وولتر ستشل من جامعة كولومبيا اختبارًا لقوة الإرادة يعتمد على معرفة رد فعل الأطفال في سن الرابعة حيال قطعة حلوى. وتفاصيل هذا الاختبار، أن الباحث يمنح كل طفل قطعة حلوى، ثم يخبرهم بأن الذي ينتظر منهم حتى ينهي هو مهمةً ما فسوف يحصل على قطعة أخرى.

بعض الأطفال يلتهمون قطعة الحلوى فور خروج الباحث من الغرفة، في حين ينتظر بعضهم بضع دقائق قبل أن يستسلم للإغراء، ولكن آخرون يصممون على الانتظار؛ حيث يغطون عيونهم أو يحنون رؤوسهم أو يغنون، وبعضهم يحاول ممارسة بعض الألعاب؛ بل قد يركن آخرون إلى النوم. ثم يعود الباحث ليمنحهم قطع الحلوى التي جاهدوا أنفسهم من أجلها، ثم ينتظر البحث العلمي أولئك الأطفال حتى يكبروا. حيث تبيّن أن الأطفال الذين استسلموا للإغراء في وقت مبكر أصبحوا أكثر حدة وإحباطًا وعنادًا، بينما كان أولئك الذين أثبتوا صبرهم وجلدهم أقدر تكيفًا واستقلالية وثقة بالنفس، مما أهلهم للتفوق الدراسي.

وقد استحدث عالم النفس بيتر سالوفي من جامعة بيل، وجون ميير من جامعة نيو هامبشير اصطلاح الذكاء العاطفي لوصف خصائص معينة، مثل فهم الإنسان لمشاعره والتقمص العاطفي لمشاعر الآخرين.

ولدانييل جولمان كتاب بعنوان «الذكاء العاطفي» EMOTIONAL INTELLIGENCE يركز على كيفية معالجة العقل للأحاسيس والمشاعر. وفي تحليلات جولمان، فإن معرفة النفس لذاتها ربما تكون القدرة الأكثر حسمًا، لأنها تتيح لنا أن نتحكم في أنفسنا. فأي شخص معرض للغضب، ولكن أن يغضب الإنسان مع الشخص الذي يستحق الغضب، ولدرجة لاتحيد عن الصواب، وفي الوقت المناسب، وبالأسلوب الصحيح، كل ذلك ليس شيئًا سهلاً. كذلك فإن القلق أكثر مما ينبغي من الفشل يزيد احتمال الفشل. فالبائع الذي يقلق لانخفاض مبيعاته بحيث لايستطيع أن يمسك بسماعة الهاتف، لاشك ستنخفض مبيعاته بشكل أكبر. وقد أجرى عالم النفس مارتن سيلجمان MARTIN SELIGMAN من جامعة بنسلفانيا دراسة على مندوبي المبيعات في شركة ميتروبوليتان لايف METRO POLITAN LIFE للتأمين على الحياة التي كانت تستخدم خمسة آلاف مندوب مبيعات سنويًا، يتكلف تدريب الواحد منهم نحو ثلاثين ألف دولار، كان نصفهم يترك العمل في العام الأول، وأربعة أخماسهم خلال أربع سنوات، نظرًا لما يجدونه من صعوبة في عملهم.

وقد وجد سيلجمان أن الذين أبدوا تفاؤلاً - في اختباره لقياس مستوى التفاؤل - كانوا الأكثر إنجازًا، حيث فاقت مبيعاتهم مبيعات المتشائمين بنسبة 21٪ في السنة الأولى، وبنسبة 57٪ في السنة الثانية.

وقد أثبتت دراسات أخرى أن العاملين المتعاونين والمحبوبين من زملائهم أكثر وصولاً إلى أهدافهم من الذين يتمتعون بعبقرية المكر والدهاء، ويعيشون بمعزل من زملائهم.

وقد أكد ديفيد كامبل DAVID CAMBELL أن فشل كبار الموظفين يعود في معظم الأحيان لسوء علاقاتهم الشخصية أكثر مما يعود لعدم مقدرتهم الفنية.

وتبين الأبحاث أنه ليس كل رجل وصل إلى قمة القيادة الأمريكية مثالاً يحتذى في معرفة الذات والتقمص العاطفي والتحكم في العواطف، وغيرها من خصائص الذكاء العاطفي.

ووفقًا لذلك ، فقد كان ليندون جونسون وريتشارد نيكسون يتمتعان بعبقرية سياسية واضحة إلا أنهما انتهيا إلى مأساة، بينما جمع توماس جيفرسون بين رجاحة العقل ودفء الشخصية، وكذلك كان روزفلت متفائلاً، فاستطاع أن يخدم بلاده كما يجب.

وقد كان حاصل ذكاء كل من ويلسون وهوفر وكارتر مرتفعًا، إلا أنهم لم يحققوا نجاحًا كالذي حققه كل من جون كنيدي ورونالد ريجان اللذين لايمكن وصفهما بالعبقرية الفكرية، إلا أنهما يتمتعان بخصائص القيادة كالثقة والصراحة، مما جعل لهما مكانتهما في قلوب الأمريكيين.

وتقول مديرة إحدى المدارس الحكومية الأمريكية: إن الطلاب المكتئبين أو الغاضبين لايستطيعون تعلم شيء، وتزداد نسبة التسرب من المدرسة للطلاب الذين يواجهون مشكلات في أن يكونوا مقبولين.

وتوضح الدراسات أن المهارات العاطفية، كالمهارات العقلية، تعد محايدة من الناحية الأخلاقية. فالذكاء العاطفي يمكن أن يستخدم للخير أو للشر.

ويسوق مارتن سيلجمان دليلاً على أهمية التفاؤل في مواجهة المشكلات، بإيراد مثال واقعي، فالسباح الأمريكي مات بيوندي في دورة سيول في العام 1988م، كان مرشحًا للفوز بسبع ميداليات ذهبية، إلا أنه فشل في السباقين الأولَيْن، مما جعل المعلقين يعتقدون أن بيوندي لن ينهض من كبوته؛ إلا أن سيلجمان لم يكن يوافقهم الرأي؛ لأنه في اختبار التفاؤل الذي أجراه للفريق الأمريكي، أوضحت النتائج أن بيوندي يمتلك موقفًا تفاؤليًا كبيرًا. وبالفعل استطاع بيوندي أن يفوز بخمس ميداليات ذهبية في السباقات الخمسة اللاحقة.



زراعة وقود السيارة

إن الحقول المستلئة بالوقود ذي درجة التلويث المنخفضة للبيئة لم تعد حلمًا؛ لأن هناك الآن مئات السيارات التي تسير بالطاقة الناتجة من احتراق زيت بذور اللفت الصفراء YELLOW RAPESEED OIL. وتشير آخر الإحصاءات إلى أن هذه السيارات قطعت حتى الآن أكثر من مليون كيلو متر باستخدام هذا الوقود الجديد. وعلى أية حال، فإن فكرة استخدام الزيوت النباتية وقودًا للسيارات ليست جديدة، فلقد كان أول من استعملها رودلف ديزل RUDOLF DIESEL، الذي اشتهر بابتكار محرك الانفجار الداخلي الذي يعمل بزيت الديزل (المازوت). وسبق لعلماء ألمان أن أجروا تجارب عديدة على استخدام زيت بذور اللفت وقودًا للسيارات قبل عدة سنوات؛ إلا أنهم أصيبوا بخيبة الأمل بسبب ما اكتشفوه من تأثير ضار لعادم احتراقها في المحركات بعد أن اتضح أن المحرك لايمكن أن يصمد أمام هذا التأثير لأكثر من 600ساعة من العمل. وفي الآونة الأخيرة، اكتشف الخبراء أن المعالجة الكيماوية الخاصة لزيت اللفت النقي تلغي تمامًا تأثيراته الضارة في المحركات. وهكذا أصبح هذا الوقود شائع الاستعمال في سيارات الأجرة في المدن الألمانية بسبب نقص تكلفته، وقلة تلويثه للبيئة قياسًا إلى زيت الديزل أو البنزين. ولقد أشارت إحصائية أجريت في شهر فبراير/شباط من عام 1955م إلى أن 29سيارة أجرة عاملة بزيت اللفت سارت لمسافات يبلغ مجموعها 2,5 مليون كيلو متر باستخدام كمية من زيت اللفت بلغت 240000 لتر. ومع أن الخبراء قد عبَّروا عن اعتقادهم بأن زيت اللفت لن يكون قادرًا على الحلول محل الوقود الأحفوري تمامًا في المستقبل، إلا أنهم يرون أنه سيتمكن من توفير نحو 10٪ من أنواع الوقود التقليدي.

واستعمال زيت اللفت وقودًا ينطوي على أضرار بيئية أقل بكثير من التي ينطوي عليها استعمال الوقود الأحفوري من حيث كونها أقل نشرًا لعادم الاحتراق المرئي، كما أنها لاتنشر غاز ثاني أكسيد الكبريت السام على الإطلاق. كذلك فإن استخدام هذا الزيت لايؤثر مطلقًا في توازن نسبة غاز ثاني أكسيد الكربون في الجو، مادام أن احتراقه يطلق من هذا الغاز بقدر ما يمتص نبات اللفت منه أثناء عملية التمثيل الضوئي.



القبض عليها متلبسة بسرقة الحليب



هنالك ميكروب يكثر وجوده في المواد الغذائية يسبب الإصابة بالإسهال. وتأخذ العدوى بهذا الميكروب في المملكة المتحدة منحًى غريبًا. فهي غالبًا ما تحصل في شهري أيار/مايو، وحزيران/يونيو. ويشك الباحثون في أن الطيور المصابة التي تحمل هذا الميكروب في أحشائها تلوث الحليب من طريق ثقب غطاء قوارير الحليب التي ما تزال توزع في المملكة المتحدة بوضعها على أبواب المستهلكين. وللقبض على الطيور متلبسة قامت كارول فيلبس CAROL PHILIPS عالمة الأحياء المجهرية في كلية نيني NENE COLLEGE في نورثامبتون بإنجلترا بتصوير أفلام فيديو لمدة أسبوعين لأربعة منازل في الصباح الباكر، ولاحظت أن طيري العقعق والغراب هما الوحيدان اللذان ينقران أغطية القوارير ويفتحانها. وتقول فيلبس إن ذلك ربما يعود إلى كونهما الطيرين الوحيدين الكبيرين والقويين بدرجة تكفي لتمزيق أغطية القوارير وفتحها.

وقد تبين لها أن تسع قوارير، من أصل ثلاث عشرة قارورة تم فتحها، كانت ملوثة بميكروب CAMPYIOBACTOR.

ومع أن الحليب يعد مصدرًا جيدًا لغذاء هذه الطيور الباحثة عن الغذاء؛ إلا أن ذلك لايكفي وحده لتفسير حدوث العدوى في شهري مايو ويونيو. وتستشهد فيليبس بعامل هو أن هذه الطيور تفقس فراخها في مايو، ولذلك ـ كما تعتقد ـ فهي تشرب الحليب، ومن ثم تتقيأه وتفرغه في أفواه فراخها لتغذيتهم به.



كيف يوفر حليب الأم الوقاية لحديثي الولادة ؟

الحقيقة المعروفة لدى الأطباء منذ زمن بعيد أن الأطفال الذين يتغذون من حليب الأم يصابون بعدوى أقل من أولئك الذين يُغَذَّوْن بالحليب الاصطناعي. وإلى وقت قريب كان معظم الأطباء يفترضون - ببساطة - أن الأطفال الذين يتناولون حليب الأم يتمتعون بصحة أفضل؛ لأنهم يتناولون حليبًا خاليًا من البكتيريا من الثدي مباشرة. أما الحليب الاصطناعي الذي يجب مزجه - غالبًا - بالماء ووضعه في قوارير فيمكن أن يتلوث بسهولة. ولكن حتى الأطفال الذين يتناولون حليبًا اصطناعيًا معقمًا يعانون من إمكان الإصابة بالتهاب السحايا، والجهاز الهضمي، والأذن، والجهاز التنفسي، والمسالك البولية، أكثر مما يصاب به الصغار الذين يتناولون حليب الأم.

وتبين أن حليب الأم يساعد حديثي الولادة بفعالية على درء الأمراض بطرق متنوعة، وتعد مثل هذه المساعدة مفيدة بشكل خاص خلال الأشهر الأولى من الحياة عندما لايستطيع جهاز المناعة لدى الرضيع أن يبدي - غالبًا - استجابة فعالة ضد الأجسام الغريبة. وتنصح منظمة اليونيسيف ومنظمة الصحة العالمية بالتغذية من طريق حليب الأم لمدة سنتين على الأقل. والواقع أن استجابة جهاز المناعة لدى الطفل لاتصل إلى أوجها إلا بعد أن يصل الطفل إلى سن الخامسة أو نحو ذلك.



ومن المعروف أن جميع الأطفال يتلقون بعض الحماية قبل الولادة. ففي أثناء الحمل تمرر الأم الأجسام المضادة لجنينها عبر المشيمة، وتبقى هذه البروتينات في دم الطفل لعدة أسابيع أو أشهر بعد الولادة ؛ لتعادل الميكروبات أو تقضي عليها بوساطة البلاعم؛ أي خلايا المناعة التي تلتهم البكتيريا والفيروسات والفضلات الخلوية. لكن الأطفال الرُّضَّع يحصلون على المزيد من الحماية من الأجسام المضادة والبروتينات الأخرى وخلايا المناعة من حليب الأم بوساطة الـ(IGA) الإفرازي الذي يعد مساعدة فعّالة للطفل الرضيع، بحيث تحفظه من الضرر؛ أي إنه يعمل بعكس معظم الأجسام المضادة التي يمكن أن تحمي من المرض - وهي العملية التي تقوم بها المواد الكيماوية المتنوعة بتدمير الميكروبات - ولكن مع إمكان إلحاق الضرر بالأنسجة السليمة. وبالنسبة للأطفال الذين لاتزال قنواتهم الهضمية في مرحلة النمو يكون الغشاء المخاطي رقيقًا وضعيفًا جدًا، وأي زيادة في هذه المواد الكيماوية قد تلحق به ضررًا كبيرًا. كذلك فإن الأم التي لا ترضع طفلها فإنها تحرمه من أعظم وقاية طبيعية منحها الخالق - عز وجل - له.

نحلة تحمل رقيقة إرسال على ظهرها

ينظر المهندسون بجدية إلى النحل «القاتل». فهذه السلالة التي تتسم بالعدوانية من نحل العسل تشق طريقها الآن إلى الشمال قادمة من المكسيك. وهذا النوع من النحل المعروف بمهاجمته الجماعية لقطعان الماشية والبشر، يمكن أن يصل إلى أراضي الولايات المتحدة ويعيث فيها فسادًا. فعلاوة على خطره المشار إليه؛ فإن هذا النوع من النحل يقوم كذلك بالتشويش على الصناعة المرتبطة بالمحاصيل الزراعية التي تعتمد على النحل لنقل غبار اللقاح، وذلك عن طريق التهجين الذي سيحصل نتيجة تزاوج هذا النوع العدواني مع الأنواع الأخرى المنتجة والمفيدة من النحل، والتي لاتشكل خطورة على الأحياء. ومن أجل دراسة طرق تزاوجها وبحثها عن الغذاء، قام المهندسون في المعمل القومي في أوك ريدج (تينيسون) بصنع رقيقة دقيقة جدًا تعمل بالطاقة الشمسية أمكن لصقها بوساطة الصمغ على ظهر إحدى النحلات. وتقوم هذه الرقيقة بنقل إشارات بالأشعة تحت الحمراء إلى مستقبلين معينين ولمسافة تصل إلى ميل. وبهذه الطريقة يمكن متابعة أماكن تجمع هذا النوع الخطير من النحل والتخلص منه نهائيا، ومنعه كذلك من التزاوج مع السلالات النافعة وإنتاج جيل خطر من النحل.



العربة البصيرة!

تقنية الحاسوب عالم رحب، وكل يوم يفتح الإنسان شرفة في هذا العالم ويطل منها على آفاق جديدة؛ فيصبح ما كان في عداد الخيال واقعًا يشحذ العقل البشري لفتوح علمية جديدة. من الاختراعات التي يَسَّرها استخدام الحاسوب في تطوير صناعة السيارات وتزويدها بوسائل أكثر أمانًا ودقة، برنامج «العربة البصيرة» «SEEING UEHICLE». فقد أصبح بإمكان السائق غير الخبير أن يتعلم قيادة السيارة باستخدام هذا البرنامج؛ حيث تعمل شاشة فيديو مثبتة في خوذة إلكترونية وموصولة إلى حاسوب، على إظهار تفاصيل الطريق دون حاجة لتدخل السائق، وتستطيع أيضًا قراءة إشارات المرور على جانبي الطريق والامتثال لها إلكترونيا. ويأمل الباحثون العاملون في تطوير هذه التقنية أن تساهم في تطوير مهارات السائقين وزيادة مستوى الأمن في الطرق، وإنقاص الضغوط العصبية التي يتعرض لها السائقون.

نفايات ولكنها تضيء وتدفئ



إعادة تصنيع النفايات وتحويلها إلى مواد نافعة، ابتكار يخدم الإنسان من ناحيتين، الأولى: إشباع احتياجاته، والثانية حماية البيئة المحيطة من التأثير الضار لأنواع النفايات المختلفة التي تتراكم باطِّراد. آخر الابتكارات في هذا المجال يتمثل في طريقة جديدة للإفادة من مياه المجاري القذرة. فقد توصل علماء أوروبيون - مؤخرًا - إلى توليد الطاقتين الحرارية والكهربائية باستعمال الغازات الناتجة من تخمر مياه المجاري التي تنبعث بكثافة من محطات معالجتها.

تعد هذه التقنية ذات فوائد كبيرة وكثيرة، فهي من جانب تضمن تخليص البيئة من غاز الميثان METHANE (CH_4) المؤلف الرئيسي لغازات مياه المجاري، الذي ينطوي على أضرار كبيرة للبيئة. ومن جانب آخر تحقق الإفادة من طاقة قَيِّمة كانت تذهب هدرًا فيما مضى. فقد سجلت إحصاءات علمية أجريت في إحدى محطات معالجة المياه القذرة قرب مدينة كيل الألمانية أن القوة الكامنة في الغازات المنبعثة منها تبلغ 2871 كيلو واط، وتقوم محطة أخرى مجاورة بتحويل 1058كيلو واط من طاقة غازات المجاري إلى طاقة كهربائية و1450كيلو واط إلى طاقة حرارية تستخدم في أغراض شتى كالتدفئة المركزية. وقد توصلت الأبحاث العلمية التي أجريت حول فعالية أداء هذه المحطة، أنها تستغل 78٪ من الطاقة المخزونة في الغازات الضارة. وتعد هذه النسبة ممتازة، وعالية القيمة وفقًا لمقاييس استغلال الطاقات الكامنة في المواد.

العطور صناعة لها

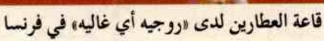
جهاد الخليل ـ فيصل عبداللطيف



حين اكتشف الإنسان البدائي النار، لاحظ أن بعض أنواع الخشب التى تفرز صمغًا تعبق الجوّ بالروائح الذكية فى حال إشعالها. من هنا بدأت قصة اكتشاف العطور، حتى صارت تشكل جزءًا لايتجزأ من حياة الإنسان، وظهر دورها فى الدين والطب والنظافة والجمال.

وكان أتباع المعتقدات الوثنية القديمة في الشرق والغرب ـ كأتباع زرادشت وكونفوشيوس وممفيس ـ يحرقون المواد المطيبة كالبخور والمرّ في المعابد، ويرشون العطور على الأصنام والأوثان. جاء فى لسان العرب: العطر اسم جامع للطيب، والجمع عطور. والعطار بائع العطر، وحرفته العطارة . ورجل عاطر، وعَطِر، ومِعطير، ومعطار. وامرأة عَطِرَة، ومعطير، ومُعطَّرَة: يتعهَدان أنفسهما بالطيب ويكثِران منه.

تاريخ



قاعة العطارين لدى «روجيه أي غاليه» في فرنسا



ويمكننا تحديد ثلاثة استخدامات أساسية للعطور فى الحضارات والثقافات على مر العصور:

أولاً: دخلت العطور في مظاهر الدين وطقوسه حتي بلغت مرتبة مقدسة. فظهرت عادة تطييب الموتى لملاقاة الإله في العالم الآخر، فى الوقت الذي ارتبطت فيه الروائح الكريهة بالإثم، لهذا دل المر أو الصبر على العقاب، والبلسم على الفضيلة.

ثانيا: كانت العطور تستخدم في الأغراض الطبية دواءً ضد الطاعون والالتهابات. ولقد نصح ج.ب. بابون عام 1800م المرضى في كتابه : «في الطاعون ووسائل محاربته» باستنشاق خرقة مبللة بالعطر، أو بالخل أو بكبش القرنفل .

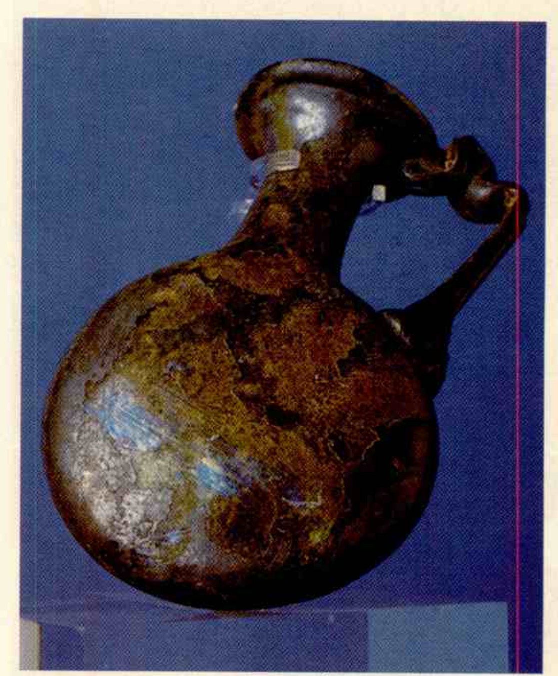
ثالثا : الوظيفة الجمالية، وهي أوضح أغراض استخدامات العطور، وقد ظهرت منذ العهود الأولى لاكتشافها.

أصناف العطور الرئيسة ومراحل تطورها

العطور أربعة أصناف هي :

أولاً: العطور الحيوانية، ويتم الحصول عليها من الحيوان كالمسك والعنبر. وعدد عطور هذا الصنف لايتجاوز عدد الأصابع.

ثانيًا: العطور النباتية، ويتم الحصول عليها من النباتات بصورة مباشرة، أو



قارورة عطر مصنوعة من الزجاج بألوان قوس قزح (روما، القرن الرابع بعد الميلاد)

قارورة عطر من الزجاج ثنائية المحتوى (روما، القرن الرابع بعد الميلاد)

من الزيوت النباتية.

ثالثًا: العطور المركبة، وهي التي يتم تحضيرها من مزج مواد عطرية عديدة لنحصل على عطور جديدة، ويكتسب كل عطر من هذه العطور رائحة خاصة به.

رابعًا: العطور الاصطناعية، وهي التي يحضرها الصانع الكيميائي في المختبر، أو في المصنع، بطرائق صناعية كيماوية، وهذا الصنف من العطور لم يكن معروفًا من قبل، وظهر مع الاكتشافات الكيماوية الحديثة التي بدأت منذ أواسط القرن الثامن عشر الميلادي(1).

وفيما يختص بهذا الصنف الأخير؛ أي العطور الاصطناعية، فقد قطع المختصون في الكيمياء العضوية شوطًا بعيدًا في تصنيع أنواع من الطيب « من مصادر أبعد ما تكون من طيب الرائحة، كقطران الفحم، وزيت البترول، وسميت هذه العملية بالتوليف Synthesis، ثم جمعت المواد الجديدة، وألف منها ما يشابه عطور الطبيعة»(2). ومن بين جميع هذه الأصناف ـ التي صارت خمسة بعد إضافة عطر البترول وعطر القطران ـ، «يعد الطيب المستخرج من الحيوانات هو أغلى العطور وأندرها، فالعنبر يستخرج من حيوان بحري تتغذى به الحيتان المريضة، وتحمله الأمواج إلى الشاطئ. والمسك يستخرج من أحد أنواع الأيائل الذي كاد ينقرض لجدّ الناس في صيده، والزباد طيب نادر يستخرج من سنّور الزباد بأساليب كادت تؤدي إلى انقراض هذا الحيوان أيضا»(3).

ولقد مرت صناعة العطور بعدة مراحل، ففي البدء كانت تركب سرًا داخل المعابد، ثم انتقلت إلى حاشية الملوك والأمراء واختص بها العطارون، وفيما بعد أصبحت في متناول العلماء الذين عمموها عبر تسويقها وتطوير صناعتها كيماويًا.

كانت الطريقة الأساسية لاستخلاص العطور لسنوات طويلة تعتمد على امتصاص العطر بالدهون. وتستخدم هذه الطريقة حاليًا بشكل أساسي في استخلاص العطر من الياسمين والزنابق، وذلك بتغطية ألواح زجاجية بدهن البقر على سبيل المثال، ثم تنثر بَتّلات الأزهار بلطف، وتترك حتى يمتص الدهن الزيت منها. ويختلف الوقت الذي تستغرقه العملية باختلاف الأزهار، فيستغرق بعضها 24 ساعة، بينما يتطلب بعضها الآخر أكثر من ذلك، وتوضع بعد ذلك بتلات جديدة على الألواح، وتكرر العملية حتى يتشبع الدهن بالعطر، ويعالج الدهن بالكحول الذي يأخذ خلاصة العطر (Essence). وفي بعض الأحيان تغمس البتلات في الدهن أو الزيت الحار وتعرف هذه الطريقة بالنقع (Maceration).

ويعد استخدام المذيبات العضوية الطيارة (Volatile Solvents) من أكثر طرق الاستخلاص انتشارًا، وتستخدم هذه الطريقة حاليًا في استخلاص العطر من جميع الأزهار تقريبًا، وبالأخص من كثير من الحزازيات والقلف. وتعتمد هذه الطريقة على وضع الأزهار أو القلف أو غيرها في مجموعة من الغرف المحكمة، ويمرر عليها المذيب العضوي إثير البترول Petroluem etherالنقي جدًا، وبمروره في الغرفة الأخيرة يجمع هذا المذيب ويقطر Distillled مخلفًا وراءه العطر وشمع النبات اللذين يسميان معًا الكونكريت Concrete، ويرج الكونكريت بعد ذلك مع الكحول النقي لمدة 24 ساعة، فينفصل الكحول ومعه العطر من الشمع،

مدن الشرق الأوسط القديمة كانت تشكل أهم مراكز صناعة العطور المستخرجة من صمغيات الجزيرة العربية

العطور صناعة لها تاريخ

ويُقَطِّران Distilled، فينفصل الكحول مخلفًا وراءه زيت الأزهار الخالص Absolute، ويعتبر زيت الأزهار أثمن خام في صناعة العطور.

وتستخدم الزيوت الموجودة في قشور ثمار الموالح في صناعة العطور، فمثلاً يستخدم زيت البرجموت Bergamot في صناعة ماء الكولونيا Eau de cologne، ويستخلص زيتها بطريقة العصر، وفي هذه تقطع الثمار ويزال لبها وتنقع القشور في الماء وتصفى، ثم تضغط على إسفنج يمتص الزيت، وبعد ذلك تعصر قطع الإسفنج، ويجمع الزيت في زجاجات، وتترك حتى ينفصل عنه ما يكون قد اختلط به من العصير، ويرسب في القاع ويرشح الزيت بعد ذلك. وقد تستخدم الآلات أحيانًا في عصر الثمار، ويفصل الزيت من العصير الناتج بوساطة آلة تشبه آلة فرز اللبن Milk Separator.

وهناك طريقة أخرى لاستخلاص العطور هي عملية التقطير بالبخار، وتتلخص في أبسط صورها على النحو التالي:

توضع أوراق الورود الزكية الرائحة (مثل الورد الجوري) في قدر كبير مملوء بالماء، ويثبت غطاء القدر بالطين، وتترك فتحة في أعلى الغطاء يخترقها انبوب من القصب (أو المعدن)، يرتفع قليلاً عن سطح الغطاء، ويثبت على هذا الأنبوب منعطف مائل إلى الاسفل قليلاً مكونًا «معوجة»، وتربط هذه المعوجة بأنبوب طويل من القصب (أو المعدن) - وهذا هو الكشف Condensor وتنتهي فتحته السفلى بحوض لجمع السائل الذي سيتقطر.

يسخن القدر حتى الغليان، ويبقى مستمرًا على هذه الحالة، وعندما يتصاعد بخار الماء يجذب معه بخار الزيت الذي يكمن في الورد، وتتكثف الأبخرة في المكثف ويتجمع السائل في حوض الاستلام، كما يلف المكثف بقطع من القماش، ويسكب عليه الماء البارد بين الحين والآخر. ثم يعبأ في قوارير، ويعرض للبيع في دكاكين العطارين عادة.

وعندما يشترى «ماء الورد» من العطارين تشاهد فيه قطرات زيتية عائمة في الماء لاتذوب، فالزيت لايذوب في الماء. ومن الشروط الأساسية في عملية التقطير بالبخار أن المواد المراد تقطيرها لاتتفاعل مع الماء ولاتذوب فيه.

واذا أريد الحصول على الزيت النقي الخالص، يفصل من الماء، إما بالصفق، وإما بالطرق الكيماوية المألوفة. وهناك طرق أخرى معقدة نوعًا ما، يتم بوساطتها الحصول على الزيت، تبعًا لنوعيته من جهة، ولمصدره النباتي من جهة أخرى، وكل هذه الطرق عرفها القدماء، واستخلصوا بموجبها زيوتًا وعطورًا نقية ذات روائح طيبة.

«فصنع العطور ميدان لبراعة الكيميائي ولولاه لظلت العطور غالية الثمن عزيزة المنال إلا على الأثرياء. فعطر البنفسج مثلا، من أندر العطور وأغلاها ثمنًا. فإذا زرعت فدانًا بنبات البنفسج، لم تستطع أن تستخرج من أزهاره إلاّ بضع قطرات من عطر البنفسج الزيتي. ومن أشق الأمور حفظه، لأنه طيّار. فلما حلل الكيميائي



البخور عطر دخاني لا يستغني عنه بيت مشرقي



قارورة عطر فرعونية من المرمر يمكن تحديد تاريخها بأعوام 1580، 1585قبل الميلاد

قارورة من البرونز مصنوعة في منطقة الشرق العربي القديم (القرن الثامن قبل الميلاد)

هذا العطر وجد أن عنصره الأساسي مادة تدعى أيونون، فاذا استفردت هذه المادة نقية من الشوائب بلغ من قوة رائحتها أنها تشل حاسة الشمّ، فلا يستطيع الإنسان أن يتبين لها رائحة ما. فعمد الكيمائي إلى محاولة تركيب هذه المادة تركيبًا صناعيًا في المعمل. وقد أفلح فيما حاول. والعطور المحتوية على خلاصة عطر البنفسج أصبحت رخيصة، حتى ليتعذر عليك في الغالب أن تبتاع عطر البنفسج الطبيعي، لأنهُ لا يستطيع أن ينافس العطر الصناعي، فلا يصنع لأنهُ لا يفي بنفقات استخراجه الطائلة. ومن هذا القبيل فوز الكيمائي بصنع المواد الأساسية في العطور والطيوب المختلفة كالمسك وعطر الورد وعطر الليمون وغيرها. ولكن العطور التي يصنعها الكيميائي لا تصلح، وحدها، إلاّ لصنع العطور الرخيصة. ولذلك تمزج بعض العطور الطبيعية في صنع العطور المركبة، لأن أصحاب الحسّ الدقيق يستطيعون أن يميزوا العطر الصناعي البحت»(4).

ولتعرف بعض ملامح تاريخ العطور نلقي الضوء على تقاليد بعض الشعوب قديما وحديثا فيما يتعلق بنظرتها للعطور، واستخدامها لها.

بداية دينية

منذ أكثر من 5 آلاف سنة كان المصريون يحرقون الطيب والتابل على شرف إله الشمس (رع). إذ كانوا يشعلون الراتنج - مادة صمغية تفرزها بعض النباتات - وبعض السوائل المستخرجة من النباتات أثناء الشروق، وعند الظهيرة يحرقون المر المكاوي والبلسان، أما عند المغيب فكانوا يحرقون خليطًا من الأعشاب العطرة. وقد كان هناك عطر خاص لكل مومياء من المومياوات.

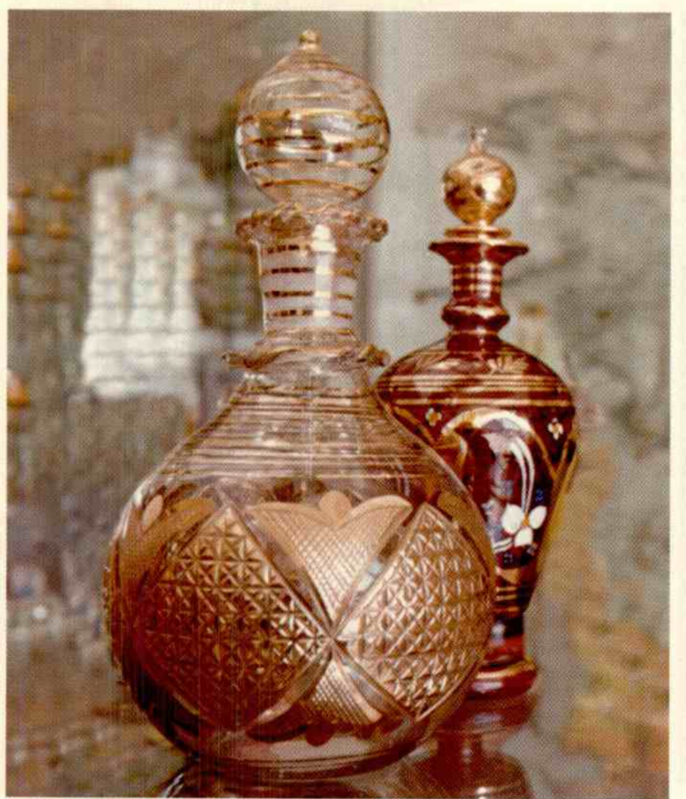
وفي عهد البطالمة انحصرت صناعات العطور في مدينة الإسكندرية التي كانت تستورد موادها الأولية من الجزيرة العربية، وبخاصة من عُمان واليمن وبلاد الرافدين وسورية ولبنان، وكذلك من بلاد فارس والصين. أما الهند فكانوا يستوردون منها عطر (الناردين) الذي أخذ مكانة مهمة في فن الطبخ وتركيب العطور حتى أواخر القرون الوسطى. وفي تلك الحقبة الغارقة في القدم، ظهر أول ماء عطر eau de toilette، وكان مستخرجًا من العسل والخمرة والعنب والمر المكاوي والوزال والزعفران والعرعر.

كانت الزيوت المعطرة والمستخرجة من الزهور هي الأكثر شيوعًا عند المصريين؛ لأن الحصول على اللبان والبطم من شواطئ البحر الأحمر كان يستدعي القيام بحملات عسكرية مكلفة بشريًا وماديًا.

وكانت دور العبادة تعمل سرًا من أجل صنع مساحيق رفيعة المستوى، بينما كانت طبقة النبلاء - رجالاً ونساء - تبالغ في استهلاك مختلف أنواع العطور والمساحيق، وتلجأ إلى فرق من المدلكين والمدلكات التي تستعمل مستحضرات مكونة من ماء الورد والعسل وزيت اللوز والخمرة والقرفة والراتنج.

وكان لكل طبقة نوع معين من العطور. فعطر الأثرياء كان مركبًا - بشكل خاص - من اليانسون وقشرة الأكاسيا والنعناع وندى البحر والحامض، بينما كان عطر الفقراء مكونا من زيت الخروع المعطر بالنعناع أو الصعتر أو المردقوش.

تذكر أوراق التاريخ المدون أن العالم عرف الورود أقدم من ذلك، فحفرياتها ترجع إلى أكثر من 40 مليون سنة، وقد عرف الصينيون إزهار الورود أكثر من مرة في السنة، وذلك في عهد إمبراطورية الهان منذ خمسة آلاف سنة. ويقال إن المساحات المزروعة وردًا كانت بالفعل تطغى على الأراضي المخصصة لزراعة المحاصيل



قوارير بديعة الجمال تغازل العين بجمالها والأنف بعطرها

الغذائية. وفي القرن الثامن عشر، كان زُرّاع الورود الأوربيون مبهورين بقدرة الصينيين على إزهار الورد أكثر من مرة في السنة؛ فقاموا باقتباس طريقتهم حتى إنهم قاموا بتهجين أكثر من 2000 وردة مختلفة الألوان والروائح، وتزهر أكثر من مرة خلال السنة الواحدة.

وذكر التاريخ أن الملكة المصرية نفرتيتي كانت مولعة بالاستحمام في ماء الياسمين قبل أن تقوم خادمتها بدهنها بزيت خشب الصندل والعنبر والكهرمان، وكانت تكتحل ثم تضع الحناء على راحتيها .

في القرن السابع قبل الميلاد، كانت بابل ونينوى وقرطاجة تشكل أهم مراكز صناعة العطور المستخرجة من صمغيات الجزيرة العربية والكافور. بينما كانت مدن عديدة في سورية ولبنان وفلسطين والأردن تستخدم عطوراً مميزة مستخرجة من شجر الأرز والميموزا والزنبق والياسمين والورد والزعفران. وكان شذا العطور النادرة يمتزج برائحة دماءالقرابين أثناء الاحتفالات وطقوس عبادة (بعل وعشتروت).

في الهند أيضا بدأت وظيفة العطور دينية في الأصل، ويشهد على ذلك طريقة بناء المعابد بوساطة خشب ذي عطر كالأرز والصندل، كما كانت القرابين مؤلفة من مجموعة من الورود النادرة، والصمغيات ذات الشذا. وتميزت المرحلة الثانية بلجوء الهنود إلى استخدام العطور في حياتهم اليومية محافظة منهم على النظافة، إضافة إلى الوظيفة الجمالية. ومازالت بعض النباتات والزهور المشهورة هناك كالهال السيلاني واللبان والكافور والكركم والقرنفل والحلبينة والصندل تستعمل في صناعات العطور الحديثة في أوروبا.

وقد شهدت صناعات العطور تطوراً كبيراً على ضفاف نهر الجانج، فكان الهنود يغسلون تماثيل آلهتهم بالمياه المعطرة. كما كانت النساء الهنديات يقضين ساعات طويلة في الحمامات المعطرة، ويمتنعن عن التطيب أوقات الحزن والحداد.

الساعة العطرية

أما في الصين فقد نظّم الأمبراطور فوهي (2000 ق.م) طريقة استخدام النساء للعطور، فحصر استعمال مستحضرات مستخرجة من زهرة السرنجة والحلوة والبنفسج على فئة معينة من النساء.

واستخدم الصينيون العطور في قياس الزمن. أما الطريقة فتبدو معقدة، إذ كانوا يلجؤون إلى نوع من الأختام الخاصة يضعونها على الجمر ويدلون اللبان فوقها. وبعد سحب الأختام يرسم البخور نوعًا من الصور تشير إلى الساعة. حينها يكفي إشعال اللبان ومراقبة الكمية المحروقة للاستدلال على الوقت.

اليابانيون من جهتهم طوروا هذه الطريقة، وأدخلوا عليها عدة أنواع من العطور يدل كل واحد منها على وقت معين خلال اليوم. فبمجرد أن تشم أريجًا معينًا تستدل على الوقت.

وبخلاف الشعوب الأخرى يبدو أن اليابانيين لم يلجؤوا إلى تطييب أجسادهم، بل فضلوا، منذ البداية، تطييب ملابسهم وتعطيرها وتبخير الكيمونو (نوع من الملابس اليابانية التقليدية في معابدهم أو في منازلهم)، ووضعوا على وسطهم برنيقًا حفرت عليه عصافير وزهور مضمخة بأنواع من العطور مثل المسك والعنبر واللبان وكبش القرنفل والقرفة والصندل والكافور.

والعطر في اليابان يعد عنصرًا أساسيًا في لعبة الجودو التقليدية، التي تتمثل في وضع قطع صغيرة جدًا من الخشب المطيب على صفائح، ثم وضعها على موقد من الجمر وعلى اللاعب تحديد نوعية الرائحة أو اسم العطر. أما في لعبة «الغنجي» فعلى اللاعب أن يحدد ستة أصناف من العطور التي تدل على الربيع (زهرة الخوخ)، وعلى الصيف (النعناع)، وعلى الطاعة البوذية (الجيجو)، وعلى الخريف (الأقحوان)، وعلى تساقط الزهور (الرِّق) وعلى الشتاء (كوروبو) وهو نوع من الزهور لا نظير له عند العرب.

وصفات أبقراط

وفي حوض البحر المتوسط، نجد أن



بعض أنواع العطور المستخلصة من الزهور الطبيعية


قارورة من الطين على شكل حيواني تعود إلى القرن الثاني عشر وهي من الحقبة السلجوقية

وتوصل الفيلسوف تيوفراست في القرن الثالث قبل الميلاد إلى تركيب وصفة «عطر قبرص» من خلال نَقْع بعض أصناف الزهور والورود واللوز والزيتون في الخمرة. ومنذ تلك الحقبة بدأت علاقة واضحة بين العناصر التي تدخل في فن الطبخ والعطارة. ويمكننا اليوم التعرف إلى «فاكهة الفرام» في عطر «ناهيما» من إنتاج غيرلان، والدراق في عطر «فام» لروشا، والفانيليا في «بالاهي» لليونار، ومجموعة من التوابل المستعملة في الطعام موجودة في عطر «كوروس» لإيف سان لوران.

تحية عبر الأثير

فاق الإيطاليون غيرهم من شعوب أوربا في استعمال العطور، وهم الذين نقلوها إلى فرنسا لمّا زارتها «كاترين دي مديتشي» الإيطالية، ومعها رجل



حشد من العطور الشرقية في صورتها الخام والمركبة في أحد المعارض

المصريين القدماء هم الذين دلّوا اليونانيين على وسائل استخدام العطور وتجميل البشرة والشعر. بينما يعود الفضل إلى أهل أثينا في إنتاج نوع جديد من العطر المكوّن من خلط التوابل والبلسم والزيوت المعطرة بالزهور. وهو ما يشكل في رأي المتخصصين منعطفًا تاريخيًا في عملية تطوير صناعة العطور.

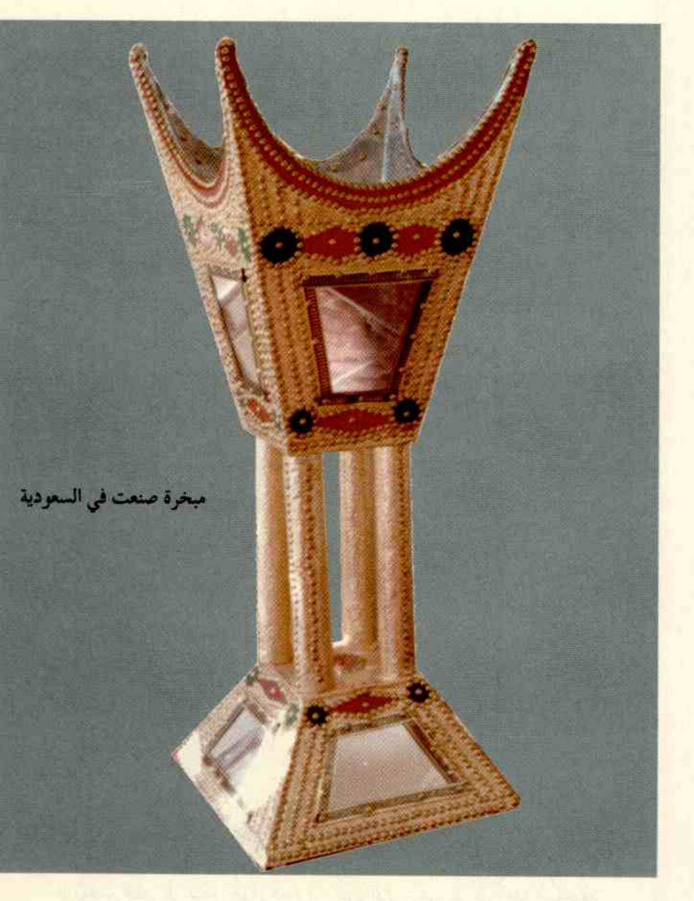
وقد اهتم اليونانيون بحرق الأريج والشذا تخليدًا لذكرى المحاربين الشجعان الذين سقطوا في ساحة الوغى. وفعل آخيل ذلك وطيّب جثة هكتور قبل تسليمها إلى بريام. كما نثر الإسكندر الورود على قبر آخيل، وأحرق كميات كبيرة من البلسم أثناء زيارة طروادة.

ولم ينحصر استخدام العطور في الأغراض الوثنية، بل كان - أيضا - عنوانًا للشهوة، ومصدرًا لها. فكلما أقيمت مأدبة في اليونان؛ كان لابد من رش العطور وإحراق اللبان والأخشاب المعطرة. ولاعتقادهم بفاعلية الشذا في منع السُكر أو التخفيف منه، انتشرت محارق البخور واللبان في المنازل وخصوصًا في غرف الطعام.

كما شكلت العطور ومستحضرات التجميل أحد فروع علم الطب. فالطبيب أبقراط خصص العديد من أبحاثه لمعالجة الأمراض الجلدية، وكان ينصح مرضاه بالاستحمام واستعمال العطور بدهن مواضع الألم وتدليكها. وقد وصلت المبالغة في استعمال العطور مبلغًا عظيمًا؛ إذ كانوا يدهنون الكلاب والخيول بالطيب، مما حدا بـ«سولان» كبير المشرعيين في أثينا في القرن السادس قبل الميلاد، إلى حظر صناعة العطور وتجارتها في المدن الواقعة تحت سلطته ومسؤوليته!

والطريف أن استعمال العطور كان محصورًا فقط في الجنود والرياضيين الذين كانوا يدهنون أقدامهم «بمرهم مصر» وأرجلهم بالصعتر وأيديهم بالنعناع.

ويروى أن أسبازيا المعروفة بجمالها وذكائها وكلمتها المسموعة في أواسط الفلاسفة اليونانيين والشعراء في عهد بريكلس، كانت تستحم بماء الخزامى أو عطر اللاوند قبل أن تتطيب بعطر السوسن.



مبخرة صنعت في السعودية

إيطالي يدعى «روته» تاجر بالعطور فربح أرباحًا طائلة. وفي تلك الآونة بلغ هيامهم بالعطور إلى الحد الذي صاروا فيه يعطرون الجلود التي يهيئون منها المناطق والقفازات. إلا أن الإيطاليين فقدوا شهرتهم هذه في أيام الملك هنري الرابع، عندما قام الإسبانيون باستعمال الروائح المعروفة باسم كاكاو وإنيليا(5).

ويروى أن الإفراط في استخدام العطور بلغ بنيرون مبلغًا فاق كل حد، إذ كان يدهن نعليه أيضا، وكان الخدم يرشون العطور على وجوه المدعوين إلى المآدب.. كما يروى أنه حين تركت كليوباترا أنطونيو عائدة إلى مصر بللت أشرعة سفنها بالعطور، وأمرت برفعها مع أول نسمة لكي يستنشق عطرها ولو من بعيد. أما بوبي زوجة نيرون فقد استقدمت العطارين من قبرص، وكانت تستعمل كميات كبيرة من العنبر. ولما توفيت أحرق نيرون من أجلها كمية هائلة من البخور.

هدايا الرشيد إلى شارلمان

أما العرب فكان لهم قصب السبق في عالم العطور والتوابل، يشهد بذلك المؤرخون، وقد بلغ الاهتمام بالعطور ذروته مع انتشار الإسلام. ولم يسهم العرب في تطوير العطارة بإدخالهم الياسمين إلى إسبانيا - ومنها إلى مدينة غراس الفرنسية في القرن السادس عشر وهي حاليا من أشهر مراكز صناعة العطور - فحسب؛ بل اخترعوا أيضًا طريقة تقطير خاصة لاستخراج العطور بواسطة أنبوب الأنبيق. وهو مايعده الاختصاصيون المرحلة الثانية المهمة في تطوير العطور وصناعتها.

ولقد أدت عملية تقطير الأعشاب إلى إنتاج العديد من أنواع الشذا، مما دفع كبار الكيميائيين، ومنهم الفيلسوف والعالم والطبيب ابن سينا، إلى استنباط طريقة خاصة في التقطير. فهو أول من توصل إلى إنتاج ماء الزهر. وكان للعرب أيضًا الفضل الأول في اللجوء إلى تطهير الأصماغ بوساطة مياه الأمطار المقطرة.

ومما يذكره التاريخ أن الخليفة هارون الرشيد هو الذي أهدى شارلمان مؤونته من التوابل والعطور المختلفة، في الوقت الذي ذاع فيه صيت الحمامات العامة في قرطبة، التي اشتهرت بغنى عطورها وتنوعها. كما عرف عن العرب إضافتهم المسك إلى الملاط أي الخليط من الرمل والكلس لبناء المساجد، وذلك لنشر رائحة عطرة عند ارتفاع حرارة الشمس وقت الظهيرة. ويجمع الاختصاصيون على أن بلسم مكة كان من الأنواع المرغوب فيها جداً.

«ولقد كتب العلماء العرب كتبًا كثيرة في حقل كيمياء الطيب والعطور، وعدَّ ابن النديم في الفهرست أكثر من عشرة كتب في ذلك، فضلاً عن كتب أخرى مذكورة في الفهارس والكتب التراثية. ولم يترك الكيميائي العربي مجالاً متعلقًا بالأطياب إلا درسه بعمق.. وفرّع الكيميائي العربي الحديث فرعًا خاصًا بالعطور، وتمكن من تحضير عطور صناعية أصبحت تضاهي العطور المستخرجة من مكامنها الأصلية نباتية كانت أم حيوانية. واليوم نجد أن كثيرًا من أسماء العطور وكثيراً من طرائق استخلاصها وتحضيرها تشبه إلى حد بعيد تلك التي كانت مستعملة في عصر ازدهار الحضارة العربية»(6).

ورد الطائف

تبوأت مدينة الطائف في المنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية موقعًا متميزًا في عالم صناعة العطور. فقد اختصت الطائف بإنتاج حاصلات زراعية متنوعة تشمل الخضروات والفواكه كالبطيخ والموز والتين والعنب والرمان والزيتون، وكذلك عسل النحل، كما اشتهرت أيضًا بورودها وبعطرها الذي كان يمد أهل مكة بما يحتاجون إليه من الطيب. فمتى ذكرت صناعة العطور ومدخلات هذه الصناعة ذكر«ورد الطائف»(7).

ويزرع «ورد الطائف» في الحقول والبساتين التي تقع في الأودية وسفوح الجبال، وتروى شجيرات الورد بمياه الأمطار ومياه الآبار الارتوازية. وأشهر مواقع زراعة ورد الطائف هي الهدا والغديرين والشفاء والصخياء وذي الخرم، والطلحات وبلاد طويرق. ويكون موسم الورد في برج الحمل من كل عام ويستمر جني الورد 40 يومًا. وفي الطائف عدد من المصانع التي تنتج ماء الورد من طريق تقطير الورد وتعبئته في قوارير وإعدادها للتصدير أو البيع في الأسواق داخل المملكة. أما بقايا الورود، أو مايسمى ب«الورد المطبوخ» الناتج من عملية التقطير واستخلاص ماء الورد، فيستفاد منه لاحقًا كسماد للزراعة، أو يتم إعداده علفًا للماشية (8).

ولشدة ارتباط الورد بمدينة الطائف وتأثيره في الحياة اليومية لسكانها أصبح موضوعًا يتناوله الشعراء في قصائدهم، فها هو ذا الشاعر فؤاد شاكر يفرد له قصيدة بعنوان «تحية روض». يقول فيها:

يارائع الزَّهر في روض وبستان
أفديك بالحسن من حورٍ وولدانِ
ماذا احتويت وماذا أنت مشتمِلٌ
عليه من عبقٍ فَذٍّ وألوان؟
أفيكَ زهرٌ وأغصانٌ مهدلةٌ
فأنت بالنَّشْر منها جدُّ جذلان!

وقال الشاعر محمود عارف في ورد الطائف:

الورد في غصنه هيمانُ لا عجب
أن نستلذ الهوى في عطره العَبِقِ
عطر الورود أحاسيسٌ مُرهَفَة
يندَاح في رَفْرف كالنُور في الغسق

تطهير القدس بماء الورد

توسعت صناعة استخراج العطور من الورد والزنبق والبنفسج والياسمين وغيرها. وقد أتقنت هذه الصناعة في كثير من المدن الإسلامية. واشتهرت بغداد بهذه الصنعة، وذاع صيت الكوفة بانتشار صناعة «دهان الخيري والبنفسج». واشتهرت مقاطعة«جور» في بلاد فارس بعطرها المستخرج من الورد الأحمر المعروف باسم«الورد الجوري»، واشتهرت دمشق بزهور


زهور الجبال مصدر أساسي في صناعة العطور

السوسن التي عرفت على نطاق واسع باسم «وردة دمشق». ويقال إن سورية اتخذت اسمها من كلمة«سوريستون» أي أرض الأزهار. ويذكر أنه لما ذهب عبدالرحمن الداخل إلى الأندلس، وأقام دولته الأموية هناك أمر باستجلاب وردة دمشق من سورية، وعمم زراعتها في الأندلس، ومن هناك انتقلت إلى بعض أصقاع أوروبا وشبه جزيرة أيبيريا.

وعندما استرد صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس من الصليبيين جلب حمولة 500 جمل من ماء الورد المستخرج من وردة دمشق لتطهير القدس من دنس الصليبيين.

وأما أوربا فقد شهدت في العصور الوسطى تقهقرًا في استخدام العطور؛ إذ انحصر ذلك في الطقوس الدينية والأغراض الطبية فقط. وثمة أنواع من العطور الخاصةالتي انتشرت في تلك الحقبة، ومازالت تستخدم حتى يومنا هذا، ومنها على سبيل المثال عطر «قبرص الأحمر»، وهو مزيج من زيوت «زهرة الشام» وخشب الصندل والمسك والعنبر والقرنفل.

بيوتات العطور العالمية

المعروف أن عائلة الورد كبيرة وتشمل الفراولة والتفاح والكمثرى وعددًا آخر من الورود البرية، وينتج معظم الورود روائح شبيهة بروائح الفاكهة أو التوابل. واكتشف أن للورود 25رائحة مختلفة، ولكن أكثرها شيوعًا روائح الورد والتفاح والبنفسج والليمون والسوسن والقرنفل والكبوسين(9).

تستمد الوردة شذاها من البتلات، ولكن أجزاء أخرى من الوردة ينبعث منها شذا، مثل الأوراق والسيقان والسبلات، وحتى الأشواك التي تنمو على السيقان. وفي بعض الأنواع تنبعث روائح قوية من التاج الأخضر الذي يحيط بالوردة. ورائحة الوردة معقدة التركيب؛ فهي تتكون من السكر والكحوليات والأنزيمات التي تنتج منها مجموعة روائح مختلفة، ويمكن أن تتغير. ويختلف شذا الوردة تبعًا للمناخ. فالأيام الباردة التي تتكاثف فيها السحب تحول دون انتشار شذا الوردة. وفي الأيام الحارة الجافة تتعرض الوردة للجفاف. أما الأيام الدافئة المشمسة فهي التي تنبعث فيها من الوردة افضل الروائح. ويرى العاملون في صناعة عطر زيت الورد أن أفضل الأوقات لقطف الورد هو ما بين الساعة الرابعة والنصف صباحًا والساعة التاسعة والنصف صباحًا خلال فصل الصيف، فبعد هذا الوقت تهبط نسبة زيت الورد بمعدل ٤٠٪ خلال ساعات قليلة.

وتتحدد المرحلة الثالثة من تطور صناعة العطور بعام 1830م، حيث توصل العطارون المتخصصون إلى ابتكار طريقة جديدة في فرز مركبات العطور والأعشاب وإعادة تركيبها، بإضافة عناصر كيماوية جديدة إليها. وهذا ما فتح الباب واسعًا أمام استنباط طائفة من العطور غير الموجودة أساسًا في الطبيعة. ومنذ ذلك الوقت أصبح الصنف الرفيع من العطور يشتمل على مواد طبيعية تقليدية وأخرى كيماوية؛ كتركيبة عطر «جيلي»، وهو أول عطر حديث مستخرج من زيوت كيماوية.

«وسر صناعة العطور هو في مزج الخلاصات الزيتية قبل حلّها، وهو فن دقيق، توارثت سرّه بعض الأسر التي اشتهرت بهذه الصناعة. فماءُ الكولونيا الألماني، لا يباح سرُّ صناعته، حتى للعلماء. وكان الكيميائي الألماني «بيس piess» قد صنع للعطور سُلّمًا شبيهًا بالسُّلّم الموسيقي، في أسفله العطور الشرقية القوية مثل عطر خشب الصندل، وفي أعلاه العطورالطيارة الخفيفة مثل عطر شجرة اليمام lLeliotrope. وعلى هذا السلّم العطري يستطيع الخبير البارع أن يمزج



تشكيلة من أشهر العطور العالمية

العطور كما يؤلف بين الأنغام فيخرج منها عطوراً مركبة منسجمة. فإذا كان غير خبير، وقع تنافر بين الأجزاء التي يصنع منها العطر المركب كما يقع التنافر في الأنغام.

فمزج العطور المختلفة لإخراج عطر جديد يستطيبهُ الناس ويقبلون عليه، فنٌ يحتاج إلى حسّ مرهف، والراجح أن اكتسابهُ ممكن بالاختبار وطول المرانة(10).

ونتيجة لذلك انتشرت بيوتات العطارين. فعطارة «غيرلان» يعود تأسيسها إلى عام 1828م في شارع ريفولي ثم في شارع السلام في باريس. وقد أطلقت الإمبراطورة أوجيني، على صاحب عطارة «غيرلان» لقب عطار الملكة، وأوكلت إليه مهمة إنتاج ماء الكولونيا الإمبراطورية. وحين أصبح من العطارين المشهورين أنشأ حفيده محلاً في شارع الشانزليزيه عام 1904م. وقبل الحرب العالمية الأولى ابتكر غيرلان عطرًا أسماه «الساعة الزرقاء»، وهو عصارة دوار الشمس والوردة والسوسن والياسمين والفانيليا. كما أنتج عام 1921م عطرًا أسماه «ميتسوكو»، وهو اسم فتاة يابانية وقعت في غرام ضابط بريطاني في أثناء الحرب الروسية - اليابانية. وفي عام 1933م استحضر عطر «طيران في الليل» تحية لرواية الكاتب سانت أكزبري. ومازالت سلالة آل غيرلان تنتج أصنافًا من العطور تُباع في كل أنحاء العالم، مثل عطر حدائق الباغاتيل (عام1983م) وناهيما (عام1979م)، وشاماد (عام 1969م).

أما شهرة عطارة كارون فتعود إلى أرنست دالتروف صاحب التركيبات المعروفة: نارسيس الأسود، التنباك الأشقر، ليلة الميلاد، وبيللودجيا. وقد بدأ رحلته مع العطور في مطلع هذا القرن؛ فابتاع حانوتًا في شارع السلام في باريس، واستمر في تطوير ملكاته في هذا المجال.

بينما تعود شهرة الكسندر نابليون بورجوا إلى اختراعه أول مسحوق حديث للتجميل، وتركيبه عطر ليل باريس، وكوباكو، وراماج، وغلامور.

أما عطارة «لانكوم» فأسسها أرمان بوثي جان عام 1935م، وأنتجت العديد من أنواع العطور، ومنها كونيك، وكيرو، وبوكاج، وماجي، وتروبيك، وتريزور.

وفي عام 1849م افتتح (مولينار) محلاً للعطور في ساحة قرية غراس في جنوب فرنسا، وأتبعه بتأسيس مصنع صغير للتقطير بعد عشر سنوات.

وقد اشتهرت عطوره خارج فرنسا، فجاءه الزبائن من بريطانيا وروسيا. وكان مدعاة فخر مولينار أن الملكة فيكتوريا كانت من زبائنه الدائمين، وحينها افتتح متحفًا للعطور في أحد أجنحة مصنعه، كما افتتح عطارة في باريس عام 1920م. أما أشهر العطور التي أنتجها فهي كالاندال، ومادريغال، ومولينار،وفيتيفييه...

وفي مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى دخل كبار مصممي الأزياء ساحة العطور، وكان بول بواريه صاحب دار «روزين» أول المقتحمين بعطر ليل الصين، وأيكة أبولون، وعلاء الدين... ودخلت غبريال شانيل هذا الميدان أيضا بعطر شانيل رقم 5، وأنتجت جان لانفان عطر أربيج، وكلير دوجور.

ولم تتحول العطور إلى مستحضر على هامش الاهتمام بالأزياء كما توقع البعض، إذ يقول العارفون إنه حدث العكس تمامًا، فلكل دار للأزياء «أنفها»؛ أي منتج العطر الخاص بها. فإرنست بوكان «أنف» شانيل، ونيقولا مامونا لدار «روشا». وهذا بالطبع ينطبق على الدور الأخرى مثل ديور، وكارفن، ونيناريتشي، وجيفنشي، وباكو ربان، وإيف سان لوران، وكارتييه، وهارمس، وريفيون، وشارل جوردان، ولانفان، وباتو.

وفي أمريكا وإيطاليا هناك تورونتي، وأونفارو، وفيرسيسي، وأزارو، وأرماني، وبوتشي، وميسوني غيروتي، وريفلون، وشارلز أوف ذي ريتز، وأفون ماكس فاكتور، وأستي لودر، وهيلينا روبنشتاين.

وإذا كان من كلمة أخيرة في هذا المجال، فهي أن عائدات صناعة العطور وتجارتها تقدر بمليارات الدولارات كل عام، وهذه الحقيقة تلح في طرح استفسار حول أهمية استعادة العرب لدورهم في ابتكار أنواع جديدة من العطور العربية بدلا من استمرارهم في استيرادها.. فمن يدري، فقد يكون ذلك بداية لمرحلة رابعة في تطور صناعة العطور!

العطارون يتسابقون إلى ابتكار أسماء وآنية جذابة للطيب، والعطارون الفرنسيون تفوقوا في ذلك على غيرهم



قوارير عطور نادرة صنعت يدويا، من كل قارورة واحدة ليس لها نظير

الهوامش:

1- جابر الشكري، الطيب والعطور في التراث العلمي العربي، المورد، العدد الرابع 1987م.
2- قطران الفحم وزيت البترول ينافسان الزهور، العربي، العدد 80 يوليو 1965م.
3- عيسى إسكندر المعلوف، العطور، المقتطف العدد الأول يناير 1920م.
4- العطور واستخراجها بين الطبيعة والعلم، المقتطف، العدد الخامس، ديسمبر 1933م.
5- عيسى اسكندر المعلوف، مصدر سابق.
6- جابر الشكري، مصدر سابق.
7- فيليب حتى، تاريخ العرب، ج1 ص143، بيروت 1965م.
8- فقدان الورد شذاها مشكلة تؤرق العالم، «الفيصل»، العدد 193يناير 1993م.
9- ورد الطائف أجمل الورود وأغلى العطور، أحمد عابد عاشور، القافلة، العدد الخامس، المجلد الأربعون، نوفمبر/ديسمبر 1991م.
10- العطور واستخراجها بين الطبيعة والعلم، مصدر سابق.



الشمُّ.. الحاسَّة والذاكرة

د. بشار عبدالرزاق جعفر

تعد حاسة الشم حاسة كيماوية في المقام الأول، وهي حاسة مرهفة جدًا؛ إذ يكفي وصول خمسة أو ستة جزيئات من مادة كيماوية ما إلى الخلية المستقبلة لإطلاق آلية العمل عندها، فتقوم بنقل الرسالة فورًا إلى الدماغ، وهي أقرب الحواس إليه.

ولاتقتصر قدرة حاسة الشم عند الإنسان على رصد الكميات الضئيلة جدًا من المواد الكيماوية المعلّقة في الهواء فحسب، بل تمتد أيضًا إلى التمييز بين نحو 3000 نوع من الروائح المختلفة، بما في ذلك بعض الروائح الاصطناعية التي لم تكن هذه الحاسة قد عرفتها من قبل أبدًا.

ولا أحد يعرف حتى الآن بدقة كيفية عمل جهاز رصد الروائح. فالواضح أساسًا أن الرائحة عبارة عن جزيئات مبعثرة في الهواء بكثافة معينة. وعندما نستنشق الهواء تدخل كمية منه إلى الأنف حاملة معها عددًا من هذه الجزيئات، ويمر الهواء بنسيج إسفنجي يقوم بتدفئته وترطيبه، ليصل إلى حجرتين ضيقتين تقعان تحت الدماغ مباشرة وخلف جسر الأنف، حيث يحط الهواء ومعه الجزيئات على رقعتين جلديتين مبللتين بالمخاط لاتزيد مساحة الواحدة منهما على مساحة زر القميص.

والملاحظ أنه لكي يستطيع الإنسان أن يشم مادة كيماوية ما - هي الرائحة - فلابد لهذه المادة من أن تتخلى له عن بعض منها، وأن يكون هذا البعض - الذي هو عبارة عن عدد غير محدد من الجزيئات - قابلاً لأن ينحلّ في المخاط الذي يغطي خلايا الاستقبال. وليست كل المواد القابلة للتبخر قابلة للشم. فهناك - مثلا - الماء الذي لايغيب بخاره عنا أبدًا، ومع ذلك فنحن لانشمه.

وتحتوي كل من الرقعتين الجلديتين اللتين تحط عليهما الجزيئات على نحو خمسة ملايين خلية استقبال خاصة بحاسة الشم، لكل منها نحو ستة أهداب مؤهلة لاقتناص الجزيئات الواردة. وما إن يتم الاتصال بين الجزيئات وبين أيٍ من هذه الأهداب حتى ترسل الخلية المستقبلة إشارة حسية عبر ليف عصبي قصير يمر بنفق في عظم الجمجمة، وصولاً إلى البُصيلة الشمية التي لاتبعد أكثر من عرض إصبع، والتي هي نتوء خارج من الدماغ نفسه. وفور وصول الإشارة إلى البصيلة فإنها تعامل كأي رسالة حسية أخرى ترد إلى الدماغ.

ويتم الجزء الأكثر غموضًا من عملية الشم عندما تلتصق الجزيئات الواردة بالأهداب.

نظريات تفسر كيفية الشم

وتفسيرًا لكيفية تعرُّفنا الروائح المختلفة يمكن القول - بشكل عام - إن الجزيئات التي تعطي روائح متشابهة تكون متشابهة في الشكل والحجم. وتقول إحدى النظريات بأن جزيئات المواد التي لها رائحة معينة تدخل في تجاويف معينة دقيقة موجودة على سطح أهداب الرصد. وتقول النظرية أيضا إن لهذه التجاويف أشكالاً يلائم كل منها شكل جزيء معين واحد فقط، بما يشبه آلية القفل والمفتاح. وإذا كانت هذه النظرية صحيحة فلابد أن تكون هنالك آلاف من الأشكال المختلفة للتجاويف، وشكل واحد على الأقل لكل رائحة يختص بها وبإمكاننا أن نميزها بوساطتها.

وإذا كانت نظرية القفل والمفتاح صحيحة؛ فبإمكانها أن تساعد على تفسير مظهر آخر مهم من مظاهر حاسة الشم، ألا وهو التكيُّف الذي يحصل عندما نتعرض إلى رائحة معينة لمدة من الزمن. فشم رائحة ما

لايدوم أكثر من مرحلة معينة، ثم بعد ذلك تبقى الجزيئات معلقة في الهواء الذي نستنشقه، ولكننا لانعود «نشعر» بالرائحة. وتصبح قدرتنا على شم تلك الرائحة المعينة بالذات تحتاج إلى تركيز ذهني قد يتجاوز بـ 300مرة التركيز الذي كان يلزم في البداية للشعور بالرائحة ذاتها. وهنا يبدو وكأن كل التجويفات الخاصة بتلك الرائحة قد سدت بالجزيئات المناسبة لها، وأن المستقبلات قد تعبت من بث رسائلها إلى الدماغ بعد الاستجابة الأولية للإثارة.

وفائدة هذا التوقف عن الشعور بالمؤثر (والذي يحصل عند الحواس الأخرى أيضاً) هي أنه يسمح لنا بالتنبه إلى التغيرات التي تطرأ على محيطنا، وعدم الاستمرار في بث سيل من الرسائل إلى الدماغ تحمل كلها المحتوى ذاته. والواقع أن أي محيط نعيش فيه يكون في العادة مملوءاً بروائح مختلفة توقفنا عن شمها لأنها لم تعد في حاجة إلى انتباهنا، ولكن إذا دخل شخص آخر إلى المحيط نفسه فإنه يشم روائح كنا قد توقفنا عن شمها لأن تجويفاته المستقبلة مازالت حرة وعلى استعداد لإعلام الدماغ بالتغير الجديد الحاصل. وإذا ما دخلت إلى محيطنا رائحة جديدة، فإنها ستجد لدينا تجاويف مستقبلة تنتظرها لتبث الرسالة الجديدة إلى الدماغ، وهكذا.

وعلى العموم، فإن خلايا الاستقبال العصبي لحاسة الشم أو النهايات العصبية لهذه الحاسة، تختلف عن الخلايا المستقبلة في الحواس الأخرى كافة بأنها تنطلق إلى خارج الجلد الذي يغطي مجرى الشم ولاتبقى تحت سطحه، كما في حاستي اللمس والتذوق. بمعنى أنها تمتد إلى المحيط الخارجي بحثًا عن المؤثر لرصده والتقاطه، ولاتنتظر أن يفعل المؤثر فعله فيها لكي تستجيب. كذلك فإن هذه الخلايا ـ خلافا لخلايا الحواس الأخرى أيضا ـ تتوالد باستمرار، مما يدل على أهمية حاسة الشم في تكوين الإنسان.

وعندما يصل الإحساس إلى بصيلة الشم، وإلى بنى فيها تسمى كبيبات، تتلقى الخلايا التاجية مساعدة (عصبونات) أخرى للتقليل من تعقيدات الروائح وتخفيضها إلى ما هو أساسي منها.

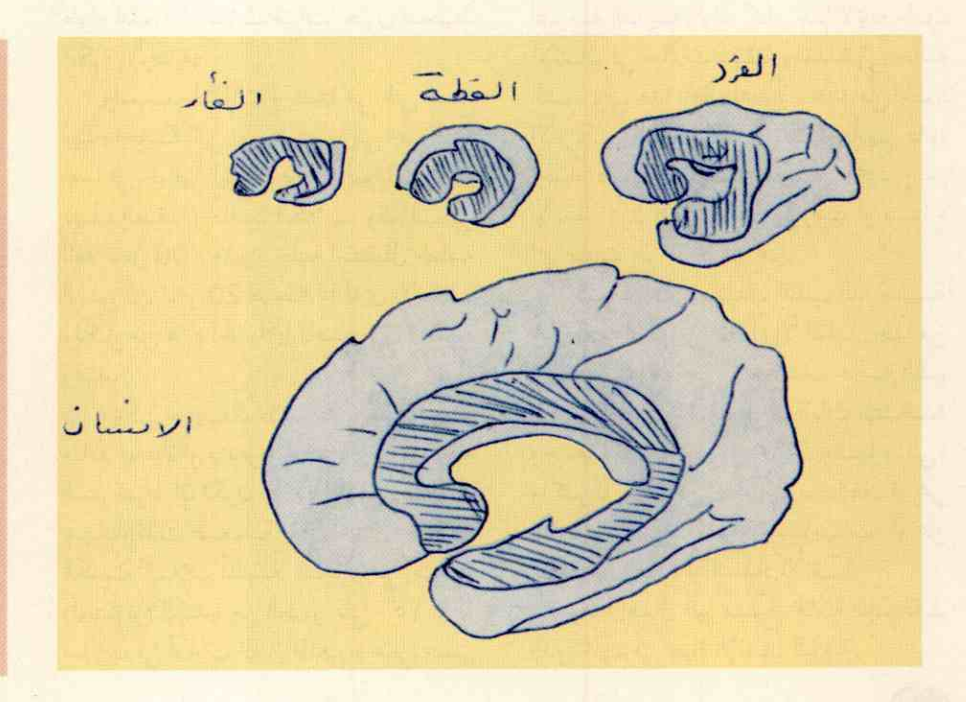
ويرسل الدماغ رسائله الجوابية إلى البصيلة عبر (عصبونات) جيبية، ويعدل ردود فعل البصيلة على الشم حسب الوضع العام للجسم، فإذا كانت المعدة ممتلئة مثلاً أثارت رائحة الشواء شيئًا من الاشمئزاز عند الإنسان، أما إذا كانت المعدة فارغة فإن رائحة الشواء نفسها تستثير الشهية والرغبة في تناول الطعام.

وترسل الخلايا التاجية رسائلها مباشرة إلى الجهاز الحوفي (الحرفي أو الطرفي) LIMBIC SYSTEM، الذي هو مقر الانفعال أو العواطف ومقر الذاكرة.

ذاكرة الشم

ولابد هنا، في مجال الإشارة إلى أهمية حاسة الشم، من ملاحظة أن لدى الإنسان ذاكرة شم قوية تفيده أحيانًا في درء الأخطار عن نفسه، إذ تساعده في تعرف روائح كان قد عرف سابقًا أنها تترافق مع خطر ما، كأن يشم الإنسان رائحة الغاز المتسرب من أنبوب الفرن في مطبخه، فيسارع إلى البحث عن مصدر التسرب ويتجنب كارثة ممكنة الحدوث فيما لو لم تساعده حاسة الشم.

كذلك فإن رائحة تراب الأرض عند الهطول الأول المبكر للمطر كثيرا ما تعيد إلى أذهاننا صوراً من أيام الطفولة في القرية أو في مكان آخر؛ لأن تلك الصور كانت مرافقة لتلك الرائحة. كما أن رائحة البارود قد تعيد



أنف اصطناعي للعطارين

قام معهد العلوم والتقنية في جامعة «ماسوستش» الأمريكية، في إطار أبحاثه حول الأعضاء الاصطناعية البديلة للأعضاء البشرية، بابتكار أنف اصطناعي يمكنه تمييز 30 ألف رائحة مختلفة. ويتكون هذا الأنف من «برغوث» إلكتروني حساس تجاه الروائح ومكوناتها الكيماوية، ويطلق إشارة كهربائية خاصة بكل رائحة فيتلقاها حاسب آلي ويحللها، ويخرج الصيغة الكيماوية لها. وسيجري استخدام هذا الأنف الحساس من قبل صانعي العطور، ومن قبل الشرطة في المختبرات الجنائية.

إلى ذهن ضابط متقاعد ذكريات بطولاته، أو هزائمه، في حروب خاضها في شبابه... إلخ.

ويؤكد العلماء أن لـ«ذاكرة الشم» هذه أهميتها الكبرى خاصة عند الأطفال حديثي الولادة، وحتى سن معينة؛ حيث إن الرضيع يميز أمه من رائحتها قبل تمييزه لها بالسمع أو البصر. وهذا ينطبق على الانسان والحيوان معًا، فالفأرة الأم تلعق حلمات أطْبَائها لكي يتبع صغارها «العميان» رائحة لعابها فتسعى إلى الرضاعة. وقد جرب العلماء غسل حلمات الفأرة الأم فضاع الصغار عن مصدر غذائها. والنساء - عمومًا - أكثر تمييزًا للروائح من الرجال، ويعتقد البعض أن هذا الفارق يعود إلى أن المرأة «تعيش» حاسة الشم أكثر من الرجل، فهي تستخدمها في أثناء الطبخ، وفي معرفة ما إذا كانت اللحوم والأسماك (طازجة) أم لا عند شرائها، وفي اختيار أنواع البهارات وما إلى ذلك، ناهيك عن ممارستها لهذه الحاسة عند اختيارها للعطور التي لا تكاد امرأة تستغني عنها.

وبعض الروائح يؤدي بالجهاز الحرفي إلى تنشيط عمل ما تحت المهاد، أو أرض البطين الثالث في الدماغ HYPOTHALAMUS، والغدة النخامية، مما يحفز إنتاج الهرمونات المسيطرة على الجنس والشهية وحرارة الجسم وعدد من الوظائف العضوية (الفيسيولوجية) الأخرى. وهكذا فإن الروائح، أو بعضها على الأقل، تؤدي إلى حصول تحولات نفسية أو سلوكية عند الإنسان أو الحيوان. والروائح التي تصدر عن الإنسان أو عن الحيوان تؤثر في سلوك أفراد من النوع نفسه تسمى فيرمونات (PHEROMONES) ومن بينها الروائح المميزة للذكر والأنثى.

الفيرمونات وتنظيم المجتمع

وبين الحيوانات، وخصوصًا بين الحشرات، كثيرًا ما تشكل الفيرمونات وسيلة الاتصال الرئيسة بين أبناء النوع الواحد، ووسيلة تنظيم المجتمع أيضًا، وهذا أمر معروف عن النحل والزنانير والنمل بشكل خاص.

وتحافظ النحلة الملكة على مملكتها بأن تفرز رائحة تمنع النحلات العاملات من وضع البيض ومن تنمية الخلايا الملكية لديهن. والرائحة نفسها تجذب ذكور النحل إلى المملكة في أثناء رحلة الزواج. وإذا ما لدغت نحلة العسل إنسانًا ما فإن عليه أن يتوقع هجوم نحلات أخرى كثيرة عليه تجتذبها إليه رائحة النحلة التي لدغته أولاً، وهي كرائحة زيت الموز.

وفي مثال آخر، فإن النمل المسمّى نمل النار يجعل الطريق إلى مكان الطعام تتضح من خلال جرجرته لإبر اللدغ عنده على الأرض وهو يسير، مطلقًا رائحة تلتصق بالأرض تدل بقية أفراد مستعمرة النمل على الطريق الصحيح.

ويقول أ.و. ويلسون عالم الأحياء (البيولوجيا) من جامعة هارفارد: إن «ميلجرامًا واحدًا من الفيرمونات الدالة على الطريق التي تطلقها النملة قارضة أوراق النبات يكفي لأن يقود رتلاً من النمل يكفي طوله للدورات ثلاث مرات حول محيط الكرة الأرضية».

الرضيع يميز أمَّهُ من رائحتها قبل تمييزه لها بالسمع والبصر، ولو كان أعمى مثل الفئران الوليدة

وليست الحشرات وحدها هي التي تتمتع بهذه الحاسة التي تعتمد عليها إلى حد كبير جدًا في حياتها اليومية، فكل الحيوانات تتمتع بهذه الصفة وخاصة الكلاب. وللكلب في أنفه نحو 200 مليون خلية استقبال لحاسة الشم، أي نحو 20 ضعفا مما لدى الإنسان، ولكل من هذه الخلايا نحو 100 هدب رصد.

ويمكن تدريب الكلاب على اكتشاف أية مادة مخبأة أو مدفونة تحت الأرض بوساطة الشم شرط أن تكون لهذه المادة رائحة ما، مهما كانت ضعيفة. وفي إحدى الحالات تمكنت كلاب ألمانية مدرّبة في مدينة (أونتاريو) الكندية من العثور على ١٥٠ نقطة تسرب في أنابيب الغاز المدفونة على عمق 18قدمًا تحت الأرض، وعلى امتداد يزيد على 100ميل، في حرارة كانت دون الصفر بكثير.

وفي تقديرات العلماء أن الكلاب تستطيع أن تشم روائح ذات تركيز ضعيف جدًا، حتى ولو كان هذا التركيز لايتجاوز مقدار جرام واحد من مادة ما موزعة في أجواء مدينة باتساع مدينة بوسطن الأمريكية على ارتفاع 100متر عن سطح الأرض.

وإذا كان الإنسان أقل حساسية وتأثرًا بالروائح من الحيوانات والحشرات بشكل عام، فإن علماء الأحياء والتطور يعزون ذلك إلى أن الإنسان قد أصبح، من خلال تطوره، سمعيًا/ بصريا بالدرجة الأولى، لكن هذا لايمنع استمرار اعتماد الإنسان في أمور كثيرة من حياته اليومية على حاسة الشم.

حاسة مهملة

ومع ذلك، فالملاحظ أن علماء الطب والنفس كثيرًا ما أولوا هذه الحاسة أهمية أقل مما تستحق بكثير، والصفحات القليلة التي تكرسها كتب علم النفس الدراسية لحاسة الشم تشير في العادة إلى أن هذه الحاسة ليست ذات أهمية تذكر نظرًا لأن الإنسان أهمل الاعتماد عليها منذ أن أصبح توجهه الأول بصريًا، ثم سمعيًا في الدرجة الثانية، وإن كان هذا لايمنع لجوء الإنسان في حالات دقيقة ومعقدة إلى حاسة الشم. وفي هذا المجال اعترف عدد من الجنود الأمريكيين الذين قاتلوا في فيتنام بأنهم كانوا أحيانًا «يشمون» المقاتل الفيتنامي المختبئ بين الأدغال دون أن يتمكنوا من رؤيته أو سماع أي صوت لحركة تصدر عنه.

كذلك فإن كتب الطب الدراسية والمرجعية لا توفر للأطباء إلاّ القليل جدًا من التوجيه لمعالجة حالات فقدان حاسة الشم الكثيرة، والتي تبلغ في الولايات المتحدة وحدها أكثر من مليوني حالة، بعضها وراثي، وأكثرها ناجم عن إصابات مختلفة، أو عن التهابات فيروسية، أو حساسيات، أو عن التقدم في العمر، أو انسداد الأنف.

وهذا إهمال غير مُسَوَّغ لحاسة الشم ذات الدور المهم في حياة الإنسان اليومية.

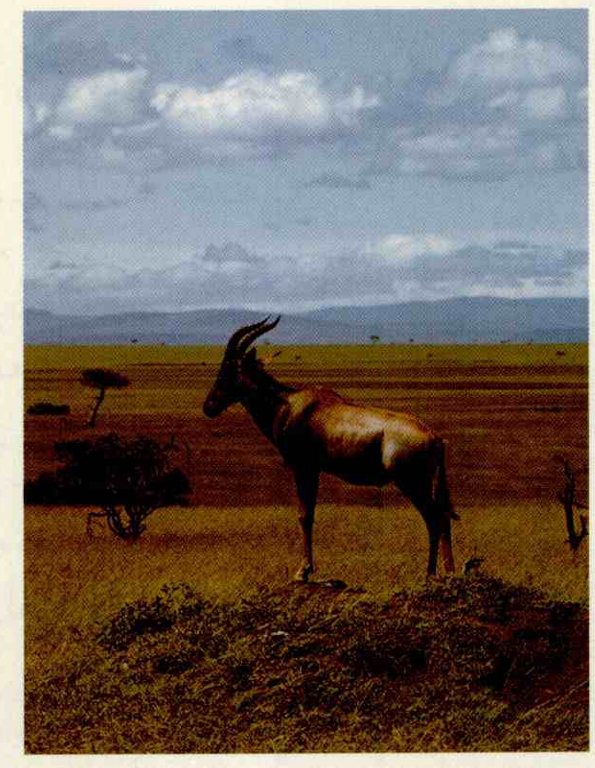
العطور الحيوانية والحشرية

وجد أن عدد المواد العطرة - أي التي هي عطور بحد ذاتها - لا يتجاوز خمسة وعشرين عطرًا، «أما العطور المركبة فعددها في حدود المئتين، والعطور التي من مصدر نباتي عددها 170 نوعًا. ذلك فيما أحصاه القدماء. أما عند المحدثين فإن المواد العطرة عددها سبعون، والعطور المركبة عددها ثلاثمئة، والعطور التي مصدرها نباتات عددها خمسمئة، والعطور الاصطناعية ثلاثة آلاف نوع. وقد يحتوي العطر الواحد على أكثر من خمسين مادة، منها أزهار، وثمار، وحَزَازِيّات، والقِلْف، والطبقة الخارجية من سيقان وجذور النباتات، ومنها غدد بعض الحيوانات وإفرازات بعض الحشرات»(1).

ويعد الطيب المستخرج من الحيوانات أغلى العطور وأندرها. فالعنبر يستخرج من حيوان بحري تتغذى عليه الحيتان المريضة، وتحمله الأمواج إلى الشاطئ، والمسك يستخرج من أحد أنواع الأيائل الذي كاد ينقرض لجِدِّ الناس في صيده، والزَّباد طيب نادر يستخرج من سنور الزَّباد، وهو حيوان قريب من القط، ويعرَف بلسانه ذى الحلمات الحارة المشينة، وبأظافره التي تخرج من غمدها أثناء مشيه.

يقول ابن منظور في (لسان العرب): «الزَّباد مثل السنور الصغير، يجلب من نواحي الهند، وقد يأنس فيُقتنى، ويحتلب شيئًا شبيهًا بالزبد يظهر على حلمته بالعصر، مثل ما يظهر على أنوف الغلمان المراهقين، فيجتمع، وله رائحة طيبة، وهو يقع في الطيب»(2). وقد توسع الدميري في كتابه (حياة الحيوان الكبرى) في شرح كيفية استخلاص عطر الزباد.

يوجد بالقرب من شرج سنور الزباد كيس ذو غدد ينفتح إلى الخارج بواسطة شق بين الشرج وأعضاء التناسل، وهو متشابه في كل من ذكر حيوان الزباد وأنثاه، ولذلك يصعب التمييز بين النوعين في الظاهر. ويوصل الشق إلى تجويفين سعة كل منهما حجم لوزة، وجدارها الباطن به عدة ثقوب توصل إلى جملة أجرية غددية يتكون فيه الجوهر العطري (الزباد)، وهو مادة راتنجية دسمة تكون أولاً رخوة جدًا على هيئة سائل لزج أصفر اللون، ولكنها تجمد تدريجيًا حتى تصبح أجمد من الزبد قوامًا، وتكتسب اللون القاتم لتأكسدها بالاكسجين. وهي مكونة من نشادر وأولايين، واستيارين، ومادة مخاطية، وراتنج، وزيت طيار، ومادة ملونة صفراء، وكربونات، وفوسفات، وجير وأكسيد الحديد.



وللحصول على الزباد يصاد الحيوان ويحجز داخل قفص لا يستطيع أن يدور فيه حول نفسه، وجامعو الزباد يغذون السنور باللحم النيء ليكتسب رائحة نفاذة، ولما كانت كمية مادة الزباد تزداد كلما أثير غضب السنور، فإنهم يعمدون إلى إثارته، فيزداد الإفراز في الحال، ويجمع الزباد بأن يستفرغ كيس السنور كل ثمانية أيام عن طريق الكشط بملعقة تدخل داخل الشق بعد تثبيت السنور، ثم يحفظ الزباد في إناء يغطى بإحكام، والأسهل وضعه في قرن مجوف يجف داخله جفافًا جزئيًا، فيكتسب رائحة عطرية أزكى.

المعروف أن معظم الزباد التجاري يتم الحصول عليه من سنور الزباد الأفريقي «سيفيتكس» وسنور الزباد الشرقي «فيفرا»، الذي يعيش في الهند وجنوب شرقي آسيا.

وهناك بعض الحشرات تنتج من تفاعلات تجرى في أجسامها، عطورًا تفوح، فتغري بالتقاء الذكور بالإناث. ونظر الإنسان إلى هذه الحقيقة فأراد أن يستفيد منها في إبادة تلك الحشرات، فابتدع العلماء طريقة تتلخص في «الحصول على هذا العطر ثم تحليله كيماويًا لمعرفة تركيبته وبنائه، ثم إنتاجه في المختبرات من أصول غير حشرية، فإذا هم حصلوا عليه، أغروا به الحشرة، فصادوها، وأعدموها. غير أن الأخلاقيين يتشككون في جواز هذا الأمر ويعدونه تغريرًا بالحشرة بشيء أودعه الله فيها حفزًا على الذرية، ولكن للعلماء رأيًا غير رأي فلاسفة الأخلاق»(3).

الهوامش:

1- جابر الشكري: الطيب والعطور في التراث العلمي العربي، المورد، العدد الرابع 1985م، وأحمد بغلف: قصة العطر من الزهرة إلى القارورة، المجلة العربية العدد 109 أكتوبر 1986م.

2- ابن منظور: لسان العرب، مادة: زبد

3- عطور تستدرج الحشرات إلى الفناء، العربي، العدد 105، أغسطس 1967.

حاسة الشم: متى تنشط؟ ولماذا تُفقد؟

د. صلاح محمود غانم

تلقي الرائحة الزكية في النفس استبشارًا وتضفي عليها حبورًا، وينقبض صدر المرء ويضيق عندما ترد إلى أنفه رائحة كريهة. وتداعب رائحة الطعام الجوعان فتزيد من رغبته في إشباع جوعه وطلب طعامه. وتنقل الرائحة العطرة رسائل بين الناس يغني التلميح فيها عن التصريح، ناشرة فيما بينهم جوًا من الود والألفة، وبالرائحة يزداد تعلق الطفل بأمه الحنون، وبها يتحاشى خطرًا قريبًا كتسرب غاز في المنزل.

وإذا ماوازنا بين حاسة الشم لدى كل من المرأة والرجل فإننا نجدها في المرأة أقوى وأدق تمييزًا؛ لما يرد من روائح مختلفة في التركيز والمعنى. وتزداد حساسية المرأة للشم في وقت الإباضة والحمل، وتقل عند سن اليأس. ولا يبدو أن السبب في ذلك هرموني فحسب؛ إذ لوحظ أنها لم تتغير عند اللواتي يستعملن حبوب منع الحمل. وإذا ماوازنا بين الإنسان والحيوان لوجدناها أضعف وأقل نفوذًا في عالم الإنسان، ذلك أن رقيّه الخلقي جعل الإدراك المسيطر فيه بالعقل على حساب الشم. وهو مهيمن عند الحيوان الذي تلتقط حاسته الشمية رسائل اتصال ذات معان نفسية واجتماعية يصدرها جسد حيوان آخر ونفسه، فيتصرف بناءً عليها. وهذه الرسائل يمكن أن تعبر عن الرغبة في الجنس الآخر، أو الخوف منه، أو الخطر، أو الخضوع، أو تكشف عن وجود فريسة أو مفترس، أو السعادة..

لمحة تشريحية

تقع منطقة الشم في القسم العلوي من الأنف الذي يقسمه حاجز الأنف إلى حفرتين نجد على جوانبهما ثلاث عُظيمات أفقية اسمها القرينات Tur-binates، أطولها السفلي وأضخمها المتوسط وأصغرها العلوي. وتنتشر الخلايا المخاطية الشمية في مستوى القرين العلوي ومايقابله من حاجز الأنف على مساحة 5سم2، ولونها أصفر حبيبي.

وهناك أربعة أنواعٍ من الخلايا أهمها: الخلية الشمّية المهدبة، والاستنادية، وذات الأهداب الدقيقة، والقاعدية. والأولى خلية عصبية مهمة، تحتوي على أكثر من عشرة ملايين خلية، تقوم بالدور الأساسي في استقبال الروائح؛ إذ تحتوي على انتفاخ في أسفلها Knob، تتدلى منه أهداب تسبح في المخاط الشمي المغلِّف للخلايا، وعلى الأهداب نقاط استقبال مهيَّأة لاستقبال جزيئات الروائح السابحة في المخاط. ويخرج من تلك الخلية محور عصبي طويل يجتمع مع نظرائه على شكل حزم تشكل العصب الشمي، وتدخل - باتجاه الأعلى - في ثقوب عظمية عددها حوالى العشرين تفصل الأنف عن داخل القحف. ثم تصل تلك الألياف العصبية الشمية إلى البصلة الشمية Bulb Olfactive، وهي انتفاخ عصبي بيضي الشكل طوله 8 ملم وعرضه 4 ملم، فيه طبقات خلوية متعددة وأنواع من الخلايا، أهمها الخلية التاجية Mitral Cell، والتي ترسل استطالات منها لتلتقي بمحاور الخلايا الشمية في أماكن استقبال تسمى الكبب Grom-eruli، ويلج في كل كبة من المحاور خمسة وعشرون ألفًا، لتنقل إلى استطالات الخلايا التاجية - القليلة العدد في كل كبة - السيالة العصبية المميزة لكل رائحة، ويخرج من الخلايا التاجية نحو المراكز الدماغية الشمية العليا محاور تجتمع بشكل الشريط الشمي الذي يخرج من البصلة، ثم يتفرع إلى ثلاثة جذور: الأول وحشي

externe ذو لون أبيض يذهب إلى النهاية الأمامية لتلفيف الصدغي الخامس (تلفيف حصان البحر)، والثاني أنسي interne الاتجاه أبيض اللون يتجه إلى مقدم الجسم الثفني، أما الثالث فرمادي اللون يتجه نحو الأمام، ويتوزع في المراكز القريبة من المنطقة المثقبة الأمامية.

آلية الشم

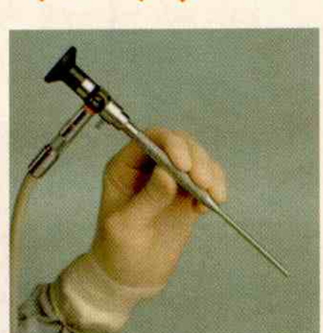
يميز الإنسان عدة آلاف من الروائح المنتشرة في الطبيعة - والتي يقدر عددها بثلاثين ألفًا - ويتعرف من بين التي يميز وجودها، مئتين إلى ثلاثمئة منها.

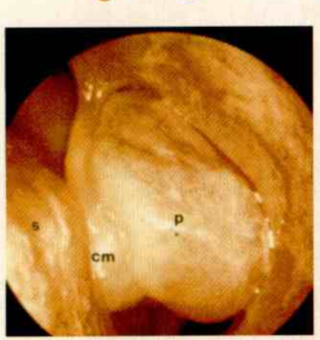
وحتى يتعرف الأنف رائحة يشمها، هناك عدة شروط للرائحة، منها أن تكون قابلة للتطاير Volatility، قابلة لأن تذوب في الماء والدسم، ذات تركيز في الهواء يجتاز عتبة الشم Threshold، وذات جزيئات صغيرة فيها من ثلاث إلى أربع ذرات كربون وحتى ثماني عشرة إلى عشرين ذرة، وكلما اختلف تركيب الذرات اختلفت الرائحة عن الروائح الأخرى.

تبدأ مرحلة الشم بعد وصول جزيئات الرائحة إلى المنطقة الشمية؛ إذ تشرع تلك الجزيئات بالانحلال والذوبان في الطبقة المخاطية الشمية بسرعة - أو ببطء - تعتمد على خصائص الرائحة الكيماوية، وعلى درجة من الانتقاء من المخاط والخلايا لا يزال قسم من آلية عملها مجهولاً. وتنتقل تلك الجزيئات القادمة في المخاط الشمي، وتأتي نواقل من البروتين الخاص إليها لتعرفها؛ فإما أن تحملها نحو المستقبلات المنتظرة لها، وإما أن تتخلص منها بمعونة أنزيمات خاصة.

وما إن يصل جزيء الرائحة ويتوضع على النطقة الشمية من الهدب حتى ينشط نوع آخر من البروتين اسمه بروتين G، والذي يقوم بدوره في تفعيل وسائط خلوية (AMPC) مما يؤدي إلى اختلال التوازن الكهربائي للخلية، ودخول شاردة الصوديوم Na^{+} فيها ناقلة بذلك مايسمى بالسيالة العصبية إلى البشرة، فإذا ما أجرينا تنبيهًا كهربائيًا لمنطقة معينة من الخلايا الشمية في الأنف نجد استجابة كهربائية مباشرة في منطقة معينة من البصلة الشمية. ولانجد خلية واحدة قادرة على أن تستجيب لكل الروائح، وعندما نمزج رائحتين فإن خصائص كل منهما تبقى إنْ تقارب التركيز فيما بينهما، وأما إن مُزجت رائحة بأخرى فإن الأولى تطغى على الثانية إن كانت قوية

حاسة الشم تنطوي على أسرار وبعض الاضطرابات الشمية أسبابها مجهولة حتى الآن


صورة للمنظار المستعمل في تشخيص وجراحة الأنف



صورة بالمناظير لداخل الأنف يبدو فيها مرجل (لحمية)

المحور العصبي للخلية الشمية ومنه إلى العصب الشمي، فالبصلة التي تقوم بتنظيم المعلومات الواردة إليها بآلية لايزال يكتنفها الغموض، و(رفض) البعض الآخر. فالعلاقة بين البشرة الشمية العصبية والبصلة علاقة منظمة ووثيقة. فهناك تخصص خلوي في البشرة لروائح معينة بشكل انتقائي، وكذلك تخصص مكاني في البصلة الشمية إذ تتلقى رسائل كهربائية عن الرائحة من مكان معين من التركيز بنسبة كافية.

وتقوم المراكز الدماغية بالإدراك العقلي والعاطفي للروائح التي تُنقل إليها من البصلة الشمية، مع ملاحظة غياب مراكز خاصة بالشم وحده؛ إذ تجتمع في مراكز معينة في الدماغ معلومات آتية من وظائف وحواس متعددة، مثل الذوق والسمع والبصر والمشاعر النفسية. ونعدد من تلك المراكز: الحدبة الشمية Olfactory Tu-bercul، واللوزة المخية، ونويات الشريط النهائي Terminal Stria، ومنطقة ما تحت السرير البصري. وترسل تلك المراكز أليافًا تأمر بالتثبيط أو التنشيط للوظائف حتى يتم التنسيق والتكامل بينها بما يخدم حاجة الإنسان ورغبته.

تصنيف الروائح

لما كان عدد الروائح كبيراً جداً في الطبيعة، وحاجة الإنسان إلى الاستفادة من قسم منها قائمة؛ فقد كان ضروريًا أن تجتمع في جدوال تجمع الروائح منظمةً وفق أسس وخصائص معينة. ولم تفلح حتى الآن المحاولات التي سعت لإيجاد تصنيف متكامل للروائح، ولاسيما ما يتعلق منها بالصناعة العطرية وسواها، ففي كل جدول نقص، وفي بعضها تداخل.

وأما القواعد التي يبنى عليها وضع جداول التصنيف والتبويب فمختلفة باختلاف خصائص العطور والروائح، واختلاف الحاجة. وسنذكر بعض الأمثلة:

1- تصنيف يعتمد على قابلية الروائح للتطاير، ونجد فيه:

- روائح عالية التطاير قليلة التماسك مثل: خلات الأميل، الكزبرة، خشب الورد، اللينولول (من الكحول)، الليمون، البرتقال..

- روائح معتدلة اللزوجة والتطاير، كالريحان والصعتر والعرعر.

- روائح منخفضة التطاير عالية التماسك واللزوجة، كالمسك الاصطناعي والياسمين وخشب الأرْز. وهو تصنيف يفيد العطارين الذين يستخرجون روائح يجمعونها ليخرجوا برائحة جميلة تدوم فترة أطول.

2- تصنيف بحسب عتبة الشم:

عتبة الشم هي الحد الأدنى من تركيز الرائحة الذي تستطيع حاسة الشم أن تلتقطه بحيث إن قلّ التركيز عنه تعذر شم تلك الرائحة، ويتعلق بخصائص جزيئاتها، وقابلية خاصة في البشرة الشمية لاستقبالها. ويكفي أن يكون تركيز مادة ميثيل المركبتان - وهو الذي يعطي الثوم رائحته المميزة - 0,0000004 ملغ في لتر من الهواء حتي يتم استقباله وتمييزه، بينما في النعناع 0,02 ملغ/لتر هواء، والكلوروفورم 3,30 ملغ/لتر هواء.

3- تصنيف بحسب تأثير العطور في الجلد، وآخر يقسم الروائح إلى ثمانية عشر قسمًا.

4- تصنيف يقسم الروائح إلى تسعة أقسام يضع في كل قسم مجموعة متشابهة، وفيه:

- مجموعة روائح الزهور: كالورد، والياسمين، والليلج..
- مجموعة خشبية الرائحة: كالصندل..
- مجموعة الروائح الريفية البسيطة: كالنعناع، ورائحة الأرض..
- مجموعة الروائح البلسمية: كالفانيليا، واليانسون، والبخور..
- مجموعة روائح الفاكهة: كالليمون، والفواكه، والدراق، والخوخ..
- مجموعة الروائح الحيوانية: كالمسك، والعنبر، والجلد..
- مجموعة الروائح الدخانية: كالتبغ.
- مجموعة الروائح المنفرة: كالثوم، والسمك، والطعام الفاسد، والبرك الراكدة..
- مجموعة روائح الطعام: كالزبدة الطازجة، والحساء..

ولانزال ننتظر تصانيف جديدة تولد وتكون أكثر دقة وأسهل استعمالاً.

الاضطرابات في حاسة الشم

لا يستطيع من فقد شمه أن يميز رائحة الطعام فيفقد لذة الإحساس به، ولايأبه من فقد شمه لرائحة من يتعطر له أو من هو حوله. وهناك من لايسعفه أنفه ليدرك رائحة الخطر، وقد يقض مضجع المريض أن تغلبه رائحة كريهة لا تفارقه.

وتقلّ حاسة الشم وتضعف لأسباب عديدة، أهمها:

1- الأمراض السائدة في الأنف والجيوب: تشكل حوالي 20٪ من الأسباب، منها مايكون التهابيًا كالرشح والتهاب الأنف والجيوب الجرثومي والتهاب الأنف التحسسي، ومنها مايكون ورميًا سليمًا أو خبيثًا، ومنها مايكون تشريحيًا كانحراف الحاجز الأنفي الشديد وضخامة القرينات. وغالبًا مايتحسن الحال بعلاج السبب، ماعدا الأورام المخرِّبة للبشرة الشمية.

2- رضوض الرأس Head trouma: يمكن للرض على الرأس - حتى البسيط منه - أن يفقد المريض حاسة الشم، خاصة إذا كانت الإصابة في المنطقة الجبهية المؤثرة في جهاز الشم. وللأسف فإن 10٪ فقط يستعيدون حاستهم. ونجد أن الرض قد شوه الخلايا الشمية المهدبة، وبعثر محاورها وشابك بينها، فلا تصل إلى البصلة بعد ترميمها ولا تسترجع أهدابها. وينفع في هذه إعطاء فيتامين A.

3- تقدم العمر (الشيخوخة)، ولاسيما بعد الستين. ويظهر في الرجال أكثر، وقد يظهر في بوادر بعض أمراضه مثل Alzheimer وداء باركنسون.

4- أسباب خَلْقية: نادرًا مايظهر الشعور به مبكرًا، وإنما يبدأ بعد الثامنة من العمر، وقد يكون وحيدًا أو أنه عنصر في متلازمة Syndrom مرض وراثي مع عناصر أخرى. ويفيد فيها استعمال فيتامين A.

5- التعرض لمواد سامة مثل الفورمالين، والنيكوتين المستعمل في التدخين.

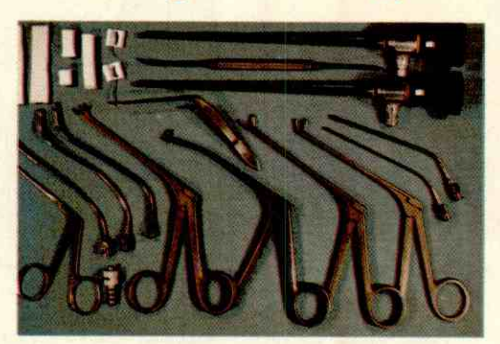
6- الأدوية والشم: تؤثر في الشم أنواع معينة من الأدوية خاصة إن استعملت لفترة طويلة فتضعفه أو تنقصه ولكن ليس عند كل المرضى، ومنها الأدوية المستعملة في علاج الزحار MET-RONIDAZOL، وفي التخدير الموضعي Benzocuine، وعلاج الكلسترول Clolibrate، والمضادات الحيوية Stre-plomycin, Ampicillin, Luicomycin، والسرطانات.

7- الجراحة والشم: يمكن للجراحة أن تحسن الشم أو تزيله وتفقده. فجراحة تعديل الحاجز الأنفي Septoplasty مثلاً تحسن حاسة الشم بإزالتها العائق دون وصول الهواء إلى أعلى الأنف، وكذلك استئصال اللحمية الأنفية Poly-pectomy.

وقد لوحظ في جراحة تجميل الأنف Rynoplasty فقدان حاسة الشم بنسبة 20٪ وذلك في فترة ستة أشهر إلى ثمانية عشر شهراً بعد العملية، ويعزى ذلك لحدوث أذية عصبية أثناء العملية أو لتضيّق في الطرق التنفسية بسبب التغير التشريحي الحاصل، ويستعيد 95٪ من المرضى الشم بعد فترة.

وفي الجراحة العصبية في المنطقة قرب البصلة الشمية والطريق الشمي غالبًا مايضيع

يميز الانسان عدة آلاف من الروائح المختلفة ويتعرف من بينها 300 رائحة


مجموعة لبعض الأجهزة والمناظير المستعملة في التشخيص والمعالجة

الشم نهائيًا، ويتحسن الحال مع تطور طرائق جراحية جديدة.

8- الاضطرابات النفسية Psychiatric disorders: يؤدي بعضها - كما في حالة الاكتئاب والفُصَام Schizo-phrenia - إلى ظهور تخيلات شمية بشكل رائحة كريهة تصدر عنه أو آتية إليه فنراه يشغل وقته بتنظيف جسمه بشكل مبالغ فيه يدعو إلى الشفقة.

9- ضلال الشم Pa-rosmia: وفيه يشعر المريض برائحة غير طبيعية متقطعة أو مستمرة، زكية أو رديئة كالبيض العفن والغائط، ويرافق ذلك العَرَض بعض الأمراض النفسية أو الورمية مثل ورم الفص الصدغي.

10- وهناك أسباب مجهولة لفقدان الشم أو نقصه لاندري لها سببًا رغم سلامة الفحص وسلامة المريض. ولعلّ الأيام القادمة تكشف عن أسرارها. وينبغي أن يطمئن مثل هؤلاء المرضى، ويعلموا أن هناك أشخاصًا مثلهم.

فحص حاشة الشم

نبدأ مع المريض الذي يشكو من علّة في شمه بالاستجواب السريري، وفيه نأخذ قصته المرضية مستفسرين عن الأمور التي تتوجه نحو تشخيص دقيق يتعلق بكيفية بدء المشكلة ومايرافقها من أعراض، مع الأخذ في الاعتبار سوابق المريض الطبية ووضعه النفسي. ثم ننتقل - بعد أن نكون قد وضعنا التشخيص من خلال الاستجواب - إلى الفحص الذي يبدأ بالتأمل، ثم نفحص الأنف مستعملين المناظير داخل الأنف، ثم الأجهزة الأخرى التي تتعلق بالمشكلة. نشرع بعدها في اختبار الشم في الفتحة الأولى ثم الثانية، وهو على نوعين رئيسين:

النوع الأول يتعاون فيه المريض مع الطبيب بشكل كبير (مثل قياس السمع أو البصر) إذ نعرّض أنفه إلى روائح متعددة بتراكيز متتابعة، ونسجل الحد الذي يبدأ الشم عنده لكل رائحة، فنحصل على ماهو أشبه بمخطط تخطيط السمع. ويمكن أن نضع نقطة من زيت الثوم أو من زيت قشر البرتقال في محقن ذي سعة عشرة سنتيمترات مكعبة من الهواء، ونشرع بزيادة حجم المحقن بالتدريج. فإن كان الشم سليمًا يشعر المريض بالرائحة وهي بتركيز 0,1 سم3، وعند فقد الشم لايدرك المريض الرائحة وهي بتركيز 10سم3، وهناك العديد من الطرق الأخرى.

وأما النوع الثاني المستعمل في قياس حاسة الشم فهو الذي يعتمد على القياس بأجهزة كهربائية، ومنها تخطيط الشم الكهربائي Electro (E.O.G) Olfacto Gram حيث نضع مسربًا كهربائيًا على مخاطية الأنف الشمية ونسجل الاستجابة التي تظهر بشكل تغير كهربائي سلبي عندما تتحرض المستقبلات الخلوية المحيطية. ويفيد في التفريق بين الأذية الشمية الكهربائية والمركزية، ومنها التخطيط الشمي الدماغي المحرض Brain Evokated Potential وتخطيط الدماغ الكهربائي بالحاسوب؛ حيث نرى فيه خرائط ملونة تسطيحية Top-ographic لفعاليات الدماغ المختلفة، لكنه لايزال في مستوى المراكز التخصصية.

وللفحص الإشعاعي دوره في تقويم وضع المريض وكشف علّته، وذلك من خلال الصور البسيطة للأنف والجيوب، والتصوير الطبقي المحوري CT Scann للمنطقة الأنفية والدماغية، وأخيرًا التصوير بالرنين المغناطيسي RMI الذي يفيد في إظهار النسيج الرخو ولاسيما عند الشك في وجود أورام دماغية أو صدغية.

حاسة الشم: متى تنشط؟ ولماذا تُفقد؟

عطر الدخان

على الرغم من أنّ اللُّبان يُعرف باسم «البخور العربي» أو الكُندُر؛ إلا أن الثابت أن منبته الأصلي ليس المنطقة العربية. فقد اشتهرت أشجار البخور في المناطق الحارة من جنوب شرقي آسيا مثل سنغافورة والهند وأندونيسيا وتايلاند والصين وكمبوديا. ولما كان العرب والمسلمون معروفين بحبهم للأسفار بغية التجارة ونشر الإسلام؛ فقد وصلوا إلى تلك المناطق في فترة مبكرة، وعادوا ومعهم البخور، كما جلبوا أغصانًا من أشجار اللبان وغرسوها في بلادهم، فانتشر هذا النوع من الأشجار لملاءمته الظروف المناخية في اليمن وسلطنة عمان، وبخاصة ولاية ظفار.

وأما الحصول على مادة البخور منتجا أخيرا يستفاد منه، فيمر بمراحل؛ إذ يقوم مختصون بشذب أغصان أشجار اللبان في وقت معين من السنة، وتُزال قشرة الشجرة بآلة حادة مخصصة لذلك، فتخرج مادة سائلة تتجمد بمجرد تعرضها للهواء، ثم تُترك هذه المادة مدة تصل إلى ثلاثة أشهر، ثم يتم جمعها وتعبئتها وتسويقها.

ومن أنواع العطور الجافة التي تفوح رائحتها عند حرقها، بخور «العود» المستمد من أشجار الصندل، وهي أيضًا من المنتجات التي تشتهر بها منطقة جنوب شرقي آسيا. ويُحرق البخور في أوان مخصصة لذلك، تُعرف بـ«المباخر»، يُوضع فيها الجمر ومادة البخور. وتشتهر بعض المناطق الصحراوية في أفريقيا وآسيا بنمو أنواع من الأشجار تُسمى «الطَّلح» تعبق بروائح زكية عند حرقها، ويشيع استخدام هذا النوع من البخور بين النساء في السودان وموريتانيا. وتأتي فوائد «الطلح» من أن بخوره يجعل الجسم يتصبب عرقًا، ثم تتشبع مسامات البشرة بالرائحة الطيبة التي تنبعث نتيجة احتراق أعواد الطلح، كما أن الدخان المتصاعد خلال عملية الاحتراق يكسب الجلد لونًا مائلاً إلى الحمرة.

الروائح لغة اجتماعية

الرائحة في التفسير الطبي العضوي (الفسيولوجي) هي الشيء الذى يؤثر في حاسة الشم، فيتأثر بها مركز الحس في الدماغ، معطيًا مؤشرًا خاصًا بها. ويتحسس بها الحيوان، وهي إحدى خواصه الأساسية، وتفرقه عن النبات. والرائحة من الفعل «روح»، وهو النسيم طيبًا كان أو نتنًا. والإنسان يتحسس الروائح، ويفرق بين رائحة وأخرى، ويرغب في هذا النوع من العطر أو ذاك، تبعًا لمزاجه، أو لطبيعة حاسة الشم عنده. وربما يكون السبب عائدًا إلى تأثيرات عضوية في جسم الإنسان نفسه.

واكتسب مفهوم الرائحة مدلولات اجتماعية خاصة تعددت بتعدد المواقف وتفاوتها والعلاقات الاجتماعية التي ارتبطت بذلك المفهوم. فمن ناحية يقول د. نبيل صبحي في دراسة تفصيلية للروائح وتأثيرها في التفاعل الاجتماعي: أثرت بعض الروائح في مفاهيم الناس وانطباعاتهم واتجاهاتهم، ووجهتها وجهة خاصة. ومن ناحية أخرى خلع الناس - خلال تفاعلهم الاجتماعي - على بعض الروائح مفهومًا اجتماعيًا خاصًا تعلق بإدراكهم للرائحة، كما ارتبط بطبيعة الموقف الاجتماعي الذي يوجدون فيه. بل إن الناس طوروا مفاهيم خاصة عن روائح معينة ليس لها وجود، وحددوا علاقاتهم بالجماعات الأخرى بمقتضى مفهومهم عن هذه الروائح.

وكلمة رائحة بالفرنسية .Odeur, Odorant, Geruch وبالإنجليزية Odour, Odor.وبالألمانية Wohlgeruch, Duft. وقد اتفق اصطلاحًا على الشيء الطيب الرائحة. فسمي عطرًا.

وهناك مصطلح إنجليزي يطلق على دهن الورد في الغالب، وهو؛ أي عطر أو دهن الورد أو Otto of Roses (بالجمع). والمصطلح مشتق من Attar of Roses أو Ottar ويظهر بوضوح تام أن الكلمة عربية من «عطر». ويعتقد البعض أن المصطلح مشتق من «عطار» أي عطار الورد. وبصورة عامة فإن الكلمة Odeur مشتقة من Attar، عطر العربية أيضًا.

وعمومًا هناك ثلاثة جوانب لعملية إدراك الروائح كما يوضحها د. نبيل صبحي:

الأول: الجانب الذاتي، وهو عملية الشم التي يقوم بها الفرد، ومايترتب على ذلك من خبرات خاصة.

الثاني: وجود تفسير اجتماعي يصاحب إدراك الروائح ويرتبط بها.

والأخير: التصورات النمطية التي تنشأ عن الجانب الذاتي الإدراكي، وعن التفسير الاجتماعي السائد عن رائحة معينة.

وعليه فإن الرائحة التي تميز شخصًا معينًا ويعبر عنها الناس بصور متعددة قد تكون ناتجة من إحساس فعلي برائحة تنبعث من هذا الشخص، وعن مفهوم اجتماعي سائد عن هذه الرائحة، أو عن طبيعتها، وعن مدى قبول الناس لها. وقد لا يكون ذلك انعكاسًا لخبرة شَمِّيَّة أحس بها الناس؛ بل بسبب مفهوم سائد عن الشخص وعن اتصافه برائحة معينة. وقد تكون الرائحة واحدة، ولكن يختلف إحساس الناس بها باختلاف الملابسات الاجتماعية. وقد لوحظ أن تغير المركز أو الوضع الاجتماعي، وتغير مفهوم الإنسان عن نفسه يمكن أن يؤدي إلى تغير الإحساس بالرائحة. ويستخدم مفهوم الروائح والعطور بصورة مجازية واستعارية فيدل مثلاً مفهوم «السيرة العطرة» عن معنى اجتماعي رمزي.

وارتبطت الرائحة أيضًا بكثير من عناصر ثقافة الإنسان، كما ارتبطت بسلوكه، وبعاداته ومعتقداته. ولعل مجال العلاقات الزوجية من أوضح المجالات التي تتأثر بالروائح؛ فقد ارتبطت الروائح عبر التاريخ بالإثارة الجنسية، فهي قد تكون منبهًا أو مثيرًا إيجابيًا، وقد تكون مُنفِّرًا في الوقت نفسه.

وكما هو الحال بالنسبة لاتجاهات الأفراد والجماعات بعضهم نحو بعض؛ يتأثر الإنسان وانطباعاته عن بعض الأماكن والبيئات والمجالات بروائحها. فالإنسان عادة يميل إلى إيجاد علاقة بين البيئات المختلفة والروائح المرتبطة بها سواء كانت روائح حقيقية أو مزعومة، ونتيجة لذلك يحاول الإنسان تجنب هذه البيئات والمشاعر المرتبطة بها كالروائح المنبعثة من المستشفيات، ودورات المياه، والمدابغ. فروائح هذه البيئات تؤثر في تشكيل إدراك الفرد لهذه الأماكن، واتجاهه نحوها، وبخاصة اذا ارتبطت بمؤثرات أو مواقف اجتماعية معينة، فالخبرات المؤلمة عن حجرة العمليات تؤثر في تشكيل بعض الاتجاهات ليس نحو هذا المكان فقط؛ بل نحو الروائح المنبعثة منه أيضًا.

وعلى العكس من الأماكن ذات الروائح الكريهة ينجذب الإنسان نحو الأماكن والبيئات والأشياء ذات الروائح العطرة؛ بل وتتكون لديه اتجاهات إيجابية عنها. فالروائح الخاصة ببعض الأماكن تثير لدى الشخص طبيعة الوظيفة الأساسية لهذه البيئة، فعندما يشم الشخص روائح المطهرات فإنها توحي إليه بالعمليات الجراحية والعلاج، وبمعنى آخر توحي إليه بالوظيفة التي يقوم بها المستشفى.

المراجع:

- د. نبيل صبحي حنا: أنثروبولوجيا جسم الإنسان، الكتاب السنوي لعلم الاجتماع، العدد السابع، أكتوبر 1984م، دار المعارف.
- مجلة المورد، العدد الرابع، بغداد 1985م.



العطور في القرآن الكريم والأدب العربي

يتخذ الطيب مكانة مرموقة في الإسلام، وقد جاء ذكره في مواضع متعددة من الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، في سياق وصف المؤمنين، وجوهر الإيمان، والتمييز بين الإثم والعمل الصالح، ولوصف نعيم الجنة الذي وعد الله به عباده المتقين. ومن تكريم الطيب والاهتمام به لدى المسلمين، جُعل الحنوط مما يرافق المسلم عند مماته وفراقه الدنيا، ليكون عطرًا، فيودعه إخوانه من المسلمين بالطيب في الكفن الأبيض، وبالدعاء له بالثبات.

ومما جاء في القرآن الكريم في معنى العطر والطيب عمومًا:
﴿فأمَّا إن كان من المُقرَّبين. فَرَوْحٌ وريحانٌ وجنةُ نعيم﴾ الواقعة:88-89. ﴿والحَبُّ ذو العَصْف والرَّيحانُ﴾ الرحمن:12. ﴿ختامُهَ مسْك وفي ذلك فَلْيَتَنَافسِ المتنافسُون﴾ المطففين:26. ﴿يابني آدم خُذُوا زينَتَكم عند كل مسجد﴾ الأعراف:31. ﴿ولَمَّا فصلت العيرُ قال أبوهُم إني لأَجدُ ريحَ يوسفَ لولا أن تُفَنِّدُون﴾ يوسف:94(1).

وتقول كتب التاريخ إنه، وفقًا لعادات العرب في الجاهلية وتقاليدهم الخاصة بأسلوب المعيشة والحياة اليومية، كانت الطبقة الغنية منهم مترفة في معيشتها ولباسها، وهم في العادة عِلْيَةُ القوم من حيث الحسب والنسب أيضًا. وكان التَّطيُّب عندهم من دلائل الغنى والنبل والترف، وهو علامة من علائم الفرح، وعدم استعماله دليل الحزن. وكان الطيب يُقدَّم للمعابد والأصنام في أيام الأعياد والمناسبات الدينية. ولهم في الطيب أمثال كثيرة.

أسماء الطيب وأنواعه وأدواته عند العرب

الترويح: رَوَّحَ الطيب: جعل فيه شيئا يفتق رائحته. والدهن المروح: المطيب.

التَّضَمُّخ: المبالغة من الضَّمْخ: يقال ضَمَخَ جسده بالطيب ضَمْخًا: لطّخه به في كثرة، فإذا بالغ في ذلك قيل: تضمَّخ تضمُّخًا

التطيب: طَيّبه بالطيب: ضَمَّخه به فتطيب.

التفغم: التلطخ بالطيب، فَغَمَه الطيبُ يفغَمُه فَغْمًا وفُغُوما، ملأ خياشيمه.

التلغم: تلغَّمت المرأة بالطيب: وضعته على ملاغمها، وهي الفم والأنف وما حولهما.

الجُونَة: التي يكون فيها الطيب.

الحَثْلب: هو الحثلم.

الحَفْش: وعاء نحو السَّفَط تجعل فيه المَرأة طيبها وحاجتها، أو الدرج يكون فيه البخور

الدِّمَام: الحمرة تزين بها المرأة وجهها. وكلُّ ماطُلي به.

الحثْلم: ما يتبقى في أسفل القارورة من عَكَر في بعض اللغات، وهو ما يتبقى في أسفل وعاء الدهن.

الذكور: ذكور الطيب، ما يصلح للرجال دون النساء.

الرائحة:النسيمُ طيبًا كان أونتنا، والرائحة: ريحٌ طيبة تجدها في النسيم. تقول: لهذه البقلة رائحة طيبة. ووجدت ريح الشيء ورائحته.

والدهن المُرَوَّح: المُطَيّب. ودهن مطيب مَروح الرائحة. وَرَوِّح دُهنَك بشيء تجعل فيه طيبًا.

وذَرِيرَة مُرَوَّحة : مطيبة.

الريحان : كل بقل طيب الريح، واحدته ريحانة. قال الشاعر:

بريحانة من بطن حَلْيَةَ نَوَّرَتْ
لها أَرَجٌ، ماحولَهَا، غيرُ مُسْنِت

والجمع رياحين. وقيل الريحان أطراف كل بقلة طيبة الريح اذا خرج عليها أوائل النَّوْر.

الريح: نسيم الهواء، وكذلك نسيم كل شيء، وهي مؤنثة. وفي التنزيل العزيز: «كمثل ريح فيها صِر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم» آل عمران: 117.

وأراح الشيء إذا وجد ريحه.

السَّهَك: سَهَكَ الشيء يسهَكُهُ سَهْكًا: لغة في سحقه. والسَّهَك: ريح كريهة تجدها من الإنسان إذا عَرِق، وهو كذلك ريح السمك وصدأ الحديد.

الصَّلاية: الصلاَية والصَّلاءَة: كل حجر عميق يُسحق عليه الطيب (مُدُقُّ الطيب) والجمع صليّ وصُلِيّ.

الظُّفْر: شيء من العطر أسود. القطعة منه شبيهة بالظفر. وقيل الأظفار جنس من الطيب لا واحد له من لفظة.

العبق: عَبِقَ به الطيب يَعْبَق عَبَقًا وعَبَاقة لزقَ به. ورجل عَبِق وامرأة عَبِقة: إذا تطيبا بأدنى طيب لم يذهب عنهما أياما.

العَسيل: مكنسة من شعر يكنس بها العطار بلاطة الطيب، وجمع عُسُل.

العرف: مصدر. والريح (طيبة أو منتنة وأكثر استعماله في الطيبة) فيقال: ما أطيب عرفه.

الفأرة: نافجة المسك.

الفتق: فَتَق المسكَ بالعنبر، يفتُقُه فَتْقًا: خلطه فذكت رائحته. والفتاق: أخلاط من أدوية تُفتق أي تخلَط بدهن الزئبق كي تفوح ريحه، وكذلك يقال لكل ما خلط من الطيب بعضه ببعض.

القَشْوَة: قُفَّة تجعل فيها المرأة طيبها وحاجتها، والجمع قَشَوات وقِشاء.

وفي القرآن الكريم: «ويُدْخِلُهُم الجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُم» محمد: 6. أي طيَّبها - عن ابن مسعود - عرفها أي بينها لهم حتى عرَّفها. ومن بعض ماجاء في لسان العرب في باب «رَوْحُ».

الكِبَاءُ: كل عطر يابس. وقيل عود البَخور، أو ضرب منه (الجمع كُبا).

المُدْهُن: قارورة الدهن وآلته.

الملاَب: كل عطر مائع. وقيل طيب، أو هو الزعفران، ويقال لوب الشيء: خلطه بالملاب، لوّب فلانًا: لطخه به.

والمِنْضَخَة: ما يُضَخُّ به. نضخ الشيء ينضخه نضخًا: بلله ورشه بماء أو طيب.

النافجة: وعاء المسك، وهي الجلدة التي يُجمَع فيها.

النَّضْح: الطيب السائل، وهو من المسك ما كان رقيقًا كالماء. والنضوح: ضرب من الطيب. وقد انتضح بالنَّضُوح.

النضخ: هو من الطيب ما كان غليظًا، أو كاللطخ مما يبقى له أثر في الجسد أو الثوب من الطيب ونحوه.

الهاون: الهاوَن والهاون والهاوون ما يُدَقّ فيه. والجمع هواوين. قال بن دريد : الهاوون بواوين عربي فصيح، قال أبو زيد إنه سمعه من أناس ولم يجيء غيره (2).

ومن الطريف أن عمليات استخلاص العطور والزيوت وصنع الأطياب والبخور كانت تناط بالمرأة؛ إذ قالوا إنها أكثر قدرة وإلمامًا بأمور المطبخ، لذا كانت عمليات الاستخلاص والطبخ من اختصاصها. وقد اشتهرت نساء كثيرات في هذه الصنعة، أمثال تابوتي Tapputi السومرية، وثيوسيبيا Theosebia أخت زسيموس في عصر مدرسة الإسكندرية، وكليوباترا الكيماوية، وماريا الموسوية. وكانت لهن براعة فائقة في تعيين نوع العطر وجودته، واستعملن الميزان لضبط مقادير المواد الأولية وكمية العطر المنتج منها.

وتعد مهنة بيع العطور من المهن المحترمة عند العرب. ويقال إن أبا طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم كان يبيع العطور وكان تاجرًا من تجارها. «وأسهمت نساء مكة في صدر الإسلام في هذه التجارة أيضًا. فكانت أسماء بنت مخربة أم أبي جهل تتاجر بالعطور والطيب، وكانت هند زوجة أبي سفيان تتاجر مع «كلب» أحد النازلين من بلاد الشام. وكانت خديجة رضي الله عنها تاجرة غنية وترسل الأمناء للاّتجار لحسابها. وقصة إرسالها الرسول الأمين في تجارتها معروفة في كتب السيرة»(3).

ومن النساء المعروفات في بيع العطور: «مَنشم» التي كانت مضرب الأمثالَ في الشؤم.

وقال فيها زهير بن أبي سلمى:

تداركتما عبسًا وذبيان بعد ما
تفانَوا ودقُّوا بينهم عِطرَ منشم(4).

ومن النساء الجاهليات من كن يضمخن أجسادهن بالعطور حتى إنهن كن ينشرن الطيب في الفراش. وفي ذلك قال أمرؤ القيس:

وتُضحى فتيتُ المسك فوق فراشها
نؤوم الضحى لم تنتطق عن تَفَضُّل

كمايقول في المعلقة نفسها:

كدأبك من أمّ الحويرث قبلها
وجارتها أمَ الرَّباب بمأسلِ
إذا قامتا تضوّعَ المسكُ منهما
نسيمَ الصَّبا جاءَتْ بريّا القَرَنفُلِ

ويذكر أن أول امرأة لبست المصبغات في الإسلام هي «شميلة» زوج العباس، وهي أول من عبأ الطيب(5).

ومما يذكره «هيرودوتس» في تاريخه، أن بلاد العرب كانت تفوح بالعطور والأطياب، وكانت المصدر الرئيس لإنتاج المر والقرفة واللادن واللبان. وأطلق اسم «بلاد الأطياب» على جنوبي الجزيرة العربية. وقد اشتهرت قبائل كثيرة بتجارة العطور، منها «قبائل السبأي» في حضرموت، التي كانت لها الصدارة في تجارة اللبان والعطور. ومازالت مصدرًا مهمًا في تجارة اللبان والقرفة وغيرها، لكثرة أشجارها العطرية وتنوع أصنافها. وكان المصريون القدماء يستوردون اللبان من جنوبي الجزيرة العربية حيث كانوا يحرقونه في هياكلهم ويستعملونه في تحنيط موتاهم.

وفي التاريخ أيضًا: حلف المطيبين وأصله أنه لما رأت بنو عبد مناف أخذ ما في أيدي بني عبد الدار من الحجابة والرفادة واللواء والسقايه، وأبى بنو عبدالدار، عقد كل قوم على أمرهم حلفًا مؤكدًا على ألا يتخاذلوا، ثم خلطوا أطيابًا وغمسوا أيديهم فيها وتعاقدوا ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدًا فسُمُّوا المطيبين. وتعاقدت بنو عبدالدار وحلفاؤها حلفًا آخر مؤكدًا فسُمُّوا الأحلاف. وكان النبي الكريم صلى الله عليه وسلم من المطيبين.

ويقول التاريخ إنه عندما عاد الصليبيون إلى بلادهم حملوا إلى زوجاتهم العطور وأسرار الزينة من الشرق، وسرعان ما لاقت هذه العطور انتشارًا واسعًا، وعمد الأوروبيون بعد الحروب الصليبية إلى تحضير العطور بأيديهم، وظلّوا يأخذون من الشرق موادها الأولى، وما إن أقبل القرن الخامس عشر الميلادي حتى كانت صناعة

كان المصريون القدماء يستوردون اللبان من الجزيرة العربية حيث كانوا يحرقونه في معابدهم

العطور قد انتشرت في فرنسا وإيطاليا وغيرهما. وقد اشتهر الإيطاليون - وقتئذ - بتحضير أجود أنواع العطور، وأخذ الملوك يتسابقون إلى استخدامها في قصورهم، وكان ملوك فرنسا دائمًا يجيئون بواحد أو أكثر من صنّاع العطر لإدارة مصنع العطور في القصر الملكي. وفي القرن السابع عشر كانت المرأة الفرنسية تهتم اهتمامًا كبيرًا باستعمال العطور، وكثيرًا ما كانت تسكب على نفسها زجاجات كاملة من هذه العطور، وما إن جاء القرن الثامن عشر حتى عمّ استخدام العطر في إنجلترا، مما اضطر الرجال في بريطانيا إلى مطالبة البرلمان بتشريع يحميهم من إغراء تلك العطور التي كانت تملأ ملابس النساء وشعورهن، وقد أصدر البرلمان الإنجليزي بالفعل في عام (1770م) قانونًا يحرّم استعمال العطر ومواد التجميل التي من شأنها إخفاء العيوب البدنية.

ومن القصص عن الطيب في التاريخ، وفي تاريخ دولة الأندلس بخاصة، تلك القصة التي تعرف بـ«يوم الطين». فقد قيل: «إن اعتماد الرميكية زوجة المعتمد بن عباد رأت بعض نساء البادية في أشبيلية يبعن اللبن في القرَب وهن ماشيات في الطين، وأرجلهن ملطخة به، فاشتهت أن تفعل فعلهن، وطلبت ذلك من المعتمد، فأمر بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد، وصيّرها جميعًا طينًا في قصره، وجعل لها قربًا وحبالاً من إبريسم، فخاضت الرميكية وبناتها وجواريها في ذلك الطين»(6). ومما له علاقة بهذه القصة التي تعكس البذخ والإسراف، أن اعتماد الرميكية غضبت ذات يوم من المعتمد، وقالت له: انني لم أذق يومًا طيّبًا معك، ولم يكن من المعتمد إلا أن رد عليها بقوله: حتى يوم الطين؟

قصة «يوم الطين» بين المعتمد بن عباد وزوجته مثال يدل على البذخ والإسراف في استعمال العطور

وجاء ذكر الطيب على لسان الشعراء منذ العصور الأولى، وقد تمادحت العرب بحسن الهيئة وطيب الرائحة، فقال النابغة الذبياني:

رقاقُ النّعال طيّبٌ حُجُراتُهم
يُحَيَّوْنَ بالرَّيحان يوم السباسبِ

وقال طرفة بن العبد:

ثم راحوا عَبِقَ المسكُ بهم
يَلحَفونَ الأرضَ هُدَّابَ الأُزُرْ

وقال كعب بن زهير يمدح قومًا:

المطعمون إذا ما أَزْمَةٌ أزمَتْ
والطيّبون ثيابًا كلما عَرِقُوا

وقال أبو الطيب المتنبي:

قَلَقُ المليحة وهي مسْكٌ هتكها
ومَسيرُها في الليل وهي ذُكَاء

وفي مثل هذا المعنى قال البحتري:

وحاولن كتمان الترحُّل في الدجى
فنمَّ بهن المسك لما تَضَوَّعا

وقال أبو حيان التوحيدي:

حمراء مصفرة الأحشاء باعثة
طيبًا تخال به في البيت عَطَّارا
كأن في وجهها تِبرًا يخلّصه
قين يُضرِم في أفنائه النارا

ومما قاله ابن الرومي (في الوصف):

لها ريق تشفّ له الثنايا
وتروي عنه لا منه الظِّماءُ
وأنفاس كأنفاس الخُزَامى
قُبيل الصبح جَلَّتها السماء
تنفَّس نَشرُهَا سحرًا فجاءت
به سحريَّةَ المسرى رُخَاءُ

وقال ابن زيدون لما بعث إليه المعتضد بطيب وبخور، ودعاه إلى حمام قصره:

رضاكَ لنا - قَبْل الطَّهُور - مُطَهِّرٌ
و قُربُك - من دُون البَخُور - مُعَطِّرُ
فلو عزَّ حمَّامُ لأدْفأنا ذُرًا
يَفيضُ به ماءُ النَّدى المُتفجر
ولو لم يكُن طِيبٌ لأغنَتَ حفاوةٌ
تُمسّكُ مِنْها حَالُنا وتُعنْبَرُ

وقال أيضا:

راحتْ فراحَ بها السَّقيمْ
ريحٌ معطَّرةُ النَّسيمْ
مَقْبولةٌ هبّتْ قُبُولاً
فهي تعبقُ في الشَّمِيمْ
أفضيضُ مِسْكٍ أم بَلَنْـ
سيةٌ لريّاها نَميمْ

وقال ابن خفاجة:

وخيرية بين النسيم وبينها
حديث إذا جَنَّ الظلام يطيبُ
لها نفسٌ يسري مع الليل عاطرٌ
كأن له سرًا هناك يُريبُ

وقال في صفة باقة ريحان مطيَّب وقد وَرَدَ ليلاً:

لك الله من سَارٍ ألمَّ مُسلِّم
فناب وراء الليل عن أمِّ سالم
يجول به ماءُ النضارة والندى
كما جالَ ماءُ البشر في وجه قادم
تنفَّس يَهدي عن حبيب تحية
هززنا لها طربًا فضول العمائم
يذكّرنا ريَّا الأحبة نفحه
فنذكُره بالدَّمع سقيا الغمائم

وكان للعطارين العرب والمسلمين أسلوب خاص في حفظ العطور والطيب كل حسب نوعه وجنسه. «وقد كانت صناعة القناني وزجاجات الزينة والبلور وماشابهها من الأدوات الزجاجية معروفة في بغداد وفي كثير من المدن الإسلامية، وقد تفنن صناع الزجاج في هذه الصنعة التي تحتاج إلى المهارة في العمل وإلى الدقة في الفن. وكانت تحفظ الدهان في أوان متنوعة الأشكال والألوان. وكانّ «ماء الورد» يحفظ في قوارير من البلور الملوَّن وغير الملون، أو يحفظ في أباريق صغيرة من فضة أو نحاس أو بلور. وهذه الأباريق تزخرف عادة بألوان خلابة أو صور جميلة، ويرشُّ منها ماء الورد على الضيوف. ولا تزال هذه العادة متبعة في الدواوين والمحافل في جميع أرجاء البلاد العربية.

وقد حفظت العطور الغالية الثمن في زجاجات رقيقة، تزين سطوحها نقوش جميلة، وصور لحيوانات نادرة ومحببة، كالطيور المغردة، والصقور، والأسود والغزلان وغيرها. وقد تنقش عليها أبيات من الشعر الغنائي الرقيق أو الأمثال والحكايات الممتعة»(7).

الهوامش:

1- معجم ألفاظ القرآن الكريم، طبعة منقحة، مجمع اللغة العربية، القاهرة.

2- حسين يوسف موسى وعبدالفتاح الصعيدي، الإفصاح في فقه اللغة، ج1 ط1 ص257 القاهرة 1964م، نقلاً عن مواضع من مادة (روح) في لسان العرب.

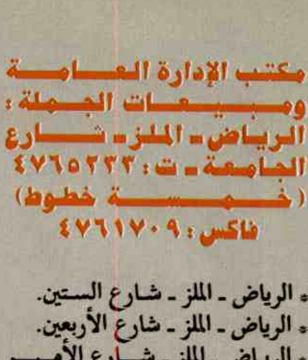
3- جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص63، بغداد 1971م.

4- منشم: امرأة عطارة، وقصتها: أن قوما تحالفوا فأدخلوا أيديهم في عطرها ليتحرموا به، ثم خرجوا إلى الحرب فقُتلوا جميعًا، فتشاءمت بها العرب، وصار عطرها مضرب الأمثال في الشؤم. وفي الكتب قصص كثيرة عنها وعن أصلها وعن عطرها، ويجمعها التشاؤم بعطرها.

5- القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص425.

6- خيرالدين الزركلي، الأعلام، ص2. وزينب فواز، الدّر المنثور في طبقات ربات الخدور، ج1، تحقيق ونشر: عبدالعزيز محمد النصار.

7- مخائيل عواد، صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي، بغداد 1982م.



بمناسبة شهر رمضان المبارك

تخفيضات حقيقية تصل إلى ٥٠٪

بالشركة العربية لتجارة العود والعطورات الشرقية

مكتب الإدارة العامة ومبيعات الجملة: الرياض - الملز - شارع الجامعة - ت: ٤٧٦٥٢٣٣ (خمسة خطوط) فاكس: ٤٧٦١٧٠٩

- الرياض - الملز - شارع الستين.
- الرياض - الملز - شارع الأربعين.
- الرياض - الملز - شارع الأمير عبدالمحسن.
- الرياض - العليا - أسواق العويس.
- الرياض - العليا - العقارية القديمة.
- الرياض - العليا - أسواق الأندلس.
- الرياض - العليا - مجمع العروبة بلازا.
- الرياض - العليا (بجوار السيفوي).
- الرياض - الروضة - أسواق الشرقي.
- الرياض - الروضة - أسواق السدحان.
- الرياض - الروضة - شارع الحسن بن علي.
- الرياض - النسيم - أسواق حجاب.
- الرياض - الربوة - شارع الأربعين.
- الرياض - الربوة - سوق الرياض بلازا.
- الرياض - ظهرة البديعة - أسواق اليمامة.
- الرياض - ظهرة البديعة - أسواق ريمان.
- الرياض - ظهرة البديعة - أسواق الحرمين.
- الرياض - طريق مكة - أسواق القدس.
- الرياض - السويدي - شارع السويدي العام.
- الرياض - الديرة - أسواق سويقة.
- الرياض - الشفا - أسواق العودة.

الإدارة الاقليمية - المنطقة الغربية: جدة - الخاسكية - مركز النشارات: ٦٤٨٥٠٨٥

- جدة - مركز الشرق الأوسط.
- جدة - أسواق الشرق - شارع المكرونة.
- جدة - شارع حراء.
- جدة - مركز الحمراء.
- مكة - شارع العزيزية العام.
- مكة - مركز فقيه التجاري.
- مكة - سوق السلام التجاري.
- مكة - مركز مكة الجديد - مقابل الحرم.

الإدارة الإقليمية - المنطقة الشرقية:

- الدمام - شارع ١٤ - ت: ٨٣٣٠٩٩٨

- الدمام - شارع الملك فهد.
- الدمام - سوق الحب.
- الخبر - مركز الخبر بلازا.
- الخبر - مجمع الراشد التجاري.
- الثقبة - شارع مكة.

القصيم - بريدة - شارع الملك عبدالعزيز.

- بريدة - شارع الملك عبدالعزيز.
- بريدة - شارع الصناعية.
- بريدة - شارع التلفزيون.
- بريدة - فرع مكتبة الرشد.
- عنيزة - مركز الشرق الأوسط.
- الرس - الشارع التجاري.
- الرس - شارع القدس.

حائل - ميدان برزان.

- حائل - شارع البلدية.
- حائل - شارع الثلاثين.
- حائل - بقعاء.

تبوك - شارع الإمارة.

حفر الباطن - شارع المل[...]
عبدالعزيز[...]
المجمعة - شارع الملك فيصل[...]
المدينة المنورة - مركز طيبة[...]
وادي الدواسر - سوق الخماسين[...]
سنغافورة - نورث بريدج رو[...]
بانكوك - المصنع العربي[...]
لدهن العو[...]
دبى - سوق مرشد[...]



العطور في السنة النبوية الشريفة



أطيب الطيب:

قيل هو المسك، لما رواه مسلم في صحيحه: «والمسك أطيب الطيب»(1). قال الإمام النووي: فيه أنَّه أطيب الطيب وأفضله، وأنه طاهر يجوز استعماله في البدن والثوب ويجوز بيعه، وهذا كله مجمع عليه(2).

والراجح أن أطيب الطيب هو عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم وريحه الشريف؛ لما رواه مسلم في صحيحه عن أنس، رضي الله عنه، قال: «ما شَممتُ عنبراً قط ولا مسكًا ولا شيئًا أطيبَ منَ ريح رسول الله صلَى الله عليه وسلم»(3).

وعن أم سليم رضى الله عنها أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «هذا عَرَقُك نجعله في طيبنا وهو من أطيب الطِّيب»(4). (انظر أيضًا: عنبر، مسك).

أظفار:

عن أم عطية رضي الله عنها قالت: «وقد رُخِّصَ لنا عند الطُّهر إذا اغتسلت إحدانا من حيضها في نبذة من كُسْتِ أظفار(5).

قال الحافظ ابن حجَر (باب الطيب للمرأة): المراد بالترجمة أن تَطَيُّبَ المرأة عند الغسل من الحيض متأكد بحيث إنه رخص للحادة التي حرم عليها استعمال الطيب في شيء منه مخصوص(6).

وقال الحافظ: في ضبط ظفار وجهان: كسر أوله وصرفه أو فتحه والبناء بوزن قَطَام.

وقال في المشارق: القسط بخور معروف وكذلك الأظفار.

وقال في البارع: الأظفار ضرب من العطر يشبه الظفر.

وقال صاحب المحكَم: الظفر ضرب من العطر أسود مغلف من أصله على شكل ظفر الإنسان يوضع في البخور، والجمع أظفار.

قال الحافظ: الكُسْت بضم الكاف وسكون المهملة بعدها مثناه هو القُسْط.

قال المهلب: رخص لها في التبخر لدفع رائحة الدم عنها لما تستقبلهُ من الصلاة(7).

الألُوَّة:

عن نافع قال: «كان ابن عمر إذا استجمر استجمر بالألُوَّة غير مُطَرَّاة وبكافور يطرَحُه مع الألوَّة ثم قال: هكذا كانَ يستجمر رسول الله صلى الله عليه وسلم»(8).

قال الإمام النووي: الاستجمار هنا استعمال الطيب والتبخر به مأخوذ من المجمر وهو البخور، وأما الألُوَّة فقال الأصمعي وأبوعبيدة وسائر أهل اللغة والغريب: هي العود يتبخر به. وغير مطراة: أي غير مخلوطة بغيرها من الطيب.

«ففي هذا الحديث استحباب الطيب للرجال، كما هو مستحب للنساء، لكن يستحب للرجال من الطيب ما ظهر ريحه وخفي لونه. ويتأكد استحبابه للرجال يوم الجمعة والعيد وعند حضور مجامع المسلمين ومجالس الذكر والعلم وعند إرادته معاشرة زوجته ونحو ذلك »(9). (انظر أيضًا: كافور).



خَلُوق:

عن يعلى بن مُرَّة أنه مرَّ على النبى صلى الله عليه وسلم وهو مُتَخلِّق فقال له: «هل لك امرأة» قلت: لا، قال: «فاغسله ثم اغسله ثم لا تَعُد»(10).

قال الإمام السندي: خلوق: بفتح خاء معجمة آخره قاف: طيب يتركب من زعفران وغيره. ويدل الحديث على شدة كراهة استعمال ماله لون للرجال(11).

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الخَلُوق بمنزلة

الدم» يعني في العقيقة(12). وذلك لأن العرب في الجاهلية كانوا يذبحون شاة عن الغلام ويلطخ رأسه بدمها. فجعل الإسلام الطيب مكان الدم.

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: «فأمرهم النبى صلى الله عليه وسلم أن يجعلوا مكان الدَّم خلوقا»(13). (انظر أيضًا: الزعفران).



الذَّرِيرة:

عن عائشة قالت: «طيبتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي بذريدة في حجة الوداع للحل والإحرام»(14).

قال الحافظ: ذريرة بمعجمة وراءين بوزن عظيمة، وهي نوع من الطيب مركب.

قال الداودي: تجمع مفرداته ثم تسحق وتنخل ثم تذر في الشعر والطوق، فلذلك سميت ذريرة.

وقال الحافظ: وعلى هذا فكل طيب مركب ذريرة، لكن الذريرة نوع من الطيب مخصوص يعرفه أهل الحجاز وغيرهم.

وجزم غير واحد منهم النووي بأنه فتات قصب طيب يجاء به من الهند(15).



الريحان:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ عُرض عليه رَيْحَانٌ فلا يَرُدُّه فإنه خفيف المَحْمل طيّب الريح»(16).

قالَ الإمام النووي: «أما الرَّيحان فقال أهل اللغة وغريب الحديث في تفسير هذا الحديث: هو كل نبت مشموم طيب الريح. قال القاضي عياض: ويحتمل عندي أن يكون المراد به في هذا الحديث الطيب كله. وقد وقع في رواية أبي داود في هذا الحديث: من عرض عليه طيب(17).

وفي رواية البخاري: كان النبى صلى الله عليه وسلم لا يرد الطيب.

وفي هذا الحديث كراهة رَدِّ الرَّيحان لمن عُرض عليه إلا لعذر(18).

قال الحافظ ابن حجر: «الريحان: كل بقلة لها رائحة طيبة. قال المنذري: ويحتمل أن يراد بالريحان جميع أنواع الطيب يعني مشتقًا من الرائحة. والذين رووه بلفظ الطيب أكثر عددًا وأحفظ، فروايتهم أولى، وكأن من رواه بلفظ ريحان أراد التعميم حتى لا يخص بالطيب المصنوع(19).



الزعفران:

كان ابن عمر يصبغ ثيابه بالزعفران فقيل له، فقال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَصْبُغُ(20).

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يزعفر الرجل جلده(21).

قال السندي: صريح في أن المنهيّ عنه هو استعمال الزعفران في البدن(22).

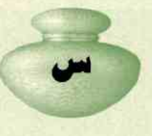
وعن أبي بريدة: «كنا في الجاهلية إذا وُلد لاحدنا غلام ذبح شاة ولطخ رأسه بدمها، فلما جاء الله بالإسلام كنا نذبح شاة ونحلق رأسه ونلطخه بزعفران(23).

و«نهى النبى صلى الله عليه وسلم أن يتزعفر الرجل»(24).

قال الحافظ: أي في الجسد.. وقيده بالرجل ليخرج المرأة. واختلف في النهي عن التزعفر هل هو لرائحته لكونه من طيب النساء، ولهذا جاء الزجر عن الخَلُوق، أو للونه فيلتحق به كل صفرة؟(25).

ونهى النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يلبس المحرم ثوبًا مصبوغًا بورس أو بزعفران(26).

قال الحافظ: وقد أخذ من التقييد بالمحرم جواز لبس الثوب المزعفر للحلال. قال ابن بطال: أجاز مالك وجماعة لباس الثوب المزعفر للحلال. وقالوا: إنما وقع النهي عنه للمحرم خاصة، وحمله الشافعي والكوفيون على المحرم وغير المحرم. ولكن حديث ابن عمر الدال على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يصبغ بالصفرة، يدل على الجواز(27). (انظر أيضًا: الورس).



السِدْر:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في غُسل ابنته زينب: «اغسلنها ثلاثًا أو خمسًا أو أكثر من ذلك إن رأيتنَّ ذلك بماء وسدر»(28).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمرأة المغتسلة من دم الحيض: «تأخذ إحداكن ماءها وسِدْرَتَها فَتَطَهَّرُ فَتُحسِنِ الطُّهُور»(29).

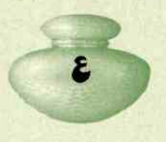
سدرتها: السدرة شجر النبق. والمراد هنا ورقها الذي ينتفع به في الغسل.

وسألت أم سلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف أمتشط؟ وهي حادة على زوجها أبي سلمة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بالسدر تُغلِّفين به رأسَك»(30).

سُكَّة:

عن أنس بن مالك قال: «كانت للنبى صلى الله عليه وسلم سُكَّة يتطيب منها»(31).

السُّكَّة: بضم السين وتشديد الكاف نوع من الطيب عزيز. وقيل: الظاهر أنه وعاء فيه طيب مجتمع من أخلاط شتى.



العنبر:

في حديث طويل عن جابر بن عبدالله رضى الله عنه قال: «فألقى لنا البحر دابة يقال لها العنبر»(32).

قال الحافظ ابن حجر: قال أهل اللغة:

العنبر سمكة بحرية كبيرة يتخذ من جلدها الترسة، ويقال إن العنبر المشموم رجيع هذه الدابة.

قال ابن سينا: بل المشموم يخرج من البحر، وانما يؤخذ من أجواف السمك الذي يبتلعه.

ونقل الماوردي عن الشافعي: سمعت من يقول: رأيت العنبر نابتًا في البحر ملتويًا مثل عنق الشاة، وفي البحر دابة تأكله وهو سم لها فيقتلها فيقذفها، فيخرج العنبر من بطنها»(33).

وسئلت عائشة رضى الله عنها: أكان الرسول صلى الله عليه وسلم يتطيب، قالت: «نعم بذكَارَة الطيب: المسك والعنبر»(34).

بذكَارة الطيب: مايصلح للرجال كالمسك والعنبر والعود والكافور وهي جمع ذكر، وهو مالا لون له. والمؤنث طيب النساء كالخلوق والزعفران(35). (انظر ايضًا: أطيب الطيب).

العود الهندي:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عليكم بهذا العود الهندي فإن فيه سبعة أشفية»(36).

قال أبو بكر ابن العربي: القسط نوعان: هندي وهو أسود، وبحري وهو أبيض. والهندي أشدهما حرارة(37) وهو الكُسْت. (انظر أيضًا: أظفار).



الكافور:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في تغسيل ابنته زينب: «واجعلن في الآخرة كافورًا»(38).

قال الحافظ ابن حجر: قيل الحكمة في الكافور مع كونه يطيب رائحة الموضع لأجل من يحضر من الملائكة وغيرهم أن فيه تجفيفًا وتبريدًا وقوة نفوذ، وخاصيّة في تصليب بدن الميت، وطرد الهوام عنه، وهو أقوى الأراييح الطيبة في ذلك. وهذا هو السر في جعله في الأخيرة، إذ لو كان في الأولى مثلاً لأذهبه الماء.

هل يقوم المسك مثلاً مقام الكافور؟ إن نُظر إلى مجرد التطيب فنعم. وإلا فلا، وقد يقال إذا عدم الكافور قام غيره مقامه ولو بخاصية واحدة مثلاً(39).



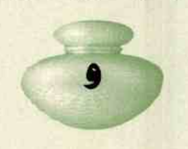
المسْك:

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «ما من مكلوم يُكَلمُ في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة وكَلْمهُ يَدْمَى، اللونُ لونُ دم، والريحُ ريحُ مسك». وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير»(40).

قال الحافظ: (المسك) بكسر الميم: الطيب المعروف. وقال الكرماني: مناسبة ذكره في الذبائح أنه فضلة من الظبي.

قال الحافظ: والمشهور أن غزال المسك كالظبي، لكن لونه أسود، وله نابان لطيفان أبيضان في فكه الأسفل، وأن المسك دم يجتمع في سُرَّته في وقت معلوم من السنة، فإذا اجتمع وَرِم الموضع فمرض الغزال إلى أن يسقط منه. وعن علي بن مهدي الطبري الشافعي: أنها تلقيها من جوفها كما تلقي الدجاجة البيضة.

قال النووي: أجمعوا على أن المسك طاهر يجوز استعماله في البدن والثوب، ويجوز بيعه. ونقل أصحابنا عن الشيعة فيه مذهبًا باطلاً(41). (انظر: أطيب الطيب).



الوَرْس:

نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلبس المحرم ثوبًا مصبوغًا بزعفران أو ورس(42).

قال النووي في شرح صحيح مسلم: أجمعت الأمة على تحريم لباسهما لكونهما طِيبًا، وألحقوا بهما جميع أنواع ما يقصد به الطيب. وسبب تحريم الطيب أنه داعية إلى الجماع، لأنه يُنافي تذلل الحاج(43).

المراجع والهوامش:

1- صحيح مسلم بشرح النووي، ك: الفضائل، باب: استعمال المسك وأنه أطيب الطيب وكراهة رد الريحان والطيب، ج15ص8.
2- صحيح مسلم بشرح النووي 8/15.
3- صحيح مسلم بشرح النووي، ك:الفضائل، باب: طيب ريحه صلى الله عليه وسلم ولين مسه. ج15ص85.
4- صحيح مسلم بشرح النووي، ك: الفضائل، باب: طيب عرقه صلى الله عليه وسلم والتبرك به، ج15ص86،87.
5- فتح الباري شرح صحيح البخاري: ك الحيض، باب: الطيب للمرأة عند غسلها من الحيض، ج1ص413.
6- سنن النسائي: ك الطلاق، باب: القسط والأظفار للحادة (سنن النسائي ج5 ص206 كتاب الطلاق، وفتح البارى 413/1).
7- فتح الباري1/414.
8- صحيح مسلم، ك: الفضائل، باب: استعمال المسك وكراهة رد الريحان والطيب.
9- صحيح مسلم بشرح النووي 10/15.
10- سنن النسائي: ك الزينة، باب: التزعفر والخلوق 152/8.
11- حاشية السفدي على سنن النسائي 152/8.
12- رواه ابن عربي عن ابن عباس.
13- رواه البزار في مسنده.
14- صحيح البخاري: ك اللباس، باب الذريرة.
15- فتح البارى 371/10.
16- صحيح مسلم، ك: الفضائل، باب: استعمال المسك وكراهة رد الريحان والطيب.
17- صحيح مسلم بشرح النووي 9/15.
18- صحيح مسلم بشرح النووي 10/15.
19- فتح الباري 371/10.
20- سنن النسائي: ك: الزينة، باب: الزعفران، 150/8.
21- سنن النسائي: ك: الزينة، باب: الزعفران.
22- حاشية السندي على سنن النسائي 189/8.
23- سنن أبي داود: ك: الاضاحي ح 2843.
24- صحيح البخاري: ك اللباس، باب: النهى عن التزعفر للرجال.
25- فتح الباري 304/10.
26- صحيح البخاري: ك: اللباس باب: الثوب المزعفر. وصحيح مسلم: ك: الحج، باب: ما يباح لبسه للمحرم بحج أو عمرة، ج8ص:73وما بعدها.
27- فتح الباري 305/10.
28- صحيح البخاري: ك: الجنائز، باب: غسل الميت ووضوئه بالماء والسدر.
29- صحيح مسلم: ك: الطهارة باب: استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فِرْصَةً من مسك في موضع الدم.
30- سنن النسائي: ك: الطلاق، باب: الرخصة للحادة أن تمتشط بالسدر.
31- سنن أبي داود: ك: الترجل، باب: ما جاء في استحباب الطيب.
32- صحيح البخاري، ك: المغازي، باب: غزوة سيف البحر.
33- فتح الباري 8/79-80.
34- سنن النسائي: ك: الزينه، باب: العنبر.
35- حاشية السندي على سنن النسائي 150/8.
36- صحيح البخاري، ك: الطب، باب: السَّعوط بالقُسْط الهندي والبحري.
37- فتح الباري 148/10.
38- انظر هامش (28).
39- فتح الباري 129/3.
40- صحيح البخاري، ك: الذبائح والصيد، باب: المسك.
41) فتح الباري 660/9.
42- صحيح مسلم: ك: الحج، باب: مايباح لبسه للمحرم من حج أو عمرة.
43- صحيح مسلم بشرح النووي 75/8.

رمضان شهر الإيمان الكامل

د. محمد بن لطفي الصباغ

إنَّ شهر رمضان شهر عظيم مبارك، جعل الله صيامه فريضة وركنًا من أركان الإسلام، وقيام ليله تطوّعًا. وهو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة، فيه ليلة خيرٌ من ألف شهر. أُنزل فيه القرآن: ﴿شَهرُ رمضان الّذي أُنزلَ فيه القرآنُ هُدًى للناس وبيّنات من الهُدى والفرقان﴾ البقرة: 185. وهوَ شهر أوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار.

كتب الله علينا صيامه لنبلغ به منزلة التقوى: ﴿ياأيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كُتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾البقرة:182.

وهو شهر الجود وفعل المعروف والإكثار من الخير؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجودَ الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجودُ بالخير من الريح المرسلة» متفق عليه(1).

ومن فطّر فيه صائمًا كان مغفرة لذنوبه، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء: فعن زيد بن خالد الجهنيّ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَنْ فَطَّرَ صائما كان له مثل أجره، غير أنه لاينقص من أجر الصائم شيء» رواه أحمد وابن ماجه وابن حبان والترمذي(2) وقال: حديث حسن صحيح.

وصوم رمضان ركن من أركان الإسلام الخمسة كما جاء في حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «بُنيَ الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان» متفق عليه(3).

إن هذه الفريضة المحكمة، فريضة الصيام، عبادةٌ من العبادات التي ترمي إلى تزكية النفس والبلوغ بها منزلة التقوى، وإنها لمنزلة رفيعة، وهذا هو الذي صرحت به الآية الكريمة التي ذكرناها آنفًا: ﴿...لعلكم تتقون﴾.

حب الله وتأييده

أجل إن منزلة التقوى التي يحققها الصيامُ، إن أُدّي كما أمر اللهُ ورسوله، منزلةٌ رفيعة، تجعل صاحبها محبوبًا من الله، مؤيَّدًا بتأييده؛ قال تعالى: ﴿بلى من أوفى بعهده واتَّقى فإنّ الله يحبُّ المتقين﴾ آل عمران:76. وقال سبحانه: ﴿واتَّقُوا اللهَ واعلموا أنَّ اللهَ مع المتَّقين﴾ البقرة:194.

ومن أحبه الله وكان معه كان موفَّقًا محبوبًا سعيدًا مسرورًا. لاتواجهه عقبة إلا ذللها الله، ولايصيبه همٌّ إلاّ فرّج الله عنه، ولا تحلّ به فاقة. وهو في الآخرة من المفلحين الناجين. قال تعالى: ﴿ومن يتّق الله يجعل له مخرجًا. ويرزقه من حيثُ لايحتسب..﴾ الطلاق:2-3. وقال: ﴿ومن يتّق الله يجعل له من أمره يُسْرًا. ذلك أمْرُ الله أنزله إليكم ومَنْ يتَّق الله يُكفِّرْ عنه سيئاته ويُعظمْ له أجرًا﴾ الطلاق:4-5. وقال: ﴿للّذين اتّقوا عند ربِّهم جنّاتٌ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها وأزواجٌ مُطهَّرة ورضوانٌ من الله والله بصيرٌ بالعباد﴾ آل عمران:15.

والمجتمع الذي يتصف أفراده بالتقوى مجتمع مثالي تسود فيه الفضيلة، وتنعدم فيه الرذيلة، ويعمّ فيه الرخاء والتعاون، ويخلو من الجريمة والفساد. وترفرف على أهله الطمأنينة والسعادة والحب والفلاح.

إنَّ العبادات كلها ـ ومنها الصيام ـ تؤدي ـ متعاونة ـ أغراضًا مهمة كثيرة، يصعب حصرها واستقصاؤها، منها تربية الفرد الصالح والمجتمع الصالح.

فالفرد هو اللبنة التي يقوم بها وبأمثالها بناء المجتمع، ولاتصلح الأمة في مجموعها ما لم تكن تصلح في أفرادها.

إن الخصلة المهمة التي يحققها الصوم في الفرد أولاً، ثم في المجتمع بعد ذلك هي مخافة الله والرغبة فيما عنده. فالخوف والرجاء أمران لابد من أن يتحققا في الفرد المسلم ليكون مسلمًا صالحًا، وهما يبلغان به منزلة التقوى، وقد قُرنت مغفرة الله بعذابه في عدد من الآيات القرآنية. ومن ذلك قوله

...والصلاح الشامل

تعالى: ﴿نبِّئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم. وأنَّ عـذابي هو العـذاب الأليم﴾ الحجر:49-50. وقوله تعالى: ﴿اعلموا أن الله شديد العقاب وأنّ الله غفورٌ رحيم﴾ المائدة:98.

مراقبة الله ومحاسبة النفس

فالخوف من الله والرغبة فيما أعده للصائمين من الثواب يحملان الصائم على الامتناع من تناول المفطرات في السر والعلن.

إن الصوم ينمي في الصائم مراقبة الله وابتغاء ما عنده، ولا يتأتى فيه الرياء، إن الإنسان إذا دخل بيته، وأغلق عليه بابه، فإنه لايراه من الناس أحد، ولايطلع عليه من البشر مخلوق.. ومع هذا فإنَّ الصائم يمسك عن الطعام الشهي، والماء البارد على الرغم من الجوع والظمأ، والطعام مبذول والشراب مبذول، يمتنع عن ذلك لأنه يعلم أن الله ناظر إليه مطلع عليه، إنه سبحانه: ﴿يعلمُ خائنةَ الأعيُنِ وما تُخفي الصدور﴾ غافر:19. وقال تعالى: ﴿إنها إنْ تكُ مثقالَ حبَّة من خَرْدَل فتكُن في صخرة أو في السماواتِ أو في الأرض يأت بها الله إنّ الله لطيف خبير﴾ لقمان16.

إن مراقبة الله لتحجز المسلم عن المعاصي، وتحول بينه وبين التقصير في أداء الواجبات، ولا تزال هذه المراقبة تسمو بالمسلم حتى تتجسد في سلوكه الفضيلة والاستقامة والأخلاق الكريمة.

إن هذه المراقبة إذا قامت في حياة الصائمين شهرًا كاملاً لابُدّ أن تترك آثارًا قد تستمر بعد انقضاء شهر رمضان، وعندئذ لن تكون هناك مخالفات كثيرة لما يأمر به الشرع، ولا خروج على أحكام الدين في المعاملات، ولا عدوان على الأرواح والأموال والأعراض، ولا تقاعس عن أداء الواجب وفعل المعروف، وإغاثة الملهوف، ووجوه الخير الأخرى.

إن احتياج المسلم في هذا العصر إلى أن تنمو مراقبة الله عز وجل في نفسه احتياج كبير، لأن الأساليب الشيطانية في الإغواء تحيط به من كل جانب، ولاينجو منها إلا من رزقه الله المراقبة الحية المستمرة.

علاج لضعف الإرادة

وإن من اثار الصيام المباركة تقويته لإرادة الصائم الخيِّرة، ولهذا الأثر دور كبير في الإصلاح، ذلك لأن سبب الانحراف عند كثير من الناس كامن في ضعف الإرادة الخيِّرة لديهم أمام الشهوات والمصالح. إن السواد الأعظم يعرفون الضار والنافع، والحرام والحلال، ولكن كثيرا من النفوس تضعف أمام المغريات، فتنتصر الشهوة والمصلحة على الإرادة الخيِّرة، ويقع أصحاب هذه النفوس في الحرام وهم يعلمون أنه حرام، ويحيق بهم الضرر في تناول الضار الذي يعرفون ضرره.

ولو كانوا يملكون الإرادة القوية لاستطاعوا أن ينتصروا على الشهوات وألاّ يتأثروا بسلطان المغريات.

والأمثلة على ذلك كثيرة نكتفي بالتذكير بواحد منها، وهو التدخين. فمعظم المدخنين يعرفون ضرر الدخان، وقد يقاسي بعضهم من آثاره ما ينغص عليه حياته، ويحرمه لذة النوم، ومع ذلك فهو لايستطيع أن يتخلص من هذه العادة.

تقوية الصبر والاحتمال

ومن آثار الصيام التعويد على الصبر والاحتمال، وهل الصوم إلاّ صبر على طاعة، وصبر عما لايباح من محرّمات الصيام، وقد سمّى رسول الله صلى الله عليه وسلم شهر رمضان: شهر الصبر، وذلك في الحديث الذي أخرجه أبو داود وابن ماجه. وفيه أنه صلى الله عليه وسلم قال: «صم شهر الصبر»(4).

وفي «مسند أحمد» قال صلى الله عليه وسلم: «صومُ شهر الصبر وثلاثةِ أيامٍ من كل شهر صومُ الدهر»(5).

والصبر خصلة كريمة يحتاج إليها كل إنسان ولاسيما المؤمن الذي يتعرّض للأذى في سبيل إيمانه، أو الذي يصاب بفقد عزيز أو عضو أو مصلحة، فإنه يعصمهم من الهلاك. وهو من صفات أولي العزم من الرسل.

قال الإمام الغزالي: [إن الصوم ربع الإيمان بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم: «الصوم نصف الصبر»,(6) وبمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم: «الصبر نصف الإيمان»(7)](8). والصيام يربي في الفرد المسلم هذه الخصلة الكريمة، ويكفينا في بيان فضلها قوله سبحانه ﴿إنما يُوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ الزمر:10. وقوله: ﴿ولَمَن صَبَرَ وغَفَرَ إنَّ ذلك لَمنْ عزمِ الأمور﴾ الشورى:43. وقوله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ مع الصابرين) البقرة:153.

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والصبر ضياء» رواه مسلم(9)، وقوله: «وما أعطي أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر» متفق عليه(10).

تحرر من سلطان الهوى

والصوم عبادة بدنية يراد منها - والله أعلم - ترويض المسلم على لون سامٍ من الحياة،

ونمط فاضل من المخالقة تتحقق بهما العبودية لله رب العالمين، وتجعله هذه العبادة، إن أُديت على وجهها، من المتقين.

ومن أجل ذلك كان الصوم وسيلة لإصلاح النفس الإنسانية وتحريرها من سلطان الهوى، وضغط الشهوة، ووسيلة لجعلها تنقاد لشرع الله.

إن للصوم واجبات وسننًا وآدابًا يجب أن تتوافر ليكون عبادة صحيحة.

إن الصيام يقتضي الامتناع عن الطعام والشراب والجماع، ولكنّه إلى جانب ذلك يوجب سلوكًا خلقيًا ساميًا لابُدّ من التحلي به.

إن هناك ارتباطًا وثيقًا بين الصيام بمفهومه الفقهي والسلوك الخلقي المتميز الذي دعت إليه الشريعة إما على سبيل الوجوب وإما على سبيل الندب.

فالجوع والعطش ليسا هدفين يرمي إليهما الصوم لذاتهما.. فليس لله حاجةٌ في أن يدع عبادُه الطعام والشراب، بل كان الجوع والعطش وسيلتين لتقوى النفسُ الإنسانية بسببهما على أن تكسر حدّة الشهوة، وتطفئ ثائرة الغضب، وتلجمَ اللسان عما لايجوز، وتقمع النفس الأمّارة بالسوء، وتتذكر المساكين الجائعين، وعلى أن تتحلّى بكثير من الصفات الكريمة بصورة أفضل وأتمّ. ولذا ورد في الحديث الذي رواه أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من لم يدعْ قولَ الزُّور والعمل به فليس لله حاجةٌ في أن يَدَعَ طعامَه وشرابَه» أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي(11).

إنَّ الصائم يقضي مدَّة شهر رمضان وهو متلبس بهذه العبادة، وتتغير خلالها أوضاع حياته من منام وطعام ونحو ذلك، فأحرى به أن تظهر عليه أمارات الصلاح والالتزام التام بشرع الله، ولايجوز أن يكون حالة كحالة الإنسان الذي لم يتلبس بهذه العبادة.

إن عليه أن تصوم جوارحه عما نهى الله عنه، فصوم الجوارح ثمرة من ثمرات الصيام العظيم، إنَّ عليه أن يتذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقلْ خيرًا أو ليصمت» رواه البخاري ومسلم(12).

قال الإمام النووي: (وهذا الحديث صريح في أنه ينبغي أن لايتكلم إلا إذا كان الكلام خيرًا وهو الذي ظهرت مصلحته، ومتى شكَّ في ظهور المصلحة فلا يتكلم)(13).

وهذا ما يطلب من المسلم في كل وقت، فكيف إذا كان العبدُ متلبّسًا بعبادة الصيام؟ إنه يكون عندئذ من باب أولى.

وإذا صام العبد عن المفطرات فليصم لسانه عما لايحل له من الكلام وليمسك عليه لسانه. قال صلى الله عليه وسلم: «قال الله عز وجل: كلُّ عملِ ابن آدمَ له إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به، والصِيام جُنَّة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولايصخب فإن سابَّه أحدٌ أو قاتله، فليقل إني صائم» رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنَّسائي(14). وكلمة الرفث تطلق على معانٍ كثيرة، والمراد بها في هذا الحديث الفحش ورديء الكلام.

وليحذر الكذب؛ فإنَّ الكذب يقود إلى النار كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ومايزال الرجل يكذب ويتحرّى الكذب، حتى يكتب عندالله كذابًا» رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وأحمد والبخاري في «الأدب المفرد»(15).

وليحذر الغيبة والوقوع في أعراض الناس، فقد روى النَّسائي وابن خُزيمة في «صحيحه» والبيهقي عن أبي عبيدة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله صلى الله علي وسلم يقول: «الصيام جنةٌ ما لم يخرقها»(16). ورواه الطبراني في «المعجم الأوسط» عن أبي هريرة وزاد: قيل: وبم يخرقها؟ قال: «بكذب أو غيبة»(17). وأخرج ابن خزيمة وابن حبّان والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس الصيام من الأكل والشرب وإنما الصيام من اللغو والرفث، فإن سابَّك أحدٌ أو جهل عليك فقل: إني صائم. إني صائم»(18).

وهو بهذه الكلمة - إني صائم - يُذَكِّر نفسه ومن يعتدي عليه بأن من مقتضيات هذه العبادة ألاّ يقول المتلبس بها هُجْرًا ولا يقاتل مسلمًا، بل من مقتضياتها أن يتصف بالسماحة والعفو والإحسان.

وليحذر قول الزور فإنه من أكبر الكبائر في كل آن، ولكنه في الصوم أكبر جرمًا وأعظم غرمًا، يقول صلى الله عليه وسلم: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين» وكان متكئًا فجلس وقال: «ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور» فمازال يكررها، حتى قلنا ليته سكت. رواه البخاري ومسلم والترمذي(19). وروى ليث عن مجاهد أنه كان يقول: «خصلتان تفسدان الصيام: الغيبة والكذب». ويقول الله تعالى: ﴿ولا يَغتب بعضُكم بعضًا أيحب أحدُكم أن يأكل لحم أخيه مَيْتًا فكرهتموه﴾الحجرات:12وليكن لسانك رطبًا بذكر الله وقراءة القرآن والنصح للمسلمين.

صوم السمع والبصر

وإذا صام العبد عن المفطرات فلتصم عينه عما لا يحل من النظر. ومن شأن المسلم أن يغض بصره عن المحرمات في أيام السنة كلها، ولكن ذلك يطلب منه بقوة عندما يكون متلبسًا بعبادة. قال الله تعالى: ﴿قُل للمؤمنين يَغُضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إنَّ الله خبيرٌ بما يصنعون. وقل للمؤمنات يَغْضُضْنَ من أبصارهِن ويحفظن فروجهن..﴾ النور:30-31.

وإذا أحجم المسلم عن المفطرات فَلْيكفَّ سمعه عن الإصغاء إلى ما لايحل، فكل ما حُرِّمَ قوله حُرِّمَ الإصغاء إليه، وقد سوّى الله تبارك وتعالى بين المستمع للكذب وآكل السحت. فقال سبحانه: ﴿سمّاعون للكذب أكّالون للسُّحت﴾ المائدة:42. وقال: ﴿وقد نَزّل عليكم في الكتاب أنْ إذا سمعتم آيات الله يُكفرُ بها ويُستهزأ بها فلاتقعدوا معهم حتى يخوضُوا في حديثٍ غيرهِ إنكم إذًا مثلُهم﴾ النساء:140.

ومن البديهي أن تكون يد الصائم نظيفة شريفة فلا يقبض رشوة ولا يأخذ بها مالاً حرامًا، ولايستعملها فيما حَرَّمَ الله، ولايؤذي بها أحدًا من المسلمين، ولايخط بها كلامًا يسيء به لنفسه أو دينه أو أحد من إخوانه المسلمين؛ بل تكون يده فياضة بالبذل، تعمل على مساعدة الآخرين.

وكذلك بقية الجوارح لايستعملها في محرم.

وممّا يتم صوم الجوارح أن يضبط نفسه عن الاسترسال في المباحات، فلايستكثر في المساء من الطعام والشراب؛ لأن الاستكثار من ذلك يذهب بكثير من الفائدة المرجوة من الصيام. فقد حرّم الله الإسراف علينا رحمةً بنا وبأجسامنا، وإبقاء على ثروة الأمة، قال الله تعالى: ﴿يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زينتكم عند كل مسجد وكُلُوا واشرَبُوا ولاتُسرِفوا إنه لايحب المسرفين﴾ الأعراف:31.

فالإكثار من الأكل والشرب مَسْقَمةٌ للجسم مَجْلَبةٌ للأمراض، وما ملأ ابن آدم وعاءً شرًا من بطنه؛ فعن المقدام بن معد يكرب قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما ملأ آدميٌ وعاءً شرًا من بطن. بحسب ابن آدم أكلات يُقِمْنَ صُلبه، فإنْ كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنَفَسه» رواه أحمد والترمذي وابن ماجه(20).

ويؤسفني أن أقرر أن هذا الشهر المبارك شهر رمضان، تحوّل عند كثير من المسلمين إلى شهر المآكل والحلويات. وقد يكون السبب في ذلك هو الاحتفاء بشهر رمضان، وإدخال السرور على الناس فيه، ولكن الأمر لم يبق في هذه الحدود. لقد أصبح الناس يتبارون في صنع المآكل الخاصة بهذا الشهر.. المآكل الشهية التي تحمل على الاستكثار من الطعام، وهناك أعراف متوارثة في كثير من بلاد المسلمين عن المآكل الرمضانية التي تشغل الأسرة كلها.

وإعداد مائدة الإفطار يستغرق زمنًا ليس باليسير، فلا يقترب الموعد حتى توضع عليها الألوان المتعددة من الطعام، والأصناف المتنوعة من الحلوى والشراب، ويقبل هؤلاء الصائمون عندما يحين الإفطار على هذه الموائد يلتهمون ما عليها، ولايقوم كثير منهم إلا بعد أن يصاب بالتخمة، يقوم عنها وهو لا يقوى على شيء؛ لا على صلاة ولا كلام.. بل ولا على تنفس.

إن ذلك كله لايتفق وما يقتضيه شهر الصوم.. شهر الإقبال على الله. قال ابن قدامة: (شهوة البطن من أعظم المهلكات، وبها أُخرج آدم عليه السلام من الجنة، ومن شهوة البطن تحدث شهوة الفرج والرغبة في المال، ويتبع ذلك افات كثيرة، كلها من بطر الشبع(21)، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «المؤمن يأكل في معًى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء»(22). وقال عقبة الراسبي: دخلتُ على الحسن وهو يتغدى فقال: هلمَّ. فقلت: أكلت حتى لا أستطيع. فقال: سبحان الله! أو يأكل المسلم حتى لايستطيع أن يأكل؟(23).

واعظ في قلب كل مسلم

وبعد فإن الصوم عبادة عظيمة الأثر في النفس الإنسانية، وفي المجتمع الإسلامي، وإنَّ له نتائج إيجابية في كل عام.. إنَّ كثيرًا من التائبين يدخلون جنّة الاستقامة والصلاح والخير والفلاح من باب الصوم، ذلك لأنّ من ذاق حلاوة الإيمان وأحسّ بطعم التقوى صعب عليه الرجوع إلى طريق المعصية والتفريط مهما كثرت الصوارف عن الواجبات، وتعاظمت المغريات بالمحرمات.

إنَّ في نفس كل مسلم داعيًا يدعوه إلى الخير، ويحذره من سلوك طريق الشر، فإذا أتيح للفطرة السوية أن تصغي إلى هذا الداعي الداخلي استجابت له استجابة خيرة، وكان صاحبها من المفلحين، وللتذكير والموعظة أثر كبير في إيقاظ تلك الفطرة وهذا ما يُنتظر من الدعاة إلى الله في هذا الشهر الكريم.

عن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ضرب الله مثلاً: صراطًا مستقيمًا، وعلى جنبتي الصراط سوران، فيها أبوابٌ مُفتَّحةٌ، وعلى الأبواب ستورٌ مرخاةٌ، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعًا ولاتتعوجوا. وداع يدعو من فوق الصراط. فإذا أراد الإنسان أنْ يفتح شيئًا من تلك الأبواب قال: ويحك لاتفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه. فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله عز وجلّ، والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم»(24). رواه أحمد والترمذي.

فلنستجب لنداء كتاب الله عز وجل، ولنستجب لتحذير واعظ الله في قلوبنا، ولاسيما في هذا الشهر المبارك. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الحواشي:

1- رواه البخاري 4برقم 1902 ومسلم برقم2307.
2- رواه الترمذي 3برقم807 وابن ماجه برقم 1746وأحمد 114/4 ،انظر: موارد الظمآن ص255.
3- رواه البخاري 1برقم 8 ومسلم 1برقم 16.
4- رواه أبو داود 2 برقم2428 وابن ماجه برقم1741.
5- انظر: مسند أحمد 263/2.
6- رواه الترمذي 4 ص 365 من تحفة الأحوذي، وحسّنه من حديث رجل من بني سليم. ورواه ابن ماجه برقم 1745 قال البوصيري: إسناد الحديث - أي برواية ابن ماجه - ضعيف.
7- قال الحافظ العراقي في «المغنى عن حمل الأسفار في الأسفار» 237/1: رواه أبو نعيم في «الحلية» والخطيب في «التاريخ» من حديث ابن مسعود بسند حسن.
8- إحياء علوم الدين 237/1.
9- رواه مسلم برقم 223.
10- رواه البخاري 3برقم 1469 ومسلم برقم 1053.
11- رواه البخاري 4برقم 1903 وأبو داود 2برقم 2362 والترمذي 3برقم 707.
12- رواه البخاري 11برقم 6475 ومسلم 1برقم 47.
13- انظر: «رياض الصالحين» بتحقيق محمد ناصر الدين الألباني ص520.
14- رواه البخاري 4برقم 1904 ومسلم 2برقم 1151 وأبو داود 2برقم 2363 والترمزي 3 برقم 764 والنسائي 4 ص 162 .
15- رواه البخاري 10برقم 6094 ومسلم برقم 2607 وأبو داود 4برقم 4989 وأحمد1/ 384والترمذي 3 ص137من تحفة الأحوزي، والأدب المفرد 57.
16- رواه النسائي 4ص 167 وابن خزيمة 194/3برقم 1892 والبيهقي 270/4.
17- انظر: «المعجم الأوسط» 399/8 برقم 7810.
18- رواه ابن خزيمة 3/ 242برقم 1996 وابن حبان 265/8برقم 3479 والحاكم في «المستدرك» 430/1-431.
19- رواه البخاري 5برقم 2654 ومسلم 1برقم 87 والترمذي برقم 2301 .
20- رواه أحمد 132/4 والترمذي 4برقم 2380 وابن ماجه 2برقم 3349.
21- مختصر منهاج القاصدين ص168.
22- رواه البخاري 9برقم 5393 ومسلم 3برقم 2060 و2061 و2062 و2063 والترمذي 4 برقم 1818 و1819 وابن ماجه 2برقم 3256 و3257 و3258 والدارمي 2 ص99 ومالك في «الموطأ» 924/2 وأحمد في «المسند» 21/2.
23- مختصر منهاج القاصدين ص168.
24- مسند أحمد 182/4 والترمذي 35/4 (من تحفة الأحوذي) وأقبسة النبي201 والمستدرك 73/1 وانظر كتابنا: «التصوير الفني في الحديث النبوي»413.

المرأة المسلمة وتحديات المجتمع المعاصر

الحلقة الأولى

الشيخ: **فيصل أنور مولوي**

قضية المرأة المسلمة في هذا العصر هي القضية الأبرز، التي يحاول الأعداء النيل من الإسلام من خلالها، مستندين إلى فهم أعوج لبعض النصوص، أو إلى واقع مرير في تاريخ المسلمين، يرجع إلى أعراف وعادات أكثر منه إلى أحكام تشريعية.

وسوف أتناول هذا الموضوع مستندًا إلى النصوص والأحكام الشرعية القاطعة، ومستندًا - كذلك - إلى مقتضيات العصر الحاضر دون أي تفريط في المبادئ الشرعية التي نلتزمها.

المرأة المسلمة

متى تكون المرأة مسلمة في نظر الشرع؟ والجواب المعروف - وهو الجواب نفسه بالنسبة للرجل المسلم -: عند التزامها أركان الإيمان المعروفة، وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه، ثم التزام أركان الإسلام وهي: الإقرار بالشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

ومقتضى هذا كله استسلام المرأة المسلمة لأمر الله عز وجل في كل ما شرع من أحكام، سواء كانت تخص الرجل أو المرأة أو المجتمع. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخِيَرَةُ من أمرهم ومن يعصِ الله ورسوله فقد ضلَّ ضلالاً مبينًا﴾ الأحزاب:36.

إن المرأة المسلمة لابد أن تصوغ حياتها كلّها وفق شريعة الله عزّ وجلّ ابتداءً من التزام أركان الإسلام كالرجل سواء بسواء، ووصولاً إلى التزام الأحكام الخاصّة بالمرأة من الحجاب واللباس ومنع الاختلاط في غير ضوابطه الشرعية، والقيام بواجبات المرأة في بيتها إلى غير ذلك من الأحكام، وحين تفرط في شيء من ذلك فإن إسلامها لايكون كاملاً.

ومن البدهي عندما نتحدث عن المرأة المسلمة وتحديات المجتمع المعاصر أننا نقصد المرأة المسلمة الملتزمة أمر الله الحريصة على الأحكام الشرعية، ولا نقصد المرأة المسلمة بالهوية المنحرفة عن الإسلام في واقع حياتها.

ولابد لنا في هذا المجال من تسجيل نقطتين أساسيّتين:

الأولى: أن الأحكام الشرعية المتعلقة بالمرأة قد اختلطت في تاريخنا الإسلامي مع الكثير من العادات والأعراف، ولا تزال بعض هذه العادات تتغلّب على الأحكام الشرعية عند كثير من الناس، ولا يزال كثير من المسلمين يظنون أن بعض هذه العادات هو أحكام شرعية. ونلاحظ هنا أن الله تعالى يلزم الناس بأحكام شرعية تؤخذ من نصوص القرآن الكريم والسنّة المطهرّة فقط، أما عادات الناس وأعرافهم فلا يمكن أن تكون حكمًا شرعيًا ملزمًا ولو تواضع عليها جميع الناس، وإن كان من الممكن أن تكون مقبولة أو مرفوضة من الناحية الشرعية بمقدار ملاءمتها للأحكام والمقاصد الشرعية.

الثانية: أن الأحكام الشرعية خمسة: الواجب والمندوب والمباح والمكروه والحرام. ومن المعروف أيضا أن المحرّمات تشمل الكبائر التي يتشدد الشرع في منعها وفي العقاب عليها، وتشمل الصغائر الممنوعة ولكن بدرجة أخف، وتشمل الكثير من المعاصي الواقعة بينهما. ومثل هذا التقسيم يشمل أيضا الأحكام الشرعية المتعلقة بالمرأة.

والملاحظ هنا أن سُلّم هذه الأحكام يختلف بين المسلمين بحسب طباعهم وأمزجتهم، فما يُعدّ مهما

وأساسيا في نظر الشريعة، قد يعده بعض المسلمين شكليا وقليل الأهمية، بسبب خضوعهم للكثير من طروحات المجتمع المعاصر. وما يُعدّ في نظر الأحكام الشرعية مطلوبا من قبيل التحسينيات، قد يعده بعض المسلمين من قبيل الضروريات. وهي أحكام شرعية أساسية يختل المجتمع المسلم من دونها، بينما الإخلال بالأحكام الشرعية التحسينية يؤدي إلى تشويه المجتمع المسلم ولاينقص أركانه. وسبب هذا ـ كما يظهر لنا ـ أن هذه الأحكام التحسينية تنسجم مع طباع بعض الناس ومنطلقاتهم الفكرية فيعطونها قدراً أكبر مما أعطته لها الأحكام الشرعية.

التحديات والشروط

وفي اعتقادي أن المرأة المسلمة لاتستطيع مواجهة تحدّيات المجتمع المعاصر إلاّ ضمن شروط ثلاثة:

الأول: أن تنطلق من إيمان جازم بأن الأحكام الشرعية التي اختارها لها الله ورسوله هي الحق المطلق، الذي ينسجم مع فطرتها، ويؤدي إلى سعادتها في الدنيا والآخرة.

الثاني: التمييز بين الأحكام الشرعية الثابتة بنصوص القرآن والسنة المطهرة، والعادات والأعراف التي ينبغي أن تظلّ خاضعة للأحكام الشرعية.

والثالث: تحديد سلّم واضح يبيّن درجات الأحكام الشرعية وأولياتها. إذ ليس مقبولاً بحال التمسك بحكم شرعي تحسيني، والتفريط في حكم شرعي أساسي، وإن كان الاثنان مطلوبين شرعًا، ولكن اختلاف درجة الطلب ينبغي أن يُراعى، وخاصة في عصرنا الحاضر.

إن هذه الأمور الثلاثة تطرح على المرأة المسلمة، كما تطرح على المجتمع المسلم وعلى حركاته الإسلامية، مسألة إعادة البحث في كثير من الأمور المختلف عليها، وذلك من أجل توضيح الحكم الشرعي فيها، وتصنيف درجاتها، حتى نستطيع جميعًا مواجهة تحديات المجتمع المعاصر بمنظومة متكاملة من الأحكام الشرعية المتعلّقة بالمرأة.

وقد اعتاد العلماء في الأمور المختلف عليها أن يأخذوا أحد مسلكين:

إما الأخذ بالاحتياط، وهو منهج نبوي يذكره الحديث الصحيح المشهور الذي يتحدّث عن الحلال والحرام والشبهات وينتهي إلى القول: «.. فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه»، وهذا نص واضح في الأخذ بالأحوط في الأمور المختلف عليها، والتي تشتبه فيها الأمور، ويصعب على المسلم وضعها في خانة الحلال أو الحرام.

المسلك الثاني هو الأخذ بالأرفق بحاجات الناس، وبما يوافق ظروف العصر الذي نعيش فيه، وهذا أيضا منهج نبوي؛ فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه «ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا»، كما يؤكد هذا المعنى قول الله عز وجل: ﴿يُريد اللهُ بكم اليسر ولاُيريد بكم العسر﴾ البقرة :185.

ويبقى اختيار أحد هذين المسلكين في قضايا المرأة المختلف عليها مسؤولية العالم المجتهد، فإذا ترجح عنده الإثم أخذ بالمسلك الأول، وإذا ترجحت عنده الإباحة الشرعية الأصلية أخذ بالمسلك الثاني.

تحديات المجتمع المعاصر

في أواخر القرن الثامن عشر ظهرت في أوروبا وأمريكا الحركات المطالبة بحقوق الإنسان الطبيعية غير القابلة للسّلب، وانتهت إلى إعلانات حقوق الإنسان في أمريكا وأوروبا. وقد نصّ البيان الصادر في أمريكا على «أن جميع أفراد البشر متساوون في الخلقة، وقد منح الخالق كل فرد حقوقًا ثابتة لاتتغيّر، مثل حق الحياة وحق الحريّة. وأن الغاية من تشكيل الحكومات حفظ الحقوق المذكورة، وأن قوة الحكومات ونفوذ كلمتها منوطان برضا الشعب». أما البيان الصادر في فرنسا فقد نصّ على «أن أفراد البشر ولدوا أحراراً، ويظلّون مدى الحياة أحراراً متساوين في الحقوق».

ومن الواضح أن إعلانات حقوق الإنسان هذه لم تتطرق إلى قضية المرأة حتى جاء القرن العشرون وبدأت تظهر مسألة (حقوق المرأة) في مقابل حقوق الرجل، واعترفت إنجلترا لأول مرة بتساوي حقوق المرأة والرجل في أوائل القرن العشرين، مع أنها تُعدّ أقدم دولة ديمقراطية. أما الولايات المتحدة فقد صادقت على قانون المساواة بين المرأة والرجل في الحقوق السياسية عام 1920م. ثم ظهرت في جميع أنحاء العالم حركات تدعو إلى المساواة بين الرجل والمرأة حتى صدر عن الأمم المتحدة عام 1948م البيان العالمي لحقوق الإنسان الذي نصّ على أنه «لما كانت شعوب الأمم المتحدة قد اعترفت بحقوق الإنسان وقيمة الفرد الإنساني وتساوي حقوق الرجل والمرأة...».

من هذه اللمحة التاريخية الموجزة نعرف أن حقوق المرأة ومساواتها بالرجل لم تطرح جديًا إلا في هذا القرن العشرين، بينما يعتقد المسلمون أنّ الإسلام كان قد طرح هذه المسألة وقنّنها في أحكامه التشريعية منذ أربعة عشر قرنًا.

التحدي الأول: المساواة

فما الفرق بين الطرح الإسلامي والطرح المعاصر في مسألة مساواة المرأة بالرجل؟

حتى نتمكن من الجواب عن هذا السؤال، لابد أن نشرح الأسس التي تقوم عليها نظرة الإسلام إلى حقوق المرأة.

ونبدأ بتوضيح مسألة المرأة والرجل بشكل عام فنقول:

الإنسان رجل وامرأة

إن الإنسان خلق رجلاً وامرأة، أنثى وذكر . هذا هو الواقع المعروف منذ وجد الإنسان، هذا الواقع اعتبره الله عز وجل آية من الآيات الدالة عليه وعلى حكمته في الخلق، قال تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ الروم: 21. وأشار القرآن الكريم إلى أن نظام الزوجية هذا ليس مقتصراً على الإنسان فقط؛ بل هو يشمل جميع الموجودات: ﴿ومن كل شيءٍ خلقنا زَوْجين لعلّكم تَذكّرون﴾ الذاريات: 49.

نظام الزوجية إذن نظام شامل للأحياء جميعًا، ومقتضاه بالنسبة للإنسان وجود المرأة والرجل. ومعنى ذلك أن هناك صفات كثيرة تجمع بين المرأة والرجل بوصفهما إنسانين. وأن هناك صفات كثيرة أيضا تميّز المرأة من الرجل بوصفها أنثى وهو ذكر، وإذا أردنا أن نجعل المرأة والرجل متساويين في جميع الصفات فهذا أمر غير ممكن لأنه يخالف الفطرة ويخالف الواقع.

الحقوق المتساوية الناتجة عن كون الرجل والمرأة إنسانًا

ونظرة الإسلام أنه إذا كانت هناك صفات تشترك فيها المرأة مع الرجل بوصفهما إنسانًا مكرّمًا؛ فإن جميع الحقوق والواجبات الناشئة عن ذلك ينبغي أن تكون متساوية بلا جدال، ودون أي تفريق بين الرجل والمرأة. لذلك نرى أن التكليف بالأحكام الشرعية واحد بالنسبة للرجل والمرأة على حد سواء؛ لأنه يتعلّق بإنسانية الإنسان، وليس بجنسه رجلاً كان أم امرأة. وأمام هذا التكليف يتساوى عقل الرجل مع عقل المرأة في الاختيار الحر. فكلاهما يختار العقيدة التي يشاء: ﴿وقُلِ الحقُّ من ربِّكم فمن شاءَ فَلْيُؤْمن ومن شَاءَ فَلْيكفُر﴾ الكهف:29. وكلاهما يختار العمل الذي يشاء ويحاسب على عمله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالحًا من ذكر أو أنثى وهو مُؤمن فلنُحيينّهُ حَياةً طيّبةً﴾ النحل:97. إن هذا التكليف الشرعي تتساوى أمامه المرأة مع الرجل ولاتكون تابعة أو خاضعة، ولذلك ضرب الله عزّ وجلّ مثلاً امرأة نوح وامرأة لوط وهما زوجتان لنبيين ومع ذلك ﴿فَخَانَتَاهما فلم يُغْنيا عنهما منَ الله شيئًا وقيل ادخُلا النارَ مع الدَّاخلين﴾ التحريم:10. وضرب الله مثلاً آخر امرأة فرعون: ﴿إذ قالت ربِّ ابن لي عندك بيتًا في الجنّة ونجِّني من فِرعونَ وعَمَله ونجِّني من القومِ الظّالمين﴾التحريم:11.

أما الحقوق الناتجة عن الصفات الإنسانية المشتركة، فهي حقوق متساوية بين الرجل والمرأة، وقد ذكر الدكتور عبدالكريم زيدان في كتابه: (المفصَّل في أحكام المرأة) الحقوق العامة للمرأة المسلمة، وبيّن أنها تشمل الحرية الشخصية، وحرية المسكن، وحرية الرأي والعقيدة، وحرية التعليم والتعلّم، والحق في الضمان الاجتماعي، وكل ذلك ضمن الضوابط الشرعية المعروفة. كما بيّن الحقوق الخاصة للمرأة، وأنها تتمتّع بأهلية الوجوب كالرجل، وهذه معناها أن المرأة ـ بوصفها إنسانًا ـ تصلح لأن تكون لها حقوق على الغير، وأن تكون عليها حقوق للغير، وبذلك يكون لها ذمّة مستقلّة عن ذمّة الرجل سواء كان أبًا أو زوجًا أو ولدًا، وأن هذه الذمّة تثبت لها كما تثبت للرجل بمجرّد الولادة، وهي تلازم الإنسان من لحظة ولادته إلى لحظة وفاته. كما تحدث الدكتور زيدان عن تمتّع المرأة بأهلية الأداء، وهي صلاحية الإنسان لأن يطالبَ بالحقوق لنفسه، وأن يُطالَبَ هو بأداء الحقوق التيَ عليه للغير، وأن يتحمّل تبعة تصرّفاته وفق الآثار المقررة لها شرعًا. وإن الأساس الذي تبنى عليه هذه الأهلية هي تمتّع الإنسان بالتمييز سواء كان رجلاً أو امرأة، والتمييز يكتمل بكون الإنسان بالغًا عاقلاً رشيدًا. وبالإضافة إلى الحقوق الخاصّة هذه، تتمتّع المرأة بالحقوق العائلية وبالحقوق المالية وفق ما سيرد فيما بعد.

الفروق بين الرجل والمرأة

خلق الله تعالى الإنسان نوعًا واحدًا مكرّمًا مفضلاً على جميع مخلوقاته. بل سخّر له كل هذه المخلوقات، وكلّفه بحمل رسالته في الحياة وجعل هذه الرسالة محدّدة في أمرين:

أولهما: عبادة الله بالمعنى الشامل: ﴿ومَا خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلاّ ليعبدون﴾ الذاريات:56. وثانيهما: عمارة الأرض، قال تعالى: ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ هود:61.

ولكن إرادة الله أن يخلق الإنسان بناء على نظام الزوجية العام ذكرًا وأنثى. فهل هناك فروق بين الذكر والأنثى؟ وهل يترتب على هذه الفروق في الخلقة اختلافات في حقوق كل منهما وواجباته؟

نقول أولاً: إن الفروق بين المرأة والرجل مسألة بدهية، ظاهرة في حياة الناس، وقد أثبتها العلماء وشرحوها بما لايدع مجالاً للشك. يقول الكسيس كارل في كتابه «الانسان ذلك المجهول»: "إن المرأة والرجل مختلفان من حيث الخلقة. وإن هذه الاختلافات الخَلْقيّة تقتضي أن يتفاوتا في الواجبات والحقوق». ويقول: «إن الاختلاف بين المرأة والرجل لايرتبط فقط بشكل الأجهزة التناسلية، ووجود الرحم عند المرأة، والحمل والولادة، وإنّما هو نتيجة لسبب أعمق ناشئ من أثر المواد الكيماوية التي تفرزها الغدد التناسلية في الدم». ويقول: «وبسبب عدم استيعاب مؤيدي النهضة النسائية لهذه النقطة الرئيسية والمهمّة؛ فقد تصوّروا أن كلا الجنسين يمكن أن يتلقيا تعليمًا واحدا وتربية واحدة، وأن يأخذا على عاتقهما مسؤوليات وصلاحيات وأعمالاً واحدة. فالمرأة تختلف في الحقيقة عن الرجل في جوانب كثيرة، فكل خلية من خلايا جسمها تفرض عليها خصائص جنسها. والقوانين الفيزيولوجية تمامًا مثل القوانين الفلكية ثابتة وغير قابلة للتغيير، فليس في الإمكان أن نخضعها لأهواء الإنسان ورغباته، بل نحن مضطرون إلى أن نقبلها كما هي. والنساء يجب أن يجتهدن في إظهار مواهبهن الطبيعية بالطريقة التي تفرضها طبيعتهنّ من دون تقليد أعمى للرجل، فإن دورهنّ في التكامل الإنساني أكبر بكثير من دور الرجال، ولاينبغي أن يتخلّين عنه ويهملنه». ويقول: «يجب أن نربي الشابات على نفس الطراز الفكري والحياتي، ونفس الهدف والمثال الذي نربي عليه الشباب. ويجب على المتخصّصين في مجال التربية والتعليم أن يأخذوا الاختلافات العضوية والنفسية بين الرجل والمرأة، والواجبات الطبيعية لكل منهما بعين الاعتبار، فإن التنبيه إلى هذه النقطة الأساسية مهمّ جدًا في بناء مستقبل حضارتنا».

الفروق بين الرجل والمرأة عند أفلاطون وأرسطو

كان أفلاطون يعتقد ـ كما ذكر في (محاورات الجمهورية) ـ أن «للنساء والرجال استعدادات متشابهة، ويمكن للنساء أن يلتزمن واجبات الرجال نفسها ويتمتعن بحقوقهم نفسها». ويعتقد أفلاطون «أن النساء يجب أن تُدرّب على فنون الحرب كالرجال في جميع الجوانب لأن الاستعدادات واحدة بين الطرفين، والفرق بينهما فرق كمّي فقط»، ولذلك فهو يشكر الله «لأنه خلقه يونانيًا لاغير يوناني، وحرًا لاعبدًا، ورجلاً لا امرأة».

إلا أن أرسطو في كتابه «السياسة» خالف أستاذه أفلاطون، وذكر أن الفوارق بين المرأة والرجل ليست كمية فقط، وإنما هي كيفية أيضًا، وأن استعدادات المرأة تختلف عن استعدادات الرجل، وأن الحقوق والواجبات التي ألقاها عليها قانون الخلقة تختلف من جوانب كثيرة، وأن الفضائل الأخلاقية للرجل والمرأة تتفاوت كذلك، فما يمكن أن يعد فضيلة للرجل، قد يعدّ خلاف ذلك عند المرأة.

أما في عالم اليوم فقد تمّ اكتشاف فوارق أكثر وأكبر بين المرأة والرجل يمكن تلخيصها فيما يلي:

الرجل أضخم جسمًا والمرأة أصغر. الرجل أطول والمرأة أقصر. الرجل خشن الملمس والمرأة ناعمة. صوت الرجل خشن وصوت المرأة رقيق. نمو جسم المرأة سريع ونمو جسم الرجل بطيء. مقاومة المرأة لكثير من الأمراض أكثر من مقاومة الرجل. المرأة تبلغ رشدها أسرع من الرجل، بينما تبلغ سن اليأس على العكس من الرجل. مُعدّل حجم دماغ الرجل أكبر من معدل حجم دماغ المرأة، ولكن لو أخذنا في الاعتبار نسبة حجم الدماغ إلى حجم الجسم لكان دماغ المرأة أكبر من دماغ الرجل. استيعاب رئة الرجل للهواء أكثر من استيعاب رئة المرأة. ضربات قلب المرأة أسرع من ضربات قلب الرجل. يميل الرجل إلى المبارزة والقتال بينما تميل المرأة إلى السلم والمؤانسة. الرجل أكثر تعديا والمرأة أكثر هدوءًا. مشاعر المرأة أسرع تهيجًا من مشاعر الرجل. المرأة بطبعها تهتم بزينتها وجمالها والمستحدثات المختلفة بخلاف

النساء يجرين وراء المشاعر، والرجال يجرون وراء العقل

الرجل. مشاعر المرأة أمومية وتظهر فيها منذ الطفولة، وحبّها للأسرة وإدراكها لأهميّتها أكثر من الرجل. الرجل أقدر من المرأة على كتمان الأسرار. المرأة أرق قلبا من الرجل وأسرع منه إلى البكاء وأحيانا إلى الحيلة. المرأة في علوم الاستدلال والمسائل العقلية الجافّة لاتصل إلى مستوى الرجل، لكنها لا تقل عنه مهارة في الأدب والرسم وسائر المجالات التي ترتبط بالذوق والمشاعر. الرجل يحب المرأة التي تعجبه ويختارها، والمرأة تحب الرجل الذي يوليها اهتمامه ويظهر لها حبّه. الرجل يريد المرأة التي تتبعه ويسيطر عليها، والمرأة تريد الاستيلاء على قلب الرجل والسيطرة عليه من هذا الطريق. الرجل يريد أن يأخذ المرأة، والمرأة تريد أن تجذب الرجل. المرأة يعجبها في الرجل الشجاعة والإقدام، والرجل يعجبه فيها الجمال والدلال.

من أقوال العلماء المعاصرين: لن يكونا شيئا واحدا!

يقول البروفيسور إيريك، وهو عالم نفس أمريكي مشهور، قضى سنوات طويلة في البحث في عادات المرأة والرجل: «عالم الرجل يختلف عن عالم المرأة، فإذا كانت المرأة لا تستطيع أن تفكّر أو تتصرّف كالرجل، فإن هذا يدلّ على أنّ لكلّ منهما عالمًا مختلفًا عن الآخر، وأن أحاسيس هذين الموجودين

ومشاعرهما لن تتشابه في أي وقت من الأوقات، ولن يحدث مطلقًا أن يكون لهما رد فعل واحد تجاه الأحداث، ولكنّهما لن يكونا شيئًا واحدًا أبدًا».

إن الفروق بين المرأة والرجل من عجائب آيات الخلق، وهي دليل قاطع على التنظيم الدقيق والحكيم للعالم، وعلى غياب المصادفة في سير الخلق، وهذه الفروق تستوجب حتما التفاوت في الحقوق والواجبات، إن هذه الفروق هي التي تجعل اتحاد الرجل والمرأة ممكنًا ومطلوبا من أجل استمرار النسل وحفظ النوع. والتباين بين الرجل والمرأة هو الذي يجذب كلا منهما نحو الآخر، ولو كان للمرأة جسم الرجال وأخلاقهم ورغباتهم لتعذّر عليها أن تجتذب الرجل نحوها، ولو كان للرجل صفات المرأة نفسها لما أمكن لها أن تعدّه فارس أحلامها وتُظهر من فنونها ما تصطاد به قلبه. إن بعض الناس يتصوّرون أن الذي يربط بين الزوجين هو الشهوة، إنهم لايدركون أن في الفطرة دوافع أخرى هي التي تجسّد إنسانية الإنسان، وهي التي تنشئ التضحية والإيثار في التعامل بين الزوجين. إن العلاقة بين الزوجين تقوم على المودّة والرحمة أكثر ممّا تقوم على قضاء الشهوة. ولذلك قال تعالى: ﴿وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ الروم:21.

النساء للمشاعر والرجال للعقل

وتقول العالمة النفسية كليف دالسون: «لقد كُلّفت عَمَلَ تحقيقات حول العوامل النفسية عند الرجل والمرأة، وقد توصلّت إلى النتائج التالية:

1- ترغب جميع النساء بالعمل بإمرة شخص آخر. إنهنّ يفضلن أن يصبحن مرؤوسات بإشراف رئيس.

2- تحب جميع النساء أن يشعرن أن وجودهنّ ذو أثر ومحل احتياج».

وفي نظري أن ذلك نابع من أن النساء يجرين وراء المشاعر، والرجال يجرون وراء العقل. ونقطة ضعف السيدات تكمن في إحساساتهنّ المرهفة. فالرجال يفكّرون بشكل عملي أكثر، كما أنهم ينظمون ويوجهون بشكل أفضل، إن فضل الرجال على النساء أمر فرضته الطبيعة، ومهما حاولت السيدات أن يدفعن هذه الحقيقة فلن يجديهنّ ذلك نفعًا. وبما أنهنّ أكثر حساسية من الرجال، فقد وجب عليهنّ أن يتقبّلن حقيقة حاجتهنّ إلى إشراف الرجل عليهن.

ويقول لمبرزو: «إن الأساس الطبيعي للجانب الجنسي عند المرأة ليس إلا صفة ثانوية متفرّعة من الأمومة، كما أن جميع الإحساسات والعواطف التي تبديها للرجل لاتنبع من رغبات جسمية؛ بل من غريزة الانقياد والتسليم للرجل، وقد جاءت هذه الغريزة من أجل ملاءمة الأوضاع».

ويقول ويل ديدرانت: «دور المرأة الخاص هو الإبقاء على النوع، ودور الرجل الخاص هو خدمة المرأة والطفل. ومن الممكن أن يكون لكل منهما أدوار أخرى، ولكن كل ما يقومان به من أعمال تابع لهذين الدورين الأساسيين على سبيل الحكمة والتدبير.

المرأة تستسلم بكل سرور للرجل ذي الإرادة القوية. وإذا كانت المرأة في هذه الأيام أقل طاعة من ذي قبل، فلأن القوّة والأخلاق عند الرجال أضعف اليوم من ذي قبل. وإذا اتجهت المرأة إلى التحرّر الجنسي فليس ذلك لأنها تستسيغه، وإنّما لأنها يئست من الحصول على الرجل المؤهّل لتحمّل المسؤولية فتتزوجه».

الفروق في دور الرجل والمرأة

وبناءً على الفروق الجسمية والنفسية القائمة بين الرجل والمرأة، والتي استعرضناها فيما سبق، فإننا نتساءل: هل هناك فروق في دور كلٍّ منهما في الحياة الإنسانية المشتركة؟ وهل يترتب على هذه الفروق اختلاف في الحقوق والوجبات؟

إن الفطرة هيّأت المرأة نفسيًا وجسميًا للحمل والإرضاع والحضانة. وإن الرجل لا يستطيع أن يحمل جنينًا في بطنه، ولا يستطيع أن يرضع طفلاً من ثديه، ولايستطيع أن يقوم بمهمة الحضانة للطفل في صغره إلى أن يشب. هذه أمور لايمكن الجدال فيها، ولكن ماذا يترتب عليها من حقوق وواجبات؟ إذا كانت المرأة هي المهيأة للحمل فلا بدّ للقوانين والتشريعات أن تساعد المرأة على أداء هذا الدور. إن من حق المرأة أن تحمل وتنجب لتكون أمًا. ولكنّها إذا حملت واشتغلت بحملها عن أي عمل معيشي آخر، فمن الذي ينفق عليها؟ إمّا أن يكون زوجها وشريكها والد هذا الحمل هو المسؤول عن النفقة عليها طوال فترة الحمل والإرضاع والحضانة. وإمّا أن تُجبر المرأة على العمل في فترة الحمل والإرضاع والحضانة لتكسب عيشها؛ فتضيّع حقّها وحقّ طفلها. وإمّا أن تتولى الدولة الإنفاق عليها خلال هذه الفترة. ومن الطبيعي ألايقول أحد بالاحتمال الثالث حتى الآن؛ لأن معناه أن تتحمّل الدولة نفقة أعداد كبيرة من النساء الحوامل والمرضعات والحاضنات وهي لاتستطيع ذلك. وإن الاحتمال الثاني هو الذي تسير عليه معظم الدول والمجتمعات في العالم المعاصر، وتكتفي بإعطاء إجازة للأم لمدة محدّدة عند الولادة فقط، وتبقى تلزمها بالعمل طول فترة الحمل، مع ما فيها من ظلم للمرأة، كما تلزمها بالعمل أثناء الإرضاع والحضانة مع ما في ذلك من ظلم للأم وللطفل، كل ذلك لأن الرجل الغربي تخلّى عن مهمّة الإنفاق، ولأن المرأة خُدعت بشعار المساواة في العمل، الذي رغبت فيه تحسين وضعها الاقتصادي، وتحمّلت من أجله التفريط في حقوقها الطبيعية أثناء الحمل والإرضاع والحضانة. ويبقى الاحتمال الثالث وهو الذي جاءت به الشريعة الإسلامية فجعلت المرأة متفرغة أثناء الحمل والإرضاع والحضانة بحيث تؤدي هذا الدور من دون معوّقات، وحين تنجح فيه فهي إنّما تنجح في تربية طفل جديد وفي إعداد إنسان المستقبل وهو ثروة تفوق بكثير اكتساب بعض المال.

وإذا كان الإسلام يحفظ للمرأة الأم ولطفلها كل الحقوق الطبيعية، وقد فرض على الزوج مقابل ذلك النفقة على زوجته وطفلها، فقد تبين من هنا أن الفروق الفطرية بين الرجل والمرأة أدّت إلى اختلاف في دور كلّ منهما في الحياة، ومن ثم أدّت إلى اختلاف في الحقوق والواجبات، فكيف يمكن أن تطرح المساواة المطلقة رغم هذه الاختلافات؟

إن وجهة النظر الإسلامية تتلخّص في نقطتين أساسيتين:

1- إذا كان الرجل والمرأة كلاهما إنسانا فيجب أن يتساويا تمامًا في جميع الحقوق والواجبات الناشئة عن إنسانيتّهما.

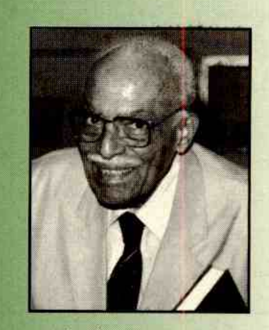
2- وإذا كان الرجل والمرأة مختلفين من حيث الفطرة في التركيب الجسمي والنفسي وفي دور كل منهما في الحياة المشتركة فيجب أن يُعطى كل منهما من الحقوق والواجبات ما يتناسب مع دوره في الحياة وما يساعد على أداء هذا الدور، وهذا التمييز هو الذي يحقّق العدالة والإنصاف.

إن مهمة المرأة التي هيأتها لها الفطرة هي إنجاب الأولاد وتربيتهم ليكونوا دعامة صالحة في المجتمع. هذه المهمة أعظم بكثير من مهمّة الرجل الذي يعمل لكسب العيش في الصناعة أو التجارة أو الزراعة أو غيرها. قد تستطيع المرأة أن تشارك الرجل في أعماله المادية، ولكن الرجل لايستطيع أبدًا أن يقوم بمهمّة المرأة. إننا عندما نأخذ المرأة من بيتها وأولادها لنضعها في المصنع والمتجر، ولا نستطيع أن نؤمن البديل لأولادها، فإننا في هذه الحالة نقتل الإنسان ونقتل الجيل الجديد، وهذا لايمكن أن يعادل المكاسب المادية التي يمكن أن تحصل من عمل المرأة.

إذن الرجل والمرأة كلاهما له مهمّة فُطر عليها، وهُيّئ للقيام بها، وأُعطي من الاستعدادات ما يساعده على ذلك، فلا يجوز لكلٍّ منهما أن يتمنى الدور الآخر، أو أن يتمنى أن يكون له ما للجنس الآخر. قال تعالى: ﴿ولا تتمنّوا ما فضّل الله به بعضكم على بعض﴾ النساء:32.

(البقية في العدد القادم)

المائدة اليهودية





د. حسن ظاظا

تصلني اسئلة كثيرة ومهمة من الأصدقاء الكرام قرّاء مجلة الفيصل، حول أمور مجهولة من عادات اليهود وتقاليدهم وأحكام الحلال والحرام في دينهم؛ بعضها يتصل بالغذاء أو بالكساء أو بالزواج والزفاف أو بالموت والحداد. وكدت أجنح إلى الحديث عن الكساءوالأزياء بمناسبة وجودي في باريس - عاصمة الأزياء في العالم - لمراجعة طبية، أرجو أن تكون سريعة، إن شاء الله. ولكنني شعرت بوفود الشهر الفضيل - رمضان المكرّم - فأعطيت الأوليَّة، بمناسبة الصيام، لما يتصل عند اليهود بالطعام، على أن أتناول الموضوعات الأخرى بعد العيد بمشيئة الله، وكل عام وأنتم والأمة العربية وسائر المسلمين في العالم بخير وسعادة وسلام.

والمطلع على أحوال اليهود في شؤون حياتهم، يشعر بأنهم فئة من عباد الله حريصة على التميُّز، والظهور بكثير من «الفوقية» بالنسبة لشعوب العالم، بما يُشعر بأنه «غرور تعويضي» عمّا يلقونه من بقية البشر من زراية واحتقار. ولن يقف «الخطر اليهودي» عند حدٍّ، إلاّ إذا غاضت ينابيع العقيدة الصهيونية من العالم - لا من فلسطين وحدها -، وحلّت محلّها عقيدة المساواة في الإنسانية، والعدالة في المعاملة، والإخاء في التواضع لله سبحانه وتعالى، والشفاء من الجشع والتآمر والكبرياء. وكثير من اليهود نادوا بهذه المثل العليا - جيلاً بعد جيل - فلم يجدوا من أمتهم اليابسة الرؤوس، الغليظة الرقاب، إلا العداوة والبغضاء، والتشنيع والتشهير، والتفسيق والتكفير؛ بل القتل في كثير من الأحيان. وقد تعنّ لي الفرصة فأتناول الدعوة «الإصلاحية» اليهودية قديمًا وحديثًا. أما الآن فلنتعرف ما يأكل اليهود، وما يشربون.

فطير من دم البشر!

ومعروف أنهم بعد الخروج مع موسى من مصر هاربين من بطش فرعون، فقدوا الصبر على طعام واحد، حتى عندما كان هذا الطعام هو «المن والسلوى»! والمنّ هو إفراز نباتي سكّري شهيّ، جاد به عليهم ربهم من بعض نباتات الصحراء، والسلوى هي أسراب من طيور «السُّمانَى» أو الفرِّي، تهبط عليهم من الجوّ في طريق هجرتها من إقليم إلى سواه. لقد همّوا بترك موسى - عليه السلام - وما جاءهم به من توحيد الله، والعودة إلى عبوديتهم التي كانوا فيها تحت نير فرعون، ليجدوا العدس والبصل والثوم، وهو غذاء الأسرى والعبيد في مصر، وهو أيضا «طعام واحد»، ولكن العناد له أحكام!

والقارئ للتوراة وتفاسيرها يجد أن المن والسلوى لم تكن الطعام الواحد والوحيد؛ بل كانت تتخللها بعض الذبائح، وبعض الأسماك، وما تيسر من خبز البُرّ أو الشعير. إذ كانوا في رحلتهم هذه يُعدّون الخبز بسرعة حتى لايدركهم جنود فرعون، فيعجنون الدقيق بلا ملح أو خميرة، ويخبزونه على فطرته هذه، حتى أصبح يسمى عند اليهود «الفطير» وهو الخبز الوحيد المسموح بأكله في أسبوع «الفِصْح» من فصل الربيع، وهو الذكرى التاريخية لنجاة موسى وقومه من مطاردة فرعون، واسمه بالعبرية «قصَّة» وبالإشكنازية «مَاتْسَا». وهم يتأنقون في إعداده، ويخبزونه رقائق خفيفة أشهى من الخبز العادي، وأشبه طعمًا ووزنًا وقوامًا بما يسمى في سورية ولبنان «المرقوق» وفي مصر «الرقاق» وفي بعض البلاد الإسلامية «الجُلاّش». وله قصة - أو قصص - في العصور الوسطى تتهم اليهود بأنهم يعجنون الدقيق الخاص بالفصح مخلوطًا بدم ضحية بشرية من أبناء الكفار (المسلمين أو النصارى أو سواهم من غير اليهود). وآخر فضيحة من هذا النوع هي «تهمة الدم في دمشق» التي اختفى فيها رجل الدين الفرنسي توما، رئيس دير الفرنسيسكان، وبستانيّ الدير - المسلم - إبراهيم عمارة، في ربيع عام 1840م. وأسفر التحقيق عن أن جماعة يهودية متطرفة قد أوّلت بعض نصوص في التلمود توصي بوضع شيء من دم ضحية بشرية غير يهودية في خبز الفصح، استجداء لرضا الربّ وبركته!

وعلى الرغم من صدور قرار بالعفو عن المتهمين - وكلهم من يهود دمشق -، وعلى الرغم من العثور على بقايا بشرية في بالوعة بائع الدجاج في حارة اليهود، وعلى الرغم من

التقارير العلمية الدامغة الصادرة من إخصائيين أوربيين في الطب الشرعي؛ فقد تنازل حاكم مصر محمد علي باشا ـ الذي كان واليا للدولة العثمانية على سورية أيضا ـ تحت ضغط اليهود في الغرب ـ وفي بريطانيا وفرنسا على الخصوص ـ عن تنفيذ حكم القضاء في أولئك المجرمين، وأصدر عفوًا كاملاً شاملاً عنهم؛ بل استجاب ـ تحت الضغط اليهودي ـ إلى طلب إلغاء التهمة نهائيًا واعتبارها كأن لم تكن. كما نجح اللورد البريطاني اليهودي «مونتفيوري» (وكان هو والمحامي الفرنسي اليهودي أدولف كريمية والمستشرق الفرنسي اليهودي سالومون مونك، أعضاء لجنة المفاوضة مع محمد علي) في الحصول على توقيع السلطان في استانبول بالموافقة على قرار والي مصر، ونجح كذلك في الحصول على موافقة البابا في الفاتيكان، وعلى أمر الأسقف ـ الرئيس العام لأديرة الفرنسيسكان في العالم ـ على إزالة لوحة تذكارية في مكتب الراهب توما، تشير إلى استدراجه وسفك دمه بين المتطرفين من يهود دمشق، وهكذا امَّحت الجريمة من أذهان العالم، ولم يبق منها إلاّ ملف القضية في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية، لأن قنصل فرنسا في سورية كان يرأس هيئة التحقيق ويشرف عليها، إذ إن الأب توما كان فرنسي الجنسية.

وقد سأل القنصل بعض المتهمين، وهم من كبار رجال الدين اليهودي في دمشق: ألم يبلغكم تحريم الدم ـ حتى دم الحيوان ـ في توراة موسى، فضلا عن الدم البشري؟ فشرح له أحدهم أن ذلك بتأويل لبعض نصوص التلمود، بعد أن طلب اعتناق الإسلام حتى لاتقتله هذه الطائفة، وأجيب إلى طلبه بإذن من «شريف باشا» حاكم دمشق آنذاك.

ومعذرة، فقد دفعني إلى هذا الاستطراد أن المستشرق الأمريكي اليهودي برنارد لويس ـ في واحد من أحدث كتبه وعنوانه «اليهود في العالم الإسلامي» ـ اتهمني بالانسياق في دعوى باطلة لادليل عليها، هي «تهمة الدم في دمشق». وكان أولى لهذا الباحث الكبير ألاّ يلح في إنكار هذه التهمة، وأن يفكر بدلاً من ذلك في مذابح أخرى لطخ اليهود بها أيديهم في دير ياسين، وفي القدس والخليل، وفي يافا يوم إعلان الدولة الصهيونية، وفي مذبحة الأسرى المصريين بعد عبور قناة السويس وسقوط خط بَرْليف الحصين، ومذابح كثيرة أخرى مستمرة إلى الآن تعد ضحاياها بعشرات الآلاف، غير مَنْ في سجون الصهيونية ومعتقلاتها من التعساء.

مواصفات طعامهم الحلال

وأنا هنا لا أتكلم إسلاميًا ولا عربيًا ولا عسكريًا، بل إنسانيًا فقط، إن كان ذلك يعني شيئًا في عقل برنارد لويس. ولكن اليهود جعلوا من تهمة الدم في دمشق علامة تاريخية لبدء قيام الصهيونية العالمية، قبل هرتسل بأكثر من نصف قرن من الزمان. ففي كتاب نشره الصحفي الصهيوني ميخائيل آساف في تل أبيب، عام 1940م بعنوان «مئة عام من تاريخ اليهود» ـ أي من 1840م ـ تاريخ تهمة الدم في دمشق ـ إلي عام 1940م ـ تاريخ صدور الكتاب من مؤلف من أعمدة الدعاية الصهيونية بالعربية؛ فهو صاحب جريدة «حقيقة الأمر» ورئيس تحريرها إذ ذاك ـ؛ مما يثبت أن مراجع برنارد لويس لم تكن عادلة ولا محايدة؛ لأن ميخائيل آساف عندما جعلها بداية للتصعيد الصهيوني في فلسطين سمّاها بكل بساطة «فرية الدم»! وهو يعلم أن فرية الدم هذه سبقتها حوادث خطف وذبح في الشرق والغرب صدرت حولها كتب ومجلدات، وأصبح كثير من غير اليهود في العالم يحتجزون أولادهم في مساكنهم، ولايسمحون لهم بالخروج منها في أيام عيد الفصح اليهودي! وأنا عندما أشرت إلى هذه القضية باختصار في كتابي «الفكر الديني اليهودي» وضعتها في موضعها عند الحديث عن الفرق الدينية المتطرفة، ولم أنسبها إلى صلب الشريعة اليهودية كلها.

والطعام الحلال يوصف بأنه «كاشير» وهو اصطلاح تلمودي غير مستعمل في التوراة ولا في كتب الأنبياء ولا في أسفار الحكمة، وعكسه «طرْيفَة» أي حرام. والتوراة تستعمل مكان «كَاشير» الكلمة العبرية «طَهُور» أي طاهر، ومكان «طريفه» الكلمة العبرية «طامية» أي نجس. ومسألة الحلال في الطعام تبدأ بالتدقيق في اللحوم والأسماك، وفي مصانع المواد الغذائية في إسرائيل والولايات المتحدة وفرنسا وبعض بلاد العالم التي فيها جالية يهودية كافية للتسويق تحمل العلبة أو الكيس أو الزجاجة خاتم «الحاخام». وطائفة اليهود المتزمتين تشترط أن يكون الحاخام منهم، أو يضع خاتمه بجانب الحاخام الرسمي، وإذا ختم السلعة وحده كان ذلك أدعى للطمأنينة! واللحم الحلال هو:

1ـ لحم كل حيوان مجترّ، وله أظلاف مشقوقة؛ كالبقر والغنم والظباء والماعز. فالجمل عندهم محرم لأنه ذو خُف وليس له ظلف مشقوق، والأرنب محرم لأن له أظافر، والخنزير محرم مع إن ظلفه مشقوق لأنه لا يجترّ وله ناب. وفي ذلك قصة طريفة، هي أن أحد فقهاء اليهود المتبحرين في الشريعة كان يعيش في روما في أيام القيصرية الرومانية، وكان يقصده كثير من اليهود من جميع أنحاء أوروبا والشرق الأوسط. وبدأ يتكلم عن الحلال والحرام من اللحوم، وانهالت عليه الأسئلة من الشباب: والجاموس؟ فيجيب: حلال، بعد أن يسأل: هل له ظلف مشقوق ويجتر، وليس له ناب؟ ويسأل آخرون: والغزال.. والأروى.. والرنة.. والوعل؟.. وأخيرًا ضاق الفقيه اليهودي ذرعا فصاح متأففا: قلت لكم: له ظلف مشقوق ولا ناب له ويجتر وله قرنان..إذا استوفى الحيوان هذه الشروط فكلوه.. حتى لو كان القيصر الروماني، وفي الحال أخذته المباحث واتهمته بالسخرية من القيصر وحكم القاضي بقتله. فهذا من ضحايا الفقه اليهودي!

2ـ لحم الطير الأهلي والبري، الأرضي والمائي، إذا لم يكن له منْسَر؛ أي منقار معقوف، وله ريش. فالنسر والصقر والباشق والشاهين والببغاء والبوم والحدأة حرام للمنقار المعقوف، والخفاش حرام لأنه لا ريش له مع أنه يطير بجناحين، وأضاف بعض شرّاح التلمود أنه يلد ولايبيض.

3ـ السمك: وهم هنا يُضيِّقون على أنفسهم جدا، فعندنا في الإسلام أن كل صيد البحر حلال إلا الأحياء البرمائية؛ أي التي تعيش في الماء وفي الأرض كالضفادع والتماسيح وبعض أنواع السلاحف والزواحف. أمّا في الشريعة اليهودية، فكل ما في البحر حرام إلاّ السمك الذي يغطّى جلده قشر، وله زعانف، وليست له أرجل. فالأسماك الملساء الجلد حرام، مثل الأحناش البحرية والأنقليس والجرِّى (القرموط). وكذلك القشريات والأصداف، مثل السرطان البحري (أبو جلنبو) والرُبيان (القريديس أو الجنبري) واللانغوست والهومار، والأخطبوط والحبّار

(الكلامار) والحلزون، والودع، والشرنباق، وما أشبهه. فهذا كله يحرم أكله عند اليهود، المحافظين على أوامر الشريعة ونواهيها، كما تحرم الرخويات كالديدان والحشرات بأنواعها، برية كانت أم مائية.

٤ـ البيض: حلال إذا أخذ من طيور منزلية مستأنسة، أما البيض الذي يُعثر عليه في القفار والبراري والغابات فمحرّم؛ إمّا لاحتمال كونه من بيض الأفاعي والحيات، وإما لعدم معرفة يوم وضعه، فقد يكون فاسدا بمرور الأيام.

شروط الذبح والذابح

وباستثناء السمك والبيض، فهناك أوامر وطقوس تتصل بذبح الحيوانات والطيور. واليهود في ذلك شديدو الدقة متزمتون. فالذي يقوم بالذبح يجب أن يتعلم تفاصيل مهمته بدقة، وحسب أحكام التلمود، لأن التوراة لم تشر إلى ذلك إلاّ باختصار في النصح بالرأفة بالحيوان. والمأذون بالذبح يسمى بالعبرية (شُوحيط) وهي وظيفة دينية، تتطلب الإحاطة التامة بما ينبغي لها، ويتلقاها المتعلم من ذابح مأذون، ويحفظ كل أحكامها عن ظهر قلب، ثم يقوم بالمهمة عمليًا ثلاث مرات أمام ثلاثة من الفقهاء يشهدون جميعًا أنه أدّى مهمته من دون أي خطأ أو إهمال، فيحصل على إذن شرعيٍّ بالذبح. وتبدأ مهمته من فحص الحيوان قبل ذبحه، والتأكد من خلوّه من أي عرض طارئ من ضعف أو هزال أو حَمْل واضح أو جروح أو كسور حتى في القرون أو الأسنان أو الأظلاف، وكذلك التأكد من أنه غير جائع أو عطشان أو ظاهر التعب والإرهاق. ثم يراجع الذابح السكين ـ بعيدا من بصر الحيوان ـ والسكين قد تكون من قطعة واحدة من المعدن للنصل والمقبض، أو يكون مقبضها من مادة أخرى ويكون النصل مثبتًا فيها، وفي هذه الحالة ينبغي أن يكون النصل مثبتًا تثبيتًا محكمًا في المقبض بثلاثة مسامير على الأقل، حتى إذا انكسر أحدها مصادفة بقي النصل راسخًا في مكانه أثناء الذبح. ثم يتأكد الذابح من أن النصل حاد وقاطع وغير مُسنّن ولا متآكل.. ثم يعلّق الحيوان ورأسه إلى أسفل، ويقرأ دعاء بسم الله، ثم يذبح الحيوان من الوريد إلى الوريد مع قطع الحنجرة بسرعة ودون توقف. فإذا عرض له من يوقف العملية ـ ولو للحظة ـ فالذبيحة كلها غير شرعية، وأكلها حرام. وبعد إنزال الذبيحة وسلخها يقوم بفتحها والنظر في رئتيها، فإن رآهما ملتصقتين بالقفص الصدري، أو فيهما عقد من الدم، أو ثقوب أو بقع داكنة، فالذبيحة مريضة ومحرّمة. وذبح الطيور أخفّ في شروطه من ذلك، أما ذبح الحيوانات البرية الكبيرة التي تصاد بالشراك فإنها تذبح من دون أن تعلّق، وتغطى آثار دمها بالتراب أو الرمل.

والدم نجس بجميع أنواعه عند اليهود، إلاّ الكبد والطحال، كما هو في الإسلام. لكن التزمت اليهودي يقضي بألا يبقى أثر للدم في الذبيحة، ولذلك يرشون عليها ملحًا من داخلها وخارجها لكي يمتص الملح آثار الدم اللاصقة بها، ثم تغسل بعد ذلك بالماء، حتى يقطر منها الماء لاتشوبه حمرة الدم. وتبقى مع ذلك أجزاء من الذبيحة يحرم أكلها، أهمها الأجهزة التناسلية لذكور الحيوان وإناثه، ثم عرق النَسَا، وهو حبل متين من الأعصاب يخترق الفخذ، وكان الساميون قديمًا ـ واليهود من بعدهم ـ يعتقدون أن هذا العصب له صلة بروح الحياة التي ينفخها الخالق في الأجنّة عند وصولها إلى الأرحام، ومن سوء الأدب أن يأكل الإنسان الطريق الذي سلك فيه روح الله!

بلغ من تعقيد المطبخ اليهودي أنهم حرموا خلط الآنية المستعملة للحم مع الآنية المستعملة للحليب، ولو حدث ذلك فيجب الخلاص من الآنية جميعها!

فهذه هي واجبات المأذون بالذبح الشرعي عند اليهود باختصار. وعليه أن يحفظها عن ظهر قلب، وعليه أيضا أن يعيدها كاملة، من الذاكرة، ثلاث مرات كل شهر. ولايتصرف في الذبيحة حتى يأتي الحاخام أو مندوب منه فيضع خاتم الحلال على هذا اللحم. ونجد أحيانًا أن بعض الموسوسين من اليهود ـ وهم كثيرون ـ لا يأكلون اللحم الحلال المقطوع من الفخذ، قائلين: ربما علقت باللحم وصلة ضئيلة من عرق النسا. ولا حاجة بنا إلى القول بأن الحاخام لا يعطي بركاته وخاتمه مجانًا.

وفي البلاد التي تقيم فيها جالية يهودية كبيرة العدد مثل استراليا أو الأرجنتين أو البرازيل أو كندا أو الولايات المتحدة، توجد مسالخ ومصانع اللحوم المحفوظة، والمشتري اليهودي التقي يحرص على أن يرى البضاعة مختومة بطابع الحاخام، والحاخام قد «يتعاقد» مع المصنع تاركا لهم خاتمه يستعملونه كما يريدون، فلاعجب إن صادفنا يهوديا يرفض الأخذ بهذا الطابع الديني، ويضحك ساخرا. وقد رَدَّ عليّ أحدهم يوما بقوله: الحمد لله أنا لا أدخل الجنة بخاتم الحاخام! وفي أوروبا وأمريكا أثارت جمعيات الرفق بالحيوان عاصفة من المعارضة في الذبح الشرعي لليهود بالموازنة بكسر جمجمة الحيوان بمطرقة ثقيلة حتى يغيب عن الوعي قبل ذبحه.. وما إلى ذلك. وتدخل في الجدال عدد من أساطين الطب البيطري في العالم الغربي، وأكثرهم من غير اليهود، فأكدوا أن الراحة والاسترخاء عند استنزاف الدم تجعل مفارقة الحيوان للحياة أهون من الصدمة الرهيبة في دماغه، التي يتلقاها من الجزّار.

مطبخ يعج بالغرائب

كل هذا ونحن مانزال بعيدين عن المطبخ اليهودي، وهو مطبخ مملوء بالمحاذير وأحكام التحريم، ولذلك فهو مملوء أيضا بالعجائب والغرائب، ولاسيما أن اليهود ، منذ السبي البابلي في القرن الخامس قبل الميلاد والشتات الروماني في القرن الأول الميلادي، كانوا ـ ومازالوا ـ منتشرين في جميع أنحاء الأرض، يرون موائد من يعايشونهم من البشر ويذوقون أطايبها فيحاولون جاهدين «اقتباس» ما لذّ لهم منها، وإعطاءه طابعهم وطابع الطعام الكاشير (الحلال) دينيًا.

وليس التزام أحكام «الحلال» كافيا ليأكل اليهودي بأمان واطمئنان؛ بل عليه أن يكون مغطى الرأس، لأن تغطية الرأس هي علامة الاحترام عندهم، بخلاف الغربيين الذين يرون العكس تمامًا، فللتعبير عن الاحترام يبادر الواحد منهم بخلع قبعته واستقبال الشخص الذي يعظمه حاسر الرأس. وهناك أمر شرعي عند اليهود بتغطية الرأس حيث يمكن النطق باسم الله إما منه أو من بعض الحاضرين. وذكر الله عندهم كثير جدا، حتى ليكاد اليهودي الملتزم منهم يتحول إلى آلة تلقائية (أوتوماتيكية) لذكر الله، بلا تفكير في

معظم الأحيان. فهو يذكر الله ويباركه عندما يقف أمام المائدة، وعندما يغسل يديه، وعندما يشعل النور في المساء، وعندما يحضر كل ضيف من الضيوف، وعندما يجلسون في مقاعدهم، وعندما يصبّ لهم الماء أو أي شراب آخر من خمر أو غيرها، وعندما يكسر رغيف الخبز، وعندما يسكب الحساء، وعندما ينتهي من شربه وهكذا.. إلى النهاية، أو إلى ما لا نهاية!

واللغة العبرية تُفرِّق - منذ عهد التوراة - بين الوجبة الغذائية «أرُوحَة» والوليمة الحافلة «مشْتيه». الزولى أساسها أكل الطعام والمشاركة فيه، وَالأخرى أساسها المنادمة على الشراب، مع الغناء والعزف على الآلات الموسيقية، والأكل طبعًا.

ولأن الحياة لقرون طويلة في الشتات ألقت باليهود في أصقاع مشهورة بجودة موائدها كالإيطاليين والإسبان والمغاربة والمصريين والشوام والفرس والترك؛ فإنهم أخذوا من كل شيء أطيبه. والصعوبة التي يتغلبون عليها دائمًا هي تجنّب «الخلط». فهم «شعب الله المختار» ويجب ألا يختلطوا بغيرهم إلا في حدود «الاستفادة» منهم. فلا زواج ولا مصاهرة ولاقرابة رحم مع «الجوييم»؛ أي الأمم الأخرى، ويقترن ذلك في أذهانهم بصفات ذميمة مثل «الملعونة» أو «الكافرة» أو المعادية لليهود». وتوسع الفقهاء في تحريم الاختلاط، فحرّموا الجمع بين اللحم والحليب ومستخرجاته في إناء واحد، محتجين بآية في كتابهم تقول: كونوا رحماء، ولاتطبخوا الحمَل في لبن أمّه. فهم يطبخون اللحم شواءً على النار مباشرة، أو يقلونه في الزيوت النباتية، أو ينضجونه في الماء. وأما طبخه في الزبد أو اللبن أو القشدة فحرام كأكل لحم الخنزير، ولا بأس بقتل الطفل العربي الفلسطيني في أحضان أمه. بل هم يحرّمون الذبيحة الحبلى، ويبقرون بطن المرأة الفلسطينية الحبلى بمنتهى الهمة والنشاط.

والشريعة اليهودية مملوءة بالمتناقضات، فهي تبيح شرب الخمر، وتجعله واجبًا في بعض المناسبات - في عيد (بوريم) مثلا الذي يأتي قبل عيد الفصح بقليل - بشرط أن تكون زجاجة الخمر ممهورة بخاتم الحاخام الذي يشهد بأنها «حلال»! أما المخدرات فمسكوت عنها، وعقوبتها في إسرائيل خفيفة؛ إلا إذا قام المنتج بتسويقها بين اليهود، أما إذا كان يهرّبها إلى مصر أو السودان أو إحدى دول الخليج فإن المباحث عندهم تشارك المنتج والمهرب في الغنيمة، وتسكت الدولة الصهيونية وكأنها لا تعرف شيئًا!

الذبيحة الحبلى وطبخ اللحم - عند اليهود - في الزبد أو اللبن حرام، ولكن لا بأس - عندهم - بذبح الطفل الفلسطيني أو الفلسطينية الحامل بكل همة ونشاط!

عجائب في استعمال آنية الطعام

وفي تحريم الخلط يواجه الشباب اليهودي مشكلة صعبة. فهو إذا بدأ مع عروسه في إعداد العدّة للزواج، كان عليهما أن يشتريا مجموعتين كاملتين من أواني المطبخ والمائدة: القدور والقصاع والأطباق والصحون والملاعق والشُوك والسكاكين والمغارف والمصافي والطناجير والطواجن والكيسان والكيزان والدستجات (الفضائر الصغيرة) والمقالي والطشوت والفناجين والأكواب.... وما إلى ذلك، من كلِ زوجين اثنين للفصل بين ما يدخله اللحم وما يدخله الحليب، وبشرط أن يوضع كل مجموع على حدة، بعيدا من الآخر، بحيث يستحيل الخلط بينهما، لأن أي خلط يحدث فيهما يلغي «طهارة» الاثنين، ويسقط شرعيتهما، ويقضي بشراء غيرهما، وبيع الساقط الشرعية منهما أو إهدائه إلى بعض «الجوييم».

ومن الحيوانات التي يحلّ أكل لحومها ثلاثة أنواع يُضَحّى بها في ظروف دينية خاصة، ويستخدم دمها في طقوس أقرب إلى السحر والشعوذة منها للعبادة، ثم تُحرق برمّتها حتى تصير رمادًا: منها بقرة بني إسرائيل المذكورة في القرآن، وهي ذبيحة للكفّارة من إثم جسيم تقع مسؤوليته على الجماعة كلها. ومنها تيس الفداء الذي تذكره التوراة المنسوبة إلى موسى (سفر اللاويين، الفصل السادس عشر). ويتحدث هذا الفصل عن تيسين أحدهما يُهدى لله تعالى، والآخر للشيطان (عزازيل بالعبرية)، ويقوم الكاهن بالاقتراع بينهما، فالذي وقعت عليه قرعة الرب يذبح ويحرق إلى أن يصير رمادًا وهو «تيس الخطيئة»، أما تيس الشيطان فيأخذه الكاهن ويضع يده على رأسه؛ أي رأس التيس، ثم يعترف بخطايا بني إسرائيل وجرائمهم وما اقترفوه من ذنوب، ثم يطلقه حيًا إلى الصحراء يشيّعه حارس خاص لإبعاده من حوزة الجماعة، وهو «تيس الفداء» الذي يحمل كل جرائم اليهود على رأسه باسم الشيطان، والعياذ بالله! وهو غير كبش الفداء الذي يُذبح ويحرق ولا يحل أكله للكفّارة عن ذنوب أصحابنا أيضًا. ولولا طول الشروح التلمودية والمدراشية حول تسويغ هذه الطقوس لبسطت القول فيها، وإن كان تتبّع الخرافات اليهودية المنسوبة إلى موسى وهارون، وإلى الرب أيضًا، أمر لا يكاد ينتهي. وبقرة بني إسرائيل هذه هي أساس الطقس الديني المعروف عندهم باسم «العجْلَة المعقورة»، أي المذبوحة من قفاها، وهي التي إذا وجدت جثة قتيل ولم يعرف قاتله، يؤتى بها ليقام عليها الحدّ ضربا بالسيف من قفاها ثم تحرق كلها حتى تصير رمادا، وتغرم المحلّة ثمنها. وفي هذه الطقوس نجد أيضا عددا من العصافير، بل نجد بعض عيدان النبات. وهم مع ذلك يقولون إن موسى - بعد أن انتصر على سحرة فرعون - حرم السحر بتاتا، وجعل عقوبته القتل.

وما أشقى المرأة اليهودية بالشريعة! فهي المسؤولة عن تربية الأولاد، وعن التفنن في إعداد الطعام المناسب لهم، ولمزاج زوجها، وعن إعداد مائدة يوم السبت منذ قبل غروب شمس الجمعة وجعلها وليمة حافلة، والمحافظة على الساخن منها حتى لايبرد في أربع وعشرين ساعة، ووضع إبريق الخمر أمام رب الأسرة، وإعداد شموع السبت موقده منذ غروب شمس الجمعة، وتنظيف البيت، وإعداد حلوى يوم السبت، ثم اللحوق بزوجها في المعبد، مع عدم المساس بثوبه للصلاة (الطاليت) فإنه إذا مسته المرأة تدنّس إلى الأبد، وفقد قدسيته وطهارته! هكذا قال التلمود. وعليها أن تنصت إلى مايقوله الحاخام في صلاة الجماعة، دون أن تفهم منه شيئًا، لأن تعلم اللغة العبرية كان محرمًا على النساء، وبعد هذا كله أن تظهر أمام زوجها وضيفه (وضيف وجبه مساء السبت سنّة عندهم) مُرحّبة مبتسمة داعية الله للجميع، كما كانت تقول «آمين» وراء الحاخام في المعبد، حتى لو كان

يلعن النساء في خطبته! لكن هذا كله قد تغير إلى العكس تماماً، وأصبح النساء، إلا من عصم الله، يقضين ليلة السبت في أندية (الديسكو) ومراقص (الروك) الكثيرة في القدس وتل أبيب، ويعتمدن على الثلاجات وأفران «الميكروييف» والمكانس الكهربائية ورضّاعات الأطفال والأطعمة المحفوظة (الكاشير).

ومن الطقوس الواجبة على المرأة اليهودية - سابقا - أن تقوم بإعلان الانتهاء من حرمة يوم السبت مع غروب شمس ذلك اليوم، بأن تفتح «حُقّ التوابل» وتشمه وتقرأ عليه بركة خاصة، إيذانًا بجواز إيقاد النار، لأن التوابل توضع عادة على الطعام وهو يطبخ على النار. وكانوا يتفننون في صنع حُقّ التوابل هذا، ويكون عادة من الزجاج المزخرف أو الفضة. والنبات ذو النكهة الشائعة بينهم قديما كان نوعا من الحَبَق الزكيّ الرائحة اسمه باللغة العبرية «هداس»، وهو الأصل في اسم اليهودية الجميلة جداً التي فتن بها كسرى فارس «أرطاكسرسيس» وكان اسمها «هداسا» فسمّاها هو «إستير» أي «النجمة»، وهي غير النجمة الصهيونية السداسية!

واشتهر المطبخ اليهودي بالتوابل؛ إذ نقلوا البصل والثوم من المطبخ الفرعوني، وأخذوا حفظ اللحوم والأسماك وتقديدها وتمليحها من مجاورة البدو، وأمم أخرى في الأصقاع الباردة جداً من العالم، حيث تكون بلادهم عبارة عن صحراء تغطيها الثلوج. وأدخل يهود البندقية الكثير من التوابل والأفاوية والأبازير والمنكّهات الشرقية إلى أوروبا أثناء الحروب الصليبية يشاركهم في ذلك يهود اليونان وإسبانيا والمغرب. وأخذوا عن العرب «السندوتش» قبل أن يخترعه طباخ الحاكم البريطاني لجزيرة (سندوتش) بزمان طويل. فقد كان الجاحظ - في القرن الثالث الهجري - يرتزق في صباه بوضع السمك المشوي في داخل الخبز وبيعه للبحارة في ميناء البصرة. وعند اليهود نوع من هذا الطعام يسمونه «الفتات» - بالعبرية بتُوتْ بباء ثقيلة، ومفردها بتًّا - وهو رغيف صغير أجوف يحشى بفلافل الحَمّص مع الخضر والبهارات ويقلى بالزيت. وهم أول من أدخل الحمّص في المطبخ الأوروبي، وما تزال هذه البقول تسمى «خُوديا» أي «اليهودية» بالإسبانية.

واشتغل اليهود في الأندلس والمغرب بإعداد الأسماك المحفوظة في الملح، وكذلك بدبغ الجلود بالملح، وتقديد اللحوم بالملح، مما جعل أحياءهم وحاراتهم - قديما - كريهة الرائحة، فاشتهر حي اليهود في الأندلس والمغرب باسم «الملاّح». وكانت العرب توصي من يسافر منهم مغتربًا بأن يأكل عند اليهودي لجودة طبخه، وخلوّه من لحم الخنزير، وأن ينام عند النصراني لنظافته. وإن كان الجاحظ لايوافق على نظافة النصراني في رسالة طريفة له عنوانها «الرد على النصارى».

شريعتهم تحرّم الخنزير وهم يتحايلون!

واجتناب أكل الخنزير عند اليهود فيه كلام كثير. فلاشك في تحريمه بالنص عندهم، ولاشك في أن الأتقياء منهم يفضلون الاكتفاء بالنباتات في طعامهم إذا وُجدوا في ظروف لايجدون فيها لحمًا غير لحم الخنزير. ومع ذلك فإن لهذا اللحم المحرّم عندهم سوقًا رائجة في إسرائيل تبدأ من تربية ذلك الحيوان إلى التفنن في تحضيره وحفظه وبيعه. وقد حاولت الأحزاب الدينية استصدار قانون إداري يمنع هذه التجارة، وبعد مناقشات طويلة وحامية في الأوساط البرلمانية والتشريعية والقانونية ظهر للمشكلة «حل مؤقت»، وهو أن يُترك رئيس كل بلدية حرًا في تحريم الخنزير أو إباحته في منطقة نفوذه. ومازال الأمر على ما هو عليه إلى الآن. ومنذ القدم واليهود يخالفون شريعة دينهم في لحم الخنزير، حتى كثرت القصص المضحكة حول هذا، ففي أثناء الحكم الشيوعي في روسيا حصل اليهود في عهد الرئيس نيكيتا خروتشوف على إذن بجواز مغادرة روسيا نهائيا. وصدرت الأوامر إلى موظفي الجمارك بالحذر واليقظة لمحاولات التهريب التي يتقنها اليهود. وفوجئ موظفو الجمرك بالحاخام يغادر البلاد، ويحمل معه أمتعته الشخصية، ومعها خمس ثلاجات ضخمة، وبسرعة أحيل إلى التحقيق، وعندما سئل أجاب: ثلاجة للحم والسمك وما يلزم لذلك، وثلاجة للجبن والزبد والحليب واللبن الرائب.. فأنت تعرف يا سيدي أن خلط النوعين في الشريعة اليهودية حرام. وقال المحقق: والباقي؟ قال: اثنتان أخريان لطعام أسبوع الفصح، لأن أكله الخاص يحرم خلطه بغيره. قال المحقق: فهذه أربع.. وبقيت ثلاجة لاداعي لها.. فقال الحاخام: ياسيدي.. أنت تعلم أن النفس أمارة بالسوء، وأحيانًا يغلبني الشيطان فأشتاق إلى لحم الخنزير.. ومن المحال أن أضع النجس مع الطاهر! وسيعجب القارئ إذا قلت له إن هذه النكتة منقولة من كتاب ضخم عنوانه «توراة الفكاهة اليهودية» من تأليف الحاخام اليهودي «واتكين» وشريكه - اليهودي أيضا - «روتنومر». الطبعة الجديدة المزيدة، باريس، نوفمبر 1995م.

ومن أغرب فنون الطبخ اليهودي الإشكنازي السمك بالفرن. وأساسه - بطبيعة الحال - سمكة من نوع البوري أو البلطي أو المرجان، يجرد عنه قشره، ويُفتح وينظف جيدا، ثم يوضع في صينية من المعدن أو الفخار مع المقدونس والبصل والكرفس والجزر والبازيلا الخضراء، ويضاف إلى هذا شيء من الملح وقليل من السكر الناعم، ويرشّ فوق هذا كله عصير الطماطم وعصير الليمون وزيت الزيتون وبعض البهارات. وأشهد أنني جربته عند يهود بولنديين فأعجبني، خصوصًا لأنه لايبعث على الشعور بالعطش. والبولنديون مشهورون بميلهم للإكثار من شرب الخمر، فلعلهم ابتكروا هذا حتى يغنيهم عن التداوي بالتي كانت هي الداء. ودخلت ذات يوم أحد المطاعم اليهودية في مدينة وزّان بالمغرب، وكان المطعم لايفتح الشهية بشكله المتواضع جدًا، ومظاهر الفقر الواضحة في الأثاث والصحون وثياب الخدم. وسألت الخادم إذا كان الأكل عندهم (كاشير)، فظن أنني من أخوانه في الدين وأجاب بابتسامة: اطمئن ياسيدي! كل ما عندنا كاشير. فقلت له: أنت ترى أنني رجل غريب، وأريد أن تطعمني أطيب ما عندك. وأحضر لي صحنا فيه قطعة مستديرة من طحال العجل محشوة بالثوم والبصل و«المعدنوس» - المقدونس - مع بهارات بارعة ومرقة طيبة. وأشهد أنني أكلت في كثير من فنادق العالم الممتازة فلم أجد ألذّ من هذا الطحال المحشو، ولاسيما بعد أن تحليت بقطعة من «البصطيلة»، وهي صينية بالفرن فيها رقائق من العجين المطبوخ مع الفواكه الجافة كالزبيب والقراصية والمطيّبة بالقرفة وماء الورد والمحلاة بالعسل، وكان ختام هذه الوجبة الشاي الصيني الأخضر بالنعناع، أو النعناع بالشاي بمعنى أدق.

وكل رمضان وأنتم في نعمة وبركة وسرور.





عالم الأندلسيات
د. محمود علي مكي

الإسبان الإيبيريون فضل العرب على الثقافة الأوروبية

الحلقة الأولى

أجراه: د. خالد سالم

عالم الأندلسيات محمود علي مكي حجة في الدراسات الأندلسية على المستويين العربي والإسباني، فلا يكاد يُطرح جديد في هذا الحقل دون الرجوع إليه. أثرى المكتبة الأندلسية، في عدد من الجامعات العربية، بأبحاثه، واللغة العربية من خلال عضويته بمجمع القاهرة، وانتخابه عضواً مراسلاً في الرباط، ودمشق، وبرشلونة، وقرطبة، وفي المجمع الملكي للتاريخ بمدريد.

امتدت دراساته لتشمل أدب أمريكا اللاتينية والأدب الإسباني القديم والمعاصر، إلى جانب الأدب المغربي والأندلسي الذي يدرّسه في آداب القاهرة.

يعد من العرب القلائل الذين يتمتعون باسم معروف في أمريكا اللاتينية؛ إذ يتردد عليها محاضراً في جامعاتها ومشاركًا في الكثير من الفعاليات الثقافية التي تقام في دولها، وكان آخرها فعاليات الدورة الثالثة للحوار العربي الأمريكي اللاتيني عبر شبه جزيرة أيبريا الذي يقام سنويًا تحت رعاية اليونسكو، التي أقيمت في عاصمة فنزويلا: كاراكاس.

نال العديد من شهادات التقدير والأوسمة والجوائز من دول العالم، من بينها وسام ألفونصو العاشر الحكيم، والوشاح الأكبر للاستحقاق المدني بلقب فارس، من إسبانيا، وجائزة الدولة التشجيعية للترجمة من مصر، كما أنه أحد من يجمعون بين جائزتين عظيمتين: جائزة الملك فيصل العالمية وجائزة الدولة التقديرية للآداب من بلده: مصر.

بعد عودته من رحلته العلمية إلى العاصمة الفنزويلية، في حزيران/يونيو المنصرم، عرج كعادته على مدريد، ودار بيننا الحوار التالي:

- شاركت في الحوار العربي/الأمريكي اللاتيني عبر إسبانيا والبرتغال، فما أهداف هذا الحوار؟ وكيف تطور؟

* هذا الحوار هو جزء من البرنامج الذي تقوم بتنفيذه منظمة اليونسكو في إطار الحوار بين الثقافات المختلفة. وبطبيعة الحال كان من أكثر الثقافات التقاءً الثقافة العربية والثقافة الإسبانية بدلالتها الواسعة؛ أي بلاد شبه جزيرة أيبريا، إسبانيا والبرتغال، ثم البلاد التي انحدرت من صلب هاتين الدولتين، وهي بلاد أمريكا اللاتينية التي تتكلم اللغة الإسبانية: من المكسيك في الشمال إلى الأرجنتين وتشيلي في

عالم الأندلسيات

د. محمود علي مكي

الجنوب، باستثناء البرازيل التي تتكلم البرتغالية.

ومن الواضح أن الثقافتين العربية والأيبرية هما أكثر الثقافات اتصالاً، وذلك بفضل الوجود العربي الذي استمر في شبه جزيرة أيبريا أكثر من ثمانية قرون، ولهذا كانت هناك حاجة ملحة لعقد هذا الحوار بين ثقافتين التقتا على مدى طويل، ومن المعروف مدى تأثير الثقافة العربية الإسلامية في نشأة الثقافة الإسبانية والبرتغالية وتكوينهما.

ثم إن الفاتحين الإسبان والبرتغاليين، الذين استكشفوا قارة أمريكا اللاتينية، حملوا معهم كثيرًا من هذه الرواسب العربية التي كانوا قد تشبعوا بها خلال المدة السابقة، ذلك لأن المصادفة الغريبة هي أن نهاية الوجود العربي الإسلامي سياسيًا وعسكريًا في شبه جزيرة أيبريا تم في مطلع سنة 1492م حينما سقطت غرناطة، آخر معاقل المسلمين في الأندلس، في أيدي الملكين الكاثوليكيين، وفي آخر هذه السنة وصل كريستوفر كولمبس إلى شواطىء القارة الأمريكية، وبدأت صفحة جديدة من تاريخ هذه البلاد بالوجود الإسباني البرتغالي عليها.

وتجددت هذه العلاقة بين العرب وأمريكا اللاتينية ابتداءً من أواخر القرن التاسع عشر بتيارات الهجرة التي توجهت من البلاد العربية، ولا سيما بلاد الشام، إلى بلاد أمريكا اللاتينية، ويقدر عددهم الآن بنحو ثلاثين مليونًا من البشر.

لهذا رأت اليونسكو ومعها المثقفون الذين يهتمون بثقافة الآخر أن يكون هذا اللقاء بين الثقافتين اللتين جمعت بينهما أواصر كثيرة على الرغم من بعد المسافة الجغرافية، وكانت بداية هذه الملتقيات في حزيران/يونيو 1992م، وذلك في المؤتمر التحضيري الذي عقد في أوبورتو بالبرتغال، وجمع بين عدد من المتخصصين، لا على أساس الدول المشتركة، وإنما على مستوى الدراسات والتخصصات. وكان ممثلو اليمن والمغرب وموريتانيا في اليونسكو ـ نيابةً عن جميع الدول العربية ـ هم الذين تقدموا بأول مقترح لعقد هذا الحوار العربي الأمريكي اللاتيني، فرحبت بلاد أمريكا اللاتينية بذلك على أن تكون حلقة الصلة ما بين الثقافتين هي إسبانيا والبرتغال، وهذا أمر طبيعي؛ فإسبانيا والبرتغال هما اللتان نقلتا التأثيرات الحضارية العربية منذ البداية، وهما اللتان شاركتا في نقل الكثير من عناصر هذه الثقافة ومقوماتها إلى القارة الجديدة.

عقد المؤتمر الأول ـ بعد التحضيري ـ في نواكشوط بموريتانيا في سنة 1993م، وعقد المؤتمر الثاني في غرناطة في آذار/مارس 1994م، وهذا هو الملتقى الثالث لهذا الحوار وعقد في كاراكاس في غضون شهر حزيران/يونيو 1995م. وكان قد تم الاتفاق على أن يعقد الملتقى مرةً في إحدى بلدي شبه جزيرة أيبريا، ثم في بلد أمريكي لاتيني ثم في بلد عربي، وتتكرر الدورة على هذا النهج.

وفي ملتقى كاراكاس قُدِّمت أبحاث من الخبراء الذين يعملون في هذا الميدان، وقدمت محاضرات على هامش المؤتمر، كما أقيم معرض للفن الإسلامي في الأندلس، وهو مايسمي بمعرض التراث الأندلسي، وكان يقوم على عدد من الموضوعات وشرائط (الفيديو) التي تصور الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس.

وكان القائم على هذا المعرض ماوريثيو باستور الذي أشرف على المجلدات التسعة التي صدرت في غرناطة في هذه السنة حول التراث الفني الإسلامي في الأندلس، وكان لي شرف المشاركة في أولها؛ إذ إنني كُلِّفت الكتابة عن تاريخ دولة بني نصر، لأن معظم عناصر المعرض هي الفن الإسلامي في غرناطة.

أما الأبحاث التي قدمت فإنها متنوعة تنوعًا كبيرًا، منها موضوعات طريفة لم يتطرق إليها الباحثون من قبل، مثل الحديث عن الحصان العربي والحصان البربري ونقله عن طريق إسبانيا إلى أمريكا اللاتينية، والحديث عن المنتجات الزراعية التي كان للعرب فضل نقلها إلى إسبانيا ثم نقلها الإسبان إلى العالم الجديد مثل قصب السكر، وطرق الري والزراعة التي تحدث عنها المتخصص الأمريكي توماس جلينك، وقد دار بحثه حول وسائل الري واستخدام المياه في شبه جزيرة أيبريا، ونقلت هذه النظم إلى أمريكا اللاتينية. والفن المدجن، mudejar، وهو الفن المعماري الذي ابتكره المسلمون الذين عاشوا في ظل السيادة المسيحية، وتوجد لهذا الفن شواهد كثيرة في إسبانيا مثل تلك التي نجدها في طليطلة وتيرويل والبراثين، أي سهل بني رزين، وانتقل هذا الفن إلى بلاد أمريكا اللاتينية حيث نراه منتشرًا من المكسيك إلى الأرجنتين وتشيلي، بل إننا نراه منتشرًا في الكثير من الولايات الجنوبية في الولايات المتحدة الأمريكية التي كانت، في وقت من الأوقات في بداية الفتح، تابعة لإسبانيا.

على هامش هذا المؤتمر كانت هناك أنشطة أخرى، من بينها عرض موسيقي فولكلوري قام به الفنزويلي المتخصص رفائيل سلشار، وقدم بحثًا طريفًا حول الموسيقى والغناء العربي في الأندلس، ونقل الكثير من عناصره إلى أمريكا اللاتينية، مركزًا على بلده فنزويلا بالذات؛ إذ إن هناك لونًا من الرقص والموسيقى يطلق عليه «خروبو» وهو متطور عن الفندانجو الإسباني الذي يحمل كثيرًا من بصمات الموسيقى العربية القديمة. وقد قدم هذا العرض في أحد المسارح الكبرى في العاصمة الفنزويلية، ودار حول هذا الموضوع نقاش طويل، دام ساعتين، في التلفاز الفنزويلي، وكان لي شرف المشاركة فيه؛ حيث تحدثت عن بعض التأثيرات العربية في الثقافة الإسبانية التي حُملَت إلى أمريكا اللاتينية، وهو موضوع المحاضرة التي ألقيتها في الملتقى، ودار حولها أيضًا حوار في التلفاز الفنزويلي.

كانت هناك أيضًا لقاءات واحتفالات بهذه المناسبة، شاركت فيها بعض السفارات العربية، وكان للسفارة المصرية ولسفارة الكويت حضور واضح في هذا الملتقى. كما قام كثير من المثقفين ذوي الأصول العربية، من الفنزويليين، بالمشاركة في أعمال الملتقى، وأخص بالذكر د. خلدون نويهض، ابن العلامة والمجاهد العربي عجاج نويهض، الذي كان رئيس المؤتمر، وكان لي شرف أن أكون نائبه.

ـ معروف أنك حصلت على أكبر جائزتين عربيتين: جائزة الملك فيصل العالمية وجائزة الدولة التقديرية في مصر، وقد لا يكون أحد قد شرف بالجائزتين، فماذا عَنَتْ لك هاتان الجائزتان؟

* فيما يتعلق بالحصول على الجائزتين معًا فهناك سوابق لها من بعض أساتذتنا مثل الأستاذ الدكتور شوقي ضيف، وشيخ العربية محمود محمد شاكر، وربما غيرهما.

بطبيعة الحال لا أملك إلا الشعور بسعادة

كبيرة بالحصول على الجائزتين؛ أي جائزة الملك فيصل التي حصلت عليها في سنة 1988م وجائزة الدولة التقديرية التي حصلت عليها في سنة 1994م.

وهاتان الجائزتان ليستا عن عمل معين بذاته، وإنما عن جملة المسيرة العلمية والثقافية في خلال السنوات الماضية. وقد أسعدني كثيراً أن يكون هذا التكريم من جانب هذه المؤسسة العظيمة، مؤسسة الملك فيصل، التي تقوم بتشجيع العلماء، ليس فقط على المستوى العربي، لأن هذه الجائزة مطروحة للعلماء من العالم كله. أما جائزة الدولة التقديرية فيسعدني أنها كانت بترشيح من جامعة القاهرة ومن مجمع اللغة العربية، وكان الترشيح لجائزة الملك فيصل من جامعتي القاهرة والكويت.

- كيف تتعامل الثقافة العربية المعاصرة مع حضارة الأندلس؟

* يلاحظ أن حضارة الأندلس لم تلق من اهتمام الباحثين العرب ما يكفي إلا في السنوات الأخيرة؛ أي منذ أربعين سنة. قبل ذلك كانت هناك صلات بين ثقافتنا العربية والأندلس، ولكن لم تكن قائمة إلا على أساس عاطفي. ويمكن أن نضرب مثلاً لها بإقامة أمير الشعراء أحمد شوقي في الأندلس، حينما نفي من مصر في سنة 1914م، وأقام في إسبانيا حتى 1919م.

فلعل ذلك أول صلة أدبية حقيقية، في تاريخنا في القرن العشرين، بين أديب عربي كبير والثقافة الأندلسية، ولا سيما أن شوقي لم يكتف بالقراءة حول الأدب أو التاريخ الأندلسي، وهو شيء كان موجوداً منذ أول القرن، لنذكر على سبيل المثال أن مصطفى كامل كتب مسرحية عن دخول طارق بن زياد الأندلس، وكان ذلك في 1892م.

لكني ذكرت أحمد شوقي بصفة خاصة؛ لأنه أول أديب عربي كبير زار إسبانيا وأقام فيها مدة طويلة، وأنتج فيها كمّاً كبيراً من شعره ونثره. بعد ذلك كان هناك من كتب من بعض الرحالة عن الأندلس، ولكنها كانت كتابة غير مبنية على أسس علمية بحثية حقيقية.

وفي السنوات الأخيرة عاش عدد من أدبائنا مدداً في إسبانيا، فتزايد الاهتمام بالأندلس وبإسبانيا المعاصرة؛ مثل عبدالوهاب البياتي ونزار قباني، وهما من كبار شعراء العربية اليوم، ونظما كثيراً من شعرهما المستوحى من حياتهما في إسبانيا، كما نجد هذا الاهتمام عند صلاح عبدالصبور.

وكان من الرواد د. محمد عبدالله عنان - يرحمه الله - الذي اهتم بالأندلس، فأخرج عدداً من المجلدات عن تاريخها كله حتى نهاية عهد المسلمين في غرناطة، وذلك من سنة 1936م، وعلى مدى نحو ربع قرن عمل في هذا الميدان، وكان له فضل لا ينكر.

على أن البداية الحقيقية للبحث في تاريخ الأندلس حضارةً وأدبًا، على مستوى العالم العربي، لم يبدأ على نحو منهجي إلا حينما أُنشئ المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، في 1950م، بفضل د. طه حسين، حيث بدأ بإرسال مجموعة من الشباب للدراسة في إسبانيا، ويسعدني أنني كنت من بينهم.

ومنذ ذلك التاريخ، ولا سيما ابتداء من الستينيات، وجدنا اهتمامًا بنشر النصوص الأندلسية، وذلك لأن التراث الأندلسي كان معظمه ضائعًا، ولم يكن قد نشر منه في أوائل هذا القرن إلا القليل، وكانت طبعات غير علمية وغير منهجية.

بدأت - كما قلت - في الستينيات حركة نشر النصوص الأندلسية في سائر ألوان المعرفة، نتج عنها ما نراه اليوم من اهتمام، ومن صلة وثيقة بإسبانيا، التي ظلت منذ طَرْد الموريسكيين، في أوائل القرن السابع عشر، في معزل عن العالم العربي إلى أن عادت مرة أخرى، منذ أوائل هذا القرن، إلى الاهتمام بالموضوعات العربية، وإلى توثيق العلاقات بهؤلاء الدارسين الذين درسوا على أرضها، وبتوثيق العلاقات الثقافية والسياسية والاقتصادية مع العالم العربي.

- بعد انتهاء فعاليات واحتفالات عام 1992م في إسبانيا، بمناسبة مرور خمسة قرون على وصول كريستوفر كولمبس إلى أمريكا، ما هو قدر الاهتمام بالحضور العربي في الأندلس في تلك الفعاليات العالمية؟

* سوف أتحدث عن شقين في هذه الناحية: مدى الاهتمام في العالم العربي، ثم في إسبانيا والعالم الناطق بالإسبانية. ففي العالم العربي نلاحظ أن عدة مؤتمرات عقدت حول التراث الأندلسي، من آخرها الملتقى الكبير الذي عقد في شهر تشرين الثاني/نوفمبر 1993م في الرياض، ونظمته مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، وكان تجمعًا كبيرًا جمع نحو ٨٠ باحثًا من سائر أنحاء العالم في الموضوعات الأندلسية. وسبق تلك التظاهرة الثقافية، مؤتمرات في سورية، وفي جامعة القاهرة، وفي تونس.

فنلاحظ أن هناك اهتمامًا عربيًا، ولكني أسجل أنه لم يكن بالقدر الكافي، وأن الاهتمام في إسبانيا كان أكبر من اهتمامنا؛ إذ استمر حتى بعد هذه الاحتفالات سنة 1992م، التي لم يخل فيها شهر من مؤتمر أو أكثر حول موضوعات أندلسية. فموضوعاتنا واهتماماتنا كانت على مستوى المثقفين، ونلاحظ أن عامة المثقفين عندنا مازالوا يجهلون الكثير عن الأندلس. صحيح أن المتخصصين يعرفون أكثر، ويتصلون بهذه الثقافة على نحو أعمق، ولكن نسجل أنه لم يصل إلى الجميع بقدر مقبول.

أما في إسبانيا، فإننا يمكن أن نقول إن الأندلس كانت اكتشافًا. فمدرسة الاستشراق الإسباني بدأت في تقويم التراث الأندلسي وتقديره على نحو معقول منذ بداية القرن الماضي. لنذكر أن خوسيه أنطونيو كوندي كان من أول من كتب عن التاريخ الأندلسي كتابة فيها قدر كبير من الإنصاف، في 1802م. ثم جاء المستشرق باسكوال دي جايانجوس (ت 1897م) ليترجم «نفح الطيب» إلى الإنجليزية، وكتب دراسات كثيرة لها أهميتها، وينسب إليه فضل إنشاء مدرسة الأبحاث الأندلسية في إسبانيا.

وكان تلاميذه أقرب إلى إنصاف الحضارة الأندلسية وإلى تغيير الأفكار البالية الناتجة من عصور التعصب في إسبانيا. فنذكر بتقدير كبير فرانثيسكو دي كوديرا (ت 1917م)، وهو مؤسس المدرسة الحديثة في الاستشراق الإسباني في القرن العشرين، ومن تلاميذه خوليان ريبيرا (ت 1934م)، وأسين بلاثيوس (ت 1944م)، وأخيراً إميليو جارثيا جوميث (أيار/مايو 1995م).

هذه المدرسة الجديدة هي التي نرى فيها تغيراً في النظرة إلى التراث الأندلسي، بعد أن كاد يُشطب من التاريخ، وكانت المناهج الدراسية في إسبانيا تتجاهل هذه القرون العشرة.

وبفضل هذه الدراسات الحديثة أصبحوا يعدون هذه الحقبة الإسلامية من تاريخ إسبانيا من أهم حقبها وأكثرها إشراقًا، وتكاثرت الدراسات الأندلسية، وأصبح لدى كل مدينة أندلسية اهتمام باسترجاع هذا التاريخ وإظهار إنجازاته الكبيرة في سائر ألوان المعرفة.

عالم الأندلسيات

د. محمود علي مكي

- ورغم ذلك فإن أصواتًا عربية اعترضت على هذه الاحتفالات الإسبانية وعلى المشاركة العربية فيها، وبشكل خاص في مصر، حيث رأى بعض الدارسين القدامى في إسبانيا أن هذه المشاركة هي مشاركة في الاحتفال بذكرى سقوط غرناطة، آخر معاقل الإسلام في الأندلس، فما رأيك؟

* الاهتمام كبير ومستمر، والمسألة ليست قاصرة على احتفالات 1992م في ذكرى كشف أمريكا. وأود هنا أن أوجه التماسًا لأن كثيرًا من العرب اعتقدوا أن اهتمام إسبانيا بهذا التاريخ إنما يرجع إلى فرحتهم أو إلى استرجاعهم لذكرى سقوط غرناطة.

في الحقيقة لم يكن هذا هو هدف الإسبان حينما اهتموا بهذا التاريخ، وإن كان نوعًا من مراجعة النفس، ومن محاولة استرجاع الماضي ومعرفة تاريخهم الحديث في ضوء تاريخهم القديم، وفي ضوء هذا التقدم الكبير الذي أحرزته الدراسات الأندلسية. ولهذا فإننا نرى أنهم ركزوا جزءًا كبيرًا من اهتمامهم بالتراث الأندلسي للحديث عنه بروح من التقدير، ومن النظرة الجديدة التي تفتخر بهذا التراث.

لا لم يكن ذلك نوعًا من الشماتة، أو من الفرحة بالانتصار على الإسلام كما تصور بعض الباحثين العرب، بل أقول إن هذا الاهتمام لم يقتصر على إسبانيا، وإنما انتقل إلى أمريكا اللاتينية، فوجدنا من الباحثين فيها من يهتمون بالتراث الأندلسي، ومن يحاولون أن يروا جذورهم، لا في الأصول الإسبانية التي ينتمون إليها فحسب؛ بل في الأصول الأندلسية أيضًا. فإنهم يربطون بين الحضور العربي الإسلامي في إسبانيا، وحياتهم الأولى في أمريكا.

- ولكن هل كان هذا الاهتمام بالوجود العربي في الأندلس مساويًا للمصالحة التي تمت بين العرش الإسباني ويهود العالم بهذه المناسبة، مع العلم بأن البعض طالب بالمعاملة نفسها تجاه الموريسكيين .. وكان رد الإسبان: إما الامتعاض أو الصمت؟!

* قد يكون لك بعض الحق في أن إسبانيا أصدرت فعلاً شيئًا متعلقًا باليهود يعني مايسمونه اعتذارًا لليهود عن طردهم، أما أن ذلك لم يحدث بالنسبة للموريسكيين، فهذه مسألة لا أعيرها اهتمامًا كبيرًا، فالمهم هي المواقف العملية. وأنا أذكر أن خطاب جلالة ملك إسبانيا خوان كارلوس في 4 تشرين الثاني/نوفمبر 1992م، الذي ختمت به الاحتفالات في قصر الزهراء في قرطبة، تضمن اعتذارًا لم يسجل رسميًا، وكان تقديرًا للحضارة العربية وتنديدًا بسياسة الاضطهاد التي قام بها أسلافه في محاكم التفتيش.

أما مسألة الاعتذار إذا كان رسميًا أم لا، فهذه مسألة أعتقد أنها ربما تكون شكلية، بعيدة من الواقع العملي، فالذي نراه هو أن هناك اهتمامًا واسعًا على مستوى عدد من الدارسين والمطبوعات والدراسات المتعلقة بالأندلس والتي تنصف التاريخ الأندلسي، ولم تعد قاصرة على المتخصصين في الدراسات الأندلسية. إضافة إلى أن مسألة الاعتذار هذه متعلقة بالحكومات، وبطبيعة الحال كنا نرحب بأن يصدر هذا الاعتذار الرسمي، ولو أنه أمر شكلي، ولكنها ربما ترجع إلى تقصير الحكومات العربية لأنها لم تقم بضغط من أجل الحصول على هذا الاعتذار.

اعتذار

في اللقاء الذي أجري مع معالي الدكتور عبدالعزيز الخويطر في العدد الماضي في باب «حوار مع» سقط - لخطأ فني - جزء من إجابة السؤال الأخير الذي وجه إلى معاليه. وهذا الحوار الثر الذي أجري مع معاليه تناول موضوعات شتى عن تجاربه في الكتابة والتأليف، وتوظيف التراث والتاريخ في الأعمال الأدبية والملحمية، وجاءت إجاباته معبرة عن عمق تجربته في مجالي العلم والأدب. ولا غرو في ذلك؛ فمعاليه أول سعودي نال درجة الدكتوراه، وتولى مسؤوليات التدريس والإدارة في الجامعة، وتقلد - وما يزال - أكثر من منصب وزاري، وتجلت شخصيته وأفكاره وآراؤه في مقالاته وكتبه.

ونحن، إذ نعتذر إلى معاليه وإلى القراء الكرام، نورد السؤال والإجابة كاملين:

- ماذا تقولون في الدوريات السعودية عمومًا، وفي مادتها الموضوعية خصوصًا، وذلك قياسًا بالدوريات العربية.. ومن خلال تجربتكم معها؟!

*** ما قد أقوله عن الدوريات السعودية هو ما يمكن أن أقوله عن الدوريات العربية عمومًا؛ فبعضها رصين ناضج، وبعضها يحبو، وبعضها يحتضر. والدوريات العربية للأسف بعضها يُعدّ سبة للعرب. ولكن لكل ساقطة لاقطة، خاصة تلك التي تختفي وراءها نيات غير حسنة، لاتخدم إلا أفرادًا يرتزقون بها.**


الشيخ أبو عبد الرحمن
ابن عقيل الظاهري

فكرة التحسين والتقبيح ونظرية الحق الطبيعي

قال أبو عبدالرحمن: لشيخ المعتزلة القاضي عبدالجبار جملة غير محققة، وهي قوله: «إن كل ما على المكلَّف فعله أو تركه قد ركب الله جُمَلَهُ من العقول».

وعدم تحقيق العبارة يجعلها شنيعة، كأن الله يأخذ شرعه المعصوم من العقول المخلوقة.

والصواب أن ما شرعه الله جملة وتفصيلاً على ثلاثة أقسام:

1- قسم ليس للعقل إلا الخضوع لمنزِّله، لأنه ليس من علمه، والتسليم بالشرع لأن العقل آمن مسبقًا بأن لله الكمال المطلق، وذلك مثل سَنِّ عقوبة ما بمئة جلدة، وهو لايدري سر إيثار هذا العدد، وكالطواف على الكعبة سبعًا.

2- قسم ركب الله في العقل طريق الاهتداء إليه جملة وتفصيلاً كالعلم بأن قتل القاتل مُقاصَّة عدل وضمانة.

3- قسم ركب الله في العقل طريق الاهتداء إليه جملة كضرورة ردع الجريمة بعقوبة.

وليس في العقل تفصيل العقوبة الرادعة.

وبعد هذه الملاحظة أشير إلى أن عددًا من الدارسين المعاصرين عنوا بالموازنة بين زيوف نظرية الحق الطبيعي وعناصر من أحكام الشريعة، ولمحات من اجتهاد العلماء، ومن أولئك «عبدالسميع الهراوي» إلا أنه وقع في فضول الموازنة بين نصوص الشريعة الإسلامية المطهرة في التشريع للخلق، ومبادئ القانون الطبيعي.

قال أبو عبدالرحمن: وهذا الصنيع كصنيع من يقول: أهل أمريكا يمشون في الأسواق كما نمشي نحن في أسواقنا، والإنجليز يلبسون حذيانًا كما نلبس.

أو يوازن بين شعر أُمَّتين فيقول: هذا الشاعر شكسبير يمدح ديفيد كما يمدح الشاعر سعد صديقه زيدًا.. ثم يذكر النصين.

وها هو سياق الرجل عن أحكام وقواعد شرعية اعتبرها من القانون الطبيعي. يقول عبدالسميع الهراوي: «ويمتاز الدين الإسلامي بأن نصوصه التشريعية من قرآن وأحاديث قد تناولت أمور العبادات (ومناطها صلة العبد بربه)، كما عالجت تنظيم المعاملات التي تجري بين الناس، واستنت لهذا التنظيم نصوصًا كلية عامة توفر فقهاء المسلمين على استخلاص القواعد التفصيلية من ثناياها بما يطابق كل بيئة وكل عصر.

من ذلك ضمان الحريات الشخصية، والمساواة العامة، ومبدأ المسؤولية الشخصية كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتًا غير بيوتكم حتى تستأنسوا﴾ النور:27، وقوله: ﴿ولاتجسسوا ولايغتب بعضكم بعضًا﴾ الحجرات:12، وقوله: ﴿لا إكراه في الدين﴾ البقرة: 256. وقوله: ﴿أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾ هود:28.

وكما في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

وكما في قوله تبارك وتعالى: ﴿ولاتزر وازرة وزر أخرى﴾ الإسراء:15، وقوله: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ المدثر:38».

ثم يستمر في الموازنة بهذا النفس الفضولي.

ثم قال عن الموازنة بالفكر الإسلامي: «قد رأينا أن القائلين بالقانون الطبيعي فئتان: فئة متدينة تربط ذلك القانون بإرادة الله، وفئة أخرى تربطه بالعقل الإنساني وبالطبيعة»(1).

والقانون الطبيعي في واقعه مذهب ميتافيزيقي، فهو يستند إلى طبيعة للأشياء ترتبط بعلة غيبية، أو أنها معلولة لدينا وتجل عن سلطاننا.. فُطرت عليها منذ الأزل، وتستمدها من وجودها الذاتي دون افتعال.

وتلك(2) من خصائص القانون الإلهي وأبرز مقوماته، لأن القائلين بنظام الطبيعة إنما يعنون، في مفهومنا، قدرة المولى عز وجل، فالله سبحانه وتعالى هو الذي برأ الوجود بأسره، وهو الذي خلق الطبيعة، وسنَّ لها قوانينها، وبثها في كيانها حتى تلتزم بتوجيهها تلقائيًا على نحو ثابت رتيب»(3).

قال أبو عبدالرحمن: ليس كل القائلين بالقانون الطبيعي يؤمنون بأن الطبيعة خلق الله، وأن هناك إلهًا لا يعبد بحق سواه.

ومن آمن منهم فإنما إيمانه إيمان الربوبية، وذلك بردِّ قانون الطبيعة إلى الإرادة الكونية.

ولكنهم بقانونهم الوضعي أسقطوا حق الله في التشريع فكفروا بالألوهية.

ومن الدارسين الإسلاميين من استلمح

عناصر القانون الطبيعي كما استقرأها جروسيوس، وهي العناصر الآتية:

1ـ أن القانون الطبيعي مجموعة من المبادئ العامة المطلقة الخالدة، وهي مبادئ لاتختلف باختلاف العصور ولاتتباين باختلاف المجتمعات.

2ـ أن في وسع العقل الإنساني الكشف عنها.

3ـ أن هذه المبادئ تمثل النموذج الأسمى، والمثل الأعلى لكل قانون وضعي.

4ـ أن هذه المبادئ توحي بفكرة العدل.

ثم علق على هذه العناصر بقوله: «ومع ذلك ينبغي التأكيد على أن فكرة القانون الطبيعي القائمة على هذه العناصر لم تكن في بداية النهضة الفلسفية عند اليونان سوى تطلع إلى العدالة السماوية، ثم صورها أفلاطون في نظريته المعروفة بالمثل الأفلاطونية، ثم اندمجت تلك المثل (ومنها مثال العدالة الذي هو ركن القانون الطبيعي) في الشيء ذاته، وأصبحت جزءًا من حقيقة الأشياء التي آمن أرسطو بثباتها خلافًا للسوفسطائيين، ولذلك فرقوا بين العدل في ذاته، وبين العدل داخل المجتمع.

وأصبحت عند الرواقيين مبدأ عقليًا يعم الكون والمجتمع، وكذلك كانت عند الرومان.

هذا فيما يتعلق بالقانون الطبيعي، وأما خلاصة ماذكرناه في الفكر الإسلامي فقد اتضح لنا من خلال البحث في نظرة علماء المسلمين إلى هذا الموضوع أن فكرة التحسين والتقبيح العقليين نظرية متكاملة من حيث الأسس والأهداف، وأنها تستند إلى الأسس الآتية:

أولاً: أن الإنسان كائن مسؤول، وأن الضرورات العقلية هي المنطلق الأول والأساس لاحتلال مركز المسؤولية.

ثانيا: أن ما يؤهل الإنسان لتحمل المسؤولية نوعان يعدهما المعتزلة من الضروريات المتقررة في العقل، هما:

أـ ما يكمل به العقل، ويُقصد به العلم بالأشياء الضرورية المتقررة في العقل مثل العلم بحُسن الحَسن وقبح القبيح، وضرورة دفع الضرر عن النفس معلومًا أو مظنونًا، وقبح الظلم والكذب، وحسن العدل والإنصاف، ورد الوديعة.

ب ـ ماهو من أصول الدلالات.. أي إن عقل الإنسان قد هيئ لاحتواء أصول الأحكام العقلية، ونقصد بذلك ما يقوله العلامة المعتزلي عبدالجبار(4): إن كل ما على المكلف فعله أو تركه قد ركب الله جُمَلَه من العقول، وإنما لايكون في قوة العقول التنبيه على تفاصيلها.

ويعني ذلك ماتردده المعتزلة من أن العلم بأصول المقبحات والمحسنات ضروري.

ثالثا: أن الحكم منوط بالواقعة الاختيارية ذاتها، وليست له علاقة ما بالإرادة (أي بالأمر والنهي)، والحكم ظل الواقعة إن لم يكن ذاتيًا فيها.. أو بتعبير آخر الإقرار بمبدأ ذاتية الحكم.. بمعنى أن الأحكام كافة تنبع من داخل الفعل دون أن تفرض عليه من الخارج، فللأفعال قيمة خلقية في ذاتها، ووصف شرعي في داخلها، فلا يبحث عن المقياس الخلقي للأفعال في خارج الفعل بل في ذاته.

رابعًا: أن مادية الحكم تعني انفصاله عن أية قوة أو إرادة خارجيتين، ويؤدي هذا بالضرورة إلى انسحابه على كل فعل مهما كان فاعله حاكمًا أو محكومًا.

خامسًا: حيث إن أوصاف بعض الأفعال لاتنفك عنه بأن تكون ذاتية فيه كحسن العدل والإنصاف، وحسن الطاعة، وتنفيذ الالتزام، ورد الوديعة؛ فإن هذا يعني أن الفكرة تقر مبادئ وقيمًا عامة خالدة خلود الوصف والقيمة الكامنين في الفعل.

وهذه القيم ثابتة في الفعل لاتختلف باختلاف الفاعل.

سادسًا: حيث إن العقل مؤهل لإدراك الأوصاف والقيم الكامنة في الفعل الواقعة؛ فإنه يستخلص القاعدة الشرعية إما ضرورة أو بالاستدلال.. ذلك أن الحكم العقلي الذي يصدر من إدراك العقل لطبيعة الوصف الكامن في الفعل يفترض أن يتطابق معه الحكم الشرعي؛ لأن الأحكام الشرعية تهدف إلى تحقيق مصالح الناس المعقولة، وهي معللة بمثلها من المنافع والأغراض، والأصلح واجب عليه، أو واجب عنه»(5).

قال أبو عبدالرحمن: مبادئ الطبيعة التي توصف بالخلود إنما تنسب إلى الطبيعة لأن الطبيعة موضوعها، وإلا فالمبادئ متضاربة من وضع البشر.

والموصوف بالثبات الأحكام العامة إما لأنها مجربة كالعلم بأن النسل شرط بقاء الحياة، وإما لأن العقل رجحها من أحوال الطبيعة كترجيحه مدينة فاضلة على شريعة غاب.

ولهذا يصبح من العبث القول بأن مبادئ القانون الطبيعي تُمثِّل النموذج الأسمي لكل قانون وضعي، لأن الطبيعة موضوع القانون الوضعي.

وإنما يقال: أسمى قانون ما كان فيه صلاح الطبيعة دون حيف على سنتها وفطرتها، وذلك صفة شرع الله الذي خلقها.

ولم أجد بيانًا يُكَيِّف إحياء مبادئ القانون الطبيعي بفكرة العدل إلا إن أريد بالعدل التعادل والتوازن الذي يحكم غائية الكون ونظامه.

وإنما تأتي فكرة العدل بعد العلم بالله، وإجراء التلازم بين عدله وحكمته وإحسانه، والعلم بما غاب عنا في الطبيعة لولا بيان الشرع من تفاصيل مجازاة الله لعباده مع لمحات خبرية عن بدايات بعض الخلق وفلسفته.

ولست والله أدري كيف يكون التطلع إلى العدالة السماوية إذا كان التشريع وضعيًا؟!.

والعدالة ليست هي الأهم لدى أهل القانون الطبيعي، وإنما يقدمون الحرية، والمساواة.

والعدالة أخص من مطلق المساواة، لأن التسوية مع عدم التكافؤ ظلم.

والمسلمون لايردون فكرة التحسين والتقبيح بإطلاق، ولايقبلونها بإطلاق، وإنما يحددون التحسين والتقبيح بما يصل فيه العقل إلى يقين أو رجحان.

ويقل هذا ويتغير في الأمور التفصيلية بمقدار حضور شواهد العلم وغيابها.

كما يخالفون المعتزلة في نوع المسؤولية التي يتحملها الإنسان بعقله. ولاريب أن الإنسان مسؤول من أجل عقله على افتراض غياب الشرع عنه، إلا أن هذه المسؤولية لايترتب عليها جزاء أخروي بنص الشرع، كما أنها مسؤولية محصورة في أنانية الفرد، إذ لايرجح العقل إيثار الفرد غيره وتضحيته من أجل أمته مثلاً، لأن العقل لايستقل بمعرفة يوم الدين.

وعلم العقل الفطري الحاصل بالمبادئ الخالصة الضرورية حكم في علمه الاكتسابي.

وعلم عقل الفرد محدود بعمره، وصحة بدنه، ومدى آفاق حسه.. وذلك مهما كثر علم قاصر.

وإنما يملك التشريع من هو أعلم بالإنسان من نفسه، وهو أعلم بالغيوب الهائلة التي يصدر عنها مجرى الطبيعة ونظامها.

إذن العقل حجة في معرفة علمه الاكتسابي الحسي، وعلمه الشرعي الخبري الوصفي، ولهذا كان العقل شرط التكليف.

ولهذا لما حمَّلت المعتزلة الفرد مسؤوليةً من أجل عقله اشترطت ما يكمل العقل من شواهد العلم الاكتسابي.

وقولهم: «علم العقل بحسن الحسن» معناه: «علم العقل بأن هذا الشيء حسن».

وهذا صحيح، وقد جاء الشرع شاهداً للعقل، واستقر الدين في قلوب المؤمنين لأن عقولهم الزاكية رضيته.

وهذا علم اعتقادي.

وهناك علم عقلي يقتضي فعلاً كعلم العقل بضرورة دفع الضرر، ورد الوديعة.

ولكن العقل - لولا الشرع - يغيب عنه أن للمحسنين زيادة أجر في دار أبدية إذا تحمَّل بعض الضرر من أجل ربه صبراً واحتساباً.

إذن لايبقى علم العقل بضرورة دفع الضرر على إطلاقه.

ومن الفلسفة المريضة التحاكي بمبدأ ذاتية الحكم. فمن المعلوم أن الفعل لايقتضي حكماً معيناً في ذاته يعرفه العقل كما يعرف إحالة المحال، وإنما يعرف العقل أن هذا الفعل يقتضي حكماً ما، وقد يغفل عن اقتضائه.

وتعيين الحكم يأتي من الشرع، أو جملة عقلاء.

وتأتي أفعال لاتقتضي حكماً محدداً كالغضب والبذاء والتعرض للخصومة والنزاع، والظلم، والدخول في هوشة الأسواق، وتضييع الأوراد، ثم يصدر عن هذه الأفعال فعل كالقتل يقتضي حكماً كالقتل.

وقد يكون الحكم صادراً عن الفعل ذاته، وعلى ما يُخاف من فعل آخر كأحكام سد الذرائع.

والوجود أجزاء ذات علاقات مترابطة، والعقل لم يخلق الحقائق، وليس بقدراته إحصاء الموجودات وعلاقاتها، وهو يكتشف الحقيقة، وسبيل كل مكتشف أن يضل ويسهو وينسى ويغيب عنه شواهد.

والله خالق العلم والعقل والوجود والحقائق أعلم بكونه، وهو الذي يحصيه، ولهذا لم يترك العقل وجهله، بل ضمن له الهداية الشرعية.

وفلسفة المعتزلة افتراضية تفترض مسؤولية الإنسان وفقاً لعقله لو لم يرد شرع، ثم تجاوزوا الفرض وموضوعه، فجعلوا للعقل مسؤوليته مع وجود الشرع؛ أي حكَّموا العقل وجعلوه مزاحماً للشرع.

والفعل البشري إرادة الإنسان الفاعل، ويظل الحكم إرادة مُشرِّعه سواء كان الإله الحق سبحانه وتعالى، أو كان باطلاً كأي طاغوت، بغض النظر عن ارتباط الحكم بالفعل ككون الفعل سبباً للحكم.

وحسن العدل وقبح الظلم لايعني أن العدل وصف ذاتي للفعل يجده العقل في داخله كما يجد إحالة المحال.

وإنما التجربة، والموازنة بين أفعال أخرى، ورؤية نتائجها أعطى العقل فرصة الترجيح.

والعدل ليس فعلاً ساذجاً، ولكنه فعل ذو مواصفات وآثار.

ولا قاعدة شرعية يستخلصها العقل قبل ورود الشرع.. هذا تناقض.

وبعد ورود الشرع يستخلص العقل حكم الشرع مقيداً بمقاصده التي تلقاها من الوحي.

وهذا يعني أن العقل حجة، وأنه غير مستقل، بل مقيد بشرط الشرع ومقصده.

وإذا تعارض حكم سُمي شرعياً مع حكم سمي عقلياً فلابد أن يكون أحدهما أو كلاهما ظنياً غير قطعي.

ومن صفات القانون الطبيعي عندهم أنه سنة كونية لاتتبدل.

وقد لاحظ الأصوليون كابن حزم أن النسخ لايدخل في الأخلاق، لأن الأخلاق أخبار عن حقائق، والحقائق لاتتبدل.

ومبادئ الأخلاق قوانين طبيعية عند أصحاب الحق الطبيعي.

الهوامش:

1- كتاب الأصول الجديد للقانون الدولي العام، تأليف: د. محمد حافظ غانم، الطبعة الأولى سنة 1952م هامش ص56 [الهراوي].

2- قال أبو عبدالرحمن: يعني الأشياء المرتبطة بعلة غيبية.

3- القانون الطبيعي ص65.

4- المحيط بالتكليف ص22.

5- فكرة القانون الطبيعي عند المسلمين ص127-129، وانظر القانون الطبيعي للهراوي ص72،73، وممن وازن بين الفكر المعتزلي والقانون الطبيعي د. أحمد أمين في الجزء الثالث من كتابه: ضحى الإسلام.



هكذا يكون الوفاء

د. محمود جبر الربداوي

درج الشعراء في عصور الأدب القديمة على نعت المرأة بالغدر، وكان منهم أبو تمام الذي لم يقتصر في حديثه على غدر محبوبته المتخيّلة: هند، وإنما عمم ذلك على كل أنثى، فقال:

فلا تحسبا هندًا لها الغدر وحدها
سجية نفسٍ، كل غانية هندُ

فهو يجعل الغدر سجية من سجايا المرأة، وطبيعة راسخة من طبائعها. وتابعَه المتنبي، فلم يحسن الظن بالمرأة؛ حيث قال:

إذا غدرت حسناء وفّت بعهدها
فمن عهدها ألا يدوم لها عهدُ

وهذا أبو فراس الحمداني يضع وفاء الرجل بجانب غدر المرأة؛ حيث يقول:

وفيتُ وفي بعض الوفاء مذلّةٌ
لآنسة في الحي شيمتها الغدر

فهذا هو رأي عمالقة الشعر العربي، ودعني من صغارهم فهم على دين كبارهم. غير أنني لا أظن الأمر كما ذكروا، فهؤلاء الشعراء ومن تابعهم في آرائهم جانبوا الصواب وظلموا المرأة، وما أقول هذا تحيّزًا للمرأة، أو خوفًا منها، وإنما أذهب إلى أن صفة الغدر لم يخصّ الله بها المرأة دون الرجل، فالأصل في الجنسين الوفاء؛ لأنه من الشمائل التي تؤكد إنسانية الإنسان، ولأن الوفاء قوام التعامل الاجتماعي والتكامل الأسري وركيزة الحياة الزوجية. والوفاء شعبة من الصدق، والغدر شعبة من الكذب، والصدق محمود يقره المجتمع، والكذب مذموم ترفضه الفطرة الإنسانية السليمة والتقاليد الاجتماعية القويمة، وأمّا الغدر في العلاقات الإنسانية فهو حادث طارئ، وتحايل فرضته طبائع إنسانية مريضة، أو ظروف اجتماعية قاهرة، وليس أحد الجنسين بأولى به من الآخر، وإذا صوّر لنا الشعراء المرأة غدّارة، فيمكن عزو ذلك إلى تجاربهم الشخصية مع محبوباتهم أو مع من تعرّفوا إليهن، كما يمكن عزو ذلك إلى ظروف اجتماعية واقتصادية تكتنف الفتاة في بعض عصور الحضارة التي مر بها العرب. فقد كثر نعت الشعراء للمرأة بالغدر في العصر العباسي - مثلاً -، ونسوا أن هذا العصر كان حافلاً بالمسبيات اللواتي كانت تعجّ بهن بغداد ومدن الخلافة العباسية الكبرى، ولكنَّهن يتنقلن من بيوت النخاسة إلى قصور المترفين، غير عائبات بالقيم العربية والإنسانية والأخلاقية ومن بينها الوفاء. أما المرأة العربية حقًّا فقد غابت صورتها في هذه المجتمعات لطغيان صورة الغانية أو الجارية كأولئك الجواري اللواتي حفل بأخبارهن كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، فهن لايمثلن صورة المرأة العربية، ولذلك ترى هذا الصنف من النساء يتهافتن على عيش القصور، ويتطلعن إلى الشباب المرد، ولهذا صدق الشاعر في وصفهن عندما قال:

أراهُنَّ لايُحِبْنَ من قلّ ماله
وشرخ الشباب عندهن عجيبُ
إذا قلّ مال المرء أو شاب شعرِه
فليس له من ودِّهِنَّ نصيبُ

لهذا تراهن يتحولن إلى من كثرت أموالهم، وتمتعوا بشرخ الشباب، أو حازوا إحدى الصفتين، وقد تدافع المرأة عن حبها للمال والجمال، وربما نقرها على ذلك، ولكنْ لانقرّها على صفة الغدر إذا صدرت عنها بحثًا عن هاتين الصفتين، فإذا تذكرنا أنّ أكثر الشعراء هم ممن (أدركتهم حرفة الأدب) أي إننا نصنفهم في صنف غير الموسرين المترفين، أدركنا لماذا تنصرف عنهم النساء إلى غيرهم؛ لفقدانهم المقوّمين الأساسيْن لرغبة المرأة في الرجل، ففسروا انحرافها هذا بأنه الغدر أو ما يشبه الغدر. كما يمكن أن نفسر كثرة شكوى الشعراء من غدر المرأة بكثرة عدد الشعراء وقلة عدد الشاعرات، وبجرأة الشعراء الرجال بالبوح عن مكنونات أنفسهم وتخيلاتهم إزاء حياء الشاعرات النساء وكبتهن مشاعرهن وتهمهن للرجل وهو النصف الأقوى في المجتمع. لذا حمل الشعراء لافتة الاتهام بالغدر للطرف الآخر، ولو رجحت الكفة لصالح الشاعرات فحفظ لنا تاريخ الشعر منهن عددًا أكبر من عدد الشعراء الرجال وجرأة كجرأتهم لما عدمنا الكثير من اللواتي يتهمن الرجل بالغدر والخيانة الزوجية، ولشاع الكثير من مثل هذا في ثنايا أسفارهن. لكل هذه الاعتبارات غضّت المرأة الطرف عن هذه التهمة، وابتسمت متمتمة: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في

كل واد يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾(الشعراء:224-226).

وليس الشعراء وحدهم هم الذين اتهموا المرأة بالغدر، وإن كان هؤلاء أكثر الناس تجارب معلنًا عنها، أو مصرّحًا بها - كما يقول التعبير المعاصر -، وإنما قرأنا، في جملة ما قرأنا، أن بعض الرجال المرموقين من رجال السلطة كانوا يؤكدون هذه التهمة، ففي كتاب عيون الأخبار، وبهجة المجالس، وأمالي القالي، وزهر الآداب، جملة من المجالس التي كان يحلو فيها لهؤلاء الرجال، ومن يصانعهم من السُمّار والأدباء أن ينعتوا النساء بالغدر، ويلذّ لهم أن يستعرضوا قصص غدر النساء التي حفظوها أو التي ربما صنعوها أو أضفوا على الحقيقي منها صفة الدرامية؛ لتكون أكثر إثارة ومتعة. غير أنني - في حلقة هذا الشهر - لن أضع أمام القارئ قصيدة ذا قصة كما هو المألوف، وإنما أبيات تنتظمها قصة، أو هي ما يُطلق عليه في مصطلح النقاد (القصة الشعرية الحوارية)، وأترك للقارئ أن يتبين المغزى منها، وبعدها يحكم - بإنصاف - ويجيب عن السؤال المطروح منذ الأزل: هل المرأة غادرة أم وفيّة؟

الإجابة تحتمل جدلاً طويلاً، وتقبل وجهات نظر مختلفة ومتباينة. وإليك القصة، وشهودها من فقهاء الكوفة، وإن كنتُ أعترف مسبقًا بأنني لا أرتاح للشكل (الدرامي) الذي خُتمت به. تقول القصة: «اجتمعت عند خالد بن عبدالله القسري فقهاء الكوفة، وفيهم أبو حمزة الثمالي، فقال خالد: حدّثونا بحديث عشق ليس فيه فحش، فقال أبو حمزة: أصلح الله الأمير، بلغني أنه ذُكر عند هشام بن عبدالملك غدر النساء وسرعة تزويجهن بعد انقضاء عدّتهن، فقال هشام: إنه ليبلغني من ذلك العَجب، فقال بعض جلسائه: أنا أحدثك يا أمير المؤمنين عما بلغني عن امرأة من بني يشكر كانت عند ابن عمٍّ لها فمات عنها بعد مسألته إياها عما تريد أن تصنع بعده، فأخذ العهود عليها في ذلك، وكان اسمه غسان بن جهضم بن العُذافر، وكان اسم ابنه عمه أم عقبة بنت عمرو بن الأبجر، وكان محبًا لها، وكانت له كذلك، فلما حضره الموت، وظنّ أنه مفارق الدنيا قال ثلاثة أبيات، ثم قال: اسمعي يا أم عقبة، ثم أجيبي، فقد تاقت نفسي إلى مسألتك عن نفسك، فقالت: والله لا أجيبك بكذب ولا أجعله آخر حظي منك، فقال:

أخبري بالذي تريدين بعدي
والذي تضمرين يا أم عُقبهْ
تحفظيني من بعد موتي لِمَا قد
كان مني من حُسن خلقٍ وصُحبهْ
أم تريدين ذا جمال ومال
وأنا في التّراب في سُحْق غُربة؟

فأجابته تقول:

قد سمعتُ الذي تقول، وما قد
يابْن عمي تخاف من أم عقبهْ
أنا من أحفظ النساء وأرعا
ه لما قد أوليتَ من حُسن صُحبة
سوف أبكيك ما حييتُ بنوحٍ
ومراثٍ أقولها وبنُدْبهْ

فلما سمع ذلك أنشأ يقول:

أنا - والله - واثق بك لكنْ
احتياطًا أخاف غدر النساءِ
بعد موت الأزواج ياخير من عُو
شر فارعَيْ حقي بحسن الوفاءِ
إنني قد رجوتُ أن تحفظي العهـ
ـد فكوني إن مُت عند الرجاءِ

ثم أخذ عليها العهود، واعتُقل لسانه، فلم ينطق بحرف حتى مات، فلم تمكث بعده إلا قليلاً حتى خُطبت من كل وجه، ورغب فيها الأزواج؛ لاجتماع الخصال الفاضلة فيها، فقالت مجيبة لهم:

سأحفظ غسانًا على بُعد داره
وأرعاه حتى نلتقي يوم نُحشَرُ
وإني لفي شُغْل عن الناس كلّهم
فكُفّوا، فما مثلي من الناس يغدر
سأبكي عليه ما حييتُ بدمعة
تجول على الخدينَ مني فتهمر

ولما تطاولت الأيام والليالي تناست عهده، ثم قالت: من مات فقد فات، فأجابت بعض خُطّابها فتزوجها، فلما كانت الليلة التي أراد الدخول بها فيها أتاها غسان في منامها وقال:

غدرتِ، ولم تَرعَيْ لبعلك حُرمةً
وَلم تعرفي حقًا، ولم تحفظي عهدا
ولم تصبري حولاً حفاظًا لصاحب
حلفت له بتًا، ولم تنجزيَ وعدا
غدرت به لما ثوى في ضريحه
كذلك يُنسى كل من سكن اللحدا

فلما سمعت هذه الأبيات انتبهت مرتاعةً كأن غسان معها في جانب البيت، وأنكر ذلك من حضر من نسائها، فأنشدتهن الأبيات، فأخذن بها في حديث ينسينها ما هي فيه، فقالت لهن: والله ما بقي لي في الحياة من أرب حياءً من غسان، فتغفّلتهنّ، فأخذتْ مُديةً فلم يدركنها حتى ذبحتْ نفسها، فقالت امرأة منهن هذه الأبيات:

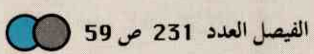
لله دركِ ماذا
لقيت من غسان؟
قتلتِ نفسك حزنًا
يا خيرة النِّسوان
وفيتِ من بعد ما قد
هممتِ بالعصيان
وذو المعالي غفورٌ
لسقطةِ الإنسان
إن الوفاء من اللـ
ـه لم يزل بمكان

فلما بلغ ذلك المتزوِّج بها قال: ما كان فيها مستمتع بعد غسان. فقال هشام بن عبدالملك: هكذا والله يكون الوفاء»(1).

فهل توافق هشامًا على أن القصة تمثل عنصر الوفاء، أم توافقني على أن القصة من تلك الطرائف التي تُحبك لتكون صالحة للسمر في بلاطات الخلفاء يؤيد ذلك الخاتمة الدرامية التي انتهت بها، والمستوى الشعري المتدني المحبوك ليخدم أحداثها ورسم المغزى الذي أريد لها؟!

الهوامش:

1- ذيل الأمالي والنوادر لأبي علي القالي البغدادي، ص200-202.



قصيدة:



ملاذ

شعر: **د. حيدر الغدير**

أطَلَّ علينا والمواجع جمّة ... وفي أهلنا حزن وفي وجهه بشرُ
وآمالنا نورٌ خبا وبلاقع ... وأيامنا جدب وخضراؤنا قفر
وللخير أحزان وللشر فرحة ... وقد خنع الأخيار، واستأسد الشر
أطل علينا هادئ النفس باسما ... ومنه وفيه الحسن والصفو والطهر
فقلت: علام البشر قال: سجيتي ... ومن خُلُقي الإيمانُ والمقدم النضر
فقلت له: هلاّ نظرت شجوننا ... نعيش مع البلوى، ويجتالنا الذعر
فقال: هو الإنسان غاد فبائع ... فمعتق نفس من لظى، أو هو الخسر
وفيكم ومنكم داؤكم ودواؤكم ... وأنت وأهلوك الهزيمة والنصر
ودهرك دوّار وربك عادل ... وعمرك أيام هي العسر واليسر
وكل عسير لا محالة زائل ... وكل يسير سوف يتبعه عسر
وبعد الضحى جذلان تأتيك ظلمة ... وبعد ظلام الليل ينبلج الفجر
إذا شئتم النصر العزيز مناله ... فكونوا أسودا زادها الفأل والصبر
وعزمة إيمان وجرأة أروع ... أخي غمرات مات في قلبه الذعر
ينام ويصحو واليقين دروعه ... وفي قلبه عزم وفي وجههِ بشر
يرى الجبن والخذلان عارًا وسبّةً ... وأنّ هوان الحُرِّ من دونه القبر
«إذا هَمّ ألقى بين عينيه هَمَّهُ» ... ولذّت له الأهوال والمركب الوعر
له همّةٌ لا تستبين قرارها ... تفيء لها الدنيا ويعنو لها الدهر
توقّد حزما في أسارير وجهه ... تضيء الغواشي ليس يخبو لها جمر
وتهتف يارحمن أنت ملاذنا ... وفي يدك الأكوان والطيُّ والنشر
إذا ما عزمتم عزمة عمرية ... فأنت وأهلوك الكرامة والنصر

الصوم بين المسلمين وغيرهم

د. محمد بن سعد الشويعر

حكمة بالغة صحية ونفسية تأتي وراء شرعية الصيام، فقد فُرض على الأمم السابقة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم كما جاء خبر ذلك في سورة البقرة: ﴿ياأيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيامُ كما كُتبَ على الذينَ من قبْلكُم لعلكم تتّقون﴾(البقرة:183). فَغيَّرت الأمم السابقةَ وبدَّلت وعصت؛ لأنهم استثقلوا هذه العبادة الفاضلة، فحُرموا خيرًا كثيرًا.

حتى في عالم الطيور والحشرات والحيوانات والأسماك والأشجار، يقول المختصون إنها تصوم، ولصومها فائدة كبيرة لحياتها وتكاثرها ونمائها.

لذا جعل الله لأمة محمد صلى الله عليه وسلم خصائص تحسدهم عليها الأمم جميعًا في يوم الجزاء والحساب، منها: أن لهم بابًا اسمه الرَّيان لا يدخله إلا الصائمون، ومنها أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وأن للصائم فرحتين: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، وأن مَرَدَةَ الشياطين تُصَفَّدُ فيه، وأنه شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار، وأن الله ـ سبحانه ـ يتولى جزاء الصائم بنفسه، إلى غير هذا من الفضائل التي عرفها المسلم بنص الكتاب والسنة.

وكل يوم يخرج ابتكار جديد يؤصل أثر الصيام في حياة المسلم: علاجًا طبيًا، وأثرًا اجتماعيًا، وعائدًا اقتصاديًا، وغير ذلك من فضائل تعود على النفس البشرية. فالفقير يفرح فيه، والمريض يعينه الله بالشفاء، والمكروب تنفرج كربته، ومن هو في ضائقة يفرجها الله، ويساعده إخوانه مواساة وإعانة. فهو شهر ينتصر الإنسان فيه على نفسه، كما كان شهر الانتصارات في تاريخ حروب الإسلام، وفيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وهو شهر تزداد فيه الألفة والمحبة بين المسلمين، وتصفو قلوبهم من الشحناء والبغضاء والأحقاد.

وقد ذكر كثير من المفسرين نماذج من تحريف أهل الكتاب، وتبديلهم شرائع ربهم، بما تصف ألسنتهم، حيث غيّروا وبَدّلوا، ومن ذلك ما أوضحه الإمام الطبري (ت:310هـ) في تفسيره عندما مرّ بآية الصوم في سورة البقرة، فقال: أما الذين من قبلنا فالنصارى، كُتب عليهم صيام شهر رمضان، وكتب عليهم أن لا يأكلوا ولا يشربوا بعد النوم، ولا ينكحوا النساء فيه، فاشتد ذلك عليهم لأنهم رأوا في صيام رمضان بهذه الصفة عدم قدرة، ففكروا في حيلة لكي يتخلصوا من



تقلّب الصوم، ما بين فصول السنة: الشتاء والصيف، فلما رأوا ذلك اجتمعوا فجعلوا الصيام في فصل بين الشتاء والصيف. وقالوا: نزيد عشرين يومًا نكفّر بها ما صنعنا، فجعلوا صيامهم خمسين يومًا.

ومن المعلوم أن الزيادة في التشريع كالنقص لا يقبله الله، لأنه من باب فساد الدين، حتى لو قال المرء إنه لم يرد إلا الخير؛ كمن جعل الصلاة الرباعية خمسًا، أو زاد ركعة في المغرب لتصبح أربعًا بدل ثلاث، أو ركعة في الفجر لتصبح ثلاثًا؛ لأن مثل هذا مدخل للعبث بالدين، ولهذا حُرِّمَ في الإسلام تقديم رمضان بيوم أو يومين، وصيام يوم العيد؛ لأن ذلك من مواصلة الشهر بزيادة غير مشروعة.

قال الشعبي (ت:103): لو صمت السنة كلها لأفطرت اليوم الذي يُشك فيه، فيقال من شعبان، ويقال من رمضان، وذلك أن النصارى فُرض عليهم شهر رمضان كما فرض علينا فحوّلوه إلى الفصل الذي يوافق أهواءهم، بعد أن صاموه ثلاثين يومًا، ثم جاء بعدهم قرن فزادوا يومًا، ثم لم يزل الآخر يستنُّ سنة القرن الذي قبله حتى وصلوا إلى خمسين، كلٌ يرى أنه محسن بزيادته.

ثم جاء مَنْ بعدهم فغيروا فيه؛ فمنهم من جعل الصيام في الليل، ومنهم من وزَّعه على فصول السنة والشهور، ومنهم من حرم على نفسه طعامًا معينًا في النهار.

وعمل اليهود مثل عملهم، ولكن عن علم ومكابرة، أما النصارى فعن جهل وضلال.. روي عن سفيان بن عيينه رحمه الله (ت:198هـ) أنه قال: من فسد من علماء المسلمين ففيه شبه باليهود، يعصون الله على علم ومعرفة فاستحقوا غضب الله، ومن فسد من عبّاد المسلمين ففيه شبه بالنصارى، يعبدون الله على جهل وضلال فسماهم الله ضالين.

واقرؤوا سورة الفاتحة وتفسيرها عند بعض المفسرين تجدوا حقيقة ذلك.

ونحن ـ معاشر المسلمين ـ نحمد الله أن دين الإسلام واضح وكامل بجميع تشريعاته في القرآن والسنة، ومن جهل شيئًا فقد جعل الله العلماء مصابيح تضيء للناس ما أظلم أمامهم، حيث أمر سبحانه بسؤالهم عما لا يعلمه الإنسان، وأمر العلماء بتبليغه للناس، وتوعدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعقاب من الله شديد إن هم كتموا العلم ولم يبيّنوه.



الحملة الفرنسية على مصر في أعين أدباء الجزيرة العربية 3

1213-1216هـ/1798-1801م

د. عبدالله أبو داهش

وإذا كانت تلك المواقف الأدبية تجاه الحملة الفرنسية قد تجلّت في الأنماط الأدبية المعهودة، فإنها قد تحققت أيضًا في الأساليب التعبيرية الأخرى التي نقل بها المؤرخون أخبار تلك الحملة. فقد اتسمت تلك الأساليب بالروح الأدبية، واصطبغت بصبغة ذاتية مميزة، ولعل ذلك يتحقق في كتابات المؤرخين في هذه الجزيرة العربية من أمثال: الشوكاني(1)، ولطف الله جحاف(2)، وابن بشر(3) والفاخري(4)، وغيرهم ممن تعرض لذكر هذه الأحداث. ومما قاله الشوكاني في هذا الشأن:

«ومما ينبغي ذكره هاهنا(5) أنه وصل من الشريف المذكور في عام تحرير هذه الأحرف، وهو سنة 1213هـ في شهر رجب كتاب... يتضمن الأخبار بالرزية العظمى، والمصيبة الكبرى والبليَّة التي تبكى لها عيون الإسلام والمسلمين، وهي استيلاء طائفة من الفرنج يقال لهم الفرنسيس على الديار المصرية جميعها ووصولهم إلى القاهرة وحكمهم على من بتلك الديار من المسلمين...»(6). وهذا يدل على إحساس الشوكاني بأحداث عصره التي رآها من الرزايا العظمى والمصائب الكبرى، فالحق إن مشاعر هذا المؤرخ العالم الأديب لتفيض بالأحاسيس الصادقة تجاه الإسلام والمسلمين.

ويشبه الشوكاني معاصره لطف الله جحاف من حيث اتصاف أساليبه التعبيرية التي نقل بها هذه الأحداث بالمسحة الأدبية والإحساس الصادق. فقد قال جحاف في صدر أحاديثه عن هذه الحملة: «وفيها وردت الأخبار بدخول الفرانسة، جعل الله ديارهم دارسة، وغيرهم من الأفرنج الأبالسة، ديار مصر طهرها الله من الدنس، فاستولوا عليها، ومدوا أيدي الكفر إليها، وأظهروا بها الفساد، وعانوا وتسلطوا على من بها من المسلمين، وأتَوْا كل ذلك بضرب من الخداع والمكر والحيل والأطماع...»(7). ويمكن للناظر في هذه النصوص أن يدرك مواقف المؤرخين الأدباء من هذه الحملة الفرنسية، وأن يلمح صدق المشاعر وحسن العرض، فالحق إن هذه الأساليب لا تخلو من الملامح التصويرية المناسبة التي يمكن إدراكها في الألوان النثرية الأخرى.

ومهما يكن الأمر، فإن هذه النصوص السابقة التي حملت مواقف الأدباء بهذه الجزيرة العربية تجاه الفرنسيين قد اتسمت بالروح الدينية الصادقة؛ إذ كانت معانيها «تدور حول إبراز المشاعر الإسلامية»(8)، و«الدفاع عن الوطن العربي الإسلامي أمام الفرنسيين»(9). ولكنها رغم ذلك لم تسلم من التكلف البديعي، والمحافظة على الأساليب المعهودة في العصور الأدبية الضعيفة، وذلك من حيث التزام السجع، والإكثار من استخدام ألوان البديع المعروفة. ولعل مايمكن ملاحظته في هذه النصوص أن أصحابها قد أسرفوا - إلى حد ما - في إطالة الديباجات، و «الميل الشديد إلى التفخيم»(10)، ولكنهم كانوا حينما تنتابهم مشاعر الجد يهملون - إلى حد ما - هذا النهج التقليدي، وينصرفون إلى التعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم. ويؤكد هذا القول ماذكره الشوكاني في معرض حديثه عن إحدى الرسائل الديوانية التي حررها، إذ قال: «هذا الكتاب عن أمر مولانا الإمام حفظه الله، وهو على نمط ماقبله من كتابي الشريف في عدم انتخاب أعلى طبقات بلاغات الكتاب، إذ المقام مقام مكالمة في رزية في الدين ومصيبة عمت المسلمين، فمعظم المراد وغاية القصد هو الإفهام بلسان الأقلام لا التأنق في تحرير الكلام على أتم نظام»(11).

ولعل مايمكن الخروج به من هذه النصوص مجتمعة أن أدباء الجزيرة العربية في ذلك العهد قد شاركوا إخوانهم الأدباء في مصر والشام في تصوير مواقفهم ومشاعرهم تجاه هذه الأحداث، وأنهم قد أسهموا

بنصيب ما في هذا الميدان الذي يعد مجهولاً لدى كثير من مؤرخي الأدب، فقد تبين من هذه الألوان النثرية والأساليب التعبيرية وضوح الرابطة الإسلامية، وقوة المشاعر الدينية، وذلك مايأنس له الباحث ويستحسنه في تلك الفترات العصيبة من تاريخ الأمة الإسلامية.

الهوامش:

1- في كتابه: البدر الطالع.
2- في كتابه: درر نحور العين.
3- في كتابه عنوان المجد، ج1، ص345.
4- في كتابه الأخبار النجدية، ص130.
5- في الأصل هھنا.
6- كتابه السابق، ج2، ص8.
7- سيد مصطفى سالم، كتابه السابق ص87.
8- المصدر نفسه، ص76.
9- المصدر نفسه، ص81.
10- المصدر نفسه، ص80.
11- كتابه السابق، ج2، ص20.

المصادر والمراجع:

1- عاكش، الحسن بن أحمد: مخطوط: عقود الدرر في تراجم علماء القرن الثالث عشر، نسخة جامعة الملك سعود، المكتبة المركزية، قسم المخطوطات، رقم 1334، تاريخ النسخ 1346هـ.
2- ابن بشر، عثمان بن عبدالله: عنوان المجد في تاريخ نجد، ج1، ط4، مط دار الهلال للأوفست بالرياض 1402هـ/1982م (من مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز 27).
3- الجاسر، حمد: المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، مقدمة تحوي أسماء المدن والقرى وأهم موارد البادية، القسم الأول أ- ص، ط1، مط نهضة مصر 1397هـ/1977م، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر بالرياض.
4- الجبرتي، عبدالرحمن: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج2، دار الجيل بيروت، دون تاريخ.
5- ابن زبارة، محمد محمد: نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر، ج2، مط السلفية، القاهرة 1348هـ.
6- سالم، سيد مصطفى (جامع): نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر، مط الجبلاوي مصر، 1974م، منشورات مركز الدراسات اليمنية 3.
7- الشوكاني، محمد بن علي: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع»، ج2، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، دون تاريخ.
8- الفاخري، محمد بن عمر: الأخبار النجدية، تحقيق: عبدالله بن يوسف الشبل، مط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر، دون تاريخ.
9- كحالة، عمر رضا: معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية، دار احياء التراث العربي، بيروت، توزيع مكتبة المثنى لبنان، دون تاريخ.
10- مردم، خليل: «أعيان القرن الثالث عشر»، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1977م.

قصيدة:

عودة

شعر: أيمن صادق

هذا متاعي فوق مركبتي   نَدَمٌ يعضّ بنان أحزاني
وشراعيَ المفرود من نزقٍ   سقطتْ صواريه لخسران
وعلى جبيني نورسٌ تعبٌ   والبحر عاتٍ دون شطآنِ
بعثرتُ عمري فوق أرصفةٍ   نادمتُ فيها كأس شيطان
وتركتُ حضنك حين أدفأني   فتوسَّد الأشواكَ جثماني
غادرتُ ذاتي.. فانطفت سُبلي   وطفقتُ أبحث أين عنواني؟!
في كل دربٍ كان يلعنني   موتٌ.. ويبصق وَحْلَ أكفاني
صهلتْ بجنبي مهرةٌ.. ولوتْ   عنها لجامًا كان سلطاني
فتخاذلتْ كفّي لرغبتها   ومضتْ تعربد دون حسبان
وتغوص في الأوحال جامحةً   ظمآنة تُروى بحرمانِ
حتى سكرتُ.. وبعتُ ناصيتي   ونحرتُ للشيطان قرباني
كفرتْ بأغلالٍ تطهرها   هل كان قيدًا نهيُ رحمن؟!
إني تركتُ سياج رحمته   فسجنتُ نفسي خلف خذلاني
الحلق جفَّ.. وضلَّ أنهرَهُ   والخوف ألهب جوفَ ظمآن
ووقفتُ أرجف خلف أسئلتي   فبم أجيبك حين تلقاني؟!
واليوم يطوي خطوتي نَدَمٌ   وإليك يسعى قلبُ حيرانِ
يأتيكَ ينشد منك مغفرةً   يارب تسمو فوق عصياني
هذا متاعي صار يرهقني   هل تفتح الأبواب للعاني
صدئت مواويلي على شفتي   وكبا الجموح.. وخفَّ ميزاني
فافردْ بهديك رب أشرعتي   نعم السفين.. وأنت ربَّاني

الداعية أحمد عبدالله كوبسيل

نداء الحق لباه في تونس

ولد مانيفرد كوبسيل في منتصف ليلة من صيف عام 1937م في مدينة برلين لوالدين ألمانيين نصرانيين، لكنه لم يسعد طويلاً بالحياة الأسرية، إذ لم يكد يبلغ الثانية من عمره، حتى شبت نيران الحرب العالمية، وأتت - ضمن حصادها المشؤوم - على جميع أفراد أسرته الصغيرة، فلم يبق منها سواه.

يتم مبكر

هزت مأساة اليتيم الصغير قلب أسرة بديلة، فاحتضنته، وعطفت عليه، وعاش معها بين أبنائها كفرد منها حتى حصل على الشهادة الثانوية العامة عام 1955م، وانتقل إلى الجزء الغربي من مدينة برلين، التي كانت قد قسمت إلى شطرين، يسيطر على كل منهما أحد جناحي الحرب المنتصرين: السوفيت، والولايات المتحدة وحلفاؤها.

من برلين انتقل مانيفرد كوبسيل إلى بلجيكا، والتحق بكلية المعلمين فيها لمدة عامين، عاد بعدها عام 1957م إلى بلاده، ليعمل فيها لمدة أربع سنوات، وما لبث عام 1961م أن تعاقد للعمل في تركيا مدرسًا للغة الألمانية في كلية أتاتورك بلواء الإسكندرون، واستمر في هذا العمل عامين، سافر بعدهما إلى تونس، حيث كان أحد أبناء تلك الأسرة التي احتضنته في طفولته وربته يعمل هناك.

في تونس الخضراء

في تونس افتتح مانيفرد مدرسة لتعليم اللغات، وشاءت عناية الله أن يلتحق بالمدرسة سبعة طلاب من عائلة تونسية مسلمة، مشهورة وعريقة الحسب، فكانوا متميزين بالخلق العالي والأدب الرفيع، إضافة إلى ما حباهم الله به من ذكاء فطري حاد، مما لفت انتباهه. فسألهم من أين لهم مثل هذا الخلق، فكانت إجاباتهم جميعًا واحدة: من الإسلام يا أستاذ، فنحن مسلمون.

كانت هذه الإجابة محل حوار ومناقشة بين المدرس النصراني وتلاميذه المسلمين، إذ قال لهم: إنه التقى كثيراً من المسلمين في أوروبا وتركيا إلا أن أحوالهم لم تعجبه، وهنا شرح له تلاميذه كيف أنه يجب التفرقة بين ما يحتوي عليه الإسلام من قيم ومبادئ ومثل عليا، وما هو عليه حال المسلمين اليوم، مؤكدين أن المسلمين لا يماثلون جميعًا أولئك الذين التقاهم سابقًا، وأن هناك كثيراً من المسلمين يطبقون تعاليم الإسلام وقيمه النبيلة في حياتهم ومسلكهم، ويعطون القدوة لما يجب أن يكون عليه حال المسلم المؤمن قلبًا وقالبًا بقيم الإسلام.

تعرف الإسلام

أذهلت هذه الإجابة مانيفرد، ولم تكن معلوماته عن الإسلام تسمح له بأن يعرف أو يتفهم حقيقة تلك القيم التي جاء بها الإسلام، لذا سأل تلاميذه أن يحدثوه عن هذه العقيدة التي أكسبتهم مثل هذه الأخلاق العالية وسلَّحتهم بالقيم والفضيلة.

رحب التلاميذ بالسؤال، وشرحوا له كيف أن الإسلام آخر الرسالات السماوية وبه يكتمل الدين، وتختتم النبوة، لأنه على عكس غيره من الرسالات السابقة موجه إلى الشعوب كافة وليس إلى شعب بعينه، وأوضحوا له كيف أن القرآن الكريم هو كلام الله أنزله - عز وجل - على عبده ورسوله

محمد صلى الله عليه وسلم، مصدقًا لما بين يديه من الحق. وتطوع أحد التلاميذ بإهداء مانيفرد نسخة من القرآن الكريم، تقبلها شاكرًا، لكنه استدرك مشيرًا إلى عدم معرفته اللغة العربية، ومؤكدًا على أنه سوف يرسل إلى ألمانيا ليطلب نسخة من ترجمة لمعاني القرآن الكريم باللغة الألمانية.

قراءة ترجمة معاني القرآن

لم تسع مانيفرد الدنيا من الفرحة حين جاءته نسخة ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الألمانية، فتسلمها آملاً أن يجد الفرصة المناسبة لقراءتها، إلا أن مشاغل الحياة استبدّت به وصرفته عما انتواه، إلى أن جاء يوم رأس السنة الميلادية لعام 1966م، حيث ذهب مع ابن الأسرة التي كانت قد ربته، إلى الحفل السنوي الذي اعتاد النصارى إقامته نهاية كل عام بهذه المناسبة، وشرع - كعادتهم - في استقبال العام الجديد باحتساء الخمر، لكنه ما كاد يرتشف من كأسه رشفتين حتى أصابه ألم شديد لم يقو عليه، وراح في غيبوبة.

أفاق مانيفرد من غيبوبته ليجد نفسه على سريره في منزله؛ إذ قام رفيقه بنقله إليه عقب الإغماءة، وعلم من رفيقه أنه أمضى ليلة كاملة في غيبوبة، ونصحه الطبيب بالبقاء في الفراش إلى أن يسترد صحته.

وشعر وهو جالس في فراشه برغبة شديدة في القراءة حتى لا يمر الوقت متثاقلاً، فنظر حوله فإذا عيناه تقعان من أول نظرة على ترجمة معاني القرآن الكريم، وكأنها - أي الترجمة - تدعوه إلى قراءتها، فأمسك بها وشرع يقرأ.

لم يستطع مانيفرد أن يترك ترجمة معاني القرآن الكريم، وكأن هناك هاتفًا خفيًا يدفعه إلى إكمال قراءتها، واستغرق ليومين مع هذه الرحلة الروحية، وما كاد ينهي القراءة حتى شعر بروح جديدة تسري في عروقه، وشيء غامض يهتف في داخله بأنه مسلم ولا ينتمي إلى النصرانية.

إشهار إسلامه

خلص مانيفرد بعد قراءته لترجمة معاني القرآن الكريم إلى أن الإسلام هو دين الحق، ولم يضيع وقته طويلاً، إذ توجه إلى سماحة مفتي الجمهورية التونسية الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، وأعلن إسلامه في حضوره.

اختار المهتدي الجديد اسم «أحمد عبدالله كوبسيل» ليكون اسمه في مولده الجديد، وأحس بأن مهمته في الحياة قد تغيرت، وأن عليه طلب العلوم الشرعية ليتفقه في دينه وليكون داعية للإسلام، وكانت خطوته الأولى بيع مدرسته الخاصة كي يتفرغ لطلب العلم.

دراساته الإسلامية والعمل بالدعوة

التحق أحمد عبدالله كوبسيل بالجامعة الإسلامية في الدار البيضاء عام 1968/1967م، لكنه لم يوفق فيها على النحو الذي كان يأمله، فغادرها إلى مصر ليلتحق بالجامعة الأزهرية، ظنًا منه أن الدراسة فيها دينية صرف، لكنه وجدها تُدَرِّس إلى جانب علوم الإسلام علومًا عصرية، فتركها مهاجرًا إلى الباكستان، وهناك التحق بمعهد يتبع الاتحاد العالمي للدعوة الإسلامية يسمى «معهد العليمية» في مدينة أبوت أباد بالقرب من كراتشي.

استفاد أحمد عبدالله كوبسيل كثيرًا من إقامته في أبوت أباد، ذلك أن سكان المدن الصغيرة يكونون - عادة - أقرب إلى الفطرة من سكان المدن الكبرى، لذا شدته حماستهم للإسلام، وحسن فهمهم له، مما ساعده كثيرًا في تعرف جوانب عدة مضيئة من العقيدة الإسلامية من خلال المواقف العملية.

كذلك من حسنات إقامة المهتدي الجديد في مدينة أبوت أباد لقاؤه فيها بالداعية الألماني المسلم د. علاءالدين شلبي؛ حيث أثمر لقاؤهما عن إنشائهما مركزًا للدعوة في أبوت أباد، يضم معهدًا لتدريب المعلمين، ودارًا لإغاثة اللاجئين الفلسطينيين.

إن أحمد عبدالله كوبسيل نموذج للإنسان الذي اتبع فطرته، ولم يكتف بأن لبى نداء الحق، لكنه أدرك أن دوره، بوصفه مسلمًا، لا يقتصر على مجرد أداء فروض الإسلام، لكنه يتعدى ذلك إلى خدمة إخوانه في الله، والقيام بواجب الدعوة إلى الله بين غير المسلمين، وقد وفقه الله - عز وجل - في عمله لتأدية هاتين الرسالتين، لأنه قام بهما انطلاقًا من روح حرة مؤمنة لا تبتغي أجرًا سوى ماعند الله.



فضيلة الشيخ :

د. صالح بن سعد اللحيدان

حديث ذبح الذباب

ما صحة حديث «ذبح الذباب للصنم»؟

ع.ع.ط، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

حديث ذبح الذباب يرد غالبًا في كتب الوعظ، وهو أن رجلين مرّا على قوم يعبدون صنمًا لهم.. إلى أن جاء فيه: فقالوا للآخر: قَرِّب ولو ذبابًا - أي اذبحه للصنم - فأبى. هذا الحديث، حسب علمي، لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ظلم وصدقة

رجل ظلم وقَصَّر كثيرًا، وكان مسؤولاً عن شركة، ثم مرض فلم يستطع الكلام إلا قليلاً، فترك الشركة لابن أخيه، فقام هذا بالأمر وبدأ يتصدق عنه، لعل الله تعالى أن يشفيه، فهل يفيد هذا؟

س.ي.أ، المغرب.

جاء في السؤال أنه (ظلم) و(قصَّر كثيرًا)، وهاتان الكلمتان تعنيان أنه تعدى على حقٍّ أو حقوق من هضم، أو طرد، أو تضييق.. إلخ..

فمثل هذا لاتكفي الصدقة عنه، ولا التوبة، وابن الأخ هذا لعله يجهل الحكم الشرعي، لأن عمه قد يكون «دُعي عليه» فانتصر الله للضعيف. لكن هنا يجب استماحة المظلوم، ورد الاعتبار بحاله كما هو. فإذا توافر هذان الأمران فهنا تكون الصدقة في محلها إن شاء الله تعالى.

الاحتلام في نهار رمضان

مَنْ احتلم في نهار رمضان هل يعيد هذا اليوم؟

برمبس م أ، الأردن.

مَنْ احتلم في نهار رمضان لا يعيد هذا اليوم؛ لأن النائم - في حال نومه - مرفوع عنه القلم، لغياب مناط التكليف وهو العقل، لكن إذا سبق النوم فكر ونحوه فهذا يأثم صاحبه. والله تعالى أعلم.

إلزام المسلم

هل يُلزم المسلم العمل وإن كان (صالحًا) إذا كان لايرغب فيه؟ وما صحة حديث: «إياكم وخضراء الدمن..»، وحديث: «اطلبوا العلم ولو في الصين»؟

علوي. م، اليمن.

إذا كان العمل كما تقول ، وهذا المسلم يعلم من نفسه القدرة على القيام به ولايوجد سواه فيجب القيام به، أو إذا ألزمه ولي الأمر فإنه يقبله، ويخلص النية بجانب القيام به على وجه أمين حازم تقي ورع بعقل وحكمة وحسن خلق. ولعلك تعود إلى: كتب «السياسة الشرعية» لابن تيمية، و«الطرق الحكمية» لابن قيم الجوزية، و«السيرة النبوية» لابن هشام، و«الطبقات الكبرى» لابن سعد ج 4,3,2.

أما حديث «إياكم وخضراء الدمن..» فسبق ذكر درجته وقلنا بأنه حديث ضعيف، وحديث «اطلبوا العلم ولو في الصين» لم يصح عنه صلى الله عليه وسلم.

تجارة وأرباح

رجل يَسَّر الله تعالى له المال والولد، ففتح دكانًا هو الوحيد، وبدأنا نودع لديه أموالنا لمدة سنة أو أكثر أو أقل، وهو يتاجر فيها، ثم يعطينا ربحًا قليلاً 3٪ أحيانًا، فهل يصح هذا؟

سالم بحنس لوبو، نيجيريا.

إذا اتفقم معه على المتاجرة بأموالكم وتكون نسبة الربح عادلة مع فارق بسيط له بحكم قيامه بهذا العمل فلا بأس.

وإن كان يودعها عنده هكذا؛ ثم يعطيكم نسبة معينة كيفما حصل، ولاتدرون ما تجارته فهذا منهيٌّ عنه، وتستطيعون سؤاله، والاشتراك معه كل بقدر حالته المالية، ثم تتوزعون الأرباح بنسب رأس المال، شرط أن تكون التجارة في حلال معلوم. وبإمكانكم قراءة كتاب «بنوك بلا فوائد» للدكتور عيسى عبده - رحمه الله -، وكتاب «الروض المربع» باب البيوع.

الماء الطهور

شك رجل بماء وجده عنده هل هو طهور أو نجس، فماذا يفعل؟

ع. الحديثي، البكيرية، القصيم.

إذا وجد موجبا للشك، ولم يستطع البناء على اليقين؛ فإنه يترك هذين الماءين الطهور والنجس، ويبحث عن طهور، فإذا تعذر هذا تيمم وتركهما، والله تعالى أعلم.

نوع الجنين

هل توصل العلم إلى معرفة نوع الجنين؟

داود سالم الجفري، الولايات المتحدة.

نعم.. لكن المعجز هنا عدم العلم بما سيؤول إليه أمر هذا الجنين فيما بعد من صحة أو مرض، ومن سعادة أو شقاء، ومن غنى أو فقر، ومن زواج وعدمه. وهذا من معاني قوله تعالى: ﴿ويعلم ما في الأرحام﴾، لأن (ما) لغير العاقل، فيتوجه الخطاب إلى غير الذكورة والأنوثة، لأن هذين هما محل العقل، وإلا كان التعبير: ويعلم من في الأرحام، والله تعالى أعلم.

ردود خاصة:

الخفر حمزة، ص.ب ٢٤٥، عين وسارة، ولاية الجلفة، الجزائر:

رفع اليدين في الدعاء يجوز في كل حال إلا عقب الصلوات الخمس المفروضة؛ لأن هذا لم يرد، ولم ينقل بسند صحيح. وما يفعله البعض خاصة الأئمة من الجهر بالذكر جداً، والدعاء ورفع اليدين بدعة لا أصل لها، لكن يجوز رفع الصوت بالذكر فرداً فرداً، دون أن يكون جماعة ويقال ما ورد.

أما الطلاق ثلاثا حسب النية فإنه يقع إذا كان بمجلس واحد، وكانت متفرقات.

فوزي الدبركي محمد فايد، محافظة المنوفية، مصر:

١- الزوجة هنداوية (الدبركي): لها الثُمن.

٢- الزوجة نفيسة (أبو الحديد): لها الثُمن.

٣- ويرث أبناء الدبركي وبناته الباقي: للذكر مثل حظ الأنثيين.

٤- ويرث أبناء أبو الحديد وبناته الباقي: للذكر مثل حظ الأنثيين.

لكن يجب إخراج الوصية إن كانت هناك وصية وكذلك الديون إن كانت هناك ديون. ثم تقسم التركة بعد ذلك حسب ما ذكرت.

د. عبدالمقصود. م، أزمير، تركيا:

يمكنك مراجعة سفارة المملكة، فلديها الجواب الشافي إن شاء الله تعالى.

عفاف بنت ريد الجفافل، تبوك:

سيصلك جواب خاص.

هند. م. ل، تبوك:

لم يقع الطلاق، وسيصلك جواب خاص.

قراءة في كتاب:

نقد السياسة: الدولة والدين

لبرهان الدين غليون

محمد بو راس

يعد الدكتور برهان غليون في طليعة المفكرين الذين تصدوا بالدراسة والتحليل لمجموعة من القضايا المرتبطة من قريب أو بعيد بإشكالية الدين والدولة؛ بحيث أخذت هذه الإشكالية مساحة كبيرة من اهتماماته الفكرية؛ فحاول - من خلال كتاباته المتعددة - أن يقدم رؤية تحمل تصورًا خاصًا لجدلية العلاقة بين الديني والسياسي. ولعل هذا يتبين بشكل واضح في كتابه: «نقد السياسة: الدولة والدين»(1) الذي جعلناه منطلقًا لهذه الدراسة. وهو كتاب يعد محاولة جريئة تكشف عن مجموعة من المفاهيم والتصورات القابلة للمناقشة والقراءة النقدية، بوصفه يطرح قضايا مركزية تكشف أبعاد هذه الإشكالية وتضيء جوانبها انطلاقًا من تصور خاص، يمكن اكتشاف آلياته من خلال الوقوف عند التحليل الذي يقدمه لمجمل هذه القضايا على اعتبار أنها تمثل إطارًا يقع فيه النزاع بين تيارات فكرية متباينة.

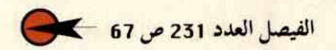
وهكذا فإنه من خلال قراءة تفكيكية لمضامين الكتاب السابق، سنصل إلى استكناه عمق الإشكالية في إطار التوظيف الجدلي الذي يقدمه برهان غليون من خلال محاولته رسم معالم نظرية تجيب عن مجموعة من التساؤلات المطروحة في هذا الصدد، وذلك من طريق عرض أبرز القضايا التي يعالجها الكتاب، وتتبع خطوات المعالجة التي يقدمها لعناصرها الأساسية بوصفها محددات رئيسية تُفهم من خلال الإشكالية العامة.. وهذه القضايا هي:

أولاً: العلاقة بين الدين والدولة. ثانيًا: مسألة العلمنة. ثالثًا: الدولة الإسلامية.

وهي القضايا التي سنحاول من خلالها أن نقدم تجليات تصور المؤلف لقضية الدين والدولة في إطارها الإسلامي. ومن ثم سنصل إلى مناقشة فكره انطلاقًا من الآراء التي يقدمها حول هذه القضايا في ختام هذه الدراسة.

أولاً: علاقة الدين بالدولة

بدأ المؤلف تأسيس طرحه لمسألة العلاقة بين الدين



والدولة من خلال عرض تاريخي لأهم المراحل التي مر بها الدين في ارتباطه بالدولة؛ بدءًا بالأديان الوثنية الوضعية التي لم تعرف فصلاً بين السلطتين الدينية والزمنية، لكون الأولى محكومة بقهر الثانية، ووصولاً إلى الأديان السماوية التي جاءت بتصور جديد لهذه العلاقة يقوم على أساس «تحرير فكرة الألوهية عن الملك والسلطة الملكية أو سلطة الدولة» ص35، بمعنى أكثر وضوحًا، إنها جاءت بلون جديد من التفكير الذي ينزع القداسة عن القوى الطبيعية والكونية كما هي في الاعتقاد الديني الوثني، لترتفع بها إلى مستوى أعلى وتتجسد في فكرة الإله الخالق المتميز عن الطبيعة والكون، ومن ثم تتحطم الصنمية التي يمثلها الملك الذي كان يُعدّ رمزًا «للسلطة المقدسة، ومصدر شرعيتها»، كما تشير إلى ذلك بقايا فكرة الإمبراطور الإله في اليابان الحديث» ص32. إذن فمع مجيء الأديان التوحيدية (اليهودية، والمسيحية، والإسلام) نشأ الصراع بين الدولة والدين، لأنها في جوهرها جاءت من أجل «نفي الإمبراطورية العبودية والوقوف في وجهها، بل إعلان الحرب عليها، وإخضاعها تمامًا، لكونها تعبيرًا عن مبدأ القوة والسلطان المادي، وأن يُستبدل بها مُلكٌ أو سلطان قائم على فكرة القرابة الروحية المتجسدة في الأخوة في الله» ص43.

فبالنسبة لكل من اليهودية والمسيحية، فإن تاريخهما يؤكد ذلك «التناقض العميق والدائم بين الدولة والدين، أو عدم تفاهمهما وتوافقهما. فهو يظهر في اليهودية ضياع الدين في الدولة، ويظهر في المسيحية ضياع الدولة في الدين، وكما أدى ضياع الدين في الدولة إلى تحويل اليهودية إلى طائفة بامتياز، وجعلها تتصرف كقبيلة دينية معزولة ومنعزلة في العالم، بالرغم من عالمية رسالتها؛ فقد أدى ضياع الدولة في الدين إلى تفكك الاجتماع المدني وسيادة التمييز والفوضى وزوال القانون، وارتداد الحقيقة الدينية إلى فكرة روحية صرفة» ص64.

أما في حالة الإسلام، فرغم وجود التناقض بين الدين والدولة، وهو تناقض تحكمه طبيعة كل منهما تبعًا للمفهوم الذي كونه عنهما غليون، فقد استطاع أن يتجاوز كلاً من الديانتين السابقتين حين ركز في مواجهة اليهودية على الرسالة الإنسانية والقيم الأخلاقية واللحمة الأخوية، وفي مواجهة المسيحية على الجهاد العملي والمادي لنشر الدعوة الروحية وتأكيد السلطة الإلهية ص65. ومن هنا لم يؤدّ التناقض إلى نفس ماوصل إليه الوضع في اليهودية والمسيحية، وذلك بجمعه بين السلطتين الروحية والزمنية، وفي ذلك يقول غليون: «ولعل مصدر نجاح الإسلام وتقدمه على غيره في العصر الوسيط لم ينبع إلا من أمر واحد هو قوة استعداداته الذاتية لتجاوز ازدواجية السلطة... وتأسيس قاعدة التفاهم والتعاون بين السلطتين الروحية والزمنية، كشرط لا يحيد عنه للنجاح في بلورة وتحقيق أي سياسة اجتماعية. وهو ما يفترض النجاح في التوصل إلى مصالحة تاريخية، أو تسوية داخلية أو تقسيم وظيفي للعمل الاجتماعي والعقيدي بين الدولة والدين، والسلطان والفقيه» ص67. وبذلك تكون التجربة الإسلامية قد كشفت عن علاقة متميزة لا نجد لها مثيلاً في الديانات التي سبقتها.

وهنا يبرز سؤال ملح حول الهدف الأساسي لهذا العرض التاريخي الذي يقدمه الكاتب في إطار حديثه عن العلاقة بين الدين والدولة؟ وهو سؤال ستتبين إجابته من خلال تحديد الصيغة العملية التي يقترحها للعلاقة بين هذين العنصرين، بعد تحديد مفهوم خاص لكل منهما.

أ ـ مفهوم الدين

إذا تتبعنا المواقف التي يعلنها المؤلف في كتابه، وجدنا أن المفهوم الذي يعطيه للدين لا يختلف كثيرًا عمَّا يمكن أن يصدر عن أي علماني آخر في هذا الإطار، رغم أنه يحاول أن يتعامل مع هذه المسألة بطريقة أكثر اعتدالاً. فالدين في تصوره لا يزيد عن كونه إطارًا إيمانيًا يعكس توجهًا روحيًا وأخلاقيًا أساسه «التضحية والتكافل والغيرية وإجهاد النفس والتسامي على الحاجات المادية والاهتمام بالحاجات الروحية» ص337. وهو يبني ذلك على أساس أنه منبع «للنور الداخلي والقيم الإنسانية الموجهة للسلوك القويم» ص337. ومن ثم فإن رسالة الدين في جوهرها تتشكل أساسًا من «المبادئ والقيم والمثل الملهمة والمقربة بين الناس، قيم الحق والواجب واحترام الآخر» ص337. وهكذا يتم التركيز على الجوانب التربوية والروحية والسلوكية في الدين على حساب المناحي الأخرى ليصل إلى التسليم بأن «جوهر الدين هو الارتفاع بالإنسان فوق المصلحة الذاتية وتكوين أفق مثالي وضميري له يقيه من السقوط في الأنانية والشر، وليس من الممكن من وجهة نظر التضحية والمثالية هذه إدارة شؤون الدنيا والمصالح، وليس هذا منطقها. وإلا فسوف يضطر إلى مجاراتها والتحول إلى سياسة دنيوية، وهو قائم على نقضها ودفع الناس إلى تجاوزها كأفق وحيد لوجودهم وكينونتهم» ص88. وهذا يعني ـ فيما يعني ـ أن الدين إذا أُقحم في أي مجال لا يتسق مع هذا الجوهر، فإنه يخرج عن حقيقته ويصير شيئًا آخر،

الشريعة بأحكامها هي قانون الدولة الإسلامية، ولا يتحقق من دونها أي وجود للدولة

ولعل هذا ماتوضحه دعوة غليون إلى عودة «الدين إلى مركزه الأول والأصلي والأهم، أي كرأسمال روحي، ومركز توظيف للسلطة المعنوية وللألفة الاجتماعية وليس للسلطة المادية» ص393.

وهكذا نخلص إلى أن الدين عند برهان غليون لا يكاد يخرج عن المفهوم الغربي كما كرسته التجربة المسيحية، وهو مفهوم لا يتوافق والبنية الفكرية للتصور الإسلامي الذي يرى منهجًا شاملاً للحياة، سواء في ذلك الجانب الروحي والمادي.

ب ـ ماهية الدولة

إن المفهوم الذي يعطيه المؤلف للدولة يتأسس على رؤية تاريخية تحاول اكتشاف مضمون الاجتماع المدني الذي تتبلور من خلاله، باعتبارها «التعبير الظرفي والمرحلي عن تطور هذا الاجتماع ونمو مشاكله وتناقضاته وحاجاته المختلفة للضبط الداخلي والتنظيم، وهي تمثل الأسلوب الذي حاول فيه أن يحل بعض المشاكل التي تعترضه» ص87، وبهذه الصورة فالدولة هي نتاج لحركة التاريخ، أي إنّ الذي يحدد مفهومها هي الصيرورة التاريخية.

وعليه، فمن خلال استقرائه لمجموعة من التجارب التاريخية ـ ومن ضمنها التجربة الإسلامية ـ وصل إلى فهم الدولة على أنها «أداة صماء يستخدمها المبدأ الأخلاقي الواعي كوسيلة لتحقيق نفسه، وفي الأحوال الطبيعية كانت تعتبر التجسيد الأعمق للتنافس على الدنيا والصراع في سبيل المصالح والمنافع والمكاسب الفانية» ص58. ومن ثم فإنه يركز على الطابع القهري للدولة في تجسيد الفعل السلطوي.

وإذا كانت الدولة حسب التعريف الآلي هي «الطريقة التي تتمفصل بها عناصر السلطة العقدية والتنظيمية والعملية، الزمنية والروحية، وتضم الرمزية العامة والسلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية. وهي كجهاز تمثل التجسيد التاريخي والخاص لهذا التمفصل في كل حقبة» ص87؛ فإن هذا لا ينفي النزوع إلى فهم الدولة على أنها جهاز تتمثل فيه السلطة بمفهومها القهري، لأنها في جوهرها «تعبير عن الولادة الجديدة للقوة الدنيوية أو الزمنية أو الطبيعية كمحور للاجتماع المدني» ص64.

وهكذا يجري التأكيد على الطابع المدني للدولة انطلاقًا من أنها «مؤسسة دنيوية تاريخية لا شخصية» ص127. إضافة إلى أن السلطة التي تظهر من خلالها «ليست نظرية الأخلاق ومنظومات القيم الدينية وغير الدينية، ولكن في قواعد استخدام قوة مجردة صمّاء تفعل ما تمليه عليها غريزتها، أي حسب منطق القوة» ص127.

وبناء على ماتقدم، فالدولة عند برهان غليون تتبلور من خلال مظهرين: الأول: يرتبط بمفهوم القوة التي تتجسد في جانب السلطة بوصفها عنصرا أساسيا في بناء جهازها، والثاني: يتعلق بالطابع المدني الذي يرتبط بطبيعة الدولة كتعبير عن الاجتماع البشري.

ج ـ العلاقة بين الدين والدولة

انطلاقًا مما تقدم عرضه نمضي إلى كشف نوع العلاقة التي يقيمها المؤلف بين الدين والدولة؛ فهو يبدأ بتأكيد ضرورة الدين للدولة من جهة الوجود القيمي بوصفه ـ أي الدين ـ «عنصرًا جوهريًا من عناصر تكوين السلطة وإقامة الدولة»ص32؛ بمعنى أن الدولة لا تستغني عن الدين كمنظومة أخلاقية وروحية تتكئ عليها في بناء سلطتها وتدعيم مؤسساتها، لأنه في هذه الحالة يمثل «مصدر تربية ذاتية وجماعية لا غنى للنظام السياسي عنها، بالرغم من كونه أبعد مايكون عن الدولة. إنه بحاجة إلى جهاز ليكون له بمثابة المبدأ المحرك»ص122. وفي هذا تقليص لدور الدين بحيث لا يزيد عن كونه عنصراً سلبيًا لا فاعلاً؛ أي غير قادر على الارتفاع فوق مستوى المشاركة الفعلية في ممارسة السلطة. لأن ذلك من وجهة نظر الكاتب يؤدي إلى تحويل الدين إلى دولة كأداة للقوة القهرية، مما ينتج عنه زواله كدين، «أي كتربية وتأهيل وإعداد للروح ومراهنة على الخير الإلهي الأول وأثره»ص157، وهذا كله معمول على فهم خاص لمعنى السياسة في حد ذاتها التي تعتبر «مرتبطة بالعقل والحنكة والحيلة والخدعة، كما هي الحرب»ص158. وهي عناصر أبعد ماتكون من الممارسة الدينية وتنظيماتها. ومن هنا يأتي منطق الاختلاف بين الدين والدولة كحقيقتين متغايرتين. ورغم أن ارتباط الدين بالسياسة لا يمثل خطرًا على أي منهما؛ إلا أن المعطى الذي يفرزه ذلك وهو «تحويل السياسة إلى ممارسة مقدسة ودينية»ص385، يشكل خطراً كبيراً حسب تصور غليون من منطق أن «الدين إذا أصبح دولة ونجح في أن يتحول من ذاته أو يخلق في ذاته سلطة قسرية منظمة كالدولة صار كنيسة»ص125. وهذا يحيل إلى التجربة الأوربية المريرة في القرون الوسطى، وما عرفته من اضطهاد وقهر واستبداد.

على أن غليون بقدر ما يتمسك بضرورة الدين للدولة على الصورة التي سبق عرضها؛ أي باعتبار الدولة جسداً والدين روحها، فإنه يرى أن الدين لابد له من دولة، حيث يقول: «إذا بقي الدين دون دولة، وراهن على الصلاح المبدئي لكل فرد وعلى قوة إيمانه، ورفض أن تكون له سلطة قهرية من داخله، أي كنيسة، أصبح جماعة، وبقدر ذلك أصبح محور الحياة السياسية والأخلاقية والمدنية والفنية والروحية معًا للمجتمع. ومن ثم، وهذه خلاصة تجربتنا، حرم الدولة من أي حقيقة أخلاقية وسياسية عليا، وحولها إلى آلة صماء، وقوة قهرية محضة، أي تركها من دون دين»ص129،130. غير أنه يجب فهم ذلك في ضوء ماتقدم، بمعنى أن الدولة التي يقصدها هنا ليست أكثر من مؤسسة مدنية تستوعب الدين وتستلهم مشروعيتها منه دون أن تتحول إلى «دولة دينية»، فيكون بذلك جزءاً من جهاز الدولة، حيث تبقى العلاقة في هذا الإطار «شرطًا لا غنى عنه لتأسيس الاجتماع المدني، أي لبناء مجتمعات متعاونة ومتضامنة بين أفرادها»ص32، كما كان الشأن مع الأديان ماقبل التوحيدية، حيث كانت هذه العلاقة «العنصر الرئيسي، بل الوحيد في إضفاء الشرعية على القوة القهرية التي كانت تقوم عليها الدولة كعلاقة مضافة ومفروضة على الجماعات الأهلية المشتتة والمتنوعة. وكانت كذلك العنصر الحاسم في توليد الاحترام والتقديس للقانون، الذي يفترض استخدام هذه القوة»ص32.

وتأسيسًا على ماتقدم، نقول: إن العلاقة بين الدين والدولة كما يتصورها برهان غليون تقوم على مبدأ التساكن والتجاور لا الاندماج والتداخل؛ بحيث تبقى الدولة في إطارها المدني قائمة على رعاية المصالح والأهداف التي تكفل بقاء الاجتماع المدني، والدين يدعم هذه الوظيفة بقيمه، في إطار من توزيع الأدوار وتحديد قواعد التعامل فيما بينهما. وفي هذا يقول: «يبدو لنا اليوم من التجربة التاريخية العربية الإسلامية والمسيحية الغربية معًا، أن جوهر مشكلة العلاقة بين الدين والدولة، في كل مكان وكل زمان، هو بلورة قاعدة ثابتة وواضحة لتوزيع السلطات الاجتماعية بما في ذلك السلطة الدينية»ص330.

ثانيًا: مسألة العلمنة

استكمالاً لما سبق عرضه في سياق الحديث عن تصور المؤلف للعلاقة بين الدولة والدين نأتي إلى مقاربة إشكالية العلمانية كما يطرحها في كتابه الذي بين أيدينا، وإن كان في كتاب سابق قد قال بالحرف: «تبدو إشكالية فصل الدين عن الدولة عندنا مصطنعة منقولة عن الغرب. إن مشكلة الدولة في العالم التابع هي بالضبط أنها بلا دين ولا عقيدة»(2)، إلا أن هذه الإشكالية رغم ذلك تبقى مطروحة بشكل أساسي في إطار البحث عن حل نهائي لإشكالية العلاقة بين الدين والدولة من حيث وجود ارتباط وثيق بين الإشكاليتين.

ينطلق غليون ـ في إطار بحثه عن صيغة ممكنة لبناء نظرية جديدة حول مسألة العلمانية ـ من قناعة مفادها أن الفصل بين السلطتين الزمنية والروحية لا ينبغي أن يكون فصلاً ميكانيكيًا إقصائيًا، وإنما يجب أن ينبني على أساس وظيفي تحكمه علاقة توافقية من حيث دور كل واحدة منهما؛ أي تميز كل واحدة منهما من الأخرى على مستوى الأدوار والوظائف، فيقول: «إن العلمنة... لا تفترض، ولم تفترض في أي مكان، فصل الدين عن السياسة، أو المعارضة بين قيمهما. فقيم السياسة لا يمكن أن تصدر عن شيء آخر غير معتقدات المجتمع وإيمانه، وإلا أصبحت السياسة نفيًا لهوية الوطنية. إنها التمييز بين مهام رجال الدين ومهام رجال الدولة، وهم جميعًا يخضعون من حيث المبدأ، أو المفروض أنهم يخضعون في مجتمع سيد، للقيم ذاتها والأهداف والتربية والتكوين العام الجماعي والقومي ذاته، أي إنه فصل،... بين صلاحيات لا بين أنماط قيم وعيش»ص333. ولعل هذا يبدو بجلاء من خلال نقده لكل من العلمانيين والإسلاميين؛ حيث يرى أن كليهما يحمل فكرة خاطئة عن العلمانية من حيث إن كل واحد منهما يعتقد أنها وسيلة لتغيير المفاهيم والقيم والعادات لتنتهي «إلى أن تظهر في نظر الرأي العام المؤيد والمناهض لها، دينًا جديداً أو مؤشراً على دين بديل ينطوي على قيم ومفاهيم ورؤى اجتماعية وكونية متميزة، أو تعتقد أنها تخالف كليًا قيم الثقافة الدينية والتراث التقليدي»ص304،305. فالعلمانية هنا تأخذ صورة غير مألوفة تنعدم معها تلك القطيعة الكاملة بين الديني والسياسي، لتتحول إلى نظرية إجرائية تدخل في إطار تقاسم السلطة انطلاقًا من معطيات التجربة الغربية مع الكنيسة، ومن ثم يكون «الاعتراف للسلطة الروحية في ميدانها الخاص»ص309، مبدأً أساسيًا تقيم عليه النظرية العلمانية قواعدها. ومن هنا، وطبقًا لهذا التصور، فالعلمانية ـ كما يذهب إلى ذلك غير برهان غليون ـ «لا تلغي الدين أو الممارسة الدينية بل تخرج السياسة من الحيز الاجتماعي والسياسي كي تعيدها إلى إطارها الوحيد في الحيز الشخصي»(3).

أما مبررات هذا الطرح فنابعة من أساسيات الفكر العلماني في نطاق العلاقة التي يقيمها بين الدين والدولة، وفي مقدمتها «نزع القدسية عن نشاط وممارسة الدولة والحكام»ص281، مع اعتبار أن تسييس الدين «يشكل مصدرًا دائمًا لعدم الاستقرار، وبالتالي فإنه يمنع الدولة من أن تتحول إلى مؤسسة ثابتة وموضوعية مستقلة عن القوة الحاكمة، ويحد من تراكم التقاليد القانونية والإدارية فيها. ولذلك فهو يجعل شروط ضبط السلطة ضعيفة، ويفتح الباب أمام نمو السلطة التعسفية، أو تحويل التعسف نفسه إلى مكون من مكونات السلطة، وفي بعض الحالات كحافز أمام الفتنة الشعبية أو الفوضى الشاملة»ص288.

ويلاحظ أن برهان غليون يجعل من التجربة المسيحية تُكأةً يستند إليها كلما ألحت عليه فكرة الفصل بين الدين والدولة، لا سيما وأنها التجربة الرائدة التي أعطت ثمارها سواء على المستوى النظري أو العملي، بحيث حقق ذلك الفصل نوعًا من السلم الاجتماعي بعد مسيرة تاريخية من الصراع الذي أنهك القوى وعطل العقول وأركس الحياة، حيث يقول، بعد استعراضه للخطوط العامة لهذه التجربة: «فلم تكن العلمانية إذن

بالمعنى العميق للكلمة فصلاً بين الدين والسياسة بقدر ما كانت حلاً للفصام المدني الذي أنتجه تناقضهما، وتجاوزًا إيجابيًا له»(ص229.

بيد أن مشروعية العلمانية على النحو الذي يتصوره المؤلف لا تؤسس على معطيات التجربة التاريخية من خلال علاقة الدولة بالسلطة الكنسية في الغرب، وإنما تنطلق من داخل الفكر الإسلامي ذاته على اعتبار أنه قد كرس أطروحة العلمنة بنفسه، يقول: «إذا كانت إشكالية العلمانية لم تطرح من قبل في الفكر العربي الإسلامي، فذلك لأن الإسلام الديني كان هو الذي أسس بنفسه للحيز المدني وأكد عليه وشرع له، منذ جعل الرسالة المحمدية خاتمة النبوة وكل وحي في العالم، وأعطى للعقل، بدءًا من ذلك الوقت، الدور الوحيد في تسيير المجتمع والتاريخ حتى قيام الساعة. والأصل أن اختتام الرسالة يعني أنه لم يعد هناك اتصال للجماعة المؤمنة مباشرة مع الله »ص228. ومن هنا يؤكد على ما يعتبره الطابع المدني والعلماني للفكر الإسلامي بالفطرة مما «ساعد على تجذره في المجتمع وجعله شديد الارتباط به والتماهي مع ما نطلق عليه المجتمع المدني. ومن بين الأسباب التي ساهمت في ذلك خلوه من الكنيسة، أي غياب فكرة الهيئة والسلطة المعصومة فيه، وانفتاح إمكانية الاجتهاد بحرية أمام كل فرد ينتمي إليه. وانعدام هذه السلطة الرسمية في الإسلام، أي المرتبطة بملكة غير مشتركة بين جميع الناس، هي التي جعلت من غير الممكن للسلطة الزمنية أن تنتقص من مصداقيته وشرعيته التاريخية»(ص289. وجدير بالذكر هنا أن هذا الطرح نفسه وبمثل هذه الصيغة قد ذهب إليه من قبل الدكتور حسن حنفي حين أعلن أن «الإسلام دين علماني في البداية، لأنه ليس به رجال دين، علمانيته معطاة من الداخل بوضع إلهي، وليست مكتسبة من الخارج بجهد إنساني»(4).

على أنه يرى - أي غليون - أن الإشكالية في عمومها تعد مغلوطة إلى حد بعيد لا يمكن قياسها على حالة العلاقة بين الدين والدولة في العالم الإسلامي، وفي هذا المعنى يقول: «.... إن أصل المشكلة عندنا... لايكمن في سيطرة الدين أو السلطة الكهنوتية على الدولة واعتدائها عليها وعلى اختصاصاتها، وإنما ينبع، على العكس تمامًا، من مصادرة الدولة للدين وسيطرتها عليه واحتوائه وتوظيفه في استراتيجيتها الخاصة، ورفضها السماح لغيرها بمثل هذه الممارسة. فالدولة العربية الحديثة أصبحت ترى احتكار التفسير الديني جزءًا أساسيًا في شرعيتها، كما هو الحال بالنسبة لاحتكار مايسميه الاجتماعيون السياسيون العنف الشرعي»ص322، ومن ثم فإن الخلط الحاصل في تحديد العلاقة بين الدين والدولة «ناجم عن عدم فهم مسألة العلاقة هذه كتوزيع للسلطات، والنظر إليها من منظور التناقض بين قيم متنافية، قيم الدين (القديمة) وقيم الدولة (الحديثة)»ص331.

وهذا يجر إلى المعادلة التي يبني عليها برهان غليون تصوره لإشكالية علاقة الدين بالدولة، حيث يرى «أنه إذا كان الخطر الأول في نموذج سيطرة الدين على الدولة، واستهلاكه للسياسة في ذاته، أي إلغائها كنشاط اجتماعي متميز، هو فساد الدين نفسه، وتشويهه، وبالمناسبة فساد الهيئة الدينية ذاتها، والتاريخ الوسيط للكنيسة الأوربية هو التجسيد المباشر لذلك، فإن الخطر الرئيسي الذي يتعرض له نموذج سيطرة الدولة على الدين وإلغاء الاستقلال النسبي للسلطة والفكرة الدينية، يكمن أساسًا في فساد الدولة ذاتها»ص328. وذلك لأنه «بقدرما يقود وضع الدين في موضع السياسة إلى تحويل القيم الروحية والمثل الإيمانية إلى قيود على الحياة والجسد والمجتمع، ويخنق مبادرته العقلية، ومن ثم يتحول إلى عائق أمام نمو الحضارة، يقود وضع السياسة موضع الدين، أو تدميرها لوظيفته الأساسية، إلى حرمان المجتمع والفرد من فرصة الارتفاع على شرطه اليومي المادي، واندماجه الاجتماعي ويغذي، بالتالي، الميول الدنيوية والفردية واليومية على حساب المصالح العليا والجمعية، فهو يقوم بتفتيت المجتمع الذي لا يقوم استبداد بدونه»ص327.

وهكذا نستنتج أن فكرة العلمانية كما يحددها برهان غليون تتأسس على مبدأين:

الأول: تحقيق استقلالية السلطة الدينية عن السلطة السياسية العمومية، وعدم الخلط بينهما.

الثاني: تحديد دور كل واحدة من السلطتين انطلاقًا من طبيعتها الوظيفية التي تستقيها من مفهومها الخاص.

ومن هنا نقول: إن العلمانية التي يمثلها غليون لا تحمل معنى الفصل بين الدين والدولة بطريقة آلية كما جرت عليه العادة في أدبيات الفكر العلماني. وإنما تعمل على إقامة علاقة توفيقية بين كل منهما في حدود ما يمليه دور كل واحد منهما. وهذا يعكس توجهًا خاصًا يعد ردًا فعليًا على مايمكن تسميته بالاتجاه المتطرف في الدعوة العلمانية، وهو توجه أخذ يبرز مع تنامي ظاهرة الصحوة الإسلامية، ويتخذ موقفًا وسطًا في طرحه لإشكالية الدين والدولة لا يستبعد أن يكون مدخولاً من حيث أهدافه.

ثالثًا: الدولة الإسلامية

لا ريب أن المشروع الذي تحمله الحركة الإسلامية المعاصرة يتمثل أساسًا في سعيها الحثيث نحو إقامة الدولة الإسلامية وفق المحددات الشرعية، بغض النظر عن المنهج الذي تتبعه التيارات المكونة لها في تحقيق هذا الهدف. وبالطبع فإن هذا المشروع لا بدّ أن يكون قد وجهت له مجموعة من الانتقادات، بعضها غايته التصحيح والتقويم، وأكثرها قصده الهدم والتشويه. وهذا خاص بالتيارات العلمانية على اختلاف توجهاتها الفكرية (الأيديولوجية) من حيث تبنيها لما يمكن تسميته بالرؤية التجاوزية، إذ إنها تحاول تجاوز الخطاب الإسلامي في أصالته من أجل تأسيس خطاب مفارق للنص.

ونظرًا لما أثاره برهان غليون حول هذه القضية في ثنايا كتابه، فقد رأينا الوقوف عندها بشكل أو بآخر على أن نعود إلى مناقشة آرائه فيما بعد.

إن تناول هذه القضية كان من زاويتين أساسيتين: الأولى من خلال تحليله لعلاقة الإسلام بالدولة، والثانية انطلاقًا من نقده لمشروع الدولة الإسلامية كما تنادي به الحركات الإسلامية المعاصرة.

أ- الإسلام والدولة

تقوم معالجة غليون لمسألة العلاقة بين الإسلام والدولة على قراءة خاصة لتاريخ تشكل هذه العلاقة في إطار بحثه عن صيغة لها. فهو يؤكد - قبل كل شيء - أن الإسلام «لا يتضمن نظرية في الدولة والسلطة» رغم تضمنه لما يسميه «مطلبًا دولويًا» معللاً ذلك بالخلاف الذي وقع فيه المسلمون، وبزوال الخلافة ونهايتها التاريخية - ص124 -، رغم أن هذا التعليل نفسه يمكن أن يتخذه غيره حجة في إثبات مانفاه هو.

وبناء على هذه المقدمة النظرية؛ فإن الإسلام - في رأيه - لم يتجه في أية لحظة إلى الدعوة إلى تكوين الدولة، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان «يدعو المسلمين... إلى الاستعداد ليوم الآخر، وكان يطلب منهم تجنيد أنفسهم في سبيل الله لنشر دعوته والموت من أجلها، وليس لبناء سلطة لهم باسمه»ص54. وهذا يعني - فيما يعني - أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن في يوم من الأيام قائدًا له اهتمامات سياسية، ولم يكن يفكر في بناء دولة، وهذا لا يضيف شيئًا لما سبق إليه الشيخ علي عبدالرازق في كتابه «الإسلام وأصول الحكم» حين أعلن أن «محمدًا ماكان إلا رسولاً لدعوة دينية خالصة للدين، لا تشوبها نزعة ملك، ولا دعوة لدولة، وأنه صلى الله عليه وسلم لم يقم بتأسيس مملكة بالمعنى الذي يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها.... وما كان ملكًا ولا مؤسس دولة، ولا داعيًا إلى ملك»(5).

وإذا كنا نعتبر «الصحيفة» التي أصدرها الرسول صلى الله عليه وسلم في مقدمة الدلائل الكبرى التي تنفي ما زعمه برهان غليون وغيره، وتؤكد تفكيره صلى الله عليه وسلم في إنشاء كيان سياسي يجمع بين أفراد المجتمع الإسلامي على اختلاف أجناسهم ودياناتهم،

مؤثرات النظرية الماركسية تبدو واض

فإننا نصطدم برأي مخالف تمامًا، حيث يقول: «فوثيقة المدينة ترتبط ببلورة فكرة المسلمين أو المؤمنين كأمة من دون الناس، أكثر مما تشير إلى دولة، أو تؤكد سمات وخصائص سلطة سياسية»ص68.

وفيما يخص نشوء الدولة كمؤسسة قائمة بذاتها فهو مرتبط في أساسه بالصيرورة التاريخية للدعوة وحاجياتها، ومن ثم فهي نتيجة لظروف خاصة واكبت الدعوة وسايرت تطورها الزمني، وخصوصًا ظروف الفتح وما ترتب عنها من نتائج، وفي هذا يقول: «لقد ولدت الدولة في الفتح، ومن الفتح وما نجم عنه من مصالح. وأصبحت ضرورة له تاريخيا، وانتصرت على الخلافة نفسها بقدرما أصبحت هذه القوة عنصرًا حاسمًا في الإسلام التاريخي مقابل الإيمان الروحي والروح الجهادية... وفي النهاية لقد ولدت الدولة لأن النبوة، ليست حالة دائمة ولا غاية، ولا يمكن أن تكون إلا لحظة استثنائية في التاريخ؛ لحظة أنتجت أمة، ورمتها في لجة الصراع المصيري لتمتحن إرادتها وقدرتها على الاستمرار»ص79. ولعل مثل هذا التفسير الذي يربط بين نشوء الدولة في الإسلام و«المكاسب والمصالح والأملاك والأراضي التي جلبها الفتح وكاثرها النصر»ص84، متأثر كثيرًا بالنظرية الماركسية في هذا الباب. وهذا يؤكد أن فكرة الدولة طارئة على الإسلام وأنها ولدت بعد اختتام النبوة، باعتبار هذه الأخيرة - في رأي غليون - بمثابة حقبة فناء الدولة وغيابها، ومن ثم فإن ولادتها التاريخية لم تتهيأ إلا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم - ص 67 -، وبشكل أكثر دقة فقد ارتبطت هذه الولادة بما سمي في التاريخ الإسلامي بالفتنة الكبرى، إذ «بالرغم من تجمع عوامل الدولة عبر مسيرة الجهاد في سبيل الله، فإن الدولة لم تولد تلقائيًا من التقاء عناصر القوة المسلحة والشريعة والجماعة وتحولها الطبيعي من أدوات رسالة إلى أدوات سلطة... فقد ارتبط نشوؤها بأخطر أزمة عاشها الإسلام في كل تاريخه... ولم يحصل تقليص الإسلام لدولة إلا بعد حرب طاحنة أهلية اعتدنا أن نمر عليها بسرعة، وهي التي نسميها في تاريخنا بالفتنة الكبرى»ص73.

في تحليل المؤلف لنشوء الدولة الإسلامية

وهكذا فإن الإسلام في تصور غليون ورغم كونه قد أسس الدولة وأقام بناءها انطلاقًا من تفاعله مع الواقع التاريخي «لم يفكر... بالدولة، ولا كانت قضية إقامة الدولة من مشاغله، وإلا لما كان دينًا، ولما نجح في تكوين الدولة. لكن الدولة كانت دون شك، أحد منتجاته»ص58. ويبقى التعليل الوحيد الذي يراه لهذا الانتفاء الضمني لفكرة الدولة في الإسلام احتفاظه بجوهره كدعوة هادية للبشر، يقول: «لقد اهتم الإسلام مثل كل الأديان، ببناء الجماعة، أداته الإرشاد والهداية، أكثر مما اهتم ببناء الدولة التي جاءت كما رأينا، فيما بعد، كتتويج لقيام جماعة موحدة»ص90، وكأني به هنا يصدر عن الموقف نفسه الذي تبناه علي عبدالرازق حينما كتب أن الإسلام دعوة روحية لا علاقة لها بشؤون الحكم والتنظيم السياسي.. وعدا هذا يبدو جليًا أنه لم يستطع أن يتخلى عن المفهوم الغربي للدين في كونه رسالة إيمانية في حقيقته الجوهرية، فنراه يضفي المفهوم نفسه على الإسلام حيث يقول: «أما الإسلام فقد انطلق من موقف مشابه للموقف المسيحي الإنساني والعالمي، فجعل من الهداية إلى طريق الله، والدعوة لدينه والشهادة في سبيله رسالته الجوهرية»ص54، وعلى ذلك فكل مادون ذلك طارئ على الإسلام ولا يمكن اعتباره من صميم دعوته، وفي مقدمة ذلك «الدولة» دون شك.

وبهذا نخلص إلى أن أطروحة برهان غليون عن الدولة في الإسلام تنبني على قاعدتين: الأولى: أنّ الإسلام لم يبلور نظرية في الدولة ألبتة. والثانية: أن نشوء الدولة راجع إلى عوامل تاريخية مرتبطة في جذورها بالتحولات التى أحدثها الإسلام في المجتمع العربي. والنتيجة أن الدولة في عمومها فكرةً وتنظيمًا طارئة على الإسلام.

ب: مشروع الدولة الإسلامية

لا تكُفُّ بعض الأقلام عن وصف الدعوة إلى إقامة «الدولة الإسلامية» كما بلورتها الحركات الإسلامية المعاصرة بأنها مجرد شعار يرفع في سبيل تحقيق أهداف قد تكون غامضة في أغلب الأحيان غموض الشعار نفسه، كما هو الحال بالنسبة للدكتور رضوان السيد الذي يقول: «وأما الإسلاميون فإنهم يريدون في الحقيقة تطبيق الشريعة قطريًا ولا يستخدمون شعار الدولة الإسلامية إلا على سبيل الجدل والمماطلة»(6). وهنا نجد أن غليون لا يخرج عن هذه القاعدة، بحيث نجد هذا الوصف مبثوثًا في كتابه بكثافة.

يقدم غليون لمسألة «الدولة الإسلامية» انطلاقًا من الحكم على العبارة في ذاتها، فيقول: «وكلمة الدولة الإسلامية نفسها كلمة مبتدعة حديثة تعبر عن تأثر الفكر الإسلامي المعاصر الشديد بالفكر الحديث السائد»ص58. إذن فمحاكمة مشروع الدولة الإسلامية مبنية في مبدئها على تصوره للعلاقة بين الإسلام والدولة كما بيناه من قبل، ولذلك فما دام الإسلام في جوهره دينًا بمعنى الكلمة والدولة طارئة عليه، فإن الدعوة إلى قيام هذه الدولة تعد نظريًا مصادمة لروحه، ومن ثم فإن «الحديث عن دولة إسلامية بمثابة تقليص لرسالة الإسلام وتقليل مكانة الدين وتقصير لحدوده»ص62.

ولعل رفض مصطلح «الدولة الإسلامية» نابع في أساسه من المفهوم الذي يعطيه للدولة الإسلامية كما تشكلت تاريخيًا. يقول: «بالتأكيد، ليست إسلامية من حيث هي جهاز وبنية سياسية متميزة جاء بها الإسلام... وهي ليست إسلامية بمعنى أن السلطة معصومة وملهمة من قبل الله... وهي ليست إسلامية من حيث إنها تقوم بتطبيق أحكام العدل الإلهي... وهي ليست إسلامية بمعنى أنها تتطابق في بنيتها وأهدافها وطرق ممارستها للحكم مع نموذج أوصى به وأقره الدين»ص84، ومن ثم فهي «إسلامية فقط بمعنى أنها دولة المسلمين كجامعة سياسية»ص85، أو «دولة المجتمع الإسلامي التاريخي المعبرة عن مشكلاته وأزماته»ص88. ويمكن تفسير ذلك بأنه احتراز من الوقوع في مفهوم «الدولة الدينية» الكنسي، حتى إننا نجده قد عنون المبحث الذي خصصه للحديث عن الدولة الإسلامية على النحو التالي: «مأزق الدولة الدينية أو بين الشريعة والقانون».

وبصدد المعالجة النظرية لهذه القضية في ارتباطها بالحركة الإسلامية المعاصرة، فإنه لا ينسى تحديد الاستراتيجيات التي ينطوي عليها هذا الشعار كما يسميه، وهي: «إحياء التراث الإسلامي كمصدر لتثبيت الذاتية وتنميتها وتأصيلها، وإقامة السلطة الإسلامية، أي سيطرة الحزب الإسلامي، وبناء نظام الحكم الإسلامي كحل لأزمة السلطة الراهنة... وأخيرًا تطبيق الشريعة سياسة يختلف في غاياته وأهدافه عن النمط الراهن»ص354-355. وهي في الحقيقة - كما ينبغي تسميتها - أبدال غير قابلة للمناقشة، وإن كنا نرى أن برهان غليون - بحصره لها بهذه الصيغة - قد عمل على تقزيم مشروع الدولة الإسلامية بشكل مخلٍّ قد يدخله في أزمة حقيقية. وعلى كل حال فإن النقطة الأساسية التي تستلزم الوقوف عندها في هذا الإطار، هي مسألة تطبيق الشريعة، باعتبارها - كما يقول - «النقطة الوحيدة التي يقوم حولها اتفاق عام بين الإسلاميين فيما يتعلق بطبيعة الدولة الأسلامية»ص354. وأول مايطالعنا في هذا الصدد القول بغموض فكرتها كشعار على النحو الذي نجده عند رضوان السيد في قوله: «وشعار (الدولة الإسلامية) غامض غموض شعار (تطبيق الشريعة)»(7)، فيرى أن حكام المسلمين رغم التزامهم الشريعة الإسلامية بمعناها الفقهي فإن ذلك لم يكن يمنعهم من الأخذ بقوانين غير مستمدة مباشرة من الكتاب والسنة - ص358 -. والواضح فعلاً أن ثمة غموضًا، ولكن ليس في المفهوم ذاته؛ وإنما في ذهن غليون، ولعل هذا مايحمله على عقد موازنة بين مفهومي «الشريعة» و«القانون» خلصت به إلى ضرورة التمييز «بين الشريعة التي هي كتاب الله وإرادته، وهي التي تتوجه إلى الإنسان أفرادًا ومجتمعات، بصرف النظر عن ظروفهم وقومياتهم، كما

تخاطب الدول دون تمييز، وبين القانون الذي هو تحويل هذه الإرادة إلى وسيلة للحكم على الأرض، وأداة للدولة، ومن ثم، إلى نظريات ومعارف وأحكام مدنية محددة ومصوغة حسب حاجات الدولة والنظام الاجتماعي، وذلك منذ اللحظة التي تمر فيها عبر الاجتماع، ويعاد تفسيرها على ضوء الحاجات الاجتماعية والأوضاع والظروف التاريخية، فتصبح شيئًا مختلفًا كليًا عن الشرع الإلهي مهما كانت مطابقة له في الأحكام»ص367. وهنا يتبين أنه يفهم الشريعة بوصفها نصًا مقدسًا وعامًا لا يمكن تطبيقه بحرفيته، وأن القانون هو وحده القابل للتطبيق لكونه مرتبطًا بالواقع وإن لم يكن بعيدًا من أحكام الشريعة. وهذا يوحي بأن المسألة في عمومها مسألة مصطلح، أي إن الكاتب حريص على عدم إضفاء طابع مقدس على شعار «تطبيق الشريعة». وفي السياق نفسه أيضًا نراه يدعو مع الجرجاني - كما يقول - «إلى ضرورة تمييز الشريعة بوصفها دينًا منسوبًا إلى الله، أي نابعًا منه، وبين الشريعة بوصفها مذهبًا فقهيًا، واجتهادًا منسوبًا للمجتهد»ص368، مما يدعو إلى عدم نسبة الشريعة بمفهومها الفقهي إلى الله، ومن ثم إقصاء أي طابع تقديسي عنها، لأنها وإن كانت إلهية في مصدرها فإنها تبقى مجرد قانون عقلي واجتهاد بشري يعكس حاجيات المجتمع وظروفه؛ أي إنه قابل للتغيير بحسب الأحوال عكس الشرع الذي لا يملك تغييره إلا الله.

ومن خلال هذه المعادلة للتمييز بين «الشريعة» من حيث هي إرادة الله، و«القانون» بوصفه أداة زمنية وعقلية خاضعة للتعديل والتبديل، يصل إلى تقرير وظيفة الدولة الإسلامية، أو دولة المسلمين حسب تعبيره، وهي تنفيذ «الرأي والإجماع الذي يقره المسلمون مهما كان نوعه، والتفسير الغالبي الذي يقبلون به، في ظرف ما وفي حقبة ما، للمصالح العامة، التي يشكل ضمانها المقصد الأول للشريعة»ص369. أي إن الذي يحكم هو القانون الوضعي وليس الشريعة، لأن «ما يطبقه المجتمع هو قانونه، مهما كانت القيم التي يستلهمها هذا القانون، أما الله فهو القادر وحده على تطبيق شرعه»ص378.

وخلاصة القول: إن مسألة تطبيق الشريعة التي تمثل أحد مهام الدولة الإسلامية، في التصور الغليوني - كما يبدو - مرتبطة بشكل جدلي بالتصور العام الذي يصدر عنه في مسألة العلاقة بين الدين والدولة، ويتبين ذلك بوضوح من خلال المفارقة التي يقيمها بين القانون بطابعه المدني في الدولة، والشريعة المنسوبة أصلاً إلى الدين. ومن هنا فإن المطلوب هو تطبيق القانون كعمل بشري ودنيوي خاضع للعقل، ومن ثم للتغير والتطور، دون أن يعني ذلك تغييب الشريعة مادامت لا تتحقق إلا بتدعيمه كما يقول - ص373 -. وهذا كله إنما يوضح أن برهان غليون لم يستوعب بعد أن الشريعة بأحكامها هي قانون الدولة الإسلامية، وأن وجود هذه الدولة لا يتحقق إلا من خلال تطبيقها لهذه الشريعة.

خاتمة

بعد عرضنا لأهم عناصر إشكالية الدين والدولة عند برهان غليون في كتابه الذي بين أيدينا، لابد أن نقف في ختام هذه الدراسة لنقدم خلاصة يمكن من خلالها استنتاج أهم الأطروحات التي قدمها الكاتب لمعالجة هذه الإشكالية.

أولاً: إن إشكالية الدين والدولة، كما هي مطروحة في الكتاب، جاءت في صيغة قراءة خاصة لتاريخ الأديان، وتحليل علاقة الدين والدولة انطلاقًا من هذه القراءة، مع التركيز على الجانب السلبي للدولة، من حيث إعطاؤها مدلولاً سلطويًا طابعه القهر، لتمثل بذلك عنصرًا خطيرًا كلما أضيف إلى الدين، لأنها تؤدي إلى إخراجه عن جوهره وتسلبه حقيقته، ومن هنا تتبين أهمية عدم الخلط بين الديني والسياسي، باعتبار الأخير مصدر شر ينبغي تنزيه الدين عنه حتى لا يتطرق إليه الفساد.

وفيما يتعلق بموازنته بين الأديان التوحيدية في إطار علاقتها بالدولة، فقد جاءت بشكل طبيعي، دون اعتبار للاختلافات الجوهرية بينها، فلا يميز بين دين يحمل في داخله بذور رفض عنصر الدولة كالمسيحية، وبين دين آخر كالإسلام الذي قدم رؤية شاملة تجمع بين ما هو دين وما هو دولة، لا من حيث اعتبار الدولة معطى تاريخيًا له ظروفه وملابساته، وإنما من حيث المبدأ وارتكازًا على أصوله ومصادره الأساسية من الكتاب والسنة.

ومن هنا فقد جاءت المعالجة النظرية التي قدمها برهان غليون لإشكالية الدين والدولة قاصرة من حيث الأساس الذي ينبي عليه خلاصاته.

ثانيًا: إشكالية العلمانية جاءت في سياق التوظيف الغليوني، مطبوعة بالرؤية السابقة، فجاءت نتيجة لتحليل العلاقة بين الدين والدولة، ومثلت بذلك الحل الذي قدمه لهذه الإشكالية، حيث اقترح غليون نوعًا من التساكن بين عنصري الدين والدولة لا يصل إلى حد الاندماج كما هو عليه في الطرح الإسلامي؛ وإنما هو أقرب إلى الفصل منه إلى ضده، والواقع أن هذا التساكن لابد أن يؤدي إلى الفصل بوجه أو بآخر إذا وضع في إطار إسلامي؛ إذ إن طبيعة الإسلام، ترفض بشكل قاطع وجود علاقة بين الدين والدولة على الشكل الذي يطرحه غليون؛ إذ سيؤدي إلى تغليب أحد العنصرين، مما ينتج عنه صراع، ومن ثم تكون القطيعة حتمية. وعلى كل حال فإن العلمانية التي يتبناها غليون لا تستطيع - رغم ما يطبعها من اعتدال وتوسط - أن تعطي حلاً للإشكالية كما هي مطروحة داخل الفكر العلماني بمختلف تياراته، حيث ستبقى العلاقة بين الدين والدولة علاقة توتر وصراع مادام الطرح الذي تصاغ داخله بعيدًا من المنهج الإسلامي.

ثالثًا: قضية الدولة في الإسلام أو الدولة الإسلامية، هي التي مثلت بالنسبة لبرهان غليون بؤرة السقوط الكبرى التي كشفت عن جانب من التخبط الفكري لديه، وذلك من ناحيتين: الأولى: تتعلق بعلاقة الإسلام بالدولة وتتلخص في اعتبار الإسلام دينًا علمانيًا من حيث إنه لم يفكر في الدولة ولم يجعلها من أهدافه ولم يتحدث عنها، وإن تأسيسه للدولة مرتبط بعوامل خارجة عنه، وهنا نرى تمييزًا غريبًا بين الإسلام بوصفه دينا أو عقيدة ورسالة؛ أي «الإسلام الديني» بتعبير غليون، وبين مايسميه «الإسلام التاريخي» باعتباره هو الذي أنتج الدولة في ظل تحولات عميقة مرَّ بها وتمخضات عرفها وأزمات عاشها!

أما الناحية الثانية فتخص نشوء الدولة، أو ولادتها - بتعبير غليون - والمؤكد أن مؤثرات النظرية الماركسية لاصقة بها، وذلك من خلال ربط هذه الولادة بالصراع الذي واكب «الفتنة الكبرى»، وهو صراع وإن لم يقل بأنه من النوع الطبقي، فإنه مثَّل بؤرة التحول نحو الدولة في ظل التراكمات المادية وظروف الاغتناء التي صاحبت الفتوحات، والتي شكلت مدار الصراع، إن لم نقل إنها سبب الفتنة حسب التحليل الغليوني؛ فلا ريب أننا نجد ظلال التصور الماركسي للدولة ونشوئها ماثلة أمامنا في طيات هذا التحليل.

إن الخلاصة العامة التي يمكن أن نخرج بها انطلاقًا من تفكيك الخطاب الذي قدمه برهان غليون في كتاب «نقد السياسة: الدولة والدين»، أنه حاول أن يطبع إشكالية الدين والدولة بطابع علماني مختلف لا يستطيع - مع ذلك - أن يصمد أمام حقائق الإسلام. وبكلمة فإن غليون ينتمي إلى تيار معتدل نسبيًا داخل الفكر العلماني، مما يمكن أن نسميه «العلمانية الإصلاحية» التي تحاول إقامة مصالحة بين الدين والدولة من طريق التسليم بمبدأ التساكن الحتمي بينهما عوض عن الصراع.

الهوامش:

1- د. برهان غليون: «نقد السياسة: الدولة والدين»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1991م، ط1.

2- د. برهان غليون: «المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات»، دار الطليعة، بيروت1979م، ص82، هامش رقم2.

3- الفضل شلق: «مفهوم العلمانية»، مجلة «فكر»، العدد 4، ديسمبر1984م.

4- د. حسن حنفي: «التراث والتجديد»، دار التنوير، بيروت1981م، ط1، ص155.

5- علي عبدالرازق: «الإسلام وأصول الحكم»، دار مكتبة الحياة، بيروت 1978م، ص136.

6- د. رضوان السيد: «الإسلام والسلطة السياسية»، مجلة «رسالة الجهاد»، العدد 88، مايو1990م، ص43.

7- د. رضوان السيد: «الشريعة والأمة والدولة»، ضمن كتاب: «إشكاليات الفكر الإسلامي المعاصر»، مركز دراسات العالم الإسلامي - مالطا1991م، ط1، ص20..

طفل هذا الزمان!

د. محمد عبدالعزيز الموافي

يقصد بهذا العنوان شيوع الرمز بلفظ "الطفل" لدى الشعراء المعاصرين، واتخاذه - مع غيره من الرموز - وسيلة إيحائية لتصوير المشاعر الخفية الغامضة في الأغوار السحيقة للنفس البشرية.

والرمز الشعري يختلف عن الرمزية، لأن هذه مدرسة فنية أعقبت "الرومانسية" واهتمت اهتماماً واضحاً بالوظيفة الإيحائية لموسيقى الشعر، وقدرتها على الإيحاء بما يستعصي على اللفظ بالتعبير عنه. وهي في ذلك كله منطلقة من فكرة شبيهة بالفكرة الخطيرة التي لمسها ابن عبد ربه لمساً خاطفاً، ثم تجاوزها بسرعة من يتبرأ منها، ويخشى من نسبتها إليه! فصدَّر قوله بـ "الزعم" المنسوب إلى غيره: «زعمت الفلاسفة أن الموسيقى فضلٌ بقي من المنطق، لم يقدر اللسان على استخراجه بالألفاظ، فاستخرجته الطبيعة بالألحان.. على الترجيع، لا التقطيع..!».

وعلى العكس من ذلك، نضجت تلك البذرة على يدي المدرسة الرمزية، حيث اهتم أتباعها بموسيقى الشعر، وطاقاتها الإيحائية الثرَّة، التي تحلق بهم في العالم المثالي؛ لأنها تُعبِّر- بأقل قدر من النقصان- عن الوجد الفني، وبأعذب الأصوات! على حد قول "بودلير" الذي أولع بالموسيقى الخالصة لدى "ريتشارد فاجنر"، وكتب عنها أكثر من دراسة.

وتوالى اهتمام الرمزيين بالموسيقى في الشعر، «الموسيقى قبل كل شيء..الموسيقى مرة أخرى ودائماً..» كما يقول "فرلين". وربما ضاعف من اهتمامهم هذا بالموسيقى أنها دعمت موقفهم المذهبي من «وظيفة الشعر» لديهم؛ حيث رأوا أن مهمته نقل الإحساس-أو وقع الأشياء على الوجدان- من نفس إلى نفس. فالشعر عدوى ونقل حالات نفسية، وليس تجسيماً ولا نقل معان أو صور(1). كما أكدت اهتمامهم الفائق بلغة الشعر أو "كيمياء" الكلمات. فقد ابتعدوا عن فكرة "المحاكاة" التي رأوا فيها خضوعاً للواقع، على حين أن الشعر عندهم يخلق عالماً منافساً له! وهو يُكتب من أجل ذاته بلغة سحرية خاصة تستخدم «كيمياء الكلمة» على حد تعبير «رامبو»، فتحوِّل الكلمة داخل القصيدة عن معناها المألوف كما تتحول المواد في تفاعلها الكيماوي. ووسيلتها الصور التي ترمز لأحوال نفسية، وتنطلق من نبع الإحساس، حيث لا توجد فواصل بين الحواس المختلفة "فيتراسل" بعضها مع بعض. ثم تأتي الموسيقى فتؤلف بعض أصوات الكلمات التي تتحرر من معانيها، وتكتسب فاعلية الموسيقى المجردة التي لا يمكن ترجمتها إلى كلام عادي(2).

مفهوم الرمز الشعري

والشاعر الرمزي ينظر إلى المحسوسات الخارجية على أنها غابات من الرموز لعالم آخر غير عالم الأشكال والوظائف.. عالم يجده الشاعر في أعماقه، وعليه أن يخلقه بالكلمات! ويمكن القول إن الرمزية امتداد أكثر عمقاً وصلابة للابتداعية التى أرهص بعض أعلامها - شلي، وكيتس، وشاتوبريان - بالرمزية. كذلك كانت السيريالية (فوق الواقعية) امتداداً للرمزية، تجاوز موقف إعادة تشكيل الواقع في إطار القصيدة، إلى موقف تحرير العقل لمناجزة الواقع؛ فهي "السيريالية" في الفن والسياسة في وقت معاً! وإن كان يؤخذ عليها شيء من التناقض؛ لأنها تصطنع بوساطة العقل حالة منافية للعقل!(3).

الرمز الشعري، في أبسط مفهوم له، هو إشارة حسية لشيء معنوي، وركناه الأساسيان: المرموز به والمرموز إليه، ولا يمكن الاستغناء بأحدهما عن الآخر.

وها نحن أولاء نحاول أن نقرأ قصيدتين اتخذتا رمزا واحدا للتعبير عن تجربتين مختلفتين:

«طفل»
نازك الملائكة

أفسحوا الدرب له، للقادم الصافي الشعورِ
للغلام المرهف السابح في بحرٍ أريجِ
ذي الجبين الأبيض السارق أسرار الثلوجِ
إنه جاء إلينا عابراً خصب المرورِ
إنه أهدأ من ماء الغديرِ
فاحذروا أن تجرحوه بالضجيجِ
إنه ذاك الغلامُ الدائمُ الحزنِ الخجولْ
ساكنُ الأمسيّة الغرقى بأحزان خفيةْ
والزوايا الغيهبيات السكون الشفقيةْ
أبداً يجرحه النوحَ، ويُضنيه العويلْ
فليكن من صمتنا ظلٌ ظليلْ
يتلقاه، وأحضان خفيةْ
وهو يحيا في الدموع الخرس في بعض العيونْ
وله كوخٌ خفيٌ، شيد في عمقٍ سحيق
ضائعٌ يعرفه الباكونَ في صمتٍ عميق
وسدى يبحث عنه الألم الخشنُ الرنين
إنه يقتات أسرار السكونْ
وأسى مختبئاً خلف العروقْ
نحن هيأنا له حباً، وتقديساً، ونجوى
وتهيأنا للقياهُ..عيوناً، وشفاهاً
وسنهديه انفجارَ الأدمع العذبة سلوى
وسنحبوهُ أسىٍ أقوى.. وأقوى
وسنعطيه عيوناً، وجباها
إنه أجمل من أفراحنا، من كل حبٍ
إنه زنبقة، ألقى بها الموت إلينا
لم تزل دافئةً ترعش في شوق يدينا
وسنعطيها مكاناً عطراً في كل قلبِ

«طفل»
صلاح عبدالصبور

قولي.. أمات؟!
جسيه.. جُسي وجنتيه
هذا البريقْ
مازال ومضٌ منه يفرش مقلتيهْ
هذي أصابعه النحيلةْ
هذي جدائله الطويلة
أنفاسه المترددات بصدره الورديّ كالنغم الأخير
من عازف وفد النُعاس عليه في الليل الأخير
وتلك جبهته النبيلةْ
بيضاءُ يلمع فوق موجتها الزبدْ
قولي..أمات
وأنا غدوت بلا أحدْ؟!
وسألتني.. ما الوقتُ، هل دلف المساء؟
- أتذهبين؟
ولِمَ نُطيلُ عذابهُ حتى الصباح
لن يرجعَ الصبحُ الحياةَ إليه،
ما جدوى الصباح؟
ومَضَ الشعاعُ بعينه الهدباء ومضته الأخيرة
ثم احترق
ورأيت شيئاً من تراب الوجنتين
رباه: فوق الصدر، فوق الساعدين
والعازف المغلوب نامْ، ومات في الصمت الكبير
نغمٌ أخير
وسألت.. مات؟ أجل سأبكيه،
سنبكيه معاً
ووجمْتِ، لا الجفن اختلجْ
ونهضتِ، ثم فتحت هذا الباب في صمت ملول
ونظرت خلف البابَ تلتمسين سُلّمة النزول
ووقفت، ثم رجعت في عينيك شيء من وهج
كي تلمسيه
أو تغمضي عينيه أو تتأمليه
لا تلمسيه!
هذا الصبي ابنُ السنينَ الداميات العاريات من الفرح
هو فرحتي،
لا تلمسيه!
أسكنتُه صدري فنام
وسَدُتُهُ قلبي الكسير
وسقيت مدفنه دمي
وجعلتُ حائطه الضلوع
وأثرتُ من هُدبي الشموعْ
ليزوره عمري الظَّمِي

ليس طفلا حقيقيا!

من الواضح أن "نازك" لا تقصد إخفاء المرموز إليه والاكتفاء بالمرموز به "الطفل". نحن هنا أمام "كل" غير قابل للتجزئة، يفنى فيه الحسيّ في المجرد. وبحدوث هذا الامتزاج يكون الرمز.

بدأت القصيدة بتصوير المرموز به/الطفل، فهو «صافي الشعور، مرهف، سابح في بحرٍ أريجٍ، ذي الجبين الأبيض، السارق أسرار الثلوج!».

وهذا التصوير يوحي بأننا أمام طفل غير عاديّ، أوْ لسنا أمام طفل حقيقي على الإطلاق!.

وبالفعل يتطور هذا الطفل شيئاً فشيئاً ليمتزج بالمرموز إليه، فهو «خصب المرور، أهدأ من ماء الغدير، يجرحه الضجيج، خجول، دائم الحزن». إنه حزن وليس طفلاً فقط، أو إنه طفل/ حزن! إنها ترمز لتوحي بما يندّ عن التحديد من مشاعر العالم الداخلي للإنسان. فالرمز الشعري هنا لا يشير إلى شيء محدد؛ بل يوحي بحالة تجريدية غامضة، ومن ثم يختلف النقاد في فهمه، على حين يتفق الجميع على فهم الرمز اللغوي، لأن دلالته اتفاقية(4) بعكس الرمز الشعري الذي تنمو دلالته من داخله، كما يبدأ من الواقع المادي ليحوله إلى واقع شعوري يستعصي على التحديد الصارم؛ فلا يمكن ترجمته بتقديم مقابل دقيق له، وإنما يمكن فهمه بالتقاط إيحاءاته(5).

إن المرموز إليه "الحزن" يسود ويسيطر من خلال تلك الصور الرهيفة التى افتنت "نازك" في رسمها:

ساكن الأمسيّة الغرقي بأحزان خفيّةْ
والزوايا الغيهبيات السكون الشفقيةْ
أبداً يجرحه النوح، ويضنيه العويلْ
فليكن من صمتنا ظلٌ ظليلْ
يتلقَّاه، وأحضان خفَيَّةْ

لكنه يظل «حزن /خاص...حزن/طفل»؛ فالإحساس الغامض العميق بالحزن يسكن «أمسية غرقى بأحزان خفية، وزوايا غيهبيات السكون شفقية». لقد ذابت الحدود المميزة للأشياء، فاختلط الزمان بالمكان. وأي زمان؟ أمسية غرقى! ليس في بحر وإنما في أحزان خفية، بل شديدة الخفاء! تسترها ظلمات بعضها فوق بعض «زوايا غيهبيّات». إن هذا الحزن العميق الوديع يقبع هناك بعيداً، في أعمق أعماق النفس.. في بؤرة تكثف كل ظلال الشجى والشجن الغامض الفريد، الذي سيطر على الشاعرة عقب وفاة أمها/صديقتها «فالتقطت رمزاً مادياً: "الطفل"، وظلت تجرده من ماديته ليتحول إلى واقع نفسي يند عن التحديد، لانستطيع أن نقول إنه شيء آخر غير ماقالته الشاعرة!»(6).

إن حزنها لهو حزن جليل رهيف وديع "يجرحه النوح ويضنيه العويل"، وهو ما يتطلب الاحتشاد لحسن التعامل معه، والتسامي إليه في أفقه السامق بخطى تمشي الهُوَيْنا، صامتة خاشعة، تُظل هذا الحزن/ الطفل بظل ظليل وتلقاه بأحضان خفية:

وهو يحيا في الدموع الخُرس في بعض العيون
وله كوخ خفيٌ شيد في عمق سحيق!
ضائع يعرفه الباكون في صمت عميق!

إنه يكره الضجيج والصراخ "يحيا في الدموع الخُرس".. ما أعمقه وأفظعه وأروعه من حزن! فلم يكن رفع الصوت أبداً دليلاً على عمق الحزن. وربما لو تأملنا جماعة محزونة لوجدنا أشدهم جزعاً هو أقلّهم دموعاً وأخفضهم صوتاً!

يتطور الرمز بعد إبراز الجلال والوداعة والعمق والهدوء ليصبح الحزن/الطفل صديقا تحنو عليه وتهش لمقدمه، وتحث الجميع على عدم تنغيص هدوئه، وعلى استقباله بما يليق به من الأسى الجليل الصامت والدموع الساكنة العذبة:

نحن هيأنا له حبا، وتقديسا، ونجوى
وتهيأنا للقياه، عيونا، وشفاها
وسنهديه انفجار الأدمع العذبة سلوى
وسنحبوه أسى أقوى وأقوى!

إنه لقاء نادر تصل خطواته إلى مرحلة المقدس من الشعائر العقدية! إن الطفل لم يتحول إلى حزن عادي، بل إلى حزن هو أجمل من كل حب. وهنا يتوافر الحس «الرومانسي» لدى الشاعرة فتستخدم المعجم الأثير لدى أصحابه، فالطفل/ الحزن صار «زنبقة» نضيرة حبانا بها الموت. وعلى الفور تستدعي هذه الزنبقة الحزينة: الفراشة المحتضرة، والزهرة الذابلة والمساء الحزين، والخريف القاسي والملاح التائه، وغيرها من تلك التعبيرات الموحية التي هام بها الابتداعيون العاطفيون الذين عرفوا بـ «جماعة أبوللو». تقول الشاعرة:

إنه زنبقة، ألقي بها الموت إلينا
لم تزل دافئة ترعشُ في شوق يدينا

وهكذا ظل الرمز ينمو من خلال تفاعل خلاق بين طرفيه: يندمجان أو يبرز أحدهما. لكنه في كل الأحوال لايمكن الاستغناء عن أحدهما في الإحساس بهذا الشعور الغامض لدى الشاعرة، والذي لايمكن أن يعبر عنه بغير ما عبرت هي عنه. وإذن فدلالة الرمز دلالة داخلية غير قابلة للانفكاك في هذه القصيدة فقط، أما خارجها فلا ارتباط بين المرموز به والمرموز إليه، بل لا رمز موجود أصلاً. وهذا يعني أن الارتباط بين الرمز ومدلوله ليس ارتباطًا مطلقًا، وإلا لما أصبح رمزًا شعريًا. وقد كانت محاولة بعض الشعراء إطلاق هذا الارتباط وتأبيده إحدى المزالق التي أخذها النقاد عليهم(7).

طفل ليس من البشر

وقصيدة صلاح عبدالصبور تقطع بعدم الارتباط المطلق بين رمز معين ومدلول معين؛ لأن الطفل/الحزن لدى نازك صار هنا شيئا آخر، علينا الآن أن نتابعه ونلحظ نماءه ونضجه من داخل القصيدة، ومن خلال التفاعل الخلاق بين طرفي الرمز ليصبح «الطفل» هنا غير الطفل هناك:

قولي.. أماتٍ؟!
جسيه.. جسّي وجنتيهْ
هذا البَريق
مازال ومض منه يفرش مقلتيهْ
هذي أصابعه النحيلة
هذي جدائله الطويلهْ

ها نحن أولاء أمام طفل حقيقي يُحتضر، ويريد الشاعر أن يتأكد من حقيقة الموقف فيطلب من «الأخرى» - زوجة أو حبيبة - أن تتحسّس وجنتيه، وأن تلاحظ ومض العينين وحركتهما. إنه طفل ذو أصابع نحيلة، وشعر طويل، وجبهة ناصعة البياض.

لكنا نلحظ خلال الاستغراق في تصوير الطفل مجيء بعض الصور التي تخرج به عن مجال «البشرية»، وتجعلنا نحدس أننا أمام طفل غير عادي؛ فأنفاسه وهو يُحتضَر تتردد «بصدره الورديّ كالنغم الأخير... من عازف وفد النعاس عليه في الليل الأخير». نحن أمام شيء ينتهي بشبيه بهذا الطفل الذي يُحتضر. نحن أمام حب/طفل يموت!

بعد تلك الإشارة الموحية بالمرموز إليه: الحب، يعود الشاعر إلى المرموز به: الطفل:

قولي.. أمات
وأنا غدوت بلا أحدْ؟!

ويظل التفاعل حيًا وعميقًا بين الطرفين، وينحو الشاعر منحى دراميا من خلال حوار متضمّن بينه وبين المحبوبة يبرز ترددها في إنهاء العلاقة أمام عزمه الواهن على الإجهاز عليها! وهنا تذوب الحدود إلى حد ما بين طرفي الرمز؛ فالطفل المحتضر يذوب في الحب الغارب:

وسألتني.. ما الوقتُ، هل دلف المساء؟
- أتذهبِين؟
ولِمَ نطيل عذابه حتى الصباح؟!

وهو هنا يوظف علامات الترقيم توظيفا موفقا، كتلك النقاط المتجاورة التي تشير إلى كلام كثير غير ذي جدوى. مهدت به المحبوبة لسؤال غير ذي معنى، لكنه في الوقت ذاته يبرز حالة التردد والأسى والبطء والتثاقل التي تكسو الموقف.

ثم يُومض الشعاع ومضته الأخيرة بعين «الطفل» فيرى الشاعر المحب شيئا من ترابه، أو بقية من بقاياه:

والعازف المغلوب نام، ومات في الصمت الكبير
نغمٌ أخير

وتعود الحبيبة للسؤال عن موت الحب/الطفل، فيقطع لها بموته وحسرته عليه ويضنّ عليها بالمشاركة في تشييعه إلى نهايته، ويحول بينها وبين القرب منه وإنعام النظر إليه، فهو أنقى وأطهر من أن تدنسه كفٌّ لم تحفظ له حرمته:

لاتلمسيه
هذا الصبي ابن السنين الداميات العاريات من الفرح
هو فرحتي،
لا تلمسيه
أسكنته صدري فنام
وسدُته قلبي الكبير
وسقيتُ مدفنَه دمي
وجعلت حائطه الضلوع
وأنرتُ من هُدْبي الشموعْ
ليزوره عمري الظّمي

إن الشاعر المحب يتمزق في هذا المقطع، ويحاول أن يصفّي مشهد النهاية الدامية الحزينة بالنقيض الذي يجد فيه نوعا من السلوى. وهنا يصل الرمز إلى قمته، والتأثير إلى أقصى غاياته! ويتوارى الطفل ويبرز الحب الآفل الذي يحاول المحب أن يستبقيه في سويداء قلبه، لأنه حي لم يمت .. إنها سنَة من النوم.. يهبّ بعدها خفيفًا أليفا «أسكنته صدريَ فنام!»

وهكذا نجح كل من نازك الملائكة وصلاح عبدالصبور في استخدام الرمز لتصوير تجربته. وكوّن كل منهما «طفله» الخاص للإيحاء بالمشاعر المسيطرة على وجدانه.

ويمكن لغيرهما أن يستخدم الرمز ذاته في تصوير تجربة أخرى. وهذا يؤكد ما سبقت الإشارة إليه من أن دلالة الرمز الأدبي دلالة داخلية تنبع من العمل الأدبي. فها هو ذا صلاح عبدالصبور في قصيدة أخرى يرمز بالطفل للحب القديم الذي مازال متقدا في الأعماق، صامداً للعواصف والأنواء.

ومن ثم فقد انبعث بمجرد أن اشتاق الحبيبان إلى «طفل وديع.. نحن لم ننس، ولكن طول الجرح يغري بالتناسي»؛ فالطفل هنا يحمل دلالة رمزية جديدة، تجسد تلك الفرحة الغامرة التي أحسها الحبيبان بعودة طفلهما/حبهما الغائب:

طفلنا الأولُ قد عاد إلينا
بعد أن تاه عن البيت سنينا
عاد خجلانَ.. حيِيًا.. وحزينا
وبكي لما بكينا في يديْه
وارتمى بين ذراعينا، وأغفى مطمئنًا وغفونا
واستدرنا حوله
شفقًا أسمرَ من حول هلال نائم في مقلتينا
خزنتْكَ النعمة الكبرى لنا
لتروّي مغربَ العمر لشَيْخَيْك هنا!

الهوامش:

1- لم نقصد أكثر من الإشارة السريعة لتلك المدرسة التي قد تختلط بالرمز الشعري. لمزيد من التفصيل، انظر: الرمزية في الأدب العربي: أنطون غطاس. الرمز والرمزية في الشعر العربي الحديث: د. فتوح أحمد. فن الشعر: د. إحسان عباس. عن بناء القصيدة العربية الحديثة: د. علي عشري زايد.

2- المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين: د. شكري عياد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، سبتمبر 1993م. ص197.

3- السابق نفسه.

4- عن بناء القصيدة العربية الحديثة: علي عشري زايد. ط3، مكتبة دار العلوم، القاهرة1979. ص112.

5- السابق ص113.

6- السابق نفسه.

7- عن بناء القصيدة العربيةالحديثة، ص117.

8- ديوانه، دار العودة، بيروت 1983ص133.

ملامح الرؤية الثقافية في تجربة حسن فتحي المعمارية

د. محسن خضر

تحاول هذه المداخلة استخلاص ملامح الرؤية الثقافية في تجربة شيخ المعماريين العرب المهندس حسن فتحي.

وتكمن صعوبة المحاولة في خصوصية التجربة، فكيف نستخلص الدلالات الفلسفية والمقولات الفكرية من تجربة معمارية: جدران وأبواب وأسقف ونوافذ؟ وبعبارة أخرى: كيف نستخلص من الحجر فكرًا؟

ولكن ما يثري المحاولة هو أهمية تجربة حسن فتحي في تاريخنا المعاصر، الذي لم يثر غيره الجدل نفسه وخاصة منذ أربعينيات هذا القرن، ونؤكد أن فكر الرجل يشكل نسقًا متكاملاً أو منظومة فكرية متكاملة، تحملها مجموعة من المقولات والمنطلقات، نستطيع - بشيء من الجهد - استخلاص أهم معالمها وخاصة حول قضايا الهوية، والتثاقف، والاستعانة الحضارية، والإشكالية الثقافية، والأنا والآخر، والطارئ والجوهري...الخ.

وربما أتاحت منجزات حسن فتحي المعمارية الممتدة، وحياته الطويلة التي قاربت التسعين، وخصوصية تجربته وغناها أن ندرس هذه التجربة ونقوّمها، وخاصة أن الرجل قدم إنجازه الأكبر في قرية (القرنة) بجنوب مصر في أواخر الأربعينيات، والتي عدها المعماريون واحدة من أهم المعالم المعمارية في العالم الثالث.

البناء للفقراء

تظل القيمة الكبرى في تجربة حسن فتحي صلتها بالبناء للفقراء والجموع من خلال استخدام خامات رخيصة متوافرة بالبيئة وخاصة الطين، والتركيز على البناء التعاوني أو التشاركي بين السكان، وتأكيد ملامح الجمالية المتوازنة في البناء سواء الفرعونية أو النوبية أو العربية الإسلامية.

ولا يقلل من خصوصية تجربته - التي لم ندرسها بعمق حتى الآن - أن إمكاناته النظرية والفكرية تظل أوسع من حدود التطبيق والممارسة، وأن الفضاء المعماري لنظريته في البناء يظل أرحب من واقع الإنجاز الملموس.

فما تثيره أفكاره من رؤى، وما تحمله من قيم، وما تعبر عنه، هو رسالةٌ إنسانية بالدرجة الأولى، إلى جانب أن الخصائص الفنية والاقتصادية والجمالية تشكل معينًا لا ينضب مفتوحًا على المستقبل ومتجددًا.

إنه فكر يحترم مجتمعه، ويستوحي إنسانه ويستلهم تجربته المعيشة في تصميم خطوطه. فكر يتقدم زماننا، ويتقدم على ما أنجزه في أرض الواقع نفسه، وهذا سر أهميته وتفرده.

والمفارقة الأخرى أنه بينما حارب أفكار الرجل وتجاربه حكام المكاتب (البيروقراطيون) والمهندسون؛ فإن المستفيدين منها من الفلاحين قد خذلوها بسبب الجهل والرغبة في الكسب السهل، وضيق الأفق، بينما كان الأغنياء، داخل مصر وخارجها، هم الأكثر تحمسًا لأفكاره وتطبيقًا لها في الواقع؛ إذ تقدم تجربته - في جانبها الثقافي والحضاري - مساهمة خلاقة في الجدل الدائر حول الذاتية الثقافية العربية، ومحاربة التغريب في العمارة.

ومفردات تجربة حسن فتحي الفنية هي البيئة، البشر، الخالق، الجماعة، الطمي، الاستقلال، التناغم. وهي تجربة تفتح الباب واسعا أمام الإبداع المحلي للذات، يقول في هذا المعنى عبارة ذات دلالة: «إن العالم في أي لحظة إنما هو صفحة بيضاء

في انتظار قلمنا، والفراغ الشاغر قد يتم شغله بمعبد أو بكوم من خبث».

ملامح مدرسته المعمارية

العمارة عند حسن فتحي هي المساحة المحدودة بين الجدران، وليست الجدران نفسها، وهذا يعني أن الأبعاد النفسية والاجتماعية والثقافية لشاغل المكان هي الأساس في صياغة حساباته.

يلخص رؤيته الفنية في نصيحة يوجهها للمهندسين الشبان:

«إن الطريق أمامكم طويل. عليكم بالثقافة فهي من الأمور المهمة، وانظروا حولكم في البيئة التي تحيط بكم، ادرسوها وتعلموا منها ولا تضيفوا إليها ما يشوه جمالها. إن ما يلائم الريف لا يلائم الحضر، ولا يلائم المنطقة الصحراوية، وإن انتقال فن معماري من بيئة إلى بيئة أخرى غريبة عنها يجب أن يرفضه الشعب لأنه يقطع ما بينه وما بين تراثه، ويؤدي إلى حالة من الازدواجية الشخصية، ويفقد الإنسان هويته الخاصة، ويشوه بالغربة بيئته، والغربة في البيئة هي أبشع أنواع الغربة».

وازن رأيه السابق برأي معماري عالمي شهير هو خوزيه لويس سيرت، وهو من الرواد المعماريين الذين أدخلوا الوعي الاجتماعي ومفاهيم التعاون الفني إلى الممارسة المعمارية، والحائز على الوسام الذهبي للمنظمة الأمريكية للمعماريين، وعميد الدراسات العليا في التصميم بهارفارد، يقول: «العمارة - من وجهة نظري - تُعنى بصورة رئيسة بالتكييف المكاني من أجل الاستعمال الأفضل للأحيزة والتمتع بها من قبل الناس، وأعني بالمنفعة نوعية روحية من العمارة، شيئا يتجاوز المتطلبات المادية كافة.

فالعمارة ليست واجهات، إنها مسألة خلق تركيبة عضوية توفر عيشًا أفضل بمعايير أكثر عملية وأكثر راحة وأكثر مواكبة لزمنه».

يحتل بناء قرية القرنة بالأقصر أهمية خاصة في تجربة حسن فتحي، لأنها أول مثال لمطابقة فن العمارة للبيئة، بناها من الحجر والطَّمْي (فصيحه: الغَرين)، وحصل بها على جائزة الدولة، ودرستها جامعات العالم بوصفها النموذج الأمثل لاستخدام الخامات المحلية في البناء، وقد كررها في تجربة واحة باريس، وكانت خامة البناء واحدة: الطوب اللبن والطَّفْلة (طين أصفر معروف في مصر)، ونفذ الأسقف بطريقة القباب، وعمل المصاطب مغطاة بالفخار المطلي. وأبقى المصطبة التي تتحول ليلا إلى سرير بلا حشرات موفرًا الحيز الذي يشغله السرير.

وقد أغرق الأهالي القرنة ثلاث مرات لأنها تعارضت مع رغبتهم في السكن في منطقة القرنة القديمة حيث المقابر الفرعونية التي يعيشون على سرقة محتوياتها والتجارة فيها.

يعشق حسن فتحي طريقة القبوات؛ أي عمارة الأحجار والأسقف المقوّسة أو المقببة، كما يستخدم وسائل بسيطة للتهوية بدل الطرق الحديثة في تكييف الهواء داخل القاعات الداخلية.

وتشكل مادة الطين بعدًا أساسيًا في أسلوبه الفني.. ومقولته: «انظروا طين الأرض تحت أقدامكم ثم ابنوا» طرحها بشكل جدي في عمارته، وبما أن مادة الطين تُصنع محليًا فهي لا تحتاج إلى تكاليف نقل، كما لا تؤدي إلى تلوث الطبيعة، إلى جانب البعد الروحي لمادة الطين بالنسبة للإنسان.

كما يستعمل المشربية في نوافذ بيوته، ويحافظ على الطابع والتقاليد الإسلامية الأصيلة في البناء.

وهو يدعو في عمارته إلى أن يبني الإنسان منزله بنفسه، داعيًا إلى تشارك السكان في بناء منازلهم بالتوالي، ولابد من إعطاء الناس الفرصة لاستخدام المواد الأولية للبيئة.. يقول في هذا المعنى: «ليس عليك أن تبني بيتًا مثلما ليس عليك أن تبني لطيور الجو أعشاشها، ولو أعطيت الإنسان نصف فرصة فإنه سيحل الجزء الذي يخصه من مشكلة الإسكان دون عون من المهندسين المعماريين، والمقاولين، والمخططين. وبدلاً من مهندس، فإن كل عائلة ستبني بيتها الخاص بها حسب متطلباتها الخاصة بها بصورة أفضل إلى حد كبير مما تستطيعه قط أي سلطة حكومية. فإن تشوق كل فرد إلى بيت، ولهفته لأن يبني بيتًا بنفسه، فيهما البديل لخطط كوارث الإسكان بالجملة التي تقوم بها حكومات كثيرة» عمارة الفقراء، ص57.

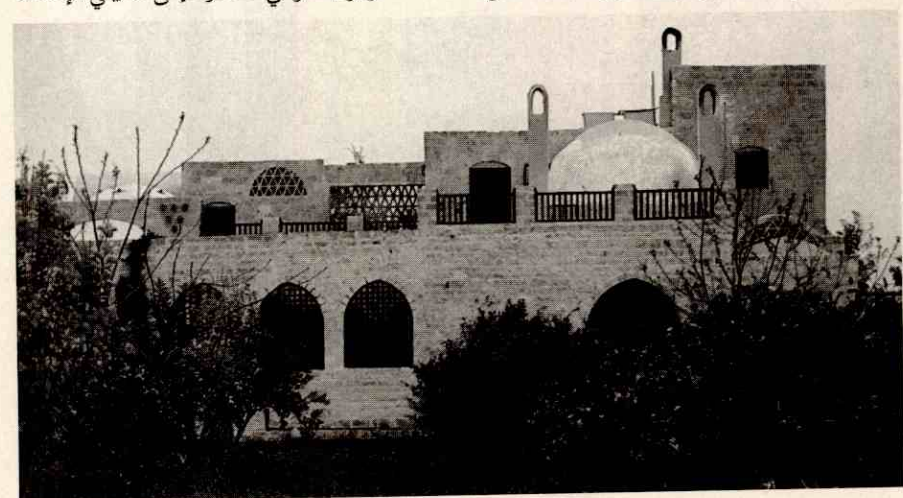
استعادة الذاكرة الثقافية

يرتبط الفكر المعماري عند حسن فتحي بموقف متميز من مسألة التحديث في العالم الثالث، فربما يكون المدخل الأساسي لفهم مدرسته هو فكرة «الخصوصية»، وتجربته تمثل تجارب التحديث في العالم الثالث في أنقى صورة. وتتجسد فكرة الخصوصية في استثمار موارد البيئة المحلية وتوظيفها في إقامة عمارة محلية تحتضن التقاليد الثقافية المحلية. وهي من ناحية أخرى حركة فكرية تعمل على تحقيق الانقطاع عن التراث الاستعاري، والسعي إلى فك الارتباط مع الجمالية الثقافية الاستعارية، وتؤدي محصلة الحركتين السابقتين إلى تحقيق الاستقلال الثقافي المتمركز على الاكتفاء الذاتي بلا عدوانية أو صدام.

وتتجمع في تجربته خصائص فلسفية واجتماعية وتقنية، كما أن سعيه نحو التحرر من الهيمنة الثقافية الغربية بدأ في ظل سباق استعاري مرت به مصر، والذي لا يلصق بفكره صفة الغوغائية أو الانكماش الغبيّ، أو العداء المبني على الجهل هو ثقافة الرجل الغربية وعلاقاته الواسعة مع المثقفين والمهنيين الغربيين.

وتعني دعوة حسن فتحي الإصلاحية - بوصفه مصلحا اجتماعيًا - استعادة الذاكرة الثقافية لمجتمعه، وذلك بتأسيس قيم جمالية، وتقاليد مهنية معمارية غارقة في المحلية، تختزل التقاليد التراثية لثقافة مجتمعه، وتسعى لتأسيس وعي فني فلسفي في مجال العمارة. وهو من القلائل - في ثقافتنا العربية المعاصرة - الذين ارتبطت عندهم النظرية بالتطبيق، والفكر بالممارسة، والفلسفة بالعمل.

وتصب تجربة حسن فتحي في الجهود التنظيرية



لتأسيس الهوية الثقافية العربية، فهو يفرق بين الاستعارة الثقافية والاستغزاء (الغزو) الثقافي في هذه العملية، فيقول: «هناك ثقافة خاصة بالأمة لايمكن تقليدها أو تغييرها، وهناك ما يسمى بالمتبادلات الثقافية، مثل الجبر والهندسة والعلوم الطبيعية. ولكن هناك ما لا يفتح باب تقليده مثل العمارة، فهي شخصية الأمة».

ويترتب على موقفه من مسألة الاستقلال الثقافي إلقاء تبعة فكرية على المهندس المعماري تجاه الموروث الثقافي للأمة، واستيعاب التراكيب الثقافية للمجتمع في مواجهة إغراء العمارة الوافدة وطغيانها، وهذه المواقف تتمثل في حركته: استيعاب الموروث ثم نقده.

تقرأ من كتابه «عمارة الفقراء» - ص49 -: «العمارة مازالت من أكثر الفنون تعلقًا بالتراث، وعمل المهندس المعماري يقصد به أن يتم استخدامه، وشكل العمل يتحدد إلى حد كبير بما سبقه، وهو يقام أمام الجمهور حيث يجب أن يراه أفراده كل يوم. وينبغي أن يحترم المهندس المعماري أعمال سابقيه ويحترم إدراك الجماهير. والحقيقة أنه ما من معماري يستخدم معماره كوسيلة للإعلان الشخصي. وما من معماري يستطيع تجنب استخدام عمل المعماريين السابقين له، ومهما كان ما يبذله من جهد جريًا وراء الأصالة، فإن الجزء الأكبر من عمله يكون إلى حد بعيد منتسبًا إلى تراث أو آخر. فلماذا ينبغي إذن أن يزدري تراث بلده هو نفسه أو منطقته، ولماذا ينبغي أن يجر تراثَ أجنبيٍّ في تركيبات مصطنعة وغير مريحة، ولماذا ينبغي أن يكون من الوقاحة بالنسبة للمعماريين الأسبق حتى ليشوه أفكارهم ويسيء تطبيقها؟».

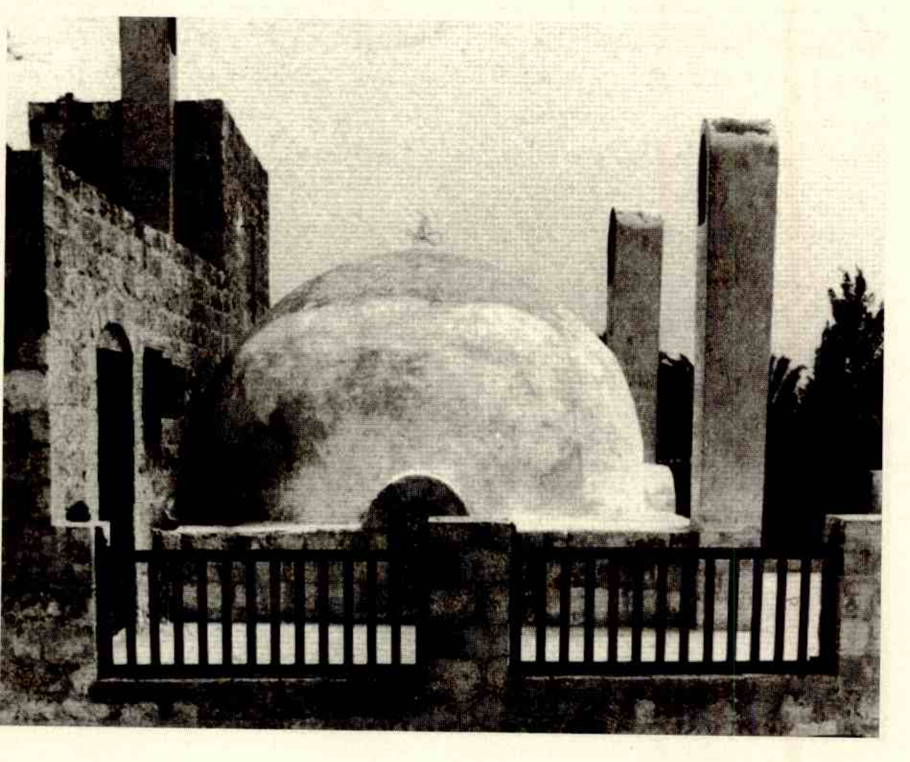
ضرورة الإبداع في البناء

تثير دعوة حسن فتحي حول «التقدم إلى الوراء» أو الاستنباتات الثقافي في العمارة بعض الاعتراضات، فهل يعني ذلك عداء للتجديد ورفضا للحداثة، وما معنى استنساخ طرز معمارية كانت ملائمة في أزمنة سابقة، وفي سياقات مختلفة.. نقرأ نقدا لأحدهم - يوسف خليل: «بحث في فلسفة العمارة» ص145- قوله: فقد يكون أستاذنا الكبير حسن فتحي قد نفذ في أمريكا قرى أو مباني أو فيلات على النظام العربي أو النوبي. وقد تتعلق بعض الأمريكيات المرفهات ببعض التراث الإسلامي كالمشربيات، فيشترينها، أو الملابس الشرقية، فيرتدينها، كل هذا جائز ويحدث يوميا، ولكنه ليس معنى هذا أن هناك عمارة صالحة لكل زمان ومكان فهذا يتنافى مع تاريخ الفنون والعمارة.

فلو كان هذا جائزًا وممكنًا لما ظهرت الطرز المعمارية التاريخية والكلاسيكية المختلفة حسب الظرف والزمان والمكان من يونانية وورومانية وقبلها الفرعونية وبعدها القبطية والإسلامية».

لم يكن حسن فتحي معارضًا للحداثة؛ وإنما للجانب (الباهظ) المكلف في البناء الحديث في كل ظروف العالم الثالث، إذ كان من أنصار المعمار الجيد للمكان الجيد، أي أن تفرض ظروف المكان ذاتها، عبر ما يتوافر منها من إمكانات طبيعية وإنسانية، ومواد بنائية، إلى جانب فكرته المهمة حول البناء الذاتي؛ أي أن يبني المواطنون بيوتهم بأنفسهم كما كان الحال في الماضي، ويتصل ذلك بإطلاق رؤية جمالية منسجمة مع البيئة.

يشرح حسن فتحي هذا الجانب في فلسفته قائلاً: إننا لا نقصد أن ندير ظهورنا إلى إنجازات الثقافات والحضارات الأخرى. ولاندعو إلى تعصب شرقي أو غربي. أن يكون التعصب إلى العلم، وضد القصور والزيف والتقليد الساذج. ولكن لما يستحق أن يستعار من عناصر الثقافة الأجنبية. وليس التقليد الواعي الماهر الذي يكون أشد خطرًا من التقليد الساذج لأنه يلبس الباطل ثوبًا قشيبًا، مما يوقع عددًا أكبر من المواطنين ذوي الثقافات المتوسطة وهم الغالبية العظمى. إن مشكلة



من آرائه:

* **ليس في المدن العربية حاليا حياة إنسانية أو مسكن إنساني جميل.**
* **إن حل مشكلة الإسكان في مصر يكمن في تاريخ مصر.**
* **إن أحداً لايستطيع أن ينظر بعين الرضا إلى المباني التي تزرع في بيئة أجنبية عنها.**
* **كيف يكون المهندس العربي أسمر البشرة بعيون سوداء ساحرة، ولكن أفكاره شقراء ولها عيون زرقاء؟**
** **الطين هو السيد: منه خلقنا، ومنه نبني، وإليه نعود.**
** **لم يعد يبهرني أي شيء.. ولم تسعدني جائزة أفضل مهندس معماري في العالم، ولم تؤثر في.. فماذا ستفعل مصر بالجائزة إذا كان صاحبها موجودًا ولم تستفد منه؟!**

بلدنا المعمارية لايمكن أن يحلها المهندس الغربي بينما لم يُعنَ المهندس المصري حتى بوضع رأس مسألته الحائرة في حسبانه.

لهذا كان من الضروري تعرف طبيعة المجتمع الذي نخطط له بصفة عامة، وهو المجتمع المصري المعاصر، وتعرف النواحي الخاصة بالمواطن العادي السيكولوجية والوجدانية والتكوين الثقافي والاتجاهات النفسية كافة». (مجلة المصور في 1981/12/4م)

وإلى جانب الدوافع الثقافية والوجدانية لاستنباط النماذج الأصلية في العمارة، فإن هناك أسبابًا نفعية أيضا تتصل بتخفيض تكاليف البناء المترتبة على البناء بالإسمنت، بالالتجاء إلى البناء بالطوب والحجارة والطين اللبن.

ويتفق هذا التوجه مع السمة العامة للتيارات العالمية المعاصرة في العمارة، في الوقت الحاضر، فالطابع المميز لها يكمن في كشف العناصر القومية في العمارة للأمم والشعوب وإبرازها واستغلالها في البناء والعمارة وتخطيط المدن.

وتعادي فلسفة حسن فتحي المعمارية عمارة المقاولين، والنفوذ الهائل الذي يحظون به في العمارة الغربية، فتكلفة عمارتهم مرتفعة جدا بالنسبة للفقراء، كما أن بناء عمارات حديثة في مناطق الأحياء الفقيرة هو بمثابة منجم ذهب للمقاولين، كما أنه بمثابة اقتلاع للجذور من جديد لمجتمعات تعد جذورها معطوبة سيئة التغذية بالفعل، كما أنها تمزق الروابط بين الجيران، وتجبر الأفراد على معاودة كل شيء من جديد في بيئة أجنبية عليهم، حتى لو كانت أفضل (فيزيقيا). كما ينقص السكان في هذه الأحياء الفقيرة الإحساس بهوية الانتماء للمكان، وتجعلهم روابط الجيرة يتبعون أنماطًا سلوكية أقرب إلى اليأس، فتنمو الجريمة.

ويرى حسن فتحي أن الناس ينبغي أن يعبروا عن علاقات أحدهم بالآخر، وإلا لجؤوا إلى الجريمة أو اليأس، ويربط طغيان نفوذ المقاولين، المستفيدين من البناء الحديث بالإسمنت بطرز معمارية غربية، بالنتيجة المتولدة عنه، وهي التشوه الحضاري أو الفساد الحضاري لعمارتنا «فالمعمار الحقيقي لايمكن أن يكون موجودًا إلا في تراث حي، وإن التراث المعماري عندنا الآن هو تقريبا ميت، وكنتيجة مباشرة لضياع هذا التراث، فإن مدننا وقرانا أصبحت تزداد قبحًا. وكل بناء بمفرده يؤدي إلى زيادة القبح. إن الفساد الحضاري يبدأ بالفرد نفسه الذي يواجه بخيارات مختلفة للقيام بها، وينبغي أن

قالوا عنه:

- إنه أحسن مهندس إنشائي في العالم.

الاتحاد الدولي للهندسة الإنشائية 1987م.

- إن الدكتور فتحي تجسيد للمبدأ الذي يؤازره معهد ادلاي ستيفنسون: إتاحة الفرصة لرجل له رؤية والتزام من أجل أن يتصارع مع مشكلة اجتماعية هائلة، وهناك الكثير مما يمكن أن نتعلمه من ذلك - حتى عند الفشل -، وثمة جوانب من هذا في عمل د. فتحي، وما من بديل عن الفرد الموهوب الذي يبذل من اهتمامه، حتى في عالم السرعة والكتلة والتجريد.

ويليام بريولك، مدير معهد أدلاي ستيفنسون للعمارة.

- إن حفريات المعرفة بعد ألف عام؛ أي عام 2900م، حين يبحثون في «القرنة» سيجدون حفائرها أهم من مدينتي نيويورك وباريس، إنه لو نفذ مشروع القرنة في نيويورك أو لندن أو باريس للاقى التقدير اللائق به، أما في مصر.. فلا.

ريفيور، أستاذ العمارة بجامعة أريزونا.

- حسن فتحي مشروع مصالحة بين السلام والبيئة لصالح الإنسان، هكذا فهمته وفهمت أيضا أن حقله الخاص عربي، وأن جهلنا به وعدم الاستفادة منه كارثة حقيقية بالنسبة للأمة العربية.

دوفينيك شفالييه، مفكر فرنسي.

نعالجه عند هذه المرحلة» عمارة الفقراء، ص42-44.

وازن رأي حسن فتحي السابق برأي واحد من أشهر المعماريين المعاصرين وهو خوزية لويس سيرت، الذي يؤكد على الخصوصية المعمارية لكل مجتمع، وأهمية الحفاظ على التقاليد الفنية المتوارثة في البناء، يقول سيرت: «إن العمارة لاتنتقل من مكان إلى آخر وفق حدود دولية أو أقاليم سياسية، بل إن ما يمنح العمارة سماتها هي الفوارق الواسعة في المناخ والظروف الاقتصادية والعادات والتقاليد. وإني أعتقد بوجوب الاحتفاظ بالفوارق المعمارية؛ فهناك ثوابت وتخطيط لأيّ مكان لا يمكن تغييرها مهما عملنا؛ كالعادات، وطرق العيش والتفصيلات المحددة، بالإضافة إلى الظروف المناخية والاقتصادية. ولهذا ينبغي أن تتصدر مفردات معاجمنا كون الثوابت المعمارية موجودة على الدوام لأنها تتجذر في المناخ والعادات والخبرة الإقليمية» مجلة: ARCHITECTURAL RECOND1981.

إنها مسألة أصالة حضارية بالإضافة إلى الجانب النفعي، فالبناء بخامات البيئة وبأيدي السكان يمنع تدفق الملايين إلى جيوب المهندسين والمقاولين المعماريين، حيث أصبحت عمارتنا بيوتا من الخرسانة والألومنيوم والمعادن المنفردة، وامتدت الواجهات الزجاجية في بلاد صحراوية ، مما رفع درجة الحرارة داخل غرفة مساحتها 9م2 ما قيمته 2000 سعر حراري في الساعة، حسب تعبيره.

إن المسألة في العمارة، هي إبداع الذات، وانبثاق الإمكانات الخلاقة للأمة في الحاضر وامتداداتها الماضية، كما يؤكد هذه الحقيقة المعماري الشهير لي كوربوزيه، الذي يعد من أشهر معماريّ القرن العشرين:

«إن العمارة هي ظاهرة إبداع على أساس نسق، والحديث عن النسق يعني الحديث عن تأليف، والتأليف هو جوهر العبقرية البشرية».

المراجع:

1- حسن فتحي: عمارة الفقراء، ترجمة د. مصطفى فهمي، كتاب اليوم، مؤسسة أخبار اليوم، ع 6، القاهرة 1991م.
2- مجدي يوسف: التداخل الحضاري والاستقلال الفكري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1993م.
3- محمد عبدالسلام العمري: عمارة الفقراء أم عمارة الأغنياء؟، أصدقاء الكتاب للنشر والتوزيع، القاهرة 1992م.
4- المهندس حسن فتحي: رجل يملك عقله، مجلة العربي، الكويت، يونيو 1983م.
5- شيخ البنائين حسن فتحي ناقم على العمارة الحديثة، مجلة اليوم السابع، باريس، 4 أغسطس 1986م.
6- حكاية أحسن مهندس في العالم، مجلة أكتوبر، القاهرة 1987/12/6م.
7- قضيت عمري أبني بيوتا للفقراء، مجلة المصور، القاهرة 1981/12/4م.
٧- القاهرة مخالفة كبرى، مجلة شموع، القاهرة، أبريل 1986م.
9- حوار شخصي معه في صيف 1983م.
10- تحسين عبدالحي: رائد المعمار العربي، مجلة الفنون الشعبية، القاهرة، سبتمبر 1969م.
11- ألفريد فرج: شيخ البنائين، مجلة التضامن، باريس، عددا 1983/11/19م، 1983/11/26م.
12- أسعد عرابي: خذوا طين الأرض من تحت أقدامكم وابنوه. برهان علوية: ذكريات عن حسن فتحي وتجربته. دومينيك شيفالييه: عندما لم يعد بحاجة للدفاع عما نؤمن به، مجلة اليوم السابع، باريس 1990/1/8م.
13- بثينة البيلي: ورحل حسن فتحي صاحب نظرية البناية الفلاحي، مجلة المصور، ديسمبر1989م.
14- د. سامية عباس: عمارة الفقراء، مجلة المهندس، القاهرة، ديسمبر 1989م.



غلاف الكتاب

العنوان: خبرتي في الإدارة المدرسية.
المؤلف: فائز عبدالله السويد.
الناشر: مكتبة العبيكان. ط1، 1416هـ/1995م (284ص).

يضع المؤلف جل خبرته في الإدارة المدرسية، في محاولة لاحتواء كل ما له صلة بتلك الخبرة الإدارية، التي استغرقت نحو ثلاثين عامًا، فجاء الكتاب يحمل أركانًا أو فصولاً سبعة: القرّاية، وهو عن التعليم قبل المدرسة الرسمية، التخطيط المدرسي، مدير المدرسة وبعض الجوانب التربوية، التوجيه والإرشاد الطلابي، النشاط اللا صفي، الأسس العلمية لوضع أسئلة نموذجية، وأخيرًا: أهمية العلاقات الإنسانية في المجتمع المدرسي. وقد تفرعت من تلك الأركان مفاصل وجذور فرعية تنمّي وتُبرز تلك الأساسيات في كيان هذا السفر الكبير، المعبر عن تجربة عملية، وميدانية في حقل التربية والتعليم، ومن مصدر إداري، هو الأول والمهم في هذا الحقل الثر، ألا وهو «المدير»؛ لأنه القلب النابض في جسم العملية التربوية والتعليمية.. فإن صحّ القلب صحّ الجسم بكامله.

ولننظر معًا في هذا القلب المزروع في حقل تربوي، وميداني تعليمي، فماذا نحن واجدون؟ وقبل إطلالتنا على هذا السفر التربوي، نتمنى من أحد المعلمين الذين لهم تجربة طويلة، مثل مديرنا السويد، في ميدان التعليم، وعانى هموم المعلم كلها، أن يزودنا ويتحفنا من خبرته - بمثل هذا الكتاب - الميدانية التعليمية.

وإذا كان المدير هو القلب النابض في المدرسة، فإن المعلم هو شريانه المغذي للعملية التعليمية والتربوية، وبه تتم الرؤية الكاملة لتلك العملية.

يشعر قارئ كتاب «خبرتي في الإدارة المدرسية»، - منذ إهدائه ومقدمته وحتى في متون كتابه - أن الأستاذ السويد قد تواضع على حب العلم والمعرفة، وأن صورة التراث الديني العلمي ماثلة في آفاق فكره وخياله وذاكرته؛ سواء أكان في الاستشهاد بالنصوص الدينية والذاتية أم في إرجاع الكثير من الرؤى التعليمية والتربوية الحديثة إلى مواردها الإسلامية.

وأن صورة الشخصية العلمية والإدارية والمنهجية في الكتابة والتأليف محددة وواضحة لأنها تنهل - كما ذكرنا - من موارد التجربة والخبرة القائمة على الميدان التطبيقي والنظري. وحين قادنا الأستاذ السويد إلى التعليم ما قبل المدرسة الرسمية، كان يرمي إلى أن يدرك القارئ - ولاسيما الطالب أولاً وأولي الأمر ثانيًا - الفارق التعليمي الكبير بين الأيام الماضية، والأيام المعاصرة التي نعيشها اليوم، مع الاعتبار بإمكانات الأمس قياسًا بإمكانات اليوم. ومن خلال تلك الموازنة بين التعليمين، كان يحرص على المصلحة العامة لمستقبل تعليمي أفضل. ولهذا وجدناه يلح على الاستفادة من تجربة الماضي، وبخاصة «في زيادة عدد ساعات اليوم الدراسي، وعدد أيام العام لمواجهة الضرورات التربوية والاجتماعية في المجتمع، والقضاء على كثير من المشكلات.. أو التخفيف من حدتها».

كما أنه يود إبراز المجهودات الاجتماعية - فضلاً عن الذهنية التعليمية - لدى طلاب الأمس، في خدمة الأهل والجيران، لدرء الضرر والخطر عنهم من جراء بعض الحوادث والكوارث.. من مثل مكافحة أسراب الجراد، وإطفاء الحرائق. وكذلك في أعمال البر والخير، كالمشاركة في توزيع الصدقات والزكوات في أوقاتها.

وإنها لمواقف سامية تنم عن حب الخير والتعاون، والتحلي بالروح الجماعية؛ مما يحتاج إليه طلبة اليوم.

وقد منح المؤلف «التخطيط المدرسي» أهمية كبرى؛ إذ كان يرى أن كل عمل يقوم على العشوائية، وتلبية الاحتياجات الآنية، هو عمل غير منظم، ومآله التعثر أو الفشل «لذا كان لزامًا علينا وضع خطة لإنجاز أعمالنا بطريقة منظمة». وقبل ذلك ميّز بين الخطة والتخطيط. فالخطة برنامج موقوت بمراحل وخطوات وتحديد زمني ومكاني.. أما التخطيط فعملية مستمرة.. وكلاهما تحتاج له الإدارة المدرسية الحديثة.

ومن هنا كان له تصور ورأي عن معظم الإدارات المدرسية الحالية، وبخاصة التي «تقوم على العمل الارتجالي دون خطة مبرمجة». وكذلك عن المدير الذي ينظر نظرة جادة، وكأنه يجيب عن سؤال يجول في أذهاننا دومًا: من هو المدير القدير الناجح؟ إنه «الذي يسعى إلى نجاح إدارته، ويرغب أن تكون إدارة متميزة متطورة، قادرة على تحقيق الأهداف التربوية المرسومة في سياسة التعليم في المملكة..» كما أنه هو الذي «يدرك أهمية وضع خطة مرحلية زمنية مكانية لتنفيذها في مدرسته طيلة العام الدراسي». وتظل رؤى المؤلف للتخطيط والتقويم المدرسي مستمدة من الواقع الذي يعيشه في إدارته المدرسية؛ وكأنه يرى أن التخطيط تقاس قيمته وصحته بمقدار نتائجه المجدية. ولهذا وضعنا أمام مجموعة من الخطط. فمن خطط مدير المدرسة مثلاً: الجداول المدرسية عن المدرسين.. وكان يراعي دومًا رغباتهم، عسى أن تخفف عنهم بعض الأعباء، كي يقدموا عطاءً أكبر، باندفاع وتلقائية.

أو عن السجلات، التي يرى أن تنظم هي الأخرى، لكامل قطاعات الطلاب والمدرسين والإداريين والموجهين وأولي الأمور من الآباء وغيرهم. وقد يلغي سجلات لم تعد صالحة، فيستبدل بها أخرى جيدة، وتلبي حاجة المدرسة التنظيمية.

ومن تلك الخطط أيضا، ما أطلق عليها «بعض القواعدالتي تضمن نجاح الإدارة المدرسية، وهي كثيرة لايمكن حصرها، ولكنها تشف في داخلها عن «إشعار العاملين بالأمن والاستقرار والتعاطف معهم من خلال: العمل على خلق روح التعاون، وجو تسوده المحبة والمودة، والعمل بروح الفريق الواحد..»

وفي «بعض الجوانب التربوية» التي يراها مدير المدرسة، نجد المؤلف يقومها من جانبيها الإيجابي والسلبي؛ كالزيارات الصفية، التي يقوم بها المدير ليقف على عملية التفاعل والتجاوب بين الطلاب ومدرسيهم، وبين التلاميذ وزملائهم، ويتعرف من كثب شخصية المدرس، ومدى ضبطه لصفه، ومستواه العلمي، وحسن أدائه للعملية التربوية والتعليمية.

وهو يدعو الزائر إلى التخلي عن الاستعلاء والتكبر والحط من قدر المدرس واحتقاره في أذهان الطلاب. ولهذا يمنحنا الموقف المنصف للمعلم في تقديره وإجلاله.. «فالمدرس بشر له حقوق التقدير والاحترام، ويجب إعلاء قدره أمام الطلاب، فهو المحور الأساسي لتنفيذ سياسة التربية والتعليم» مما يجعله يشعر بالرضا، والقدرة على البذل والعطاء.

وقد أحاط المؤلف بكل جوانب تلك الزيارة سواء من المدير نفسه أو من الموجِّه، وانعكاساتها السلبية والإيجابية على المدرس. ولكنه كان يريد من الإدارة المدرسية الحديثة أن تسعى إلى النهوض بمستوى المعلمين والمدرسين التعليمي والتربوي والتدريسي، وذلك «عن طريق تشجيع المدرسين على القراءة التربوية، التي لها علاقة بعملهم.. وبتوفير المصادر التربوية المنشورة في المجلات والجرائد، ووضعها بين أيديهم لقراءتها، وتأمين الأفلام العلمية والتربوية، وإطلاعهم على النشرات الصادرة من الوزارة أو الإدارة، والاستفادة من المدرسين المتميزين في جانب من الجوانب ودعوتهم لإبراز ما لديهم، ونقل خبرتهم إلى زملائهم».

ولقد تبدّت لنا شخصية المؤلف المنهجية، وهو يعرض رؤاه التجريبية في ميدان موضوعه، كالزيارات، وغيرها.. بأن يسعى إلى تأكيد واستخلاص قيم إيجابية فيدرجها ضمن أفكار أساسية واضحة. وإن كان يرى أن «أمور التربية اجتهادية ترجيحية، ولكلٍ وجهة نظره..». ولهذا يسعى إلى التقيد «بآداب الحوار بعيداً عن التعنت وتوتر الانفعالات، فإذا اتضح الحق اتبعناه».

ومهما يكن من أمر، ومهما قيل من إيجابيات الزيارات، فإن المدرس يبدي، على نحو ما، والزائر موجود، تصنعًا وتمثيلاً.. وإبراز مظاهر واهتمامات وتفاعل وغيرها من قدرات، لم يسلكها والزائر غائب.

أما «التوجيه والإرشاد الطلابي»، فللمؤلف نظرة صائبة؛ لأنه يرى أن «التوجيه عملية منظمة تهدف إلى مساعدة الطالب، لكي يفهم نفسه، ويعرف قدراته وإمكاناته، ويحل مشاكله، بقصد الوصول إلى تحقيق التوافق النفسي والتربوي والمهني والاجتماعي.. ومن ثم يعمل على تحقيق أهدافه في إطار الأهداف العامة للتعليم». كما أن التوجيه والإرشاد لايتخذان القرار للفرد، بل يساعدان على اتخاذه.

وقد ظل المؤلف، وفي كل المناسبات من مادة كتابه.. ولاسيما في ميادين التوجيه والإرشاد الطلابي، يسعى إلى إشاعة جو من المحبة والود وحسن المعاملة بين الهيئة الإدارية والتعليمية، والأبناء الطلبة. وكان لايغيب عن باله احتضان الطلبة المتفوقين وتشجيعهم بكل الوسائل، للمحافظة على مستواهم العالي، كما يعمل في الوقت نفسه على رعاية المتخلفين والضعفاء، والأخذ بأيديهم لرفع مستواهم التحصيلي، بكل الوسائل والمتابعة الدؤوب أيضًا. كما يعير أهمية للإرشاد النفسي، وذلك من خلال التعرف المبكر على الحالات النفسية والاجتماعية التي يمر بها الطلاب؛ كالخجل، والانطواء والعدوانية والتمرد.. وعلاجها عن طريق التوعية الإسلامية، والإذاعة المدرسية والرحلات، والخطابة، والأناشيد وغيرها. ولأهمية دور المرشد الطلابي، يؤكد المؤلف الإيمان بهذا الدور. لذلك تستوجب مساعدته، ومنحه الثقة والإيمان بدوره، فيشجعه ويقدِّر عمله، ويبعث فيه طاقاته الابتكارية في مجال عمله، كي «تتفجر ينابيع عذبة يرتوي منها المجتمع المدرسي والأسري».

وإذا كان المؤلف يؤمن بالحوار الحر للوصول إلى الحقيقة المجدية في حقل التربية والتعليم، فإنه يعرض دومًا إيجابيات قضاياه وسلبياتها، وذلك عن تجربة ومعاناة. فمثلاً مع «تنظيم مجلس الآباء» ومعايشته لفكرة ذلك المجلس أكثر من عشرين عامًا تكونت لديه فكرة عنه، وعن مدى تقبلها.. «فهي تتراوح بين التأييد والقبول والرفض أحيانًا من كلا الجانبين - أسرة المدرسة وأولياء أمور الطلاب وأبنائهم - وكل جانب له عليها سلبيات وإيجابيات». ويتطرق لبعضها.

ولقد قدم لنا، من واقع تجربته، نماذج إرشادية وتوجيهية، بعضها رسائل من آباء إلى أولادهم، وبعضها وقائع من يوميات العمل المدرسي مع الطلاب. وكلها تصلح لتكون مادة قصصية، يمكن أن يوظفها المبدعون في عمل فني قصصي، كي تستحيل إلى قصص ناجحة وهادفة. كما في «وقفة حنان» التي تدخل فيها أستاذنا السويد في إصلاح ما فسد بين الوالدين، وانتهى إلى «أن الثروة الحقيقية هم الأولاد، إذا رغبت أن تبنى بلدًا قرِّب ولدًا». وفي قصة «حالة غيرة» عن تجربته يوم كان مشرفًا اجتماعيًا بمدرسة متوسطة بالرياض. رمز لها بعنوان «أعن ولدك على برِّك». وكذلك «مأساة» التي علَّمته الأيام فيها «أن المشكلات لاتعترف بالحواجز الاجتماعية أو المالية، فهي لاتفرق بين صغير وكبير، وغني وفقير. ولايمنعها من الدخول إلى القصور ذات الأسوار والبوابات العالية الموصدة، المليئة بالحشم والخدم والحراس، فلديها القدرة على تخطي كل هذه الموانع المادية والصنائع البشرية».

وإذا كان الفصل الخامس من كتابه عن «النشاط اللا صفي في المدرسة»، وعن أهميته وأهدافه ومعوقاته، ثم كيفية جعله نشاطًا ناجحًا، والفصل السادس عن «الأسس العلمية لوضع أسئلة نموذجية للاختبارات»؛ فإن الفصل السابع والأخير كان عن «أهمية العلاقات الإنسانية في المجتمع المدرسي»، وهو أهم فصل في الكتاب، لأنه يتم إظهار شخصية المؤلف التربوية والتعليمية والإنسانية، بل يكمل الكثير من جوانب تلك الشخصية.

ومنذ دخوله في المقدمة، يركز على المحبة والمودة، والائتلاف والاندماج والتجاوب بين الأفراد العاملين في المجتمع المدرسي، كي تتحقق غايات العلاقات الإنسانية في ذلك المجتمع وأهدافها، «وإذا كانت الإدارة تتفجر حبًا وعطفًا وحنانًا على العاملين فيها، في كل موقف من مواقف العمل، تفجرت أيضًا إبداعات وابتكارات العاملين، سواء الطلاب أم المعلمون، وارتفعت روحهم المعنوية، بذلك تصبح المدرسة منطقة جذب لكل العاملين فيها، لما يتوفر فيها من الأمن النفسي والطمأنينة، وإشباع حاجات العاملين فيها..».

وإذا أعار المؤلف الطلاب جلَّ اهتمامه في تلك التجربة الإنسانية وغيرها من تجارب، فإنه لم يغفل دور المدرس ومكانته في تلك العلاقة الإنسانية، لأنه، كما يراه، «هو العامل المهم والأساسي في العملية التربوية والتعليمية لتحقيق أهدافها، مهندس العقول البشرية، ومهذب الأخلاق، وباني الأجيال، ومنمي العواطف والاتجاهات والقيم والعادات الصحيحة لدى الطلاب..». ولقد أحسن خاتمة كتابه؛ إذ ضمنه رسالتين مهمتين: الأولى: تراثية من ولي أمر طالب لمؤدب ولده، والثانية: إعلان من مكتب التربية العربي لدول الخليج حول أخلاق مهنة التعليم تتضمن قيمًا رائعة عن رسالة التعليم، والمعلم وطلابه والمعلم والمجتمع، والمعلم رقيب نفسه، والمدرسة والبيت.

وهكذا نخرج من كتاب السويد بمعرفة قيمة المدير في العملية التربوية التعليمية، ولاسيما أن الأعمال المنوطة به لتصريف أمور الطلاب والإداريين والمعلمين والمستخدمين كثيرة. ولم يترك جزءًا منها دون إحاطة وإلمام وتوضيح لمختلف جوانبه الإيجابية والسلبية. لذلك علينا أن نتصور مقدار مسؤولية المدير، وحجم المهام الملقاة على عاتقه.

ومن هنا كان هذا الكتاب مرجعًا قيمًا، ومنهلاً عذبًا، وزاد ممتعًا لذوي الشأن، من آباء وأبناء، ومربين وإداريين ومديرين، وفوق ذلك كله لكل مسؤول في حقل التربية والتعليم. وربما سيكون حافزًا لكتّاب آخرين من ذوي الخبرة التعليمية والتجربة المديدة في هذا الميدان، من المعلمين.. كي يصبوها لنا في قوالب ذهنية ووجدانية وواقعية وتعبيرية.. عسى أن تمنحنا صورة صادقة لهذا المعلم، الذي كانت بعض همومه تتأتى من بعض المديرين الذين أشار إليهم المؤلف، ممن لايعيرون أهمية لرغبات المعلمين وأوجاعهم وحاجاتهم الشخصية التي تعوق العملية التعليمية، إن ظلّت معششة في سويداء القلوب، ولاتجد من يمتصها.



غلاف الكتاب

العنوان: المجموعة الشعرية الكاملة.
المؤلف: محمد عبدالقادر فقيه.

تضم هذه المجموعة الشعرية الكاملة للشاعر محمد عبد القادر فقيه، ديوانين هما: أطياف من الماضي، وصور وظلال، طبع الأول أكثر من مرة. واحتوت المجموعة على حوالى ثلاثة آلاف وخمسمئة بيت. تناولت مختلف الأغراض الشعرية، وإن كانت الجوانب الذاتية هي السائدة في المجموعة كلها.

وقد كتب الأديب عبدالعزيزالرفاعي رحمه الله مقدمة هذه المجموعة، والتي كانت مقدمة للديوان الأول، واعتبرها صالحة للمجموعة بكاملها، لأنها «تدل دلالة كافية على المجالات الشعرية التي خاض غمارها، وتعبر عن نوازعه النفسية التي منحنا أطرافًا منها في الأطياف». كما وجد فيها الرفاعي «خلجات من نفسي، وخطرات من خواطري، وطيوفًا من أيامي، وطيوبًا من ذكرياتي». وقد روى لنا الرفاعي بدايات التعارف معه عن طريق صديق قال له: «هل أعرفك إلى أديب شاب.. يشبه الرافعي، شاعر ناثر، وهو مثله، قد فقد حاسة السمع في عارض مرضي شديد..». ثم راح الرفاعي يوازن بينه وبين الرافعي فيقول: «وعلى الأيام تبينت أن لشخصية الفتى استقلالها التام، فلم تندمج في شخصية الرافعي، وإن تشابها في ظروف الحياة..» وقد رأى الرفاعي أن شاعره الفقيه وجداني الشعور محوره الحنين، والارتباط بالماضي.

وأهدى الشاعر الفقيه ديوانه الأول «إلى الشاعر الإنسان معالي الشيخ عبدالله بلخير الذي أضاء في دربي الشموع.. أهدي هذه الشمعة المتواضعة». وقال فيه ستة أبيات من الشعر الذي يعبر عن مكنون صاحبه من حب وتقدير للعظماء، وتأكيد جليل لأعمالهم، مما أظهر أحيانًا مدحهم بأروع الشعر.

ومن مدحه القليل، أولى قصائد ديوانه «أطياف من الماضي»، بعنوان «رؤيا الملايين» أعدها لتلقى في حفل كبير أقامه أهل مكة لمبايعة الملك فيصل - رحمه الله -، ولكنها لم تُلق لاعتذار مُنظمي الحفل، لضيق الوقت. ومنها:

أهل الحجاز وقد علمت وفاءهم
والذكريات بهم تطوف وتخطر
عرفوك من عهد الفتوة والصبا
بحرًا على الأنواء لايتكدر
قلبًا يضيء وهمّه وثابة
وخلائقًا تندى وعقلاً يبهر
هاموا بحبك منذ كنت أميرهم
ورأوك في رأس الجهاز فكبّروا

وللشاعر من الفخر المعاصر، أو ما نطلق عليه: الفخر الجماعي، وقد شاع لدى شعراء الأصالة هذه الأبيات:

نحن من نحن؟ إباء شامخ
وسيوف ما ارتضت يومًا هوانا
أمة قد حددت أهدافها
وابتغت في جبهة الشمس مكانًا
صُهرت أجيالها وانبعثت
لم تزدها النار إلا لمعانًا

وللشاعر الفقيه في هذه المجموعة غزل غزير، وفي الكثير منه نجد نفحات من شعر ابن زيدون وحنينه واشتياقه، وزفرات من عتابه وعذابه، ورقة تنسجم مع فيض الحب الرومانسي الذي يشفّ عن سرائر نقية تعبق بالصدق. تقول ثلاثية «كيف أرضيه»:

كنّا حبيبين، ما كنّتْ جوانحنا
إلا الوفاء على أسمى معانيه
أيام ينهل قلبي من سريرته
صفوًا وأمحضه ودّي وأُصفيه
كنا حبيبين يا دنيا الجفا اقتصدي
من المسير.. وقولي كيف أرضيه؟

ويختزل الشاعر تجربته الشعرية بحكمة يصوغها في نهاية قصائده، وبخاصة مع معاناته، وتجربته الحزينه. ولهذا تأتي حكمته مرتدية ثوب الذاتية كما في نهاية قصيدته «يا منتهى الحب»:

قد يُهزم الحب إن أبدى سرائره
وقد ينال المنى لو قدّم الحذرا

وربما جاءت تلك الحكمة في ثلاثة أبيات، مشفوعة بالتحذير:

يا حب فاحذر أن يحو
ل الحب من شرر العتاب
نارًا تدمّر كل عا
طفةٍ وتلتهب التهاب
واحذر من القلب المحـ
ـب إذا تنكّر واستراب

أما خطراته مع نفسه، ونبش أعماقه الذاتية؛ فإننا نحس بنفس تعج بالتشاؤم والكآبة، فنراه في مناجاته مثلاً مع قصيدته (أقول للنفس) يجسد صورته الحزينة، فيقول:

يا منية قد برى جسمي تطلبها
واليوم أعجزني التأميل والطلبُ
خمسٌ وعشرٌ من الأعوام أرقبها
كأن كل نهار طوله حقب

على أن الفقيه يلجأ إلى الله، ليفرج عنه كربته، وقد وجدناه يخص ديوانه الأول بابتهال واحد، بينما خص الثاني بجزء كبير من الابتهالات. يقول:

وانزل على نفسي السكيـ
ـنة إنك البرّ الودود

وللفقيه رثاء مقرون بمعاناته الذاتية، ولاسيما في رثائه طفلته، إثر تشييعها في ليلة حالكة الظلام، فيقول:

يهنيك أنك ما شهد
ت من الدّنا إلاّ القليلْ
والغادرين بكل من
أسدى لهم يومًا جميل
يا طفلتي أنا قد عرفـ
ـت صنيعهم جيلاً فجيل

ولكن كآبة الفقيه وأشجانه تحتل حيزًا كبيرًا من شعره، وان كنا نراه أحيانًا وهو في خضم تلك الكآبة والأوجاع، وفي عتاباته ووجدانياته يفتخر بذاته، فيفصح عما يحس به من قيم مثلى، وتألق في الطموح، فنراه يقول بصيغة الجمع ليليق به الافتخار؛ وإن كنا لانعدم في شعره ذاتيته المتفردة:

لنا ركائز أخلاقٍ نلوذ بها
وقمةٌ من إباء طاول القمما
وللبغاة وإن طال المطالُ بهم
يومٌ يصير على أيامهم علما

وفي كل ماتقدم كان الشاعر محمد عبدالقادر فقيه يستخدم لغة مجازية، يصوغها شعرا على قدر دلالته الوجدانية والنفسية والمعنوية.. ليرسم لنا شخصية ذاتية وأدبية متميزة.

على موائد الصائمين:





نِعْمَ الطَّعامُ التَّمْرُ

د. فوزي عبدالقادر الفيشاوي

ما أبسط هذه المائدة وما أجملها، مائدة إفطار النبي صلى الله عليه وسلم في رمضان، وما أسعدنا ونحن نقترب من تلك المائدة المباركة. فماذا يا ترى نسمع عنها؟ وماذا نرى عليها؟ يحدثنا أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يفطر قبل أن يصلي على رُطبات، فإن لم تكن رطبات فتُميرات، فإن لم تكن تميرات حَسَا حسوات من الماء. رواه أبو داود والترمذي. وعن سلمان بن عامر الضبي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أفطر أحدكم فَليُفطر على تمر، فإنه بركة. فإن لم يجد تمرًا فالماء فإنه طهور». أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح. وعن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في سفر في رمضان، فأفطر على تمر العجوة. رواه الطبراني في الأوسط.

ويقول ابن القيم في كتابه «زاد المعاد»: «كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يحض على الفطر بالتمر، فإن لم يجد فعلى الماء، وهذا من كمال شفقته على أمته ونصحهم، فإن إعطاء الطبيعة الشيء الحلو مع خلو المعدة، أدعى إلى قبوله وانتفاع القوى به، ولاسيما القوى الباصرة، فإنها تقوى به. وحلاوة المدينة التمر، ومرباهم عليه، وهو عندهم قوت وأُدْم، ورُطبُه فاكهة، وأما الماء فإن الكبد يحصل لها بالصوم نوع من يبس، فإذا أُرطبت بالماء كمل انتفاعها بالغذاء بعده، ولهذا كان الأولى بالظمآن الجائع، أن يبدأ قبل الأكل بشرب قليل من الماء، ثم يأكل بعده، هذا مع ما في التمر والماء من الخاصية التي لها تأثير في صلاح القلب، لايعلمها إلا أطباء القلوب..».

وما رأي أطباء الأبدان؟

إذا سألنا أهل العلم والاختصاص عن حكمة هذا الهَدْي النبوي الكريم، علمنا في البداية، أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يختر التمر بسبب توافره في بيئة العرب الصحراوية.. كلا فثمة أغذية أخرى معروفة في تلك البيئة، ولم تحظ بمثل ما حظي به التمر من تكريم نبوي. فلابد إذن أن يكون في التمر

سر، بل أسرار عظيمة دفعت به إلى مكانته الرفيعة. وهذا حق، فان أول أسرار الرطب، ما يحويه من ماء كثير، يبلغ نحو 68٪ من وزن الثمرة الصافي (من دون نوى). فالمعروف أن الصائم الذي يمسك عن الطعام والشراب طوال ساعات الصوم (بمتوسط 14ساعة) من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، يكون في مسيس الحاجة لما يعوّضه عما فقده من ماء، حتى يزول عنه الظمأ وتبتل لديه العروق. وهكذا تفيد نسبة الماء العالية في الرطب، أو منقوع التمر في الماء، في إرواء جسم الصائم، ومقاومة إحساسه بالعطش، فلا يحتاج إلى شرب كميات كبيرة من الماء عند فطره. وغير الماء، فهناك المادة السكرية الحلوة التي يزخر بها التمر.. فمما لاريبة فيه، أن الصائم مثلما يكون في حاجة إلى الماء، يكون كذلك في أشد الحاجة إلى مصدر سكري سريع، يدفع عنه شعور الجوع. إنك حينما تصوم، ينخفض مستوى السكر في دمك عن معدله العادي (80-120ملليجراما في المئة) إلى أقل من ذلك، بعد نحو ست ساعات من بدء الصوم. غير أن الجسم يسعى جاهدًا لمعادلة ذاته، عن طريق فتح مخازن الطاقة الكامنة فيه، كي يثبت مستوى السكر في الدم عند 75-80 ملليجرامًا.

وربما يعرف الكثيرون أن شعور الجوع لايرتبط فقط بفراغ المعدة من الطعام، بل يرتبط أيضًا بانخفاض مستوى السكر في الدم عن تركيزه الطبيعي المألوف. وهذا مايستشعره الصائم في ساعات النهار الأخيرة. وإذن فأهم شيء يلزم تزويد الصائم به حال فطره هو مصدر سريع للطاقة، يُعَوِّض ما فقده طوال ساعات الصوم.

والطاقة - كما نعلم - تأتي من تناول أغذية في صورة مادة دهنية أو نشوية أو سكرية أو بروتينية. على أن خبراء التغذية يوصون الصائمين دومًا، بتجنب تناول اللحم أو الخضر أو الخبز مباشرة عقب الإفطار. وعلة ذلك، أن هذه الوجبات، وإن كانت تتكون أساسًا من دهنيات وبروتينات ونشويات، كما أن جزءًا منها سوف يتحول إلى سكر تمتصه الأمعاء، ثم يحترق بالأنسجة مولدًا طاقة، غير أن ذلك السيناريو لن يكتمل قبل 3 - 4 ساعات، من خلال عمليات الهضم المعقدة والبطيئة. وفي أثنائها، تبقى أعراض نقص السكر بادية على الأجسام، وكأنما المرء لايزال صائمًا، لم يفطر بعد، تمامًا مثلما يقول شاعرنا القديم:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما
والماء فوق ظهورها محمول!

وعوضا عن ذلك، فإن خبراء التغذية يوصون الصائمين، بما أوصى به نبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه، بأن يبدؤوا فطرهم بتناول مادة سكرية حلوة غنية بالماءمثل الرطب، أو منقوع التمر في الماء. فقد عرف الباحثون أن للمعدة والأمعاء الخالية، قدرة هائلة على امتصاص المادة السكرية في زمن لايتجاوز 5-10دقائق.

وتفجرت طاقات التمر الحرارية

ها هو ذا سر من أسرار التمر.. إنه بحق يعد من أغنى أنواع الفاكهة في مادته السكرية، التي هي مصدر الاحتراق الأساسي في الأجسام، ومصدر الطاقة والمجهود. فقد دلت دراسات معملية تحليلية، على أن في الجزء المأكول من التمر نحو 77٪ مواد سكرية، هذا في الوقت الذي نعلم فيه أن نسبة السكريات في التين لاتتجاوز20٪، وفي الرمان 18٪، وفي كل من الجوافة والكمثرى 17٪، وفي المانجو 15٪، وفي التفاح 14٪، وفي كل من المشمش والخوخ 13٪، وفي اليوسفي 11٪، وفي الشمام 9٪، وفي الفراولة 8٪، ولاتتجاوز نسبة السكريات في البطيخ 6٪.

فالتمر - على هذا النحو - يعد مصدرًا عظيمًا للسكريات البسيطة السهلة الهضم والامتصاص والتمثيل، كالجلوكوز سكر العنب، والفركتوز سكر الفاكهة، والسكروز سكر القصب.. ومن ثم، يعد مصدرًا مركزًا للطاقة الحرارية، حتى إنهم قدَّروا أن الطاقة المتولدة منه تفوق نظيرتها في اللحم والدواجن والأسماك.. حقًا؟

أجل، فعلى حين يتولد عن كل مئة جرام من التمر 303 سعر حراري، لاينتج القدر نفسه من لحم الدجاج سوى 139سعرًا، ومن الأسماك غير 95 سعرًا. وقد وجدوا أن الكيلو جرام الواحد من التمر يعطي الجسم كمية من الطاقة، تكفي لقيام شخص بالغ بأداء أعماله طوال يوم كامل، إذا اقتصر عليه وحده.

وهكذا ينتفع الصائم بكمية السكريات الكبيرة التي تميز التمر، في توليد طاقة حرارية، تستفيد منها أعضاء جسمه وخاصة المخ، مما يضفي على الأجسام نشاطا وحيوية، كما تزول عنها سريعًا أعراض نقص السكر، كالضعف والكسل وزوغان البصر وقلة التركيز.

شيء آخر لابد من ذكره، هو أن من آداب مائدة النبوة في رمضان، الفطر أولاً على الرطب ثم القيام لصلاة المغرب، بعدها يستكمل الصائم فطره. والحكمة هنا لاتخفى على لبيب، إذ يحدث في أثناء فترة الصلاة امتصاص سريع للمادة السكرية، فيرتفع مستوى السكر في الدم، ومن ثم تمد المخ والأعصاب باحتياجاتهما من السكر، وتكون النتيجة تهدئة الأعصاب والتغلب السريع على الصداع الذي يشكو منه بعض الصائمين، كما يقل كثيرًا شعور الصائم بالجوع. فإذا قُضيت الصلاة، وعاد الصائم يستكمل فطره، أقبل عليه بنفس قانعة، فلا يصيب من الطعام إلا بقدر.

ونضيف، بأن الرطبات القليلة التي يبدأ بها الصائم فطره، تعد منبهًا جيدًا لجدار المعدة، فينقبض، ومنبها لغدد اللعاب وغدد المعدة فتفرز

عصاراتهـا، استعداداً للعمل بعد الصلاة. وفي ذلك ضمان لحسن إجراء عملية الهضم والامتصاص على أوفق حال. ونزيد بأن لسكريات التمر مزية أخرى، إذ وجد أنها لاتنتج غازات في الجهاز الهضمي، لأنها تترك الجهاز الهضمي إلى الدم، قبل أن تؤثر فيها الكائنات الدقيقة الموجودة بالأمعاء، وتطلق من تفاعلاتها معها غازات كثيرة مقلقة.

أسرار ألياف التمر

إنك إذ تنظر في جداول التحليل الكيماوي للتمر، تعرف أنه يحتوي على 3٪ من الألياف السليولوزية؛ وهي مركبات ذات مزايا وفوائد كثيرة للصائمين. فهي تعمل عمل الإسفنج، حيث تمتص الماء داخل الأمعاء، ولاتتركه يندفع إلى الدماء والأنسجة مباشرة، وإنما تجعله يتسرب منها قليلاً قليلاً، فترتوي به الأنسجة بصورة صحية. وللألياف دور مهم في تقليل الاحساس بالعطش، ذلك الإحساس الذي يدفع الكثيرين للإفراط في شرب الماء على مائدة الإفطار، مما يفضي إلى ارتباك في عمليات الهضم. وللألياف أيضا دور في مكافحة الإحساس بالجوع، فهي إذ تحتفظ بالماء، تشغل حيزاً أكبر في فراغ المعدة، فتمتلئ ويشعر المرء بالشبع. وفوق ذلك، فإن المعدة الملأى بالألياف تفرغ ببطء أكثر، فيطول الوقت قبل الإحساس بالجوع ثانية. ويا حبذا لو أُكل التمر في وجبة السحور أيضا، إذ يقاوم - حينئذ - إحساس الصائمين بالجوع والعطش في نهار رمضان. وإننا نقرأ ماورد عن جابر رضي الله عنه من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «نعم السحور التمر». رواه ابن حبّان في صحيحه.

وغير ما ذكرنا وروينا، فقد عرف أن خاصية تشرب الألياف بالماء تكسب الطعام المأكول رطوبة أثناء الحركة من المعدة إلى الأمعاء الدقيقة ثم إلى الأمعاء الغليظة، وتساعد هذه الرطوبة على تحريك جزئيات الطعام، على امتداد أنبوبة الأمعاء، وبذلك تعمل على إثارة حركات التقلصات الدودية للأمعاء. وتفيد الألياف غير المهضومة في إعطاء البراز حجماً معقولاً، نظراً لقدرتها على امتصاص الماء، وعندئذ فإن 80 ٪ من قوام الكتلة البرازية يكون عبارة عن ماء. وهذا هو المسؤول عن إعطاء الكتلة البرازية حجمها المطلوب لانتظام حركة الأمعاء وخروج الغائط بصورة طبيعية، ومما يجدر ذكره، أن البراز الذي يتجمع ويتراكم في قولون الحوض، لابد له من حجم لايقل عن مئتي جرام، حتى يمكنه إثارة جدران القولون، لكي ينعكس شعوراً بالإخراج ورغبة في التبرز، وإلا حدث الإمساك. ولقد تأكد للباحثين بالفعل دور الألياف كمليّن طبيعي للحماية من الإصابة بالبواسير واضطرابات القولون والإمساك. وتلافي الإمساك - على وجه الخصوص - يجنب الصائم كثيراً من المتاعب الصحية التي تظهر في صورة صداع واضطرابات هضمية ودوار.

بروتينات التمر ودهنياته وتداخلاتها المفيدة

إن البروتين - كما يعلم الدارسون - هو أصل من أصول الطعام الثلاثة الأساسية، وإن الأصلين الآخرين السكريات والدهنيات إن هما زودا الأجسام بالطاقة من مثل حرارة وحركة؛ فإن البروتين إنما يبني هذه الأجسام بناء، إذ هو اللبنة الأولى التي تحتاج إليها كل خلية حية من خلايا الجسم لتبني نفسها. ولعلنا، ونحن نستعرض

التمر مصدر عظيم للسكريات البسيطة السهلة الهضم والامتصاص

جداول تحليل الفواكه، نلحظ بجلاء تفوق التمر على جميع أنواع الفواكه الأخرى، في محتوياته من البروتين. ففي الجداول، نجد أن في التمر نحو 2,2٪ من وزنه بروتين، بينما لاتتعدى هذه النسبة 1,2٪ في الجوافة، و 1٪ في كل من البرتقال والرمان، ونحو9, ٪ في المشمش، وتبلغ نحو 8,..٪ في كل من الخوخ والجريب فروت والتين والبرقوق، أما في اليوسفي والفراولة فتصل إلى 6, ٪ وفي كل من العنب والأناناس لاتتعدى نسبة البروتين 6,.٪، وتحتوي كل من ثمار الكمثرى والبطيخ والشمام والمانجو على 5,..٪ ليس غير، وفي كلٍ من التفاح والسفرجل نسبة من البروتين ضئيلة للغاية لاتتعدى 4,.٪. فالتمر إذن هو سيد الفواكه المذكورة من حيث بروتيناته. وهو لايمتاز عنها كمياً فحسب، بل وفي النوع أيضًا؛ فقد دلت دراسات الباحثين على أن التمر يحتوي على معظم الأحماض الأمينية الرئيسية المطلوبة لجسم الإنسان، مثل التربتوفان، والأيزوليوسين، والليسين، والفنيل آلانين، والفالين، والأرجينين، والهستيدين، والمثيونين. هذا في الوقت الذي تفتقر فيه أنواع الفاكهة الأخرى، للعديد من هذه الأحماض الحيوية.

ومثلما يتفوق التمر على أنواع كثيرة من الفواكه، من حيث المحتوى البروتيني، فإنه يتفوق عليها أيضًا في المحتوى الدهني. ففي التمر ما يقرب من 6,..٪ من وزنه مواد دهنية نباتية تخلو من الكوليسترول، في حين تحتوي كل من ثمار العنب والمشمش والتين والأناناس والبرقوق، على نسبة من الدهون لاتتجاوز 3,..٪، وتحتوي ثمار اليوسفي والجريب فروت والبرتقال والتفاح والكريز والخوخ والكمثرى والرمان، على قدر ضئيل للغاية من الدهون لايتعدى 2,..٪، وتنخفض هذه النسبة إلى 1,..٪ في كل من البطيخ والشمام. على أن واجب الصراحة التامة يقتضي أن نقول: إن التمر مع تفوقه على سواه من أصناف الفاكهة في محتوياته البروتينية والدهنية، هو في الواقع يعد فقيراً - مثله مثل بقية أنواع الفاكهة - في هذين المكونين، موازنة باحتياجات الإنسان اليومية منهما. ولاشك أن الاقتصار على تناول التمر - كمصدر رئيسي في التغذية - يفضي حتمًا إلى ظاهرة النحافة، بسبب هذا النقص. فليس غريبًا إذن أن نسمع رجالاً من خبراء التغذية يوصون الآكلين بضرورة تناول غذاء آخر غني في بروتيناته ودهنياته، جنبًا إلى جنب مع التمر، تعويضًا له عن ذلك النقص. والباحثون لايرون بديلاً عن الحليب. فهو - عندهم - المادة الغذائية الوحيدة التي ثبت حديثًا من خلال علم التداخلات الغذائية، قدرتها على تحقيق أفضل التداخلات مع التمر. وبتعبير آخر، فإن التمر يغدو غذاء كاملاً من جميع الوجوه، إذا صاحبه الحليب. حقًا، ياله من اتفاق عجيب: نتائج أحدث الدراسات في علم التداخلات الغذائية، وطعام النبي صلى الله عليه وسلم في رمضان، وفي غير رمضان. ألسنا نقرأ أن إفطار رسولنا الأمين عليه صلوات الله وتسليماته لم يكن يزيد على التمر والحليب؟ ياالله..! هذا حق، فقد كان معظم طعامه صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان، وفي غيره من شهور العام، رشفات من الحليب مع قليل من التمر. أو لسنا نعرف أيضا، أن طعام أهل البادية المفضل، هو التمر مع لبن الماعز؟ أجل، ولقد أكسبهم هذا الطعام المدهش بنياناً متيناً قويًا، وقواماً رشيقًا ومناعة ضد الأمراض، إذ إنهم - بفضل الله - نادراً ما يصابون بأي من الأمراض الخبيثة أو المزمنة، كما لاتعرف البدانة إلى أجسامهم سبيلاً. وعند خبراء التغذية، أن وجبة التمر بالحليب هي بحق خير طعام للصغار والكبار، وللأصحاء والمرضى على السواء. فهي نافعة للجميع، ونفعها

لمن كان جهازه الهضمي ضعيفًا أشد. والعالمون بأسرار التداخلات الغذائية، لايجدون أفضل من هذه الوجبة في طعام الإفطار والسحور. وهي حقيقة عرفها سكان البادية منذ سنوات طويلة؛ إذ يعمدون في شهر رمضان وفي غيره من شهور العام، إلى خلط التمر مباشرة في الحليب المسخن، لينتج منه شراب محبب إلى النفوس، فيه متعة، ومع المتعة غذاء طيب مفيد.

نقّب عن المعادن في مناجم التمر

علماء التغذية مفتونون بذخائر التمر من العناصر المعدنية الضرورية للإنسان، حتى إنهم يدعون التمر بالمنجم العظيم. وهم في ذلك على حق، ففي كل



وجبة التمر بالحليب خير طعام للصغار والكبار، وأفضل طعام للإفطار والسحور

مئة جرام من التمر نحو 790 648- ملليجرامًا من البوتاسيوم، إلى جانب 283 ملليجرامًا من الكلورين، ومعها 76 ملليجراما من الفوسفور. هذا إلى جانب كمية من المغنسيوم تبلغ نحو 65 ملليجرامًا، ومثلها من عنصر الكبريت، ونحو 52 ملليجراما من الكالسيوم، وكذلك 3,4ملليجراما من الحديد وملليجرام واحد من الصوديوم، وحوالي 21,.ملليجراما من النحاس.

ولعلنا نلحظ وفرة مخزون التمر من البوتاسيوم، إذ يمثل نحو 35 ٪ من الرماد الكلي الرماد: مايبقى من التمر بعد هضمه وتمثله. ومعروف للجميع دور هذا العنصر في حفظ توازن الماء في خلايا الجسم وخارجها. ولهذا فإن تناول التمر يكفل تعويض نقص البوتاسيوم في الأجسام، ولاسيما عقب الجوع الشديد وساعات الصوم الطويلة. فحينما يفطر الصائمون على التمر، وتستقبل أجسامهم خيراته من البوتاسيوم، فإن الأنسجة والخلايا تستعيد سريعًا خاصية حفظ الماء، فتنتعش الأجسام بعد طول حرمان.

وللتمر مزية أخرى ينفرد بها من دون بقية أنواع الفاكهة، وهي احتواؤه على عنصر المغنسيوم بكمية وافرة ربما تتعدى 65 ملليجرامًا لكل مائة جرام. ونعرف من جداول التحليل أن معظم أنواع الفاكهة تفتقر إلى ذلك العنصر الحيوي، أو تحتوي عليه بكمية ضئيلة للغاية، لاتتعدى 13 ملليجرامًا في العنب، وحوالي 12 ملليجراما في الجريب فروت والمشمش والفراولة، ومايقرب من 11 ملليجرامًا في كل من البرتقال والكريز، أما في الخوخ فلايزيد على 10 ملليجرامات، وفي كل من الرمان والبرقوق نحو 9 ملليجرامات، أما في البطيخ فيبلغ 8 ملليجرامات، ويقل في الكمثرى عن 7 ملليجرامات، وفي التفاح نحو 5 ملليجرامات.

فالتمر ـ موازنة بكل هذه الأصناف ـ يعد مصدرًا جيدًا للمغنسيوم الذي يراه العلماء أحد الأسباب الرئيسية لندرة إصابة سكان البادية بالسرطان، بعد ما ثبت بالدليل العملي أنه يعمل مضادًا طبيعيًا للسرطان، ولعل أحدًا لايغفل مخزون التمر من الحديد، ذلك العنصر الحيوي في بناء هيموجلوبين الدم، وفي وقاية الأجسام من الإصابة بالأنيميا فقر الدم. وحديد التمر يدعم قيمة الحليب الغذائية بصورة باهرة. فالحليب ـ كما لايخفى على الكثيرين ـ فقير جدًا من عنصر الحديد. وهكذا تتضح لنا فائدة أخرى من فوائد إضافة التمر إلى الحليب. وغير هذا التداخل الغذائي المفيد، رصد الباحثون تداخلاً آخر لايقل قيمة، يحدث بين فوسفور التمر من ناحية، وكالسيوم الحليب من ناحية أخرى.

فالتمر ـ كما تشير جداول التحليل ـ يعد من أغنى المصادر الغذائية بعنصر الفوسفور، إذ تحتوى مئة جرام من التمر على 76 ملليجرامًا منه. وهي نسبة قيّمة، تزيد بمقدار الضعف عن نظيراتها في أي فاكهة أخرى.

على أننا نعرف من دراسة علم التداخلات الغذائية، أنه يلزم لكمال استفادة الجسم من الفوسفور، وجود توافق وتوازن فيما بين نسبتي الكالسيوم والفوسفور في الوجبة الواحدة، وأنه من دون هذا التوازن لن تكتمل استفادة الجسم من كالسيوم وفوسفور الوجبة.

ورب سائل يسأل: وما معنى هذا؟ علماء التغذية يقولون بأن قدرة الجسم على الاستفادة من هذين العنصرين تنخفض بشدة، حينما تنقص نسبة الكالسيوم/ الفوسفور عن 2:1 في حالة البالغين، أو 1:1 في حالة الحوامل والرضّع. ونعود فنقول: لما كانت هذه النسبة غير متزنة في التمر، بسبب قلة محتواه من الكالسيوم، موازنة بمحتواه من الفوسفور، فإن الحل الأمثل لإعادة الاتزان، هو إضافة الحليب الأغنى في الكالسيوم (120 ملليجرامًالكل 100 جم) إلى التمر. ويكفل هذا التكوين الغذائي الفذ ـ إضافة لما سبق ـ توافر نسبة جديدة من البروتين، تعين آليات الجسم ـ من جهة أخرى ـ على زيادة الإفادة من عنصري الكالسيوم والفوسفور معًا بصورة مدهشة. والآن ، ماذا عن دور معادن التمور في ضمان سلامة دماء الآكلين وصحتهم؟ إن السر يكمن فيما يخلفه التمر من رماد بعد هضمه وتمثيله. فالمعروف أن هذا الرماد ذو تأثير قلوي، مما يساعد الدماء على التخلص من حموضتها الزائدة التي تتولد من الإفراط في تناول النشويات أو البروتينات المركزة مثل السمك والبيض والمخ والكلى ونحوها. ونضيف بأن لمعادن التمر خاصية مهمة في معادلة حموضة المعدة، حتى إن الباحثين وجدوا أن تناول بضع تمرات، يعين كثيرًا على إراحة المعدة من حموضتها الزائدة.

التمر وفيتاميناته

حينما يتناول الصائم ـ عند فطره ـ عشر تمرات ليس غير (تزن نحو 80 جرامًا من دون نوى) فإنه يضمن لجسمه ـ بمشيئة الله ـ موردًا طيبًا

للفيتامينات، يمده بنحو 10 ٪ من احتياجاته اليومية من فيتامين النياسين، ذلك المركب الحيوي الذي يقي الأجسام من مشكلات هضمية وعصبية وجلدية عديدة. ألسنا نعرف أن نقصه يؤدي إلى ضعف عام وكلال، مع قلة الشهية للأكل، وآلام في البطن، والإصابة بالإسهال، كما يتسبب في تغيير لون الجلد، بحيث يصبح قاتمًا. وفي التمرات العشر ما يغطي حاجة جسمك اليومية من الفيتامينين: ب1 المعروف بالثيامين، ب 2 المعروف بالريبوفلافين، بنسبة لاتقل عن 5 ٪. ومعلوم - لدى الكثيرين - أن نقص هذين المركبين الحيويين في الأجسام، يؤدي إلى ضعف الشهية للطعام، مع ضعف واضطراب عمليات الهضم، والتأثير أيضًا على سلامة الأعصاب. والتمر من مصادر الطعام الجيدة في فيتامين «أ»، إذ تحتوي كل مئة جرام منه على مايقرب من مئة وحدة دولية. ولهذا الفيتامين دور مهم في تنشيط الغدد الدمعية، التي تعمل على ترطيب العين وغسلها باستمرار، كما يفيد في تشجيع نمو الأنسجة الضامة، التي تعمل على ضم الخلايا والأنسجة بعضها إلى بعض، ولا ننسى دوره في سلامة الجهاز العصبي.

ولا تنقضي عجائبه

لم يكن التمر طعام النبي صلى الله عليه وسلم المفضل في رمضان وحده، بل كان طعامه المستطاب في سائر العام، حتى إنه ثبت عنه صلى الله عليه وسلم قوله: «من تَصَبَّح بسبع تمرات - وفي لفظ: من تمر العالية؛ أي المدينة المنورة - لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر» رواه البخاري.

وروت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «بيت لا تمرَ فيه جياعٌ أهله» رواه مسلم. وفي حديث آخر للرسول صلى الله عليه وسلم عن العجوة التي تصنع من البلح: «العجوة من فاكهة الجنة». وتذكر كتب الحديث، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفضل أكل التمر في معظم طعامه، فكان أهم ما يتغذى به، إذْ أكله بالزبد، وأكله بالخبز، وأكله مفردًا. وعن سلمة بن قيس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أطعموا نساءكم في نفاسهن التمر، فإنه من كان طعامها في نفاسها التمر خرج ولدها حليمًا، فإنه كان طعام مريم حين ولدت، ولو علم الله طعامًا خيرًا من التمر لأطعمها إياه». وها نحن نقرأ في سورة مريم آية 25-26 قوله تعالى مخاطبا مريم عندما قاربت الولادة: ﴿وهُزِّي إليك بجذْعِ النخلة تُساقط عليك رُطبًا جَنِيًّا. فكُلِي واشربَي وقَرِّي عَيْنًا﴾.

وهذه أحدث الأبحاث الطبية تشير بجلاء إلى هذه المعجزة القرآنية؛ فقد تبين للباحثين أثر الرطب الذي يعادل أثر العقاقير الميسِّرة لعملية الولادة، والذي يكفل سلامة الأم وجنينها. أجل، فقد تمكن الباحثون من عزل مادة قابضة للرحم من الرُّطب، وهي مادة تشبه هرمون الأوكسيتوسين oxytocin، تتميز بقدرتها على تنظيم المخاض عند الحوامل، استعداداً للولادة، حيث تعمل كمنبه لحركات الرحم وتزيد من قوة انقباضاته، أي إنها تقوى العضلات الرحمية والانقباضات العضلية في المراحل الأخيرة من الحمل، مما يساعد كثيراً على سهولة الوضع. وفي الوقت نفسه، تأكدت قدرتها على انقباض الرحم بعد الولادة مباشرة، مما يساعد على منع النزيف بعد الولادة، والعودة بالرحم إلى حجمه ومكانه الطبيعيين، كما تفيد في الوقاية من أخطار ارتفاع ضغط الدم عند الولادة.

وغير هذه المادة المدهشة، عرف العلماء دور الملّينات الطبيعية الموجودة بالتمر، في تسهيل عملية الولادة. فالمعروف طبيًا أن الملينات النباتية تفيد في تسهيل عملية الولادة وتأمينها، بتنظيفها للقولون.

وثمة صفة نفسية مهمة يضيفها التمر إلى آكليه، هي أنه يهدئ النفوس المضطربة ويمنح السكينة والدعة لأصحاب المزاج العصبي المتقلب. وأصل ذلك، أن المزاج العصبي يرتبط كثيراً بزيادة إفرازات الغدة الدرقية الرابضة في مقدمة العنق، ولما كان بالتمر بعض المواد مثل فيتامين «أ»، الذي له خواص ضد الدرقية، مما يحد من نشاطها الزائد ويعيد بالتبعية حالة الاستقرار إلى النفوس القلقة المضطربة، ونحن نقرأ آية سورة مريم، فنجد فيها: ﴿.. فكلي واشربي وقري عينًا﴾.

والمدهش أن كثيرًا من الأطباء، ينصحون بإعطاء العصبيين من الأطفال والكبار، بضع تمرات في الصباح كل يوم، لتضفي على نفوسهم السكينة والهدوء، كما ينصحون المصابين بالأرق كنتيجة لتوتر الأعصاب، بتناول تمرات في المساء وقبل النوم. ويفيد أكل التمر بالحليب على الريق في تسكين حالات القولون العصبي. وعند خبراء التغذية، أن أفضل صور أكل التمر، على الإطلاق، ما كان منقوعًا في الحليب، صباحًا وعلى الريق. وإذ ذاك فإن عجائبه لاتكاد تنقضي.. ولم لا، وقد اكتشف الباحثون في التمر ما يربو على ٤٨ مادة غذائية ودوائية. وفوق ذلك، فهو عندهم، ليس فاكهة وشرابًا وغذاء وحلوى فحسب، بل هو صيدلية كاملة، يلتمس الناس من عجائب مركباتها، ما يعين - بمشيئة الله - على الشفاء.

المراجع:

1- أرناؤوط، م: صحتك في الغذاء، المكتب الثقافي للنشر والتوزيع، القاهرة 1990م.
2- الشحات، ع: الصيام وصحة الإنسان، دار المعارف، القاهرة 1993م
3- النبوي، ص. والي، ي. والصهريجي، أ. وحسن، ي: الحاصلات البستانية، دار المعارف، القاهرة 1970م.
4- باصات، ف: تصنيع منتجات النخيل، مطبعة الأديب البغدادية، بغداد 1971م.
5- خفاجي، س: النباتات الطبية، وإطالة عمر الإنسان، مركز الدلتا للطباعة، القاهرة 1987م.
6- زيدان، ز. ومكسيموس، ش: بساتين الفاكهة، القاهرة 1963م.
7- عارف، أ: شجرة المعجزات، دار البلاد، جدة 1991م.
8- عاشور، ع. 1985: التداوي بالأعشاب والنباتات، مكتبة ابن سينا، القاهرة.
9- عبدالعزيز، ع: الطب والإسلام، مؤسسة أخبار اليوم، القاهرة 1989م.
10- عبدالعزيز، م. وإبراهيم،م: الطب النبوي، مكتبة القرآن للطبع والنشر، القاهرة 1989م.
11- عويضة، ع: الموسوعة الغذائية، عالم الكتب، القاهرة (دون تاريخ).
12- عيد، ص: الغذاء المناسب.. كيف تختاره؟، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة 1991م.
13- مرعي، ح: النخيل وتصنيع التمور في المملكة العربية السعودية، قسم الإعلام والنشر، وزارة الزراعة، الرياض 1971م.
14- نوفل، م: طعامك يحدد قوامك، دار المعارف، القاهرة 1991م.
15- نوفل، م: كيف تختار طعام الافطار؟ مؤسسة أخبار اليوم، القاهرة 1994م.
16- هاشم، أ: رمضان والطب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1982م.
18 - HUSSEIN, F. AND EL-ZEID, A. (1974). CHEMICAL COMPOSITION OF KHADS DATES GROWN IN SAUDI ARABIA. EGYPT. JOUR., HORT 2.(2):209.
18- SALEM, S.A. AND HEGAZI,S.M. (1971). CHEMICAL COMPOOSITION OF THE EGYPTION DRY DATES. J. SCI. FD. AGRIC., 22:632-633.
19 - VANDEROOK, C.E.,HASEGAWA, S. AND MAIER, V.P. (1980) . DATES. IN TROPICAL AND SUBTROPICAL FRUITS: COMPOSITION, PROPERTIES AND USES. NOGY, S. AND SHOW,P., AVI PUBLISHING COMPANY, WESTOPORT, CONNECTIUCT.
20 - YOUSIF, A.K. BENJAMIN, N.D. AND ALDDIN, S.M. (1976). NUTRITIVE VALUE OF COMMERICAL IRAQI DATES CULTIVARS CHEMICAL COMPOSITION (SCIENTIFIC RESEARCH FOUNDATION MINISTERY OF HIGH EDUCATION AND SCINTIFIC RES. RAGDAD) IRAQ. (TECH. BULLETIN NO 7176).

خواطر صحية في شهر الصيام

د. حسان شمسي باشا



مع إطلالة شهر رمضان، يحلو الحديث عن فوائد هذا الشهر العظيم؛ لا من حيث روحانيته وكرمه وعطاءاته فحسب، بل أيضا من حيث كونه شهر الصحة والنظام.

ولكن، للأسف الشديد، فإن شهر رمضان قد يكون عند بعض الناس شهر الإسراف والاستهلاك والتبذير. ورحم الله الزعيم الإسلامي الهندي «شوكت علي» إذ قال، بعد أن زار مصر في شهر رمضان عام 1931م، ورأى الموائد الحافلة بأصناف الطعام: «إن فتات موائد المصريين كفيل بأن يملأ بلادهم بالمساجد والمدارس والملاجئ والمستشفيات»!!.

ولست أدري ماذا يقول ذلك الزعيم فيما لو أتى، ونحن في منتصف التسعينيات لزيارة بعض الدول العربية والإسلامية الأخرى...!!

وقد قدَّر الخبراء عام 1401هـ نصيب شهر رمضان من جملة الاستهلاك السنوي في مصر بحوالي 20٪؛ أي إن مصر تستهلك في شهر واحد، هو شهر رمضان، خُمس استهلاكها السنوي كله. وينطبق هذا على الدول العربية والإسلامية الأخرى!!

هل ينقص وزنك في رمضان؟

وللأسف فإن الشهر الذي شُرِع للعبادة وراحة الجهاز الهضمي، قد أصبح مجالاً للترف والإسراف.

وزيادة الوزن شكوى عامة بعد انتهاء شهر رمضان، ولو تساءلنا من أين جاءت هذه الزيادة لعلمنا أن استهلاكنا من المواد السكرية والدهنية قد تضاعف وتراكم في جسم الإنسان على هيئة دهون لافائدة منها، بل قد تؤدي إلى الضرر الشديد.

ومع ذلك فقد جاءت بعض الدراسات العلمية التي أُجريت في رمضان لتؤكد أنه على الرغم من عدم التزام كثير من المسلمين قواعد الإسلام الصحية في غذاء رمضان، وإسرافهم في تناول الأطباق الرمضانية الدسمة والحلويات، فإن الصيام قد استطاع إنقاص الوزن بمعدل 2 - 3 كج.

وفي هذا دلالة واضحة على أنه إذا التزم الصائم نظامًا صحيًا سليمًا في غذائه في رمضان، فإن ذلك سيؤدي إلى خفض أكبر للوزن وإلى التخلص من البدانة وما لها من مساوئ.

لاتغضب في رمضان

والأجدر أن نقول «لاتغضب في رمضان ولا في غير رمضان». ولكن بعضهم يظن أن الصوم مدعاة لزيادة العصبية، والانفعال لأتفه الأسباب. والحقيقة إنه لاتوجد تغيرات عضوية (فسيولوجية) أو مرضية نتيجة الصوم، تؤدي إلى الثورة لأي سبب. فالتوتر العصبي والانفعال لأدنى سبب ليس مرضًا ولكنه نوع من الأسلوب الشخصي في التعامل النفسي من الفرد مع ما حوله من مؤثرات، وخاصة في المواقف الحرجة والمسؤوليات.

ولكن قد تكون هناك أسباب لظاهرة التهيج أو الغضب في شهر رمضان، فهناك سبب نفسي ناجم عن تغيير العادات، والخروج

عن النسق المألوف في أيام السنة الأخرى.

وهناك سبب آخر عند معتادي التدخين، الذين يكثرون من شرب القهوة والشاي وغيرهما.

وفي الجو الحار، يكثر فقدان السوائل والأملاح عن طريق العرق، ويتعرض الصائم للحرارة الشديدة، وقد تحدث بعض أمراض الجو الحار، وهي من علامات التوتر وسرعة الغضب.

ومع ذلك فإن هذه الأمور قد تكون أكثر في بداية شهر الصوم، ثم تخف تدريجيا خلال أيام.

ويمكن للصائم أن يتلافى هذا التهيج بشيء من ضبط النفس، وتنظيم الغذاء، وتكييف نفسه؛ فالصوم نوع من التدريب النفسي والعلاجي على ضبط المشاعر الجامحة والرغبات الطائشة. ومن العادات الخاطئة في رمضان السهر إلى أوقات متأخرة من الليل والاستيقاظ المتأخر وما يترتب عليه من عدم حصول الجسد على كفايته من الراحة، فيصحو المرء غير متوازن جسديًا ونفسيًا.

والنصيحة المثلى لهؤلاء هي الإقلال من شرب القهوة والشاي والالتزام بالنوم المبكر والاستيقاظ المبكر والامتناع عن التدخين.

ماذا يفعل الغضب في رمضان؟

من المعروف طبيًا أن الغضب يزيد من إفراز هرمون في الجسم يدعى «الأدرينالين» أضعافًا مضاعفة. وهذا الهرمون يسرِّع من دقات القلب، ويرفع ضغط الدم، ويؤهب الإنسان للعراك أو الفرار. وإذا ماحدث الغضب في أوائل النهار (أي أثناء فترة هضم الطعام)، فقد يضطرب الهضم ويسوء امتصاص الطعام؛ لأن الأدرينالين يرخي عضلات الجهاز الهضمي الملساء في الوقت الذي يقبِّض فيه شرايين الأطراف.

وحين يحدث الغضب أثناء النهار، يتحول شيء من الجليكوجين (وهو مخزون السكر في الكبد) إلى سكر الجلوكوز ليعطي الجسم طاقة تدفعه للعراك والشجار. ولكن هذه الطاقة للأسف ضائعة لا فائدة منها، بل ربما تؤدي إلى الشجار والصراع.

وليس هذا فحسب، بل إن زيادة هرمون الأدرينالين يمكن أن يؤدي إلى حدوث نوبة من نوبات الذبحة الصدرية عند المصابين بهذا المرض.

وكثيرا ما يشكو هؤلاء المرضى من انقباض في الصدر عند انفعالهم أو عندما يغضبون، وما يلبث هذا الشعور أن يزول بزوال الغضب والانفعال.

كما أن التعرض المتكرر للانفعالات والضغوط النفسية يزيد من تشكل النوع الضار من الكولسترول في الدم، وهو أحد أسباب تصلب الشرايين.

أقلع عن التدخين في رمضان

ظاهرتان سيئتان يمكن للمسلم أن يتخلص منهما في شهر رمضان: أولاهما البدانة، وثانيتهما التدخين.

لم يكن التبغ موجودًا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم حتى يُصْدِرَ فيه حكمًا، ولكن القاعدة العامة في الإسلام كما وردت في حديثه عليه الصلاة والسلام: «لاضرر ولاضرار». وناهيك عن أضرار التدخين فقد ألفت فيه كتب ومجلدات. ويكفي أن نُذَكِّر أولئك المدخنين أن في دخان التبغ (السيجارة) أكثر من ألف مركب كيماوي، منها ما يسبب السرطان، ومنها مايخرِّب القصبات الهوائية. ومنها ما يدمِّر شرايين القلب ويصلبها فيصاب المرء بجلطة في القلب وهو لايزال في سن الشباب.

وحيث إن متعة التدخين، التي يحسُّ بها المدخن تكمن في مادة النيكوتين التي تصل إلى المخ بعد 7,5 ثانية، فإن المدخن الذي يدخن عشرين (سيجارة) يوميًا يتعاطى سبعين ألف جرعة من مادة سامة هي النيكوتين في العام الواحد!!

والمدخنون الذين يريدون الإقلاع عن هذه العادة الذميمة سوف يجدون في الصيام فرصة جيدة للتدرب على ذلك.

فإذا كنت أيها الصائم تستطيع الإقلال من التدخين لساعات طويلة أثناء النهار فلماذا لاتداوم على ذلك، وهذا ليس صعبًا بالتأكيد، ولكنه يحتاج إلى عزيمة صادقة، واستحضار دائم لما يسببه التدخين من مصائب صحية.

هل يؤثر الصيام في الكولسترول؟

اختلفت الدراسات العلمية الحديثة التي أجريت على الصائمين؛ فمنها ما أظهر ارتفاعًا في كولسترول الدم في نهاية شهر رمضان، ومنها ما أظهر أن الكولسترول قد انخفض خلال الشهر نفسه.

كما أن الجليسريدات الثلاثية، وهي أحد أنواع الدهون في الدم، قد ازدادت زيادة طفيفة في نهاية شهر رمضان. ولاغرابة إن سمعنا بمثل تلك النتائج، لأن الصائم يملأ معدته بالعديد مما لذَّ وطاب من طعام، ثم يردف ذلك بكميات من الحلوى كالكنافة والقطائف.

ويكفي أن تعلم أن قطعة من الكنافة تزن مئة جرام تعطي من السعرات الحرارية أكثر مما يعطيه رغيف من الخبز أي (400 - 500) سعرٍ حراري.

وتعطي كمية مماثلة من البقلاوة حوالي 550 سعرًا حراريًا. وإضافة إلى هذا فإن هذه الأغذية وما شابهها من حلويات بطيئة الهضم، فيستحسن عدم الإفراط فيها، بل وتجنبها عند البدينين والمصابين بمرض السكر أو ارتفاع دهون الدم.

كما أن الطعام يحوِّل الدهون إلى دهون صعبة الهضم وهي أكثر إرهاقا للجهاز الهضمي. ولهذا يستحسن تجنب المقليات، أو الإقلال منها على الأقل.

وأما المسبكات التي يجري إعدادها باستعمال الصلصات والتوابل والدهون وأشياء أخرى كثيرة، فهي تركيبة معقدة ترهق المعدة، وتمكث فيها زمنًا طويلاً، ولاغرابة أن يشعر البعض بعدها بتلبك الأمعاء وعسر الهضم. ورحم الله الشاعر معروف الرصافي حين قال:

ولكن لا أصوم صيام قوم
تكاثر في فطورهم الطعامُ
فإن وضح النهار طَوَوْا جياعًا
وقد نهموا إذا اختلط الظلامُ
وقالوا يانهار لئن تُجعنا
فإن الليل منك لنا انتقامُ
وناموا متخمين على امتلاء
وقد يتجشَّؤون وهم نيامُ
فقل للصائمين أداء فرض
ألا ما هكذا فُرِض الصيامُ

في الرواية الإسلامية المعاصرة: «لن أموتَ سُدى»:

إيجابية التصوّر وجودة الأداة

نحن أمام كاتبة قصصية جديدة تملك سلامة الرؤية وجودة الأداة، ونتوقع لها في المستقبل -إن شاء الله- أن تكون ذات وزن أدبي ملحوظ، إذا ثابرت على فنّها، وغذته بالروافد العذبة وطعّمته بالثقافة الدائبة والاطلاع المستمر. ولم يكن غريباً أن تُجمع لجنة التحكيم في المسابقة الأدبية التي نظمتها رابطة الأدب الإسلامي العالمية (مكتب الدول العربية) عام 1414هـ- 1993م في الرواية والقصة، على منح الكاتبة "جهاد الرجبي" وروايتها «لن أموت سدى» الجائزة الأولى في المسابقة.



د. حلمي محمد القاعود

فقد ولدت "جهاد الرجبي" عام 1969م بالأردن، ومن المفارقات أن دراستها كانت بعيدة من المجال الأدبي، فقد درست في كلية الزراعة بجامعة الأردن، وتخرجت فيها عام ١٩٩٢م تحمل درجة البكالوريوس.. ولكن كتاباتها وأسلوبها ومستواها الأدبي، توحي بأنها على صلة دائمة بالأدب قراءةً وكتابة، وأنها قريبة من اللغة العربية وأساليبها، والإنجليزية وصياغتها أيضا، وذلك من خلال مانشرته من قصص في المجلات والصحف العربية والإنجليزية، وقد صدر لها قبل رواية «لن أموت سدى»، مجموعتان قصصيتان هما: «لمن نحمل الرصاص؟» و«محاكمة في الغابة».

رفض الموت المجاني

ويلاحظ بصفة عامة أن قصصها يدور حول الموضوع الذي يشغل الأمة كلها، وهو فلسطين بجوانبه الإسلامية والقومية والوطنية والسياسية والاجتماعية والنفسية كافة، ولكن الكاتبة تصدر في رؤيتها عن تصوّر إسلامي متكامل، قلّما نعثر عليه في الأعمال الروائية أو القصصية التي تتناول القضية الفلسطينية، وهذا التصوّر يعد من مميزات الكاتبة التي تعبّر عنه بأسلوب فنّي جيد ومقنع.

تعالج رواية «لن أموت سدى»(1) زاوية محدّدة في القضية الفلسطينية، هي حركة الشعب الفلسطيني في مواجهة قوات الاحتلال اليهودي، أو ماأطلق عليه في الصحف وأجهزة الإعلام «الانتفاضة الفلسطينية». وقد انتظمت هذه الحركة شباب فلسطين وأطفالها حيث كانوا يلقون بالحجارة على قوات العدوّ، ويشعلون النار في إطارات السيارات القديمة، ويعطلون حركة المرور في شوارع المدن الفلسطينية، بحيث لاتهنأ قوات الاحتلال بالراحة أو الهدوء، فضلاً عن إبلاغ العالم بأن هناك قضيّة احتلال، وشعبًا يعاني من الأسر، وجيلاً جديدًا يسعى إلى الحرية، ويدفع من أجلها ثمنًا غالياً.. هو الشهادة.

والمتأمل في عنوان الرواية «لن أموت سدى» يلاحظ أسلوب النفي الحاد الذي يرفض الموت المجاني أو الضياع بلاثمن، مما يعني أن الموت هنا سيكون موتًا راقيًا له قيمته وقدره، أي سيكون موتًا مكلفًا للعدو، ومُجازى عليه من رب الناس، إنه الموت الشهادة، وليس الموت سدى!

أيضًا، فإن المتأمل في الآية الكريمة التي صدّرت بها الكاتبة روايتها، وهي قوله تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أُنزل إليكم وما أُنزل إليهم خاشعين لله لايشترون بآيات الله ثمنًا قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب﴾ (آل عمران: 199)، يدرك طبيعة الرؤية الإسلامية الناضجة التي تنظر إلى الطرف الآخر غير المسلم في معمعة الصراع المسلّح وغير المسلّح، فهي رؤية عادلة تلتمس السلم والموادعة، بعيدًا من العدوان والعنف، وتسعى إلى التفاهم والتعايش مع العناصر المؤمنة بالله عن إخلاص، ولاتتاجر بقيم الإيمان في مجال الكسب الدنيوي.

ولعل الآية الكريمة تنبهنا سلفاً إلى شخصية من شخصيات أهل الكتاب التي تضمها الرواية، وهي شخصية الأستاذة المسيحية «هيلين» التي تحاور البطل الروائي، وتكشف عن وعيها قيم الإسلام ومعطياته الغنية، مع تعاطفها مع المسلمين وقضاياهم، وانتقادها لهم أيضاً، في قعودهم وتكاسلهم وتواكلهم.

الفرار من المقاومة

إن الرواية تؤكد رؤيتها الطبيعة البشرية في

الأوراق

حالات قوتها وحالات ضعفها، وهي إذ تتخذ من الانتفاضة موضوعًا رئيسًا، فإنها لاتغالي في تصوير "مثالية" الشعب الفلسطيني، وهو يواجه عدوّه الشرس والمتوحش، ولكنها أساسًا تتوجه إلى العناصر السلبية التي تفر من مواجهة العدو، تحت ضغط قسوته وعنفه، مثل «وائل» بطل الرواية، أو تتحول إلى صنيعة خائنة له بعد مشاركتها في الانتفاضة ودخول السجن نتيجة مايسمى «غسيل المخ» كما نرى في شخصية «سالم الفتوح» الذي أصبح عميلاً لقوات الاحتلال، يساعدها في تجنيد عملاء آخرين، أو يسعى لترحيل شباب الانتفاضة إلى خارج وطنهم كي يبتعدوا من اكتساب شرف المقاومة.. وهو مافعله بالضبط مع «وائل»، حيث ساعده على الرحيل، والسفر إلى الولايات المتحدة.

وتبدأ الرواية بمشهد يدلّ على حالة «الفرار» من المقاومة، ووجهة نظر تؤمن بعبثيتها في مثل هذه الظروف غير المتكافئة. فالأم تقف تشاهد ابنها وائل وهو يستعد للرحيل، ويضع في يدها بعض المال، ويقول لها مبتسمًا:

– «احتفظي بهذا المال.. سيهدأ كل شيء ولن تجدي غير هذا منقذًا لك».

كأن المال صار طوق النجاة من الانتفاضة والاحتلال جميعًا. والمال يأتي نتيجة للفرار (العملاء يدفعون لمن يفرّ)، وهو أساس نظرة وائل تجاه الانتفاضة. ولهذا فإن أمه تنظر إلى الأوراق المالية بسخرية، وتقول له بعد أن تعيدها في جيبه بحركة عصبية:

– «أنت أشد أبنائي فقرًا ياوائل».

ولكنه لايفهم ماتعنيه أمه، فترد عليه:

– «بينما كنت تجمع تلك النقود، كانوا يجمعون الحجارة هناك».

ولكنه يتحسس جيبه المحشوّ بالأوراق المالية، ويصيح بكبريائه الهائج وفقًا لنظرته المادية:

– «هؤلاء الأغبياء.. لتملأ الحجارة بطونهم الخاوية.. ولتعد قتلاهم إن استطاعت!!» (2).

إن الرواية تنطلق من هذا المشهد لتملأ بقية الفصول مشاهد للمأساة الفلسطينية والوحشية اليهودية، وفي الوقت ذاته تؤصّل للمقاومة من خلال روح إسلامية متوهجة بالإيمان مفعمة باليقين، مؤمنة بالشهادة والانتصار وإن طال الزمان.

مدلول المكان

تدور أحداث الرواية في أكثر من مكان، ولكن المكان الأول والأساس هو فلسطين، ربما كانت غزة تحديدًا، وإن كانت غير واضحة الملامح والقسمات، وفلسطين أيضًا اسم بلا تحديد، ولانعرف على وجه الدقة أي القرى أو المدن تضم الشخوص وتقع فيها الأحداث، وإن كان السجن أو الطرقات أو المطار هي أوضح المعالم بالنسبة لبقية الأماكن. ترى هل قصدت الكاتبة إلى ذلك قصدًا لتصنع علاقة تواز مع الوضع العام لفلسطين حيث كل شيء غامض وتائه وضائع؟ أم إنها أرادت أن تضع إطارًا مكانيًا مقابلاً لحالة انعدام الوزن والقلق والتمرد التي يعيشها البطل؟ أم إنها لم ترد شيئاً من ذلك أصلاً، وركزت على مكان آخر، وهو قلب الطائرة التي حملت البطل من فلسطين إلى الولايات المتحدة، واستغرق أفكارالرواية وتفصيل أحداثها؟

لقد كانت الطائرة حاضرة بضجيجها وصوت محركاتها وركابها ومضيفيها ونداءاتها، وكانت تمثل في كل الأحوال عالمًا محدودًا وضيقًا، مثله مثل البيت الفلسطيني الذي عاش فيه وائل مع أسرته، ومثله مثل السجن الذي نزل فيه وائل مع رفاقه من شباب الانتفاضة.. والمطار الأميركي الذي نزلت فيه الطائرة وشهد رحيل «وائل» إلى الدار الآخرة. إنه مكان محدود ضيق لاأثر فيه للرحابة أو السعة، ويوحي بالضغط والاضطراب والقلق، وهو مايتوافق مع الحالة العامة للحدث الروائي وشخوصه، فالحدث - كما نعلم - يتعلق بالمقاومة الفلسطينية ومواجهتها للعنف اليهودي ودمويته، والشخوص في حالة صراع وحركة مَوّارة وبخاصة لدى البطل الذي يعاني من تمزق بين الحلم الذي يراوده في الثراء والالتحاق بمن يحب من ناحية، والواقع الذي يفرض المقاومة والبقاء في الوطن مهما كانت الصعوبات من ناحية أخرى.

لامجال في المكان الروائي إذن للهدوء أو السكينة أو الاطمئنان.. إنه مكان مثير للإزعاج في مستوياته المتعددة، ولذا لانرى منه إلا ملامح خاطفة وسريعة، لم تبلورها الرواية ولم تتوقف عندها بالوصف الدقيق أو التعريف الوافي، أو هو عدد «لانهاية له من الأجزاء الصغيرة، يفقد قدرته على تجميع نفسه»(3) كما ورد على لسان البطل عندما أراد أن يتذكر طفولته في غزة، فلم يسعفه التذكر، وغدت غزة -نقطة البدء والنهاية- غائمة بلا ألوان ولاتضاريس!

زمان رأسي

ويتماثل الزمان الروائي مع المكان الروائي أيضًا، فهو زمن قصير مكتنز مقداره رحلة طائرة من فلسطين إلى الولايات المتحدة الأميركية، بضع ساعات فقط، إنه أقرب إلى زمن القصة القصيرة، لا الرّواية الطويلة، ولكن الكاتبة تمدّ هذا الزمان بطريقة رأسية لتضيء الأحداث، وتسرد تاريخ الأشخاص، وتفسر المواقف والأفكار، واتبعت في ذلك أكثر من وسيلة فنية، منها: الحوار الداخلي (المونولوج)، والاسترجاع (الفلاش باك)، والحوار المباشر بين الشخصيات. لذا بدا الزمن الروائي يمضي بخط منكسر أو خط حلزوني جعل نمو الشخصيات لايسير في اتجاه تصاعدي مطرد، ولكنه يسير بخطى مشتته أو مفتته، بحيث لانستطيع الحصول على صورة متكاملة للشخصية إلا بعد جهد جهيد، وتركيز حاد للذهن كي نتابع حركة الشخصيات وتاريخها وملامحها الفكرية والاجتماعية.

لقد أحدث الزمن الروائي فجوات في البناء الفني للرواية، لأن وسائل تحديده رأسيًا لم تركّز الأحداث والشخصيات في إطار يقرب بينها بقدر ماجعلتها عائمة في بحر عريض.

بيد أن الرواية نجحت على كل حال، في إبراز الزمن الخارجي الذي يعطي صورة عن عصر الانتفاضة وإلحاحه على العناصر المختلفة في البناء الروائي.

عاطفية العناوين

يقوم بناء الرواية على مجموعة من الفصول، ذات عناوين، ويلاحظ أن العناوين تشبه عناوين القصائد في الشعر، ولها دلالات موضوعية تشير إلى محتوى الفصول، بالإضافة إلى دلالات مجازية يمكن أن يستشعرها قارئ الرواية، حيث يبدو أنها تشير إلى معان أخرى أكثر عمقا، وأكثر عاطفية أيضا. ولنتأمل مثلاً عناوين من قبيل: كلمات للوداع - القرد والعنب - على هامش الحزن - لحظة خائفة - الهموم تصحو باكرا - الحزن والذكريات - الوهم والاعتذار - الحزن والحزن ..الخ. ويبدو أن لطبيعة الكاتبة بوصفها امرأة أو فتاة دخلاً في هذا المجال، مما طبع العناوين عامة بطابع عاطفي وجداني.

وعلى مدى فصول الرواية تظهر عناصر البناء الروائي انطلاقًا من المشهد الذي يزمع فيه بطلها «وائل» على السفر الى أمريكا ومغادرة فلسطين، وحواره مع أمه الذي أشرنا إليه من قبل في الفقرة الثانية، حول جدوى الانتفاضة وإيمانه بأن المال هو وسيلة النجاة من واقع الاحتلال وحياة شعبه، وأن الخروج من فلسطين هو الطريق إلى حياة أرغد، وكأن

هذا الحوار وذلك التصور هما عقدة الرواية وذروتها، تبدأ بهما الكاتبة عرض الحوادث والشخوص، ثم تأخذ هذه العقدة في التنامي والبطل في طريقه إلى المطار خارجًا من فلسطين، حيث يدخل في حوار عنيف مع السائق الذي يقوم بتوصيله حول الانتفاضة وجدواها، وينتهي الحوار باتهام كل منهما للآخر بالعمالة لليهود.. وفي الطائرة يلتقي وائل بالدكتورة «هيلين» التي تمضي مع وائل في حوار طويل يكاد يستغرق معظم الرواية حول الشرق والإسلام وفلسطين وحياتها وابنتها.. الخ، حتى تهبط الطائرة في أمريكا.. ومنذ خروج وائل من بيته حتى وصوله إلى المطار الأمريكي، نرى عذاباته وصراعه الداخلي، بين مايشده إلى وطنه ويدعوه إلى البقاء والمقاومة، والإغراء الذي يجذبه إلى أمريكا حيث الحبيبة التي يحلم بالزواج منها، والرخاء الذي سيعوضه عن الفقر والعناء والعيش مع قوات الاحتلال.

وتبدو حركة الأحداث في الرواية دالة على انفصال البطل عن الوطن، والرغبة القاطعة في عدم العودة إليه، ولكن الاسترجاع، أو إلحاح صورة الأهل (الأم، الجد، الإخوة، الزملاء في الانتفاضة) التي تظهر من حين لآخر في خيال البطل وتصوّراته وأحلامه، تعطي نهاية أخرى لم تكن متوقعة من قبل، وهي إصرار البطل على العودة إلى وطنه، والمشاركة في الانتفاضة من جديد، ولكن القدر كان قد سبق حيث لفظ أنفاسه «ليموت واقفا» كما تقول آخر جملة في الرواية.

تبدو الحوادث قليلة في الرواية بالنسبة لحجم الفكر، فالفكر يبدو سيّد العناصر، سواء تمثّل في الحوار أو الوصف أو المونولوج أو التخيل أو التذكر، أو الأسطورة، ترى هل لذلك أيضًا علاقة بضيق المكان والزمان؟ ربّما.. وأتصور أن الإلحاح على العنصر الفكري بصورته (المباشرة غالبا) قد قلّل من العفوية الفنّية، التي تعد من أساسيات الفنّ المتوهج.

رواية الشخصية الواحدة

إذا عددنا رواية «لن أموت سدى» من روايات الحادثة الواحدة (الهروب من الوطن)، فهي أيضا تبدو أقرب إلى رواية الشخصية الواحدة، حيث يتكامل الحدث مع الشخصية في البناء الروائي. والشخصية الواحدة هنا هي شخصية البطل «وائل» الذي يحتكر صنع الحدث وتوجيهه. صحيح هناك شخوص أخرى لها أهميتها في توجيه الفكر وصناعة الحدث، ولكن «وائل» يستأثر بالأضواء جميعها، وقد نجحت الرواية في تقديمه من الخارج والداخل معًا، وأن جاء هذا التقديم على مراحل متباعدة أحيانًا.

من خلال حواره مع الدكتوره هيلين، جارته في مقعد الطائرة، يقدم نفسه هكذا:

- «أنا وائل عبدالرحمن الشريف، من غزة، حاصل على شهادة جامعية في الفلسفة من جامعة (بيرزيت)، ولكني أعيش كأي عامل عربي في الأراضي المحتلة، توفي والدي وأنا في السنة الدراسية الأولى، لي أربعة أشقاء، أحدهم حكم عليه بالسجن المؤبد، والآخر اعتقل منذ سنتين، ولم تجر له محاكمة بعد، أما الثالث فأظنه في طريقه إلى المعتقل، رغم دعوات أمي التي لاتنقطع!».. «لي أخت واحدة، أصغرنا، وهي جميلة، قلبها من ذهب، لو عرفت أختي لأحببتها، فهي ..

- ماإسمها ؟

- حياة »(4).

في مقدمات طفولة «وائل» تبدو لنا شخصيته الباحثة المتمردّة، يصفه جدّه موجهًا حديثه إلى أمه:

- «إنه كثير الجدل، يصرّ على رؤية الله، ويظن أن اليهود يمكن أن يكونوا أصدقاء، لايريد بنتًا في البيت، وحين تأتي يريدها له وحده.. أرأيت كم هو مخيف هذا الصغير!»(5)

وفي طفولته أيضًا، يسعى لأن يصادق الطفل اليهودي «حاييم»، ويأخذ منه زرًا ذهبيًا هدية، ولكن جده ينظر إلى الزر، ويعاتبه على ذلك ويقول له: «ظننتك تساوي أكثر من هذا»، ويجادله وائل: «حاييم يبدو طيبًا ياجدي». ويستمر الجدل حتى يبكي وائل مصرًا على حب حاييم. ولكن الجد لايجد مفرًا من أن يقول بحزم: «قد تحبه ياوائل، ولكن تذكر أنه لايمكنه أن يحبك! فهو يرى والده الذي يجرّ والدك إلى المعتقل بطلاً، وسيقول بأن عمك الشهيد ليس سوى مخرب! عليك أن تتذكر أنهم أعداؤنا، وأن أرجلهم فوق رؤوسنا وعلى أرضنا. قد نصبح يومًا أصدقاء، ولكن ليس هنا، ليس في فلسطين ياوائل! وليس في زمن يكون ميزان القوة فيه بأيديهم!!»(6).

لقد كان وائل منذ طفولته عنيفًا عنيدًا، يكره أن يجبره أحد على فعل أي شيء، حتى اللعب، وكان أيضًا يعاني من ضعف في القلب، ولعل هذا هو الذي جعله يقسو على كل شيء يحبه منذ الصغر، ويمارس القسوة مع نفسه في شبابه(7).

هذه الشخصية العنيفة العنيدة تستسلم لحب الفتاة الأمريكية «جين» التي تعلقت به بعد سلوك خشن سلكه معها في حفلة راقصة، كما يستسلم لإرادتها، فضلاً عن إرادة العميل «سالم الفتوح» بالرحيل إلى أمريكا حيث الجنة المزعومة بعيدًا من الأهل والديار.. ولكنه بعد أن نفّذ إرادته وتحدّى أمه وإخوته ورحل، تغلبت عليه الرغبة في العودة إلى الوطن ضاربًا عرض الحائط بالحب والمال والأمان.

إنها شخصية إنسانية واقعية حيّة تجمع عناصر القوة والضعف معا. لقد عرضتها الرواية في سياقها الإنساني الذي يجعلها تحلم وتتمنى، وتجبه الواقع وتصطدم به، فتبرز الطبيعة البشرية في حالات العطاء، وحالات النكوص، وهذا التصوير لبطل القصة توجّه جيد في الرواية الإسلامية المعاصرة، حيث يصرّ البعض مثلاً أن يكون البطل شخصية مثالية تمامًا لاتعرف الضعف ولا الخطأ، وفضلاً عن مجافاة هذه الصورة للطبيعة الإنسانية، فإنها تجافي الواقع وتتناقض معه بصورة عامة، لأن البطل المثالي يمكن أن يكون موجودًا، ولكن الأبطال لايمكن أن يكونوا جميعًا مثاليين.

شخصيات من الواقع

هناك شخصيات أخرى ذات أهمية في الرواية مع عدم وضوحها بما فيه الكفاية مثل شخصية الجد الذي يرمز إلى الماضي القريب حيث شهد انتزاع فلسطين واغتصابها وطرد أهلها وقهر جيرانها، ويرمز إلى الجذر الممتد في أعماق التاريخ والأرض والمستقبل. إنه يمثل حالة الوعي بالمأساة، والرؤية السليمة للصراع، والإصرار على مواصلة الجهاد حتى يعود الحق لأصحابه. لذا نرى تأثيره عامًا في بقية الشخوص، وبقدر سخطه على تمرّد «وائل» فقد كان يحبه، وهو بدوره كان يبادله الحب، وقد وصفه «وائل» للدكتورة «هيلين»: «كان رجلاً ... كان رجلاً فلسطينيًا! يحب القدس، ويحبني.. لم أر في حياتي رجلاً مؤمنا بحتمية الانتصار، كجدّي»!(8).

هذا الجدّ، فقد ابنه - والد وائل - ورأى أحفاده يدخلون السجون اليهودية، وعاش حياة الشظف والحرمان، ومرّت عليه المحن والمآسي، ولكنه مازال صابرًا صامدًا، «ومؤمنًا بحتمية الانتصار» كما وصفه وائل، إنه رجل فلسطيني يحب القدس. وقد يبدو الوصف بسيطًا عفويًا، ولكن دلالته في زمان اليأس والتعب والاستسلام تبدو أعمق، فالفلسطيني يعني المتمسك بهويته وحقه ووطنه مهما بدت نذر الإحباط، وحبّ القدس صار رمزًا لهذا التمسّك، بما تعنيه القدس من تاريخ وذكريات وعقيدة وألم وأمل وانتماء.. إن الجدّ، الرجل الفلسطيني الذي يحب القدس، هو الحلم الواقعي -إن صح التعبير- حيث ينبغي أن يحلم به الفلسطينيون، وحفيده «وائل»، كما ترمي إليه الرواية.

يوم مات الجد، ولدت قبيل وفاته، الأخت الوحيدة لوائل، وقد سماها جدّه «حياة»، وكأن هذه الطفلة الجميلة التي يحبها كل من رآها، هي امتداد الجد، ودليل استمرار المقاومة أو الجهاد.

في الرواية تبرز شخصية «سالم الفتوح» العميل اليهودي، الذي كان واحدًا من شباب الانتفاضة، ولكنه ضعف تحت تأثير التعذيب على يد اليهود، غسلوا مخّه، فصار عميلاً لهم يشي بزملائه، وينفّذ مايرسمه له المحتلون. وتصوّره الرواية ذا وجه مقيت، وكرش منتفخ(9)، ولكن الأخطر من ذلك أنه يتبنى فكرًا انهزاميًا يقنع به الشباب الفلسطيني للرحيل عن فلسطين وترك المقاومة أو الانتفاضة «إنهم أقوى منا، ويمكنهم أن يقتلونا.. بقاؤنا أحياء مكسب كبير للوطن.. لاتجعلهم يخدعونك بشعارات البطولة والتضحية، الذي يده في النار ليس كالذي يده في الماء..»(10). وهكذا يبدو «سالم الفتوح» الذي

يملك المال والنفوذ من خلال عمالته لليهود، داعيةً لأفكارهم وتصوّراتهم وسط الشباب الفلسطيني، كما يبدي مساعدته لمن يتخلى عن الانتفاضة ويودّ الرحيل إلى خارج البلاد.

إن سالم الفتوح نموذج قائم في المجتمع الفلسطيني الذي يعيش محنة مزمنة، وحياة بائسة وقهراً متصلاً، وهو إفراز طبيعي -يعبر عن أقلية- لايمكن إنكاره، كما أن جدّ «وائل» الصامد المؤمن بحتمية الانتصار إفراز طبيعي يعبر عن غالبية الشعب، ويعد دليلاً على حيويته بغض النظر عن الإحباطات والمؤامرات وقوة العدوّ المتنامية.

وتبدو شخصية الأستاذة «هيلين» الأجنبية التي قضت رحلة الطائرة بجوار «وائل» مجرّد وسيلة فنية لإجراء الحوار الطويل الذي يُكشف فيه عن هيلين، أو يستدعي من خلاله العديد من القضايا والأفكار وتاريخ الأشخاص في الرواية، ويمكننا أيضًا أن نرى في شخصية «إدوارد» وشخصية «جين» مجرد استكمال للإطار الفني، حيث جاءت الأولى غامضة تمامًا، والثانية تعبر عن اندفاعة عاطفية محمومة وحسب.

وهناك شخصية «أحمد» رفيق «وائل» في الانتفاضة، وكان يمكن أن تكون ذات حضور مؤثر وفعّال بوصفها رمزًا للصلابة في المقاومة، والعزيمة في الجهاد، والتحدي أمام القهر، ولكن الرواية اكتفت بالإشارة إليها إشارات سريعة سطحية دون أن تتعمقها أو تقدمها باستفاضة، ولعل ذلك كله يرجع إلى تركيزها على الشخصية الرئيسية «وائل» في حالات تمرّدها وعنادها وعنفها وترددها واستسلامها وعودتها إلى ماضيها الجهادي، وإن كانت هذه العودة في آخر لحظة من الحياة.

ومهما يكن من أمر هذه الشخصيات أو غيرها؛ فإن الرواية تبقى محصورة في شخصية وائل، كما بقيت محصورة في حدث واحد، هو الهروب من الانتفاضة والوطن.. ثم العودة إليهما.

وضوح اللغة وسهولتها

يعتمد السرد في الرواية على ضمير الغائب بصفة عامة، فالكاتبة هي التي تروي الأحداث، وتحكي الشخوص، وتعتمد في سردها على عناصر شتى أبرزها الوصف والحوار والمونولوج (الحوار الداخلي) والاسترجاع (الفلاش باك) والتخيل والتضمين بالأسطورة وغيرها.. وأبرز عنصرين هنا هما الوصف والحوار..

ويعتمد الوصف بصفة أساسية على المعجم القريب من الاستعمال اليومي والمجاز الذي يقترب من الشعر. فلايجد القارئ للرواية ألفاظًا غريبة أو وحشية، ويستشعر أيضًا أن اللغة تنتمي إلى سياق سهل وواضح، فلاتوعّر ولاتقعّر، فضلاً عن كونها لاتهبط إلى العامية المبتذلة أو الركاكة الفجّة. إنها لغة مستقيمة دقيقة تشفّ عن المعاني، وتتوسل إلى ذلك بالجمل القصيرة أو المتوسطة، دون أن تدخل -غالبًا- في الجمل الطويلة أو المعقدة، وقد أعفاها «الحوار» الذي تبدو مساحته كبيرة في الرواية من الدخول في منعطف هذه الجمل. كما أنها تسقط أدوات الربط في معظم الأحيان، فتبدو جملها القصيرة أو المتوسطة مباشرة في أدائها واضحة في معانيها، ولنتأمل مثلاً هذه الفقرة:

«الحزن أقل خطورة من الغضب.. احزن ياوائل، وابك إن شئت.. الدموع تغسل الأحزان وتذيب الإرادة.. الحزن يحتويك كخيوط العنكبوت، لكن عيونك المشتعلة هي مايخيفني.. أطفئها بدموعك.. اقتلها بحزنك.. هيا ابك بلاتوقف..»(11).

ويلاحظ أن الجملة الاسمية تبدو حاضرة بوضوح في السياق السردي إلى جانب الجملة الفعلية كما رأينا في الفقرة السابقة.

وإذا كانت الكاتبة تعتمد لغة مستقيمة دقيقة شفافة، فإنها لجأت أحيانًا إلى استخدام بعض الألفاظ العامية دون مسوغ قوي، مثل (كلام فاضي) في إجابة السائق عوض عن سؤال وائل عن رأيه في الانتفاضة، أو استخدام كلمة «البريك» التي تعني «الفرامل» أو الكوابح في السيارة(12). ومع أن أسلوب الرواية السردي يؤكد تمكن الكاتبة من النحو والإملاء فإن هناك بعض الأخطاء التي وردت في بعض المواضع مثل قولها: «نحن مختلفون»، والسياق يقتضي «نحن مختلفان» لأن الحوار بين اثنين، وقولها: «لكنه لم يدعو إليه» والصواب «لم يدع إليه» لأن المضارع المعتل المجزوم بعد لم تحذف ياؤه أو حرف العلة فيه، وقولها: «مع الباحثين عن المشاكل» والأفضل أن تقول: «عن المشكلات» لأن مشكلة تجمع جمع مؤنث سالمًا وليس جمعَ تكسير، وقولها: «ليتني أعرف عما تتحدث»، والصواب: «عم تتحدث»(13).

تستخدم الكاتبة صوراً مجازية جميلة وفريدة، ولعل حاستها التخيلية ومشاعرها العاطفية نحو القضية التي تعالجها تكمن وراء ذلك، إنها تعتمد في مجازاتها على التجريد أو التشخيص أو التجسيم لتقدم لنا المعاني بأدق مايمكن وأوضح مايستطاع، ولنتأمل هذه الصور: «جلس مفتتاً بلافرح»، «نيران الثورة الفلسطينية مازالت تبحث في أشجار الوطن عن أغصان جافة»، «ألقى بعينيه على الأرض، حبسهما في حذائه.. كل هذه الجدران مرايا يكره أن ينظر إليها، حتى السقف.. إنه عاهرة تطلب منه التوبة»، «انطلقت السيارة تأكل بقايا العشب الذي أعطته دماء الثوار ألوان الربيع..»، «تسمّر في مكانه لحظة وودّع فلسطين بحزن يرتعش»، «نظر إلى المحقق، البزة العسكرية بغاية الفوضى، ونجمة داود جلست على الطاولة المعدنية بازدراء..»، «الوقت عند الظهيرة، والشمس ملكة لاغيوم تحاربها..»، نفض عليّ رأسه من غبار التردد وهو يضغط على كف وائل ليسحقها، صاحت أصابع وائل بألم»، «بحث في ذكرياته عن المطر، فأتاه ساخنًا رغم الصقيع!» ..الخ(14).

لاريب أن الكاتبة تبنى لنفسها أسلوباً متميزًا، ولغة خاصة، لعل أبرز خصائصها تلك الصور الجزئية أو شبه الكلية التي اعتمدت فيها على المجاز، وأكثرت منه في الكثير من المواضع.

يعدّ الحوار من أبرز عناصر السرد الروائي، إذ من خلاله تتكشف مفاهيم الرواية وتقويمها للأحداث والأشخاص، وهو هنا يؤدي دورًا مهمًا للغاية، حيث يتمدد الزمان الروائي من خلاله رأسيًا، وأفقيًا أيضًا، إذا وضعنا في الحسبان أن العديد من فصول الرواية يتم والطائرة تقلع إلى أن تهبط، وبالإضافة إلى ماسبق فإن الحوار يكشف عن طبيعة الشخصيات وتصوّراتها للقيم والحياة.

الحوار بين الحيوية والتفلسف

إن مفاهيم الرواية للقضايا الإنسانية المختلفة تظهر في الحوار بشكل أساسي، ومن ذلك مثلاً موقف الإسلام من المرأة، ويتشكل من خلال الحوار بين الدكتورة هيلين ووائل، وهما في الطائرة «اكتشف وائل أن السيدة لم تتوقف عن الكلام، رغم أن صوتها كان أبعد الأشياء إليه، سمعها تقول بإعجاب:

- الإسلام قدم الحلّ المثالي للمرأة، حين أحلّ لها الطلاق، أنا لاأنكر أننا استفدنا الكثير من الحضارة الإسلامية.

- الطلاق يعجبكم، وتسخرون من السماح للرجل بأربع من نساء، وتعتبرون ذلك تحقيرًا لها؟!

- الذين يجهلون الإسلام هم الذين يعتقدون ذلك!!

فأكمل بسخرية آذتها: أما أنت .. فلا؟!

- ومن قال لك إن المسيحية تحرّم الزواج بأكثر من واحدة؟! إنهم لايعترفون حتى بإنسانيتها..»(15).

وهكذا، وفي أكثر من موضع، نجد الحوار يكشف لنا مفاهيم عديدة، ويجلّيها في إطارها الذي تفرضه اللحظة الروائية. وقد يقال إن الحديث عن المفاهيم المختلفة من خلال الحوار يبدو مقحمًا في السياق الروائي، ولكننا لانراه كذلك لأنه يجري بين اثنين يجمعهما السفر في طائرة واحدة، وفي مقعدين متجاورين، ويحاولان أو يحاول أحدهما أن يقطع الزمان الطويل الذي تستغرقه الرحلة بالحوار والمحادثة، حيث تستدعي القضايا بعضها بعضًا، لذا فكشف المفاهيم هو هدف ضمني بلاريب من أهداف الرواية، وبخاصة اذا كان المتحاوران نقيضين، ينتمي كل منهما إلى فكر مغاير للآخر.

بيد أن مايمكن عدّه مقحمًا بحق، هو تحويل

الحوار إلى حالة من التفلسف الجاف، وظهور العقل بصورة حادة، توحي بالانفصال عن السياق الفني للسرد، من ذلك مثلاً الحوار الطويل بين الدكتورة هيلين ووائل حول العجز والخوف، وأراني مضطراً لإيراد جزء منه، على طوله، ليرى القارئ أن الرواية تنوء بحمل مثل هذا الحوار: «قال للعجوز وهو يمسح وجهه بكفيه:

– عندما يشتد إحساس الإنسان بالضعف، يحسّ بقرب الله منه!

كانت تتأمله بكل جوارحها، وتمعن في مراقبة حركات وجهه، أومأت برأسها دليل الموافقة، ثم قالت بشرود:

– عندما يتسرب الشعور بالعجز إلى الإنسان يفقد ثقته بنفسه، ثقته التي تصوّر له الحياة ظلاً لخطواته، وفي لحظة يجد المرء الحقيقة كالسدّ الأصم أمام عينيه، ليرى نفسه ضعيفًا، مكبّلاً بالخوف والرجاء، إنه الأمل ياعزيزي، محاولة للبحث عن قوة يعتقد أنها قادرة على جلب (الخلاص)، ولو أحس الإنسان بتفوق أيّ شيء في الوجود، وتفرده بقوة يمكن أن يلجأ إليها، لما رفع يديه بالدعاء، سائلاً تلك القوة المتفوّقة أن تساعده!!

– تقصدين الله؟

– الخوف ياعزيزي يشل التفكير، تمامًا كما يحدث لفأر التجارب، حيث يتعرض لأمر مفزع، تجده يتخبط يمينًا وشمالاً، دون أن يعثر على الطريق الصحيح، وبعد أن يرتطم بالعديد من الجدران.. الضعف يخلق خوفًا من نوع مميز، لأنه لامجال فيه لزرع أيّ وهم ينظم ضربات القلب، في حين أن الأرجل ترتجف، والخوف يشلّ قدرة المرء على تنظيم حوار مع نفسه، فيعود بصورة تلقائية إلى إحساسه بأن هناك قوة طاغية، قادرة على انتشاله من المحنة، فيرجوها ويتوسل لها، وهذا يعني أن الإحساس مخزون في داخله، وإن استطاع أن ينكر وجوده في الظروف العادية التي يكون فيها المرء متوازنًا مع محيطه، ويظن نفسه ملِكاً لكل القوى بما فيها.. الله.

سكتت قليلاً، وبدت كمن يعتصر الذاكرة ثم قالت وهي تحك رأسها بحركة خفيفة:

– أنتم تسمون ذلك الإحساس بالفطرة الإنسانية، وأنا أعتقد بوجودها، لأني عشت ذلك الإحساس، حين أصيبت الطائرة التي أقلت ابني من روما بعطل كاد أن يسقطها..»(16).

بيد أن الحوار يزدهر في مواضع أخرى من حيث الاختزال والدلالة والحيوية والعفوية، نرى ذلك مثلاً عندما كان وائل يعبث بأشياء جدّه بحثًا عن الزّر الذي أهداه إليه الصبي اليهودي «حاييم»، يعلو صوت أمة مهدّدًا:

– توقف عن العبث بأشياء جدّك ياوائل!

فأتاها صوته من بعيد:

– لاتخافي ! سأعيد كل شيء إلى مكانه.

– (عمّا) – كذا! – تبحث؟!

– عن جدّي، أقصد عن غليون جدّي!

واستمر بالبحث، إلى أن فاجأه جدّه بضربة خفيفة على مؤخرته:

– أيها اللصّ!

– لم أسرق شيئًا، جئت لأسترد الزرّ الذي أخذته مني.

– تعني ذلك الزرّ الذهبي؟!

فأجاب بلهفة:

– أجل! هل هو معك ياجدّي؟!

– إلى هذا الحدّ يهمّك أن تحتفظ به؟!

– يهمني أن أجده.

أشاح جدّه بوجهه عنه، وابتعد قليلاً، فقال وائل بانكسار:

– تشاجرت مع حاييم، فضربته! قال بأني كلب، وبأنه سيلقي بي في البحر كالنفايات(17).

إن حوار الشخوص في الرواية يكشف عن أبعاد شتى، وينجح في بعض المواقف، ويخفق في بعضها الآخر، ولكنه في كل الأحوال يسهم بقدرٍ ما في كسر رتابة السرد.

هناك عناصر أخرى وظفتها الكاتبة لإثراء السرد في الرواية منها: المونولوج (الحوار الداخلي) والاسترجاع والتضمين، ويبدو الحوار الداخلي أكثرها حضورًا على امتداد الرواية، والتضمين أقلها وجوداً.

ويشكل الحوار الداخلي في بعض الأحيان فصولاً بأكملها، كما نرى في الفصل المعنون بـ «الدائرة»، حيث يترك البطل «وائل» أهله ويغادر وطنه، وحينئذ يدخل في حوار مع نفسه عما يريد، وعما يحلم به، ويناقش مع نفسه أيضًا مواقف أخيه عليّ وكلامه له. وفي ثنايا الرواية يكثر الحوار الداخلي ويتنوع حول الأحداث والشخوص والسلوكيات والأفكار.

أما الاسترجاع (الفلاش باك) فإنه يكشف جوانب من الماضي بالنسبة للشخصيات والأحداث، وقد أسهم في تعميق الزمن الروائي، وأثرى الرواية بتفصيلات عديدة، كما نرى مثلاً عندما يسترجع البطل مشهد التحقيق معه في السجن اليهودي(18).

ومن أبرز ماشمله التضمين، أسطورة قديمة، ونص من دفتر صغير حول المرأة في المسيحية. الأسطورة تحكي أن مارداً التقي بقزم في إحدى الغابات وسخر منه، ولكن القزم تحداه أن يتقافز بخفة مثله. وحاول المارد أن يقفز مثل القزم ولكنه فشل وأحس بالعجز، فأرشده القزم إلى طريق القوة بالامتناع عن الطعام، فأصيب المارد بالهزال، وصار فريسة سهلة للآخرين! والأسطورة تتطابق مع موقف روائي تسرده الرواية، وجاء ذكر الأسطورة ليضيء الموقف ويعمق الفكرة.

أما النصّ الذي قرأته الدكتورة هيلين من دفتر صغير معها، فقد جاء -فيما أعتقد- حشواً يمكن الاستغناء عنه لأنه يسرد بجفاف وعقلانية صارمة تاريخ المرأة مع الكنيسة في أوربا، ومع أهمية النص ودلالته الحضارية إلا أن إيراده بهذا الشكل لم يخدم السرد الروائي، وكان يمكن أن يصاغ مضمونه صياغة أخرى أكثر حيوية وحرارة وانسجامًا مع السياق السردي(19).

وبعد

فإن هذه الرواية تعالج قضية من القضايا الحسّاسة في واقعنا المعاصر، وقد نجحت بصورة عامة في تقديم مشهد من أبرز مشاهدها الراهنة، وهو الانتفاضة من خلال منظور إسلامي ناضج يتجاوز الهرطقة الدعائية الخادعة التي يسعى العدوّ إلى تحويلها في وجداننا وعقولنا إلى ثوابت ليحقّق أهدافه الشريرة، ويثبت وجوده العدواني الإرهابي..

كما استطاعت الرواية من خلال الفن الجيّد أن تثبت أن الأدب الإسلامي هو الجدير بالتعبير عن هموم الأمة وآمالها، وأنه هو الذي يقدم البديل للفن الزائف الغث الذي يدّعي التجاوز والحداثة، بينما هو في واقع الأمر، يعبّر عن نرجسية ضيقة، وخواء فاضح، وهروب مشين، وفن رديء.

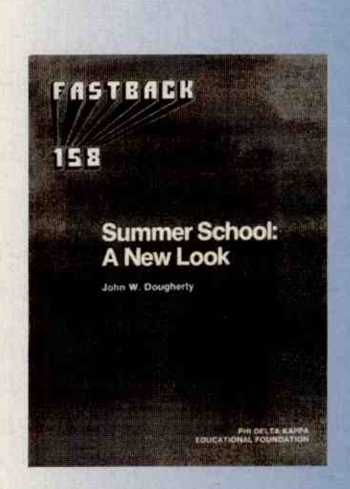
إن هذه الرواية، وأمثالها، تؤكد أن الأدب الإسلامي الجميل، هو الذي تهفو إليه أفئدة الأمة وعقولها، لأنه أدب الروح والمجتمع والمستقبل معا.

الهوامش:

(1) صدرت عن دار البشير، عمّان، 1414هـ - 1994م.
(2) لن أموت سدى، ص 5.
(3) الرواية، ص 69.
(4) الرواية، ص 64.
(5) الرواية، ص ٧٤.
(6) الرواية، ص 74.
(7) انظر صفحات: 76، 90، 91 من الرواية.
(8) الرواية، ص 79.
(9) الرواية، ص 10.
(10) الرواية، ص 54.
(11) الرواية، ص 15.
(12) انظر: صفحتي 17، 22، في الرواية على الترتيب.
(13) انظر: صفحات 5، 42، 44، 45، على التوالي.
(14) انظر: صفحات 6، 14، 15، 17، 27، 43، 71، 82، 98 من الرواية.
(15) الرواية، ص 40.
(16) الرواية، ص 48.
(17) الرواية، ص 73.
(18) راجع ص 43، وانظر أيضا مشهد التعذيب والمعاناة في السجن اليهودي، ص 46-47
(19) انظر النص على صفحتي 40، 41، وقد ورد ذكر الأسطورة في صفحة 96.

مدرسة الصيف:

نظرة جديدة



تأليف:
د. جون و. دوجرتي
عرض وتقديم:
د. محمد عبدالعليم مرسي

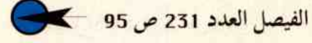
يعد هذا الكتاب أحد الكتب المهمة التي صدرت عن المؤسسة التربوية الأمريكية الشهيرة Phi Delta Kappa، تلك المؤسسة التي تتخير من الموضوعات التربوية ما يهم أفراد المجتمع الأمريكي المثقف، ثم تستكتب فيها المتخصصين ليقدموها للقراء بأسلوب سهل متميز يجمع بين سعة المعرفة، وعمق البحث التربوي، مع بساطة في العرض والتقديم، بحيث تصل تلك المعلومات بسهولة ويسر للقارئ غير المتخصص.

ومؤلف

الكتاب د. دوجرتي مسؤول عن مدرسة HAZEL WOOD الثانوية في مدينة فلوريسنت بولاية ميزوري MISSOURI في وسط القارة الأمريكية، كما أنه يعمل مديرا لبرنامج خاص بالأطفال والشباب الصغار الموهوبين بمنطقة هيزل وود التعليمية، وقد حصل الرجل على درجته الجامعية الأولى من جامعة SOUTHWEST MISSOURI STATE UNIVERSITY، أما درجة الماجستير فقد حصل عليها من جامعة ميزوري UNIVERSITY OF MISSOURY، كما مُنح درجة الدكتوراه من جامعة سانت لويس ST. LOUIS UNIVERSITY، وخلال السنوات الخمس الأخيرة - قبل تأليفه هذا الكتاب - عمل استاذًا زائرًا في SOUTHEAST MISSOURI STATE UNIVERSITY، وحاليا يعمل الأستاذ دوجرتي أستاذا للرياضيات في فترة المساء في كلية المجتمع بمنطقة سانت لويس ST. LOUIS COMMU-NITY CALLEGE DISTRICT. ومقالاته وبحوثه معروفة ومنشورة في كثير من الأوساط العلمية في الولايات المتحدة الأمريكية.

أما بالنسبة لفكرة هذا الكتاب فإنها تدور حول مدرسة الصيف SUMMER SCHOOL، أو بمعنى آخر استثمار فترة العطلة الصيفية لملايين التلاميذ والطلاب باتساع الولايات المتحدة الأمريكية. لأنهم في الغرب يحرصون كل الحرص على عنصر الوقت، ويعرفون كيف يستفيدون منه ويخرجون منه بأفضل النتائج.

وللتدليل على هذا الكلام نذكّر القرّاء بأنه ما إن نشبت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩م حتى اجتمع رؤساء الجامعات الأمريكية، وقرروا أن الأمة الأمريكية لم يعد لديها وقت تضيعه، خاصة وأن مئات الألوف من أبنائها، وربما الملايين، قد تحولوا إلى الإنتاج الحربي،



كي يموّنوا جيوشهم الجرارة في المحيطين الأطلسي والباسفيكي (الهادي)، وفوق القارة الأوربية، وكذا عبر القارة المتجمدة الشمالية، وصولا للاتحاد السوفييتي الذي ناصروه بالعتاد والسلاح والذخيرة، كي يقف على أقدامه أمام زحف القوات الألمانية التي انساحت في الأراضي الروسية حتى دقت أبواب موسكو وستالينجراد، أقول: كي يُمَوِّنوهم بكل شيء تحتاج إليه القوات المسلحة أرضا وجوا وبحرا.

اجتمع إذن رؤساء الجامعات الأمريكية كي يتخذوا قرارا حاسما بأنه لايمكن لأمة هذه مسؤولياتها أن تدع شبابها بالملايين يجلسون لاهين بلا عمل على شواطئ البحار والبحيرات، مستمتعين بشمس الصيف الكسولة من الصباح إلى المساء.. لمدة أشهر تمتد إلى ثلاثة وربما أكثر.

وكان قرارهم هو تحويل تلك الجامعات إلى العمل في الصيف فيما عرف بفصل الدراسة الصيفي، وأصبح الطالب الأمريكي يكتفي بأسبوعين أو ثلاثة أسابيع يستريح فيها من عناء دراسة فصل الربيع، ثم يستريح مثل تلك الفترة بعد فصل الصيف ليدخل في فصل الخريف، وأضيفَ بذلك كم هائل من الخريجين الذين استفادوا من هذا النظام ليتخرجوا في فترة هي أقل من أربع سنوات من كليات الجامعة، وأضيفَ كلُّ ذلك إلى رصيد الأمة من القوى البشرية الهائلة التي تخرج أفرادها في الجامعات الأمريكية قبل موعد تخرجهم المألوف.

وهنا في منطقتنا العربية نعلم جميعا أن جامعاتنا العربية (86 جامعة) ما تزال تعمل في ظل نظامها القديم الذي يمنح الطلاب إجازة صيفية طويلة تصل إلى ثلاثة أشهر في بعضها، بل وقد تمتد في البعض الآخر إلى أربعة أشهر بالإضافة إلى حوالى شهر في منتصف العام الدراسي هو إجازة منتصف العام، فإذا أضفنا إلى طلاب الجامعات طلاب المدارس بجميع أنواعها ومستوياتها، والتي تعمل بالنظام السابق للإجازات نفسه، علمنا كم هي الساعات الهائلة الكم التي تضيع من أعمار أبنائنا، والتي كان من الممكن أن يستفيدوا منها وتستفيد الأمة، وليتنا نفكر في ذلك، ويفكر المسؤولون عن التعليم عندنا.. وليتنا نقرأ..!!

يقول المؤلف:

«لقد كانت نظرتنا - نحن الأمريكيين - لإجازة الصيف على أنها تلك الأيام الكسولة الضبابية والتي تتميز بالحركات الشبابية غير المسؤولة - وبتعبيره THE HAZ, LAZY, CRAZY DAYS OF SUMMER -، فكلها إذن كسل ولعب واسترخاء.

ولقد استقر لدينا.. في فكرنا، وفي نظامنا التعليمي، ومن خلال تاريخنا التربوي أن هذا النظام هو النظام الأنسب لنا، ولقد تقبله أفراد المجتمع من أولياء الأمور باعتبار أنه نظام مناسب لطبيعة مجتمعنا الزراعية التي فرضت أن يتفرغ الطلاب للعمل في المزارع والحقول خلال أشهر الصيف، وإن كان قد صدر قانون يحرم عمل الأطفال في المزارع قبل بلوغهم سنًا معينة، وذلك في عام 1916م، وقد صار عدد كبير منهم لايجدون أمامهم مكانا سوى الشارع للعب وقضاء وقت الفراغ، وذلك بالإضافة لأعداد أخرى من الشباب المهاجرين الذين كانوا يفدون على المجتمع الأمريكي مع ذويهم، مما زاد من وضوح المشكلة وجعل قادة المجتمع يفكرون في طرق أفضل يقضي بها الشباب الصغار أوقات فراغهم.

ولقد استجاب المسؤولون أولاً بإنشاء أماكن للترويح وبرامج تخدم هذا الهدف، أي برامج ترويحية RECREATIONAL PROGRAMS؛ وبالإضافة لإبقاء الطلاب بعيدين عن الشوارع أصبح الهدف الثاني للمدرسة الصيفية هو علاج بعض حالات الضعف لدى بعض الطلاب، وفي ذلك الوقت كان الأغنياء من أولياء الأمور قادرين على دفع شيء من الأموال لبعض المعلمين الخصوصيين لعلاج ضعف أبنائهم، أما الفقراء فكانوا غير قادرين على ذلك فجاءت المدرسة الصيفية لتحل لهم هذه المشكلة».

عقبات البداية

وبطبيعة الحال فإن أي تغيير اجتماعي أو تربوي يواجه بعض العقبات، التي تقف حائلاً بينه وبين بلوغ الهدف، وكان من العقبات التي واجهت مدرسة الصيف ما يلي:

1- نادي المعلمون بأنهم يحتاجون لإجازة الصيف للراحة والاستجمام من إزعاج عملهم التدريسي على مدار تسعة أشهر.

2- طالب الإداريون بأنهم في حاجة ماسة لإصلاح حال مدارسهم استعدادا للعام الجديد.

3- قال الآباء بأنهم يريدون أبناءهم لاصطحابهم في الرحلات خلال أشهر الصيف، وكذلك لإنجاز بعض أعمال أسرهم، أو المساعدة فيها على الأقل.

4 - أفاد الطلاب بأنهم، مثلهم مثل معلميهم، يحتاجون أشهر الصيف ليستريحوا من عناء العام الدراسي الطويل.

وعموما فإن الحضور إلى برامج المدرسة الصيفية كان اختياريا في بادئ الأمر؛ بمعنى أنه لم يكن إجباريا ولا محتما، وكان وراء الفئة التي واظبت على الحضور آباء فاهمون واعون أنّ مدرسة الصيف قد اصطنعت لمصلحة أبنائهم.

وفي عام 1959م نشر البروفيسور جيمس ب. كونانت JAMES B. CONANT كتابه العظيم: المدرسة الأمريكية الثانوية THE AMERICAN HIGH SCHOOL، وكان من بين مقترحاته وتوصياته أن مدرسة الصيف يجب أن لا تكون لمن أرادوا التقوية في موضوعات دراسية بعينها، ولكنها ينبغي أن تكون كذلك للموهوبين والأذكياء من الطلاب، كذلك فإنه اقترح تقديم مقررات عملية للجميع مثل تعلم الكتابة على الآلات الكاتبة، بالإضافة لأي مقررات أخرى - أكاديمية - يرغب الطلاب في دراستها، ولقد تركت آراء البروفيسور كونانت آثارًا واضحة فيمن تولوا أمر مدرسة الصيف من المربين.

ولقد ساعدت المعونات الحكومية التي رصدت للتعليم الابتدائي والثانوي عام 1965م على توسيع قاعدة مدرسة الصيف وشدة الإقبال على برامجها، وخاصة مقررات الرياضيات والعلوم واللغات الأجنبية(*). ثم إن المربين وسَّعوا قاعدة الاستفادة من برامج مدرسة الصيف أكثر حين اتجهوا بها ناحية النشاطات العملية التي يمكن للفرد أن يستفيد منها مدى الحياة LIFELONG ACTIVITIES، مثل المعسكرات الصيفية الهادفة، وبرامج التربية البدنية المفيدة، وتعلم الفنون الموسيقية المتنوعة، ومشاهدة الفنون المسرحية المختلفة.. الخ.

مدرسة الصيف.. والطلاب الراسبون:

ومما يوضع في ميزان حسنات مدرسة الصيف هذه أنها خدمت الطلاب الراسبين على النحو التالي:

1 - مساعدة الطلاب المحتاجين للحد الأدنى من مهارات التحصيل الأساسية.

2 - إتمام المتطلبات التربوية لنجاحهم.

3 - مساعدة فئات الطلاب في معرفة كيفية الاستفادة من أوقاتهم والتحكم فيها. وبالتفصيل نجد أنه في مجال مساعدة الطلاب المحتاجين للحد الأدنى من المهارات الأساسية اشترطت 33 ولاية في عام 1978م مستويات لايقبل بأقل منها حتى يتخرج الطلاب، أو حتى ينتقلوا من صف دراسي لصف أعلى، كما أن بقية الولايات الأخرى كانت في طريقها للنظر في هذا الموضوع. ولقد أفادت المدرسة الصيفية في هذا الجانب حين ركزت على التدريس للطلاب الذين رسبوا في مقرر أو أكثر، وعوضتهم بشكل فعال، وكان معلموهم يستخدمون معهم أساليب وطرقًا للتدريس جديدة ومختلفة عما تعودوه خلال العام الدراسي التقليدي، ومن مميزات هذا الجانب أن المعلمين كان لديهم الفرصة للتجديد التربوي، والتجريب الميداني، كما شاعت طريقة تفريد التعليم INDIVIDUALIZATION OF TEACHING آنذاك.

برامج تفريد التعليم لنوعيات معينة من الطلاب

في ظل القانون رقم 94-142 نجد أن كل طالب معوق أو متخلف HANDICAPPED قد ضُمن له الحق في تعليم مناسب ومجاني، ولضمان أن يكون مناسبًا بالفعل فإن هذه البرامج التفريدية INDIVIDU-ALIZED كانت تعاد كتابتها دوريا، وعادة ما كانت تصمم بوساطة المعلمين أنفسهم خلال العام الدراسي بعد استشارة الآباء، بل والتلاميذ أحيانا.

وفي حزيران/يونيو 1979م أصدرت القاضية CLARENCE NEWOMER في منطقة بنسلفانيا التعليمية أمرًا بأن يتولى قسم التربية إعداد برامج لما بعد

الـ 180 يومًا (التي يتكون منها العام الدراسي) لأي طفل معوق يحتاج إلى ذلك، وكان هذا الأمر بناء على الفرضية القائلة بأن التلميذ المعوق قد يتخلف أو يتراجع REGRESS إذا توقف برنامجه التربوي خلال أشهر الصيف، ولقد كان صدور هذا الأمر دافعا للمدارس كي تبحث عن معلمين أكْفَاء في برامج التربية الخاصة SPECIAL EDUCATION خلال أشهر الصيف، كما كان مرشدو الطلاب COUNSELORS مطلوبين بشدة لمساعدة الطلاب المعوقين، والطلاب الذين لديهم مشكلات اجتماعية أو نفسية.

فرص تربوية متساوية
EQUAL EDUCATIONAL OPPORTUNITIES

وفي هذا المجال نجحت مدرسة الصيف في أن تتيح فرصًا عريضة وواسعة لجميع الطلاب الذين التحقوا بها خلال أشهر الصيف، بحيث إن من كان منهم يحتاج للمساعدة في استعادة برنامج دراسي بعينه وجد مساعدة حقيقية من إدارة المدرسة في ذلك هو ونظراؤه، كما أن من أراد أن يشارك في نشاط بعينه من نشاطات الصيف وجد الباب مفتوحًا أمامه. بل إن هناك برامجَ أنشئت خصيصًا اقترحها بعض الطلاب، أو بعض أولياء الأمور، فوجدت آذانا مصغية وعقولاً متفتحة من التربويين الذين تقبلوا الأفكار وبحثوها تربويا، وحالما اقتنعوا بها وضعت موضع التفنيذ الفوري الذي لايعرف المعوقات ولا يتوقف أمام العقبات.

الطلاب الراسبون
FAILING STUDENTS

ليس من المفترض أن تكون دراسة المدرسة الصيفية صورة طبق الأصل من دراسة العام الدراسي التقليدية، بل لابد أن تسبقها حالات تشخيصية لكل طالب من الطلاب الراسبين لمعرفة أسباب رسوبه، وينبغي أن يحصل التربويون على بيانات شخصية عنه وعن ظروفه، ثم تعطى صورة كاملة لمعلميه حتى يعرفوا مع من يتعاملون، وكيف يتعاملون.

إن أسباب الرسوب كثيرة، فقد يكون الغياب بسبب المرض من بينها، وقد يكون الكسل، كما قد تكون عادات المذاكرة غير السليمة من بينها، ثم إن الجو المنزلي غير المواتي كذلك قد يكون من الأسباب، ومن جهة أخرى ربما تكون المشكلات العاطفية وعدم التكيف مع المعلم أو مع مجموعة الطلاب غير المنسجمين سويا هي كذلك من الأسباب.

من المعروف أن المعلمين لم يعودوا واقعين تحت الضغط الذي كان عليهم سابقا بأن يعملوا على إنجاح طلابهم، ومن هنا فإنهم صاروا يخبرون بأمانة عن مستوياتهم الدراسية وعن المستويات التي عليهم أن يحققوها حتى ينجحوا، والذين لايستطيعون ذلك فإن عليهم أن يعيدوا الامتحان فيها أو يلتحقوا بالمدرسة الصيفية، ومعظم أولياء الأمور أصبحوا يفضلون إلحاق أبنائهم بها.

مدرسة الصيف: نظرة جديدة

ولقد أثبتت البحوث التربوية أن المدرسة الصيفية يمكن أن تكون بديلاً للإعادة التي لاتعمل بالضرورة على تحسين مستوى الطلاب، ففي دراسة لـ CHARLES HENRY KEYES أثبت فيها أن 20٪ فقط من الطلاب الذين أعادوا السنة قد تحسّن مستواهم، بينما 39٪ منهم لم يطرأ عليهم تغير يذكر، وفي الوقت نفسه فإن 40٪ منهم قد هبط مستواهم..!!

إن نتائج هذا البحث وغيره تحبذ فكرة المدرسة الصيفية، ولكن ببرامج متنوعة حتى لاتتكرر البرامج وتصبح مدعاة للملل. إن ضغط أولياء الأمور للتحول من فكرة: انقلوا طفلي لمستوى أعلى PROMOTE MY CHILD إلى فكرة: اجعلوه يتعلم MAKE HIM LEARN، خلال الحقبة الماضية، بالإضافة لضغط الصحافة وأجهزة الإعلام المختلفة التي تحدثت كثيرا عن سوء مستوى الخريجين قد جعل المدرسة الصيفية بديلا يستحق الدراسة.

مدرسة الصيف والطلاب الطموحون
SUMMER SCHOOL FOR AMILITION STUDENTS

إن الطلاب الذين لديهم طموحات عالية خاصة لدراسة أو مواصلة دراسة بعض المقررات - بالإضافة لسيرهم العادي في دراستهم الجامعية العادية - يمكنهم متابعة ذلك في مدرسة الصيف، وكذلك الطلاب المنغمسون في النشاطات غير الصفية EXTRACUR-RICULAR ACTIVITIES مثل: التمثيل والرياضة وخدمة البيئة والمجتمع، يمكنهم أن يستفيدوا بشدة من المدرسة الصيفية وبرامجها.

ثم إن هناك نوعا من الطلاب الذين يودون أن ينتهوا من المدرسة الثانوية مبكرين كي يتفرغوا لأعمال أخرى غير الدراسة، وإن كثيرا من المدارس تسمح بهذا مادام هؤلاء الطلاب قد درسوا المقررات المطلوبة، أو إذا كان لديهم خطط طموحة للدراسة الجامعية، أو حتى ما بعد المرحلة الثانوية، وهؤلاء يمكنهم دراسة عدد من المقررات في مدرسة الصيف ثم إضافتها بعد ذلك إلى سجلاتهم بعد التحاقهم بالجامعة.

مدرسة الصيف والطلاب الموهوبون
SUMMER SCHOOL FOR GIFTED STUDENTS

إن عنصر الوقت قد لايسمح للطلاب الموهوبين بأخذ المقررات التي تتمشى مع قدراتهم وإمكاناتهم، ومدرسة الصيف - في هذه الحالة - يمكن أن تكون المكان المناسب لذلك، بل إن هناك دعما، ويمكن أن نقول ضغطا، من الحكومة الفيدرالية لتبني برامج خاصة للطلاب الموهوبين، وإن كان اختيار المعلمين المناسبين لهؤلاء الطلاب يمثل مشكلة؛ إلا أن العمل في هذا المجال يجري على قدم وساق نظرا لأهميته الحيوية بالنسبة للأمة الأمريكية كلها.

ولقد استجاب عدد كبير من المدارس لهذه الحاجة الملحة، فاهتمت تلك المدارس بترفيع النابغين من أبنائها، كما أمدتهم بعدد من المقررات الخاصة، خلال عطلة نهاية الأسبوع، أو في فترة مابعد نهاية اليوم الدراسي، ولكن، على الرغم من أن لهذه البرامج حسناتها؛ إلا أنها قد تعمل على عزلة الطلاب الموهوبين عن خبرات التطبيع الاجتماعي العادية مع زملاء الدراسة، تلك الخبرات التي يحتاج إليها جميع الطلاب، وهنا تستطيع مدرسة الصيف أن تعين في هذا المجال عن طريق إعداد بعض البرامج للطلاب الموهوبين، ولديها ثلاثة مسارات تتبعها في ذلك:

1- إعطاء مقررات متقدمة ADVANCED COURSES

2- استخدام مصادر المجتمع المحلي UTILIZING COMMUNITY RESOURCES.

3- تقديم برامج خاصة للموهوبين SPECIAL PROGRAMS FOR THE GIFTED.

وهذه المسارات - في واقع الأمر - لاتقدم تحت إشراف المدرسة الصيفية وحدها، وإنما تشرف عليها أساسا المنطقة التعليمية التي تتبعها، كما أنه يجري الإعلام في وسائل الإعلام المختلفة عن هذه البرامج حتى تتاح الفرصة لجميع من يمكنهم الاستفادة منها.

خلاصة وخاتمة:

هذه إذن هي المدرسة الصيفية بفلسفتها وبرامجها وإمكاناتها التي استفاد منها أفراد المجتمع الأمريكي من الشباب الصغار على نطاق واسع، بحيث أضافت طاقات جديدة، بل متجددة للأمة الأمريكية فدفعت تيارات من الدماء حارة في عروق المجتمع الأمريكي عن طريق مده بشباب مؤهل متعلم مدرب متحمس لخدمة أمته. فهل نعي نحن هنا في عالمنا العربي هذا الدرس التربوي بحيث نستفيد من إمكاناتنا وطاقات شبابنا التي تضيع خلال أشهر الصيف.. لعل وعسى، والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

الهوامش:

(*) كان ذلك إبان فترة المنافسة الحامية بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة على غزو الفضاء، فروسيا كانت قد سبقت أمريكا بإطلاق أول قمر صناعي في الفضاء في أكتوبر عام ١٩٥٧م، ولقد صدم المجتمع الأمريكي آنذاك فيما عرف باسم حُمّى سبوتنيك SPUTNIK FEVER، ووجه النقد الشديد للتربية وبرامجها، وبدأت حركة إصلاح تربوي هائلة لم تتوقف حتى نجح الأمريكيون في وضع أول رجل على سطح القمر في تموز/يوليو ١٩٦٩م، في سابقة تاريخية لم تلحقها فيها أية أمة حتى الآن. (المترجم).

الصيام مدرسة وأي مدرسة

عبدالغني أحمد ناجي

إذا كانت أهداف أيَّة مدرسة تتبلور في التربية والتعليم، والسّموّ بالغرائز، واكتساب المعارف؛ فإن الصوم ـ لكونه مُحقِّقًا جانبًا كبيرًا من تلك الرسالة ـ حقيقٌ بأن تُضفى عليه سمات المدرسة، أو يُسَمَّى مدرسة.

ولنعش في رحاب الصيام، وأنداء شهره الفضيل لنستبين بجلاء أنَّ الصيام مدرسة.

فالطفل الصغير يضعه والداه بحنان دافق، وحبٍّ غامر في المدرسة بُغية أن تُغرس في نفسه الفضائل، وتنمو في عقله المعارف، ثم يرقَّ إحساسُه، ويشفَّ ذوقه حتى يصير إنسانًا سويًا لا يأتي إلا بما يروق ويعجب عبر مراحل عمره. إذا كانت هذه هي رغبة كل والدين من تعليم فلذة كبديهما، فإنها لاتعدو أن تكون هي بغية الإسلام من فريضة الصيام. فالإسلام هنا كالوالدين هناك يريد إيجاد المسلم الكامل أو المؤمن الصادق الذي تتحقق فيه نظافة الظاهر والباطن، والذي يحمل القلب العطوف، واللسان العفيف، والنفس الأبية، واليد السخية، والنظر الغاض عن محارم الله، والفؤاد الصابر الصادق أمام كوارث الحياة.

هذا النموذج الحيّ من بني البشر، الذي ينشد الإسلام وجودَه على مسرح الحياة؛ لايتربى ويتخرج إلا في مدرسة الصيام التي وضع منهاجها العزيز الحكيم، ونفَّذه بتربيته وتعليمه رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

ولنأت للفرد المسلم داخل تلك المدرسة لنجده يُعوِّد ما تَسْتَوي به شخصيته حتى يغدو رجلاً بكل ما توحي به كلمة (الرجل) ـ في ذوقنا العربي ـ من مروءة وأريحية وقوة وإرادة وصلابة، وإن ذلك لمن ثمار الصيام، وأقول: (يُعوِّد) نظرًا لما ذهب إليه علماء النفس من أنَّ العادات السَّيِّئة لاتُقتلع إلا بالمران على إحلال عادات حسنة مكانها، وكأني بالصوم حالئذ ينفِّذ ذلك المنهج التربوي الممتاز، ولكن قبل اكتشاف علماء النفس بقرون. ولنفرض أن المسلم قبل الصوم هلوع جزوع: ﴿إن الإنسان خُلق هلوعًا﴾ (المعارج:19)، وأنَّه هشُّ الإرادة خائر العزيمة، مُمسك شحيح، لايعرف للنظام قيمة، ولا للتضامن أثرًا، لنفرضه هكذا حتى يكون موازيًا للطفل الغض حين الذهاب به إلى المدرسة، فكما أن المدرسة تُولي الطفل عنايتها التربوية في تؤدة وبَصر، فإن الصيام كذلك، فهو يعمد إلى شهوات الإنسان ـ وهي منافذه الحيوانية الهابطة ـ لينظم انطلاقها وانفتاحها في رتابة مُدرَّبة على النظام أولاً، وعلى قوة الإرادة، والتحكم في الأهواء النفسية ثانيًا. ولنتخيل هذا الإنسان ذا الشهوة الجامحة للطعام والشراب والجنس، والذي يرى أمامه ما يشبع النَّهم من الطعام وما يطفئ الصَّدى من الرّيّ، ومايروى الشهوة من الحلال، ثم يكبح الجماح، لنتخيله فاعلاً ذلك في تكرار مُحبب، وترداد أثير أيَّامًا معدودات من كل عام؛ أفلا يكون بذلك قادرًا على ضبط حيوانيَّته الشرود، صاعدًا في مراقي الإنسانية إلى منازل أولياء الرحمن الأبرار، وهنا يتحقق جانب القضاء على الهلع والجزع بالتدريب على الصبر.. نفس تنزع، وشهوة تُدفع، وصوم يقي ويمنع حتى تتربّى قوة الإرادة التي تكوّن أعظم جوانب الرجولة في حياة الفرد.

ثم لنتخيل هذا الصائم الذي يفطر في وقت معلوم لايتقدم عنه لحظة، ويُمسك في وقت معلوم لايتأخر عنه لحظة، ويدأبُ على ذلك طوال شهره العظيم؛ لنقول لأنفسنا: أليس ذلك أقوم نهج لتعليم النظام، والوفاء بالوعود والعهود، واحترام المواقيت؟!!.

وإذا كان التلاميذ في المدرسة يقومون بأعمال جماعية في بعض الأحيان تحت إشراف المسؤولين والمدربين، ليتعودوا التضامن والاتحاد، لما لهما من أثر غير منكور في الحياة؛ فإن الصائمين في رمضان يقومون بأروع مما يقوم به التلاميذ في المدرسة من أعمال ونشاطات جماعية. تغرب الشمس فيفطرون معًا، ويوشك الفجر فيُمسكون معًا، وكأني بهم في مظهرهم الوحدوي الآسر قد غَدَوا شخصًا واحدًا: يسمعون أذان المغرب فيمدُّون أيديهم إلى الطعام، ليرفعوها إلى الأفواه في لحظة واحدة، وإن نأت الديار، أوحجبت التراثي الجُدُر والأبواب، فأي تضامن واتحاد يدنوان من هذا التوافق البديع.

ثم تأتي فضيلة المراقبة التي ينتقل بها الصائم من مرحلة الرجولة التي حققها بقوة الإرادة إلى منزلة تدنو من منازل الملائكة، وتلك المراقبة التي يتعلَّمُها المسلم في مدرسة الصيام هي المرادة في قول الله تبارك وتعالى مُبيِّنًا أهمَّ حكمة من الصيام: ﴿يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كُتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ (البقرة:183)، فتقوى الله ـ بمعنى مراقبته في السر والعلن، والخوف من عقابه ـ هي ثمرة طيبة جنيَّة من ثمار الصيام، إذ الصائم في مكنته أن يختان، فيفطر في الخفاء، ويتصاوم في العراء، ولايستطيع أحد أن يدرك خيانته، فلا يعلم مكنون السرائر إلا الله تعالى، ومن ثم قال في حديثه القدسيّ: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي، وأنا أجزي به»، فإذا امتنع المسلم عن إشباع شهواته في وقت محدود انصياعًا لأمر ربه وتعاليم دينه، مع إمكانه أن يتعدَّى الحدَّ، ويخالف الأمر سرًا، ويتظاهر بالاستجابة والتنفيذ جهرًا في الصوم بالذات؛ فإنه سيمرن على تقوى الله ومراقبته، ثم على إبعاد نفسه عن مواطن الزَّلل، ومباءات الرذيلة وإن لم يره أحد من البشر، فهو يرى الله، أو يثق بأن الله يراه: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». تلك المراقبة ينداح أثرها الطيِّب الرطيب فيشمل المجتمع بأسره إصلاحًا وتهذيبًا، ولسنا مسرفين في المبالغة حين نقرِّر ذلك؛ إذ إنَّ الشخص إذا مَرَن على التقوى والمراقبة حارب الرياء في نفسه أولاً، وتمرّس بأداء الواجب المنوط به ثانيًا؛ طاعةً لربه، وخوفًا من عقابه، باعتبار أنَّ أداء الواجب عبادة، غير عابئ بمراقبة البشر له.

ولو وُجد مثل هذا الإنسان المثالي الملتزم الذي ربَّاه الصيام، أو الذي تخرج في مدرسة الصيام، لكان اللبنة الصالحة في مجتمع نظيف، لايحتاج العمل فيه إلى مراقبة الأفراد بعضهم لبعض، ولاستغنى ذلك المجتمع عن النظام الهرمي من المفتشين والمراقبين من البشر، فالضمير الحي اليقظ الذي ربَّاه الصيام خير رقيب لصاحبه في كل حين.

وبعد، فها هو ذا الصيام في تربيته للنفوس، وتقويمه للأخلاق، يتخرَّج في مدرسته الرائدة الفردُ المثالي الصالح لتكوين مجتمع فاضل سليم. فالصيام مدرسة وأيّ مدرسة!!



حفل التراث العربي بأنواع شتى من التأليف، فلم يدع المؤلفون موضوعاً لم يكتبوا فيه، فقد ألفوا في الموضوعات الجادة في دقائق العلوم والفنون، ولم يغفلوا الموضوعات الطريفة، كما خصوا كل موضوع بتأليف، وكل مسألة بمصنف، وكل فن بكتاب أو رسالة، في جد أو هزل.

حدائق النمّام في الكلام على ما يتعلق بالحمّام

يعدّ هذا الكتاب من المؤلفات التي تناولت موضوعًا فريدًا وطريفًا يجمع بين الجدّ والهزل، ويمزج الحكاية بالأدب، والشعر بالرسائل، والنثر بالمداعبات والإخوانيات، والطب بالحكمة، ويتناول موضوع الحمّامات التي كانت شائعة في عصور الإسلام، وآدابها وفوائدها ومضارها، وبعض ما يجري فيها، وموقف العلماء والناس منها.

وقد ألّف في هذا الموضوع مجموعة من العلماء منهم: أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي المتوفى سنة 285هـ الذي وضع كتاب «الحمام وآدابه»، وهناك أيضا كتاب «آداب دخول الحمام» لعبد الكريم بن محمد السمعاني المتوفى سنة 562هـ، وكتاب «آداب الحمام» لمحمد بن عبدالله الشبلي المتوفى سنة 712هـ، وكتاب «الإلمام بآداب دخول الحمام» لمحمد بن علي بن حمزة المتوفى سنة 765هـ، و«عقود الكمام في متعلقات الحمام» لابن الملقن، و«رفع اللثام عن أحكام الحمام» لابن طولون، وله أيضا «غاية الاحترام فيما ورد في الحمام». وكتاب «النزهة الذهبية في أحكام الحمام الشرعية والطبية» للمناوي، و«القول التام في آداب دخول الحمام» لأحمد بن العماد الأقفهي المتوفى سنة 808 هـ، وكتاب في آداب الحمام لمحمد بن الكركي المتوفى سنة ٨٣٥هـ، وللطبيب داود الأنطاكي الضرير صاحب التذكرة المعروفة باسمه رسالة في الحمام، وغيرهم.

وكتاب «حدائق النمّام في الكلام على مايتعلق بالحمّام» يعدّ من أهم الكتب في هذه السلسلة التي وصل إلينا بعضها، وبعضها الآخر مفقود، ويعود الفضل في نشره والتعريف به إلى عبدالله محمد الحبشي الذي حققه وقدم له بدراسة جيدة. ومؤلف الكتاب أحمد بن محمد الحيمي الكوكباني، ينتهي نسبه إلى نشوان الحميري، وللحيمي مؤلفات كثيرة من أهمها طيب السمر في أوقات السحر، والمفاخرة بين الروضة وبئر العزاب، ونجوم الليل على غرر الخيل؛ في الخيل وأدبه، وسُلافة العاصر، وله ديوان شعر، وكانت وفاته سنة 1153هـ.

ونقل المحقق عن المستشرق آدم متز أن اتخاذ الحمامات في الحضارة الإسلامية من أحسن ما جاء به المسلمون من اليونان والرومان، مع أن الإسلام أوصى بالنظافة ودعا إليها في أداء الواجبات الدينية.

وكانت تقام حمامات شخصية خاصة في البيوت، ولم يعرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه دخل الحمام، ويروى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال، قال صلى الله عليه وسلم: «نعم البيت الحمّام، يطهّر البدن ويذكّر بالنار».

ويذكر الحيمي في كتابه أن من شروط الحمام في بنائه أن تكثر التلافيف في دهاليزه، ويُحكم طبق أبوابه لتقوم الحرارة، وينبغي أن يصان من الغبار والدخان، ولايفتح بابه من جهة الجنوب، وأن تكثر المنافذ وتستر بالزجاج والبلور لأجل الضوء، وأن يفتح في زمن الحر لفصل ما انعقد من الغبار وتلطيفه، ويعاهده قيمّه بإصلاح مافسد بالبخورات الطبية، وتنظيف وإزالة ما مكث من الماء في الأبازير وهي الحيضان لئلا يفسد.

واختلف الشعراء في مدح الحمّام وذمّه، فممَّن مدحه أبو جعفر الطليطلي، يقول:

يا حُسن حمامنا وبهجته
مرأى من الحسن له حسن
ماء ونار حواهما كنف
كالقلب فيه السرور والحزن

ومما قيل في ذم الحمام:

وحمّام قليل الماء داجٍ
وفيه ألف شيطان رجيم
ولاغير المزاحم من رفيق
ولا غير المدامع من حميم
طلبنا ماءه فحنا علينا
حنو المرضعات على الفطيم
ونقطنا برشح بعد رشحٍ
كمصٍ من أباريق النديم
يسدّ الحرّ عنا في شتاء
فيحجبه ويأذن للنسيم
يروع بهوله من حلّ فيه
فيحسب أنه هول الجحيم

ومن أطرف ما قيل في الحمام قول أحمد بن ناصر المخلافي من أدباء اليمن:

ولم أدخل الحمام من أجل حره
وكيف التذاذي بالنيار النوافح
ولا جئته أبغي اصطلاء نياره
وكيف ونار الشوق بين الجوانح
ولكنه لم يكفني فيض عبرتي
على ماضيات من ذنوب فواضح
ولما رأيت العين لم يكف وبلهاً
دخلت لأبكي من جميع جوارحي

ترجمة الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية

أحمد منّور

بدأ الاهتمام بترجمة الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية في المشرق العربي في مطلع الستينيات الميلادية، وكان ذلك نابعا - في الأساس - من اهتمام الأشقاء العرب بالثورة الجزائرية المسلحة، التي كانت على أشدها آنذاك، فكان هذا الأدب يستجيب لحاجة لدى الجماهير العربية في معرفة كل شيء عن الجزائر، ولاسيما أن السلطات الاستعمارية كانت قد عملت، طوال أكثر من قرن من الاحتلال، على عزل الجزائر وشعبها عن الأقطار العربية الأخرى، وهو الشيء الذي جعل الأشقاء العرب لايعرفون عن الجزائر وأوضاعها الداخلية إلا القليل، فكانت الرواية والقصة على الأخص تستجيب أكثر من غيرها لتلك الحاجة، لكونها تعكس الحياة الاجتماعية الجزائرية في مختلف جوانبها، والحياة اليومية للجزائريين أثناء الثورة بالذات.

لذلك حظيت القصة والرواية المكتوبتين باللغة الفرنسية بالأولوية في الترجمة، خاصة أن القصة المكتوبة باللغة العربية في الجزائر كانت ماتزال في بدايتها، ولا تستجيب لحاجة القارئ العربي؛ لا من حيث الكم ولا النوع، أما الرواية فكانت منعدمة. غير أن أول عمل أدبي جزائري تُرجم إلى اللغة العربية لم يكن قصة ولا رواية، ولكنه كان ديوان شعر، ونعني به ديوان مالك حدّاد الذي يحمل عنوان «الشقاء في خطر»، قامت بترجمته السيدة ملك أبيض العيسى، ونشرته مكتبة النشر بحلب سنة 1961م. ولعل زيارة صاحب الديوان لدمشق سنة 1958م، ولقاءه بالمثقفين السوريين كان له دخل في هذه الأسبقية في الترجمة؛ إلا أن هذا لايلغي أبدًا أهمية الديوان المذكور، ولاينقص شيئًا من قيمته الشعرية، ولا من مكانة صاحبه الذي شهد له أحد أكبر شعراء فرنسا في القرن العشرين، هو لويس أراغون، بأنه "من طيور الأغصان العليا" كناية عن علو كعبه في مجال الشعر. ويضاف إلى هذا عامل آخر، هو أن كل قصائد «الشقاء في خطر» تدور حول موضوع الثورة الجزائرية المسلحة، وتعبر بجمالية خارقة للعادة عن كفاح الشعب الجزائري وتضحياته ومعاناته، وعن فظاعة الحرب وقساوتها. وقد أبدعت المترجمة - بدورها - في نقل معاني الشاعر وأحاسيسه المرهفة، وصوره الشعرية الرائعة، بالرغم من قتامة تلك الصور وسواد حواشيها.

بعد هذا ظهرت سلسلة من الأعمال الأدبية الجزائرية المترجمة من الفرنسية تحت عنوان «سلسلة الأدب الجزائري»، ونُشرت تحت إشراف وزارة الثقافة والإرشاد القومي السورية، نجد من ضمنها رواية «نجمة» لكاتب ياسين، و «صيف أفريقي» لمحمد ديب، و«ابن الفقير» لمولود فرعون. وقد حظي محمد ديب بنصيب الأسد؛ حيث تُرجم له ما لايقل عن سبعة أعمال أدبية بين رواية ومجموعات قصصية.

بعد هذا، توالت الترجمات لهذا الأدب، وبمبادرات فردية حسب مايبدو من تعدد أماكن نشرها، وتعدد مترجميها، إذ قامت السيدة ملك أبيض مرة أخرى بترجمة مسرحيتي كاتب ياسين «الجثة المطوقة» و«الأجداد يزدادون ضراوة»، ونشرتا ببيروت سنة 1962م، من قبل المؤسسة العربية للدراسات والنشر، كذلك قام الدكتور سامي الجندي بترجمة رواية «التلميذ والدرس» لمالك حداد، ونشرتها دار الطليعة ببيروت سنة 1962م أيضًا. وفي سنة 1968م نشرت دار الطليعة نفسها الترجمة

الكاملة لثلاثية محمد ديب: «الدار الكبيرة» و«الحريق» و«النَّول»، من ترجمة الدكتور سامي الدروبي، وهي الروايات التي لقيت، فيما يبدو، إقبالا من جانب القراء العرب، فأعيد طبعها كاملة في سلسلة روايات الهلال سنة 1970م بمصر. وفي هذه السنة بالذات 1970م، ترجمت ونشرت مذكرات «مولود فرعون» عن أيام حرب التحرير، وهي بعنوان «يوميات»، وقام بترجمتها عبدالعاطي جلال، وأعطاها عنوان «يوميات معركة الجزائر» ونشرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب.

بعد هذا التاريخ حدث فتور ملحوظ في اهتمام الأشقاء العرب بترجمة الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، ولم يترجم أو ينشر طوال فترة السبعينيات - حسب علمي - سوى مسرحية قصيرة لكاتب ياسين بعنوان «مسحوق الذكاء» نشرت ضمن أحد أعداد مجلة الهلال.

وكان قبيل هذا التاريخ بأعوام قليلة، قد بدأ الاهتمام بترجمة الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية إلى اللغة العربية من جانب الجزائريين أنفسهم، ومن جانب بعض المثقفين التونسيين، دون أن يتخذ ذلك الاهتمام شكل عمل مخطط، أو يُتبنى من قبل هيئات رسمية، تماما مثل مارأينا في بلاد المشرق العربي، لاسيما بعد أن حصلت الجزائر على استقلالها؛ حيث اتخذت الترجمة شكل مبادرات فردية متفرقة. وترجع الريادة في هذا الشأن إلى الدكتور حنفي بن عيسى، أستاذ الترجمة بجامعة الجزائر، الذي نشط في ترجمة ونشر مجموعة من الروايات لكتاب جزائريين يكتبون بالفرنسية، فترجم ونشر على التوالي: «رصيف الأزهار لايجيب» لمالك حداد، سنة 1965م، و«الأرض والدّم» لمولود فرعون، و«الدروب الوعرة» للكاتب نفسه، سنة 1966م و1969م على التوالي، قبل أن يتجه إلى ترجمة أعمال أخرى ذات طابع فكري لكتاب جزائريين كذلك.

وفي تونس، كانت أول مبادرة على يد الأستاذ صالح القرمادي، الذي ترجم ونشر في تونس سنة 1968م رواية «سأهبك غزالة» لمالك حدَّاد، وكان على صلة وثيقة بالكاتب، وتحدث في المقدمة التي كتبها لنص الترجمة عن أول لقاء له بمالك حداد في باريس، وعن رغبتهما المشتركة في رؤية كل الأعمال الأدبية المغاربية التي كتبت بالفرنسية مترجمة إلى اللغة العربية.

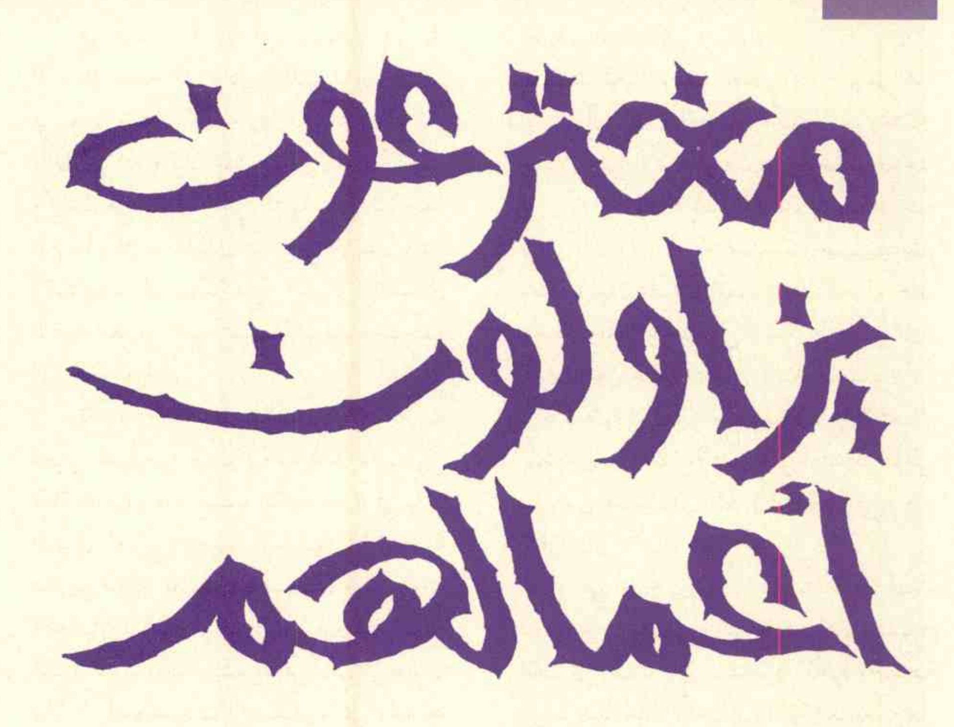
وتُعدُّ مرحلة السبعينيات في بلاد المغرب العربي فقيرة من حيث ترجمة هذا الأدب إلى اللغة العربية، تماما مثلما كانت فقيرة في بلاد المشرق العربي؛ بحيث لم تشهد إلا ترجمة عناوين قليلة. بعضها معاد، مثل رواية «التطليق» لرشيد بوجدرة، من ترجمة صالح القرمادي، وأعيد نشرها في الجزائر بعنوان «الإنكار»، وأعيدت ترجمة روايتي «نجمة» لكاتب ياسين، و«ابن الفقير» لمولود فرعون، ترجمة محمد قوبعة ومحمد عجينة على التوالي، وهما - فوق كونهما إعادة ترجمة - لم يتجاوزا من الناحية الفنية مستوى الترجمتين الأولين، بل إن ترجمة السيد قوبعة لنجمة، كانت دون مستوى ترجمة السيدة ملك أبيض بكثير.

غير أن عملية ترجمة هذا الأدب عادت فنشطت من جديد في عقد الثمانينيات والتسعينيات، في الجزائر وفي تونس على السواء، فترجمت مجموعة مهمة من الأعمال الروائية والقصصية، ولكن ظلت الترجمة في الغالب الأعم تخضع للمبادرة الفردية، وليس لأي تخطيط أو توجه بعينه، حتى وإن اتخذت في تونس شكل حركة منظمة وهادفة في نطاق ماعرف بـ «عودة النص»، وهو المصطلح الذي أطلقه جماعة من المترجمين على عملية نقلهم للأعمال الأدبية المغاربية التي كتبت بالفرنسية إلى اللغة العربية، في إشارة واضحة إلى اعتبارهم تلك النصوص نصوص عربية، حتى وإن كتبت باللغة الفرنسية، وترجمتها إلى العربية تعني في نظرهم إعادتها إلى أصلها.

وقد تمكنّا من أن نحصي ماتُرجم من هذا الأدب إلى اللغة العربية، فكان اثنين وثلاثين عملا حتى الآن، هو مجموع ما ترجم منه في بلاد المشرق والمغرب معًا، وتفصيله كما يلي: 25 رواية، و4 مسرحيات، ومجموعتان قصصيتان، وديوان شعر واحد، بمعدل عمل واحد في السنة، في فترة تزيد على ثلاثين عاما بقليل. ويمثل مجموع ما ترجم حوالي 10٪ من مجموع الأعمال المنشورة من هذا الأدب على امتداد حوالي سبعين عاما، أي منذ 1925م على وجه التقريب.

وعلى أية حال، فإن عرضنا الموجز لهذا الموضوع، والأرقام التي قدمناها، تسمح للقارئ - فيما أرى - بتكوين فكرة واضحة عن ترجمة هذا الأدب إلى اللغة العربية، ولعل الأهم من ذلك أنها تفتح المجال لطرح العديد من الأسئلة التي يمكن أن تكون محورا للنقاش مستقبلا، ومن تلك الأسئلة على سبيل المثال: ما المعايير التي اختيرت على أساسها النصوص التي تُرجمت، ولاسيما تلك التي ترجمت في المشرق العربي؟ هل كانت حقا ذات قيمة أدبية وفنية عالية أم اعتُنيَ بها كنوع من التعاطف مع الثورة الجزائرية؟ وكيف نفسر تراجع الأشقاء المشارقة عن ترجمة هذا الأدب في الوقت الراهن؟ وما مدى صحة مصطلح "عودة النص" الذي أطلقه المترجمون التونسيون على مترجماتهم من هذا الأدب من الناحية العلمية؟ وما مستقبل هذا الأدب "العربي" الذي كتب ويكتب باللغات الأجنبية في بلدان عربية؟

كل هذه الأسئلة وغيرها جديرة فيما أرى، بأن تُطرح للبحث والنقاش، ولاسيما أنها تتعلق في جانب منها بمسألة الأدب والهوية القومية، فضلاً عن كونها إحدى قضايا الأدب المقارن التي لم يتوصل فيها إلى رأي نهائي.



م. محمد إبراهيم حمد

هذا الكتاب جديد في فكرته؛ إذ يحوي بين دفتيه لقاءات أجراها المؤلف كينيث أ. براون مع ستة عشر مخترعًا أمريكيا معاصرًا من الذين شاركوا بجهودهم في ظهور مئات الاختراعات والابتكارات الجديدة التي تغزو الأسواق سنويا وتطويرها، وقد قام بترجمة الكتاب يوسف عليان.

ويلاحظ القارئ أن هؤلاء المخترعين من ذوي الشهرة المحدودة، ولا أظن أحدًا ـ عدا المختصين والمهتمين ـ قد سمع بأكثر من اثنين أو ثلاثة منهم، فليس فيهم من فاز بجائزة نوبل أو اخترع أحد الاختراعات الكبرى كالتلفاز أو الحاسوب (الكمبيوتر) أو غيرهما من الاختراعات البارزة. وقد تكون هذه الفكرة مقصودة من قبل المؤلف لسببين:

أولهما: أن معظم الاختراعات الكبرى وإن ظهرت فكرتها ونماذجها الأولى من قبل مخترعين أوائل اشتهروا بها، لكن الصحيح أنها قبل وصولها إلينا مرت بعشرات من التطويرات والتحسينات من قبل عشرات المخترعين ممن أضافوا إليها حتى أصبحت على ما هي عليه اليوم.

وثانيهما: أن يقدم المؤلف مثلاً للشباب الواعد المندفع بأن هناك عشرات المخترعين الذين، وإن لم ينالوا جائزة نوبل أو ما شابهها من جوائز عالمية، يُشهد لهم باختراعاتهم التي كان أثرها واضحًا دائما في تطور المجتمع، رغم ضآلة إمكاناتهم وصعوبة بداياتهم.

ومن توطئة للكتاب بقلم جيمس بيرك نقتطف المقطع التالي:

«يعدُّ هذ االكتاب مصدر دفع ثمين للجهود التي بُذلت، لكونه يتعلق بتلك المجموعة من الأشخاص الذين كانوا خلال التاريخ ذوي أهمية أساسية بالنسبة للتقدم الذي نقلنا من حياة الكهوف إلى الحياة المعاصرة في زمن قصير نسبيًا، هؤلاء الأفراد غير العاديين هم المخترعون الذين جلبوا التغيير، وكما يبين هذا الكتاب بوضوح فإن للمخترعين مقدرة فريدة من نوعها من بين جنس فريد من نوعه أصلاً.

إنهم يستطيعون أن يجمعوا واحدًا إلى واحد، وتكون النتيجة ثلاثة! والسبب أن أحسن عمل لهم يأتي من ممارسة تداعي الأفكار أو الترابط العقلي الذي يتم بالمصادفة، وهم يتحدثون بشكل أو بآخر عن أفكار تأتي بعضها مع بعض أو تقفز بطرق تجعل المفهوم الناتج أكثر من مجرد مجموع أجزائه، وعندما يحدث ذلك فإن 1+1=3».

وفيما يلي عرض سريع لهؤلاء المخترعين نُعَرِّفهم ونذكر أبرز اختراعاتهم التي نالوا بها شهرتهم بشكل موجز، ونترك التفاصيل لقارئ الكتاب فالهدف من هذا العرض تعرّف أفكار المخترعين وطريقة تفكيرهم بغض النظر عن أسمائهم ومخترعاتهم.

بول ماكريدي

حاصل على درجة الدكتوراه في علم الطيران، ويرأس الآن «شركة الاستشارات البيئية وشؤون الطيران» التي أسسها عام 1971م، وقد أطلقت عليه جمعية المهندسين الميكانيكيين الأمريكية لقب: مهندس القرن.

كان اختراعه الأساسي الذي نال الشهرة بسببه هو طائرة «كوندور» عام 1977م، وهي طائرة تعتمد الجهد العضلي في طيرانها دون محركات، ثم طوراختراعه وصنع طائرة «الباتروس» عام 1978م التي عبرت القنال الإنجليزي. وفي عام 1980م قام بصنع أول طائرة تسير بأشعة الشمس وقطعت 163 ميلاً متواصلة.

ويلسون جريتباتش

حاصل على درجة الماجستير في الهندسة الكهربائية، ويدير شركة أنشأها باسم «شركة جريتباتش للإسعاف العام المحدودة»، وأبرز اختراعاته ضابطة نبضات القلب الكهربائية عام 1960م، ويزرع منها في أجساد البشر أكثر من 300 ألف قطعة سنويًا، ثم تصميمه بطارية الليثيوم لتغذي النابضة بالطاقة مدة عشر سنوات، بدل البطاريات السائدة التي كانت تستبدل كل سنتين.

ماكسيم فاجيه

حاصل على البكالوريوس في هندسة الطيران، وعمل معظم حياته في وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا)، ويدير الآن شركة «الصناعات الفضائية» التي أسسها عام 1983م لتطوير تسهيلات فضائية تستعمل في التجارب العلمية والصناعية الفضائية.

ومن موقع عمله قام بالعديد من الاختراعات والتطويرات في مجال المركبات الفضائية وخاصة مركبة ميركوري التي ظهرت عام 1961م.

مارفن كامراس

حاصل على درجة الماجستير في العلوم، وأطلق عليه لقب «مخترع العام» سنة 1970م، وله أكثر من 500 براءة اختراع في مجال الاتصالات الكهربائية والصوتيات وأجهزة التسجيلات.ص

بوب جندلاتش

حاصل على درجة البكالوريوس في الفيزياء، وله 136 براءة اختراع منها 133 في مجال التصوير الجاف، حيث تبنت شركة هالويد - زيروكس حاليًا - اختراعاته لتصبح أكبر شركة في العالم في مجال آلات النسخ والتصوير، وهو متقاعد حاليا (نظريًا) حيث ما يزال يشرف على مختبر زيروكس في نيويورك.

جيروم ليملسون

حاصل على درجة الماجستير في الهندسة الصناعية، وله أكثر من 400 براءة اختراع تتراوح بين ألعاب الأطفال والدوائر الإلكترونية والتحكم الصناعي.

ستانفورد أوفنشكي

خريج معهد صناعي، ومع ذلك فقد تزوج دكتوره في الكيمياء البيولوجية عملت معه في شركته (شركة أدوات تحويل الطاقة) التي أسسها عام 1960م، وله أكثر من 100 براءة اختراع في مجال أدوات تحويل الطاقة استخدمها في مجالات جديدة كذاكرات الحاسوب والخلايا الكهرضوئية.

ماري سبيث

السيدة الوحيدة المذكورة في الكتاب، حاصلة على درجة الماجستير في الفيزياء، وتعمل حاليًا في مختبر لورنس ليفرمور الوطني في مجال تطوير الليزر الذي أعطاها شهرة عالمية عند اختراعها ليزر الأصباغ الذي ينتج الضوء بألوان متعددة.

جاكوب رابنو

حاصل على درجة البكالوريوس في الهندسة الكهربائية، ويعمل حاليًا بشكل جزئي في مكتب المقاييس الحكومي. براءات اختراعاته فوق المئتين، وأبرزها آلات فرز الرسائل بمكاتب البريد، وآلات للقراءة تستخدم لقراءة الشيكات البنكية، وأجهزة تعشيق السيارات.

ستيف وزنياك

أصغر المذكورين في الكتاب فهو من مواليد 1950م، حاصل على البكالوريوس في العلوم، واختراعه الأشهر المعروف عالميًا على نطاق واسع هو جهاز حاسوب أبل 2 الذي قام بتسويقه مع زميله ستيف جوبز ضمن شركة أبل.

ريموند كيرزويل

حاصل على درجة البكالوريوس في علوم الحاسب، ويرأس حاليًا شركتين أسسهما لأنظمة الموسيقى والذكاء التطبيقي، وكانت اختراعاته مركزة مع الذكاء الصناعي فاخترع آلة لقراءة الخطوط يستخدمها المكفوفون، وآلة لإعادة إنتاج الأصوات الموسيقية.

رومان سزبور

خريج مدرسة صناعية، ورغم بلوغه السبعين فهو يعمل 18ساعة يوميًا طوال الأسبوع، له 44 براءة اختراع منها أول قطب كهربائي طبي، وآلة لصنع الكعك، وغيرها.

تيد هوف

حاصل على درجة الدكتوراه في الهندسة الكهربائية، نال عام 1983م لقب مخترع العام، وكان اختراعه الأبرز الذي أحدث ثورة في مجال الإلكترونيات الدقيقة حاسوبًا مصغرًا على شريحة واحدة (إنتل 4004)، ويعمل الآن مستشارًا لعدة شركات.

جوردن جولد

حاصل على درجة الدكتوراه في الفيزياء من جامعة كولومبيا التي نال سبعة من خريجيها جائزة نوبل، كانت اختراعاته تتركز في مجال الليزر وتطبيقاته. حاز لقب مخترع العام 1978م.

هارولد روسن

حاصل على درجة الدكتوراه في الهندسة الكهربائية، يعمل في شركة هيوجز للطائرات منذ عام 1956م، واختراعاته في مجال الأقمار الصناعية وتطويرها خصوصًا قمر سينكوم 2.

نات ويث

حاصل على درجة البكالوريوس في الهندسة الكهربائية، له العديد من المخترعات كآلات الغزل والنسيج، واختراعه الأبرز هو القنينة البلاستيكية المستخدمة لحفظ المشروبات المحتوية على الكربون.

ويلاحظ من خلال العرض أن من هؤلاء المخترعين أربعة فقط يحملون درجة الدكتوراه ومثلهم من حملة الماجستير، وستة يحملون درجة جامعية واثنان من خريجي المعاهد الصناعية.

بعد هذه اللمحة السريعة عن هؤلاء المخترعين ننتقل إلى بعض الأسئلة التي طرحها عليهم المؤلف لنعرف كيف كانت إجاباتهم عنها؟ ولنفهم منها كيف يفكرون، ولماذا برزوا من بين آلاف العلماء غيرهم؟ عسى أن يجد شبابنا في أفكارهم ما يشجعهم ويدفعهم للمثابرة على العلم والعمل ومحاولة الابتكار رغم ضعف الإمكانات أو استهزاء الآخرين وسخريتهم.

السؤال الأول: في نظرك، ما الصفات التي يتميز بها المخترع؟

اتفقت إجابات المخترعين على أهمية حب الاستطلاع، ومعرفة كيفية عمل الأشياء الصناعية كالآلات والطبيعية كالطيور، ومراقبتها لفهم قوانين عملها، بالإضافة إلى الطريقة المميزة التي يواجهون بها المشكلات والعقبات، ثم الثقة بالنفس دون غرور والمثابرة على العمل.

يقول جريشباتش : إن المخترعين هم ذلك النوع من الأشخاص الذين لايبدون اهتمامًا بمشكلة ما إلا عندما يبدو حلها مستحيلاً.

ويرى هوف أن أفكار المخترعين ليست أفضل من أفكار غيرهم، لكن الفرق بينهم وبين الآخرين أنهم كانوا مثابرين على متابعة تنفيذ هذه الأفكار فالحافز أهم من الفكرة.

أما ماكريدي فإنه: يتصدى للمشكلة من اتجاه غير متوقع، وعند التوصل إلى حل فمن الممكن دومًا أن تفسره بالمنطق مع أن أسلوب الحل قد يكون سخيفًا.

ويفسر اوفنشسكي وضعه بالقول: يبدو أنني أقوم بمعالجة المعلومات بشكل يختلف، وأنني ألجأ إلى مخزوني من المعلومات بشكل مختلف.

السؤال الثاني: ما الدافع الأساسي لكي تصبح مخترعًا وتنجز ما أنجزته؟

تعددت الإجابات ردًا على هذا السؤال بين المال والتحدي والمتعة. ففي حين كان حافز ماكريدي الفوز بجائزة مادية لسداد دين عليه - وقد فعل -، فإن جريشباتش لا يهتم بالمسائل المادية؛ بل يسأل نفسه: هل هذا عمل جيد عند الله؟، بينما رابنو يخترع الأدوات التي يحتاجها ويقوم بذلك للمتعة والتحدي

وليس للحصول على المال وإن كان لا يمانع في الحصول عليه إن أمكن.

السؤال الثالث: ما نظرة الآخرين للمخترع؟

يتفق المخترعون على أن الآخرين ينظرون إليهم بكثير من السخرية والتشكيك، فيقول كامراس: إن الأفلام السينمائية تصور المخترع كشخص يقوم بخلط الأشياء بعضها مع بعض ولكنه في الواقع لا يعرف ماذا يعمل، وأن المخترع قد يحاول مع مئات الأشياء التي لاتعمل مما يعطي الناس انطباعاً بأنه مجنون.

أما سزبور فيقول: لو أخبرت أغلبية الناس عما تريد القيام به فإنهم سوف يصدرون أحكامًا قبل أن تبدأ العمل، ولو نجحت في عملك فإنهم سيقولون بأنك سرقته، ولو فشلت فإنهم سيقولون: ألم نقل لكم بأنه كان غبيًا!

السؤال الرابع: إلى أي مدى ترى أهمية التعليم الأكاديمي؟

تفاوتت الإجابات ردًا على هذا السؤال، فالبعض شدد على أهميته والبعض جعل الأهمية للعمل والجهد الشخصي.

يقول وزنياك: بالنسبة لي لم يكن المعلم ذا أهمية ولا المدرسة أيضًا، لقد تعلمت من طريق القراءة في غرفة النوم في الليل، أو في أي مكان وزمان يعجبني، وفي بعض الأحيان كنت أتمم مساقًا دراسيًا كاملاً خلال أسبوعين.

أما ويث فيرى أن الدكتوراه التي حصل عليها بجدارة كانت من طريق الخبرة الفعلية، أما الدكتوراه التي تمنحها الجامعة فتكون لقاء قراءة نظريات في الكتب.

ويقول كامراس: لقد تطاول علماء عصر أديسون عليه مع أنه أحد أعظم المخترعين حتى يومنا هذا، وذلك لأنه لم يكن متعلماً مثلهم، حيث شعروا بخيبة الأمل لأنهم لم يكونوا الذين اخترعوا اختراعاته، وبدلاً من أن يعتقدوا بوجود خطأ في تعليمهم اعتقدوا أن هناك عيبًا في شخصية أديسون.

السؤال الخامس: كيف تنظر إلى الفشل عند القيام بتجربة ما ولاتنجح؟

في ردود المخترعين نجد نظرتهم تختلف عن نظرة سائر البشر، فالمخترع يرى في الفشل الوجه الآخر للنجاح، وأذكر قولاً لأديسون عندما سأله مساعده عن سبب استمراره في إجراء تجربة معينة على الرغم من فشلها في مئات المحاولات، فرد بثقة: في هذه الحالة أكون قد عرفت أن نجاح التجربة سيتم بطريقة مختلفة عن كل تلك الطرق.

ويعزو فاجيه بطء التطور الحالي في علوم الطيران قياساً لأوائل القرن بقوله: لقد تعلمنا ما كان خطأً وما كان صوابًا، والآن نسمح لأنفسنا أن نتعلم الصواب فقط، ولانسمح لأنفسنا أن نتعلم الخطأ.

ويقول سيزبور: إن معرفة سبب فشل فكرة ما يعدّ مهمًا مثل معرفة سبب نجاحها.

السؤال السادس: هل تفضل العمل بنفسك أم تضع الأفكار وتشرف على تنفيذها؟

تقول حكمة لكونفوشيوس: الذي يقوم بقطع شجرة يشعر بالدفء مرتين. ونرى آراء المخترعين تتفق على أهمية أداء العمل والقيام به بشكل شخصي.

يقول فاجيه: من المهم جدًا ألاتقوم بوضع تصميم لتجربة ما ثم تطلب من شخص آخر أن يقوم ببناء النموذج، وإذا أردت أن تخترع شيئًا ما فقم أنت بذلك.

ويقول هوف: أريد أن أعمل بيدي، وأن أرى شيئًا ما يحدث عمليًا وأقارن ذلك الأداء مع ما يجب أن يكون نظريًا، لأني أريد أن أفهم الأمور الأساسية.

السؤال السابع: هل تحب أن تكون مديرًا لشركة أم تفضل التفرغ للعمل؟

في الإجابة عن هذا السؤال اتفق الجميع على تفضيل التفرغ للعمل وترك الإدارة، وهذه التجربة بشقيها عانى منها وزنياك مصمم حاسوب أبل 2، ويقول عنها: رفضت أن أقوم بتأسيس شركة لأني أريد أن أصمم جهاز حاسوب أنيقا لا أن أدير شركة، فهذا ليس هدفي في الحياة، وعندما أقنعوني بإمكان المزاوجة بين الاثنين وأسست شركة أبل، وجدت حياتي اختلفت كليًا وتعقدت، حيث أصرف نحو 6 ساعات يوميًا وأنا أتعرّف أحوالي البنكية وفواتير الشركة، وأجد صعوبة في التخلص من ذلك والتفرغ للعمل الهندسي، وأحاول أن أتجنب أن أكون مجرد ممول للأفكار التي أعتقدها، وأخشى أن أصل إلى نقطةً حيث لا أستطيع أن أحدد أين ضاعت المقدرة على الاختراع.

السؤال الثامن: هل تفضل العمل باستقلالية أم ضمن شركة كبرى؟

معظم المخترعين فضلوا العمل بشركة محدودة الحجم لتوافر المرونة، وهي أبرز عقبة في الشركات الكبرى كما يقول جولد: إن معظم الشركات الكبيرة غير قادرة على تحويل الأفكار المتعلقة باختراعات إلى عمل تجاري ناجح؛ حيث يتطلب ذلك توافر الدافع والاستعداد والمهارة التي توجد في الشركات الصغيرة.

ويرى هوف من مزايا العمل بشركة أنها توفر لك عددًا من المشكلات تستطيع أن تختار مجالات منها تعمل عليها وهذا لايتوافر لك عندما تعمل وحدك.

ويضيف روسن: كانت إحدى الإيجابيات توافر جميع المهارات الضرورية فكان لدينا خبراء في كل شيء.

وعمومًا، فكل المخترعين المذكورين في الكتاب عملوا لفترة ما من حياتهم ضمن شركة ما قبل العمل مستقلين أو إنشاء شركاتهم الخاصة، عدا جيروم ليملسون الذي فضل العمل مستقلاً طوال حياته مما سبب له الكثير من المشكلات المتعلقة بحقوقه في براءات اختراعاته.

آراء مميزة

- إن عالم اليوم يسير بتسارع رهيب يخشاه الكثيرون ويخشَوْن على وظائفهم منه، ولكن كيرزويل لايرى مبرراً لهذا القلق بقوله: في بداية القرن كان 30٪ من السكان يعملون بالزراعة فأصبحوا اليوم 3٪. كان التحول غير مرئي، ولكن أحدًا لم يتبين من أين تأتي فرص العمل الجديدة، ولم يكن الناس قادرين في بداية القرن أن يقولوا إن هؤلاء سيتحولون للعمل في الصناعات الإلكترونية، ولذلك سيكون أطفالنا بحاجة لامتلاك قدرة الاستمرار على التعلم.

- تظهر بعض الاختراعات سابقة لأوانها ولايعرف الناس ما الفائدة من اختراع كهذا، ويقول جولد بهذا الشأن: إن الليزر عبارة عن اختراع أساسي مهم، ولكن طوال السنوات الخمس الأولى لظهوره، كان يقال عنه إنه حل يبحث عن مشكلة، وكلنا يعلم اليوم ما يؤديه الليزر من دور مهم في الصناعة والطب والحرب وغيرها.

- أما اعتقاد البعض بتضاؤل فرص الاختراع لكثرة الابتكارات فيهزأ منه ويث بقوله: هناك أشياء كثيرة تنتظر المخترعين، فقولك إنه قد تم اختراع كل شيء مثل قولك إنه قد تم تنفس كل الهواء الموجود في الجو.

- ونلاحظ ذكر مخترعة وحيدة في الكتاب هي ماري سبيث، لأن الفتيات قبل السبعينيات لم يكن يجدنَ تشجيعًا على دراسة العلوم والهندسة، أما ماري فقد شجعها والدها أن تلعب بألعاب الصبيان، وكان يقول للناس عندما كانت زوجته حاملاً بأنه يريد بنتًا ليقوم بتربيتها تربية الصبيان وقد فعل، وواجهت ماري في بداية دخولها الحياة العملية صعوبات جمة قبل أن يتقبلها أقرانها بعدما أثبتت جدارتها ونالت، من ثم، احترامهم وتعاونهم.

إن الانسان هو أساس كل جديد، والمثابرة على العمل وتحدي الصعاب كفيلان بتجاوز العقبات والإتيان بالمعجزات، وإذا كنا نَقِلّ عن الغرب في الإمكانات المادية، فلا أظننا نَنقص عنهم بالإمكانات الفكرية أو البشرية، وكم من فكرة صغيرة وبداية عسيرة تحولت مشروعًا مثمرًا وابتكارًا ناجحًا ومفيدًا.

الوقاية من الجريمة في الإسلام 3

د. تماضر حسون

في الحلقة الماضية تحدثتُ عن المساواة بين الناس، والزكاة، والتربية بوصفها أسسا تعمل بفعالية للحد من الجريمة والانحراف. وأفردتُ هذه الحلقة للحكم في الإسلام، باعتباره أحد الأسس القوية لنشر الأمن والحفاظ على المجتمع من تفشي الجريمة والانحراف.

لقد وجَّه الإسلام عناية كبيرة لتكوين القيادة، لتكون قيادة راشدة واعية، وأشعرها بأنها الأكثر عبئا ومسؤولية، لذا فعليها أن تكون أكثر تفهمًا ووعيا، ففي الحديث الشريف: «كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته».

والقيادة هنا تعني كل مسؤول تتفاعل معه الدولة والأمة؛ بدءًا بالحاكم وانتهاء بربة البيت مرورًا بكل المكونات القيادية. كما وجه الإسلام عناية خاصة لإعداد الصفوة من رؤساء ومفكرين وعلماء لأنهم يملكون التأثير في سائر أفراد الأمة مما يجعلهم بحق محط المسؤولية الأولى. فأعباء ومسؤوليات التوجيه والابتكار والتخطيط والتقرير تُلقي بثقلها على كواهلهم، وبقدر ما يكون إعداد تلك الصفوة جيدا، بقدر ما يتولد لديها شعور بضخامة الأعباء والمسؤولية، مما يجعلها تواجه الأمة بتصورات سليمة وبعقليات متفتحة متفهمة.

إن إرساء الإسلام لقواعد الشورى في الحكم الذي وصل إلى حد تقويم اعوجاج الحاكم إذا أخطأ، جعل الدولة لكل المواطنين، وأقام حكمًا شوريا سليمًا يتعاون فيه الحكام والمواطنون في جو من الثقة المتبادلة والتعاون المشترك لوقف نوازع الشر، الأمر الذي أسهم مساهمة فعالة في وقاية المجتمع من الجريمة. وبالإضافة لذلك، أمر الإسلام الحكام بمشاركة المواطنين جميع جوانب حياتهم اليومية مشاركة فعلية، ومن يرجع لسيرة حياة الخلفاء الراشدين يجد أنهم لم تمنعهم مشاغل الحكم من كسب قوتهم اليومي عن طريق مزاولة العمل، والحكمة في ذلك هي في جعل الحاكم يعيش مشكلات المواطنين ويستشعر أحاسيسهم ومشاعرهم نفسها؛ مما يؤهله لتعرف الأوضاع والحالات ومواطن الضعف التي تهدد أمن المجتمع وسلامته، وتشكل خطرًا عليه. ومن ثم يستطيع - بالتعاون مع مواطنيه - أن يضع أنجع الحلول لمعالجتها بصورة فعالة وفي الوقت المناسب.

وفي الوقت نفسه دعا الإسلام الأفراد ليكونوا على يقظة وحذر تامين في علاقتهم مع الآخرين؛ فهم مدعوون للتعامل السليم المبني على الاستقامة والصدق في تعاملهم وسلوكهم مما يشكل سدا منيعًا واقيًا في وجه الجريمة.

هذه الخطوط العريضة التي جاء بها الشرع الإسلامي تشكل من جهة الأسس التي تقوم عليها الحياة السليمة في المجتمع، كما تشكل السياسة الوقائية من الانحراف والجريمة من جهة ثانية، إذ بتوفير سلامة الحياة تتقلص فرص الانحراف.

هذه السياسة الوقائية المتبعة في الحكم الإسلامي تتوافق تمامًا مع السياسة العامة للمجتمع الدولي، فقد جاء في التوصية الثالثة الصادرة عن المؤتمر السادس للأمم المتحدة للوقاية من الجريمة أنه: «بالنظر إلى وجوب قيام استراتيجية الوقاية من الجريمة بالقضاء على أسباب الجريمة والظروف المهيئة لها، وبالنظر إلى كون الوقاية من الجريمة تعتمد على الإنسان نفسه، وإقرارًا بأهمية التربية والثقافة الوطنية في تنمية مقدرة الإنسان على التوافق مع المبادئ التقدمية في الحياة الاجتماعية، وأخذا بالعلم بوجوب اعتماد استراتيجية الوقاية من الجريمة على إكبار النفس الإنسانية وتعزيز الاعتقاد بمقدرة الإنسان على عمل الخير. يطلب (أي المؤتمر) من الأمين العام للأمم المتحدة أن يركز جهوده في معرض العمل على الوقاية من الجريمة على دعم إيمان الإنسان بمقدرته على اتباع سبل الخير. ويوصي الدول الأعضاء لبذل الجهود لتطوير التربية والثقافة والإعلام لتقوية إرادة الإنسان وشحذ ضميره ليبتعد من الإجرام».

وكما هو ملاحظ فإن السياسة الوقائية الإسلامية متفقة تمامًا مع المبادئ التي وضعتها الأسرة الدولية لهذه الغاية. ففي تركيزها على الناحية التربوية وعلى مبادئ الإيمان والخير، يكون المجتمع الإسلامي مشتملا على أحدث الأسس التي تقوم عليها السياسة الوقائية، وبذلك يكون قد سبق المجتمع الدولي بأربعة عشر قرنًا من الزمان.

إن التطبيق الفعلي لأحكام الشرع الإسلامي في المملكة العربية السعودية على سبيل التمثيل الواقعي أدى إلى استتباب الأمن والاستقرار وإلى انخفاض معدلات الجريمة والانحراف، والإحصاءات في المملكة تشير إلى أدنى مستوى من الإجرام في العالم.

ولكن قد لا تعطي الوسائل التربوية والوسائل الأخرى ثمارها في بعض الحالات والظروف، فقد يتعرض الأفراد لضغوط معينة أو لا يتقبلون العمل التربوي لأسباب يصعب تحديدها بصورة عامة، لذا كان لابد من وجود نظام جنائي رادع ووقائي يضمن إعراض الأفراد عن الجريمة، وفي حال ارتكابهم لها يوجب قصاصهم وإصلاحهم. وهذا ما يستدعي الحديث عن النظام الجنائي في شرعنا المجيد في حلقات مقبلة إن شاء الله.

من روائع الطب الإسلامي:

إن أمثل ما تداويتم به الحجامة

د. محمد نزار الدقر

الحجم لغة: المصُّ، وسُمِّيَ به فعلٍ الحاجم لما فيـه من مصٍّ للدم في موضع الشرط.

والحجامة هي فعل الحاجم وحرفته، والمحجم الآلة التي يحجم بها، أي يمص بها الدم وهي أيضا مشرط الحجام. فإذا استعمل المحجم للمص دون مشرط سميت بالحجامة الجافة أو كما يدعوها العوام «كؤوس الهواء»؛ حيث تُشعل ورقة أو قطنة داخل الكأس لتفريغ الهواء منه، وتوضع مباشرة على الظهر لإحداث تبيغ للدم في موضعها. وهذه ليست موضوع بحثنا لأن ماورد في السنة صراحة: «شرطة محجم»، وأثبتتها النصوص الكثيرة من فعل النبي صلى الله عليه وسلم لتؤكد أن العلاج النبوي يوافق ما يسمى بالحجامة الدامية أو المبزغة التي ترمي إلى استخراج كمية من الدم من الدورة الدموية وطرحها لغاية علاجية بحت، وذلك بتشطيب الجلد أو قطع بعض الأوردة، كما يمكن أن تتم ببزل الوريد بإبرة وهذا ما يدعى بالفصادة، وقد تتم أحيانًا ببزل الشريان. وإذا طبق المحجم على المكان المبزغ بالمشرط فإنه يُسرِّع خروج الدم ويعمل بذلك على منع تجمده على فوهة الجرح وتوقف سيلانه.

وهكذا فإن كؤوس الهواء - كؤوس الحجامة - تمص الدم من المكان المبزغ حتى تمتلئ بالدم فيرفع الكأس ويوضع مكانه رباط ضاغط.

والحجامة معروفة منذ العصور الغابرة، وجاء الإسلام فدعا إليها ورفع من مكانتها مؤكدًا فائدتها، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: «إن أمثل ماتداويتم به الحجامة»، وكما روي عن عبدالله بن مسعود قال: «حدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ليلة أسري به، أنه لم يمر على ملأ من الملائكة إلا أمروه، أن مُرْ أمتك بالحجامة»(1).

من روائع الطب النبوي

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الشفاء في ثلاثة: شربة عسل وشرطة محجم وكيَّة بنار وأنهى أمتي عن الكي». وفي رواية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «في العسل والحجم الشفاء». وروى البخاري ومسلم عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن كان في شيء من أدويتكم خير؛ ففي شرطة محجم أو شربة عسل أو لذعة بنار توافق الداء وما أحب أن أكتوي». وروى الترمذي - وحسَّنه - عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن خير ماتداويتم به السعوط واللدود والحجامة والمَشِيُ...». وروى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أنه سئل عن أجر الحجام فقال: «احتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم، حجمه أبو طيبة وأعطاه صاعين من طعام وكلم مواليه فخففوا عنه، وقال - أي رسول الله -: إنَّ أمثل ماتداويتم به الحجامة والقسط البحري». وفي رواية أن جابر بن عبدالله عادَ المقنع ثم قال: لا أبرح حتى يحتجم فإني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إن فيه شفاء».

أنواع مختلفة من المحاجم

وذكر ابن القيم في منافع الحجامة أنها تنقي سطح البدن أكثر من الفصد، والفصد لأعماق البدن أفضل، وهي أنفع للصبيان من الفصد وآمن غائلة لمن لايقوى على الفصد، وتنفع في الأمراض الحارة(2)، سواء بالفصد أو بالحجامة لأن في ذلك استفراغًا للمادة وتبريداً للمزاج.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحتجم ثلاثا، واحدة على كاهله واثنتين على الأخدعين». وورد أنه صلى الله عليه وسلم احتجم في الأخدعين والكاهل(3)، وذكر ابن القيم أن الحجامة على الكاهل(4) تنفع من وجع المنكب والحلق، وعلى الأخدعين(5) تنفع من أمراض الرأس والوجه كالأذنين والعينين والأسنان والأنف.

وأصح ماورد في السنة تداوي النبي صلى الله عليه وسلم بالحجامة من شقيقة(6) أصابته. فقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم احتجم وهو محرم في رأسه من شقيقة كانت به. أما مكان تلك الحجامة من الرأس فيحددها ماوراه عبدالله بن مالك رضي الله عنه قال: احتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محرم بلحي جمل من طريق مكة وسط رأسه(7).

من فوائد الحجامة

والحجامة مفيدة لتسكين الآلام المختلفة من صداع ووثي وغيرها. فعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم احتجم على وركه من وثء كان به (8)، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم احتجم وهو محرم على ظهر القدم من وجع كان به(9).

قال الإمام النووي: «وفي الحديث دلالة لجواز الحجامة للمحرم، وقد أجمع العلماء على جوازها له في الرأس وغيره إذا كان له عذر في ذلك، وإنْ قَطَعَ الشعر حينئذ لكن عليه الفدية لقطع الشعر». وقال ابن القيم: «ومن ضمن الأحاديث المتقدمة استحباب التداوي واستحباب الحجامة، وأنها تكون في الموضع الذي يقتضيه الحال، وجواز احتجام المحرم وإن آل إلى قطع الشعر فإن ذلك جائز، وفي وجوب الفدية عليه نظر. وجواز احتجام الصائم؛ فقد ورد في صحيح البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم احتجم وهو صائم. وفيه دليل على استئجار الطبيب من غير عقد إجارة بل يعطيه أجرة المثل أو مايرضيه، وفيه دليل على جواز التكسب بالحجامة».

الحجامة عبر التاريخ

والنظرة نحو الحجامة ونتائجها وآلية تأثيرها كانت متغيرة من زمن لآخر؛ فحتى القرن الثامن عشر كانت النظرة إليها على أنها طرح لمواد سميَّة من العضوية. وفي القرن التاسع عشر تغلبت النظرة الناقدة للحجامة معتبرين إياها طريقة تقوم على الدجل، وأن الأساس العضوي (الفسيولوجي) الذي تقوم عليه ضعيف. إلا أن الاهتمام بها عاد في أوائل القرن العشرين حيث دُرس تأثيرها على نطاق واسع وأصبحت لها استطباباتها التي تقوم على أساس علمي.

وقد استحدث الأطباء الأدوات لتبسيطها، منها مشرط فيدال ذي ثلاث شفرات أو ذي ثمان شفرات مخفية تظهر عند الضغط على زر جانبي محدثةً ثمانية شرطات في آن واحد لتسهيل العمل. ومحاجم مختلفة لمص الدم فوق مكان التشطيب كما استعمل العلق الطبي، وهو نوع من الدود يعيش في المستنقعات، يُلتقط ويوضع على الجلد فيثبت عليه بمحاجم ويمص من الدم حتى يمتلئ ويسقط.

تحديث الحجامة

يرى الدكتور ظافر العطار أن قلع سن من فم المريض لاحاجة له به كرحى ثالثة مثلا وتركها تنزف لمدة هي بمثابة حجامة فموية يمكن أن يستفيد منها المريض المصاب بالشقيقة.

كما أن التبرع بالدم ما هو إلا حجامة متطورة، ويمكن أن يحصل منها المريض على النتيجة نفسها، ويمكن أن يكرر كل أربعة شهور كما تسمح بذلك أنظمة التبرع بالدم.

وقد أكد كل من كونبايف وساليشيف(10) التأثير الواضح العضوية للحجامة أو العضادة، وأن الطرح المقصود لكمية كبيرة من الدم في زمن قصير تنقص كمية الدم الجائل ينخفض معها إلى حدٍ ما الضغط الدموي الشرياني والشعري، وخاصة الضغط الوريدي، مما يملك تأثيرات إيجابية في حالة وجود فرط توتر وريدي بسبب قصور البطين الأيمن. وإن عودة الدم الجائل إلى حجمه الطبيعي يتم بسرعة عقب الحجامة بسبب تميه الدم (مَوَه الدم HYELREMIA)؛ حيث تزيد نسبة الماء فيه أكثر من ١٥٪ من الحدود الطبيعية، ومَوَه الدم هذا مرتبط بآلية عصبية خلطية ناظمة لحجم الدم الجائل.

ومن تأثيراتها أيضا نقص لزوجة الدم وزيادة زمن تخثره وهذه تغيرات مرحلية تتعلق بخصوصيات المرض الأصلي؛ فمثلا عند المصابين بإحمرار الدم فإن قابلية تخثر الدم تزداد بعد الفصد. والحجامة والفصد مثيران قويان لارتكاسات العضوية الدفاعية - كما يؤكد المؤلفان -، كما أن مايستدعيانه من إعادة لتوزيع بعض العناصر في العضوية كالماء والشوارد والعناصر المكونة للدم تترافق مع زيادة نشاط ميكانيكية التنظيم العام، والموضعي لحركية (ديناميةة) الدم HYMO DYNAMICS يؤهب لتراجع الاضطرابات الدموية. وهذا مايفسر في العديد من الحالات تحسن الحالة العامة للمرضى وزوال الآلام من الرأس وخلف القص والمذل والانحراف في الإحساس، وهذا مانراه مصداقًا للدعوة النبوية للاحتجام حين الإصابة بالشقيقة والصداع وغيرها من الآلام.

ويلخص المؤلفان الاستطبابات الحديثة للحجامة أو الفصد بما يلي:

1- قصور البطين الأيمن المترافق بارتفاع الضغط الوريدي.

2- القصور الحاد في البطين الأيسر مع وذمة الرئة (حالة غياب الصدمة والوهط الدوراني).

3- الارتعاج ECLAMPSIA الحاصلة في التهاب الكلية NEPHRITIS أو الحمل.

4- التسممات المزمنة التي طال فيها وجود السم في الدم(11).

5- فرط الكريات الحمراء POLYCEFIMIA(12).

ويُعدُ وجود هبوط مرضي في الضغط الشرياني أو نقص في حجم الدم وفقر الدم من أي منشأ كان والتصلب العصيدي الدماغي من مضادات الاستطباب بالحجامة.

وهناك بعض الاختلاطات التي قد تنجم عن الحجامة غير المراقبة بسبب هبوط الضغط الشرياني أو نقص الخضاب وعدد الكريات الحمراء في الدم المحيطي. وفي هذه الحالات يصحح الخطأ بحقن المصورة المعاوضة أو نقل كمية من الدم. أما الاختلافات الأخرى فيمكن أن تنجم عن خطأ تكتيكي نتيجة رض الوريد أو حصول ورم دموي لوجود شريان مجاور، عندئذ توقف العملية ويوضع رباط ضاغط. وقد يحصل غشيان SYNCOPE عند إجراء الحجامة للضعفاء من المرضى حيث ينصح بإنشاق المريض الفول النشادري.

الهوامش:

1- رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

2- ويقصد بها الأمراض الناجمة عن زيادة الاحتقان الدموي كارتفاع الضغط وآفات القلب والرئتين.

3- أخرجه الترمذي وحسنه ورواه أبو داود وابن ماجة.

4- الكاهل ما بين الكتفين وهو مقدم الظهر وهذه أبعد من العروق الكبيرة وأسلم.

5- الأخدعان عرقان في جانبي العنق، وهما الوريدان الوداجيان الخارجيان الخلفيان.

6- الشقيقة MIGRAINE مشتقة من اليونانية لأنها تصيب بآلامها شقًا من شقي الرأس، كما تدعى بالصداع الشقي وهي صداع وعائي المنشأ يصيب 10 ـ 20٪ من الناس وتصيب النساء أكثر من الرجال بنسبة الضعف. ورغم الاهتمام الدولي بها فلم يكتشف لها حتى اليوم علاج جذري، غير أن بريناردا يمنع مرضاه من التدخين ويحرم عليهم الخمر ويوصيهم بالابتعاد من الجبن. وليس لنا إلا العودة إلى طبنا النبوي.

7- رواه البخاري ومسلم والنسائي، ولَحي جمل موضع من الأرض معروف بعقبة الجحفة.

8- رواه أبو داود وحسنه.

9- رواه أبو داود والنسائي وإسناده صحيح.

10- عن الموسوعة الطبية الكبرى: المجلد 12 الطبعة 3 لعام 1980م - موسكو (بالروسية).

11- روى الطبراني بإسناد رجاله ثقات أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم بعدما سُمَّ (الهيثمي في مجمع الزوائد).

12- مصداق قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا اشتد الحرُ فاستعينوا بالحجامة لايتبيغ الدم بأحدكم فيقتله» الحديث رواه أبو داود في الطب، وفي هامش جامع الأصول قال الأستاذ عبد القادر الأرناؤوط أنه حديث حسن.

والتبيغ التهيج وهي ترجمة كلمة HYPESHEMIE ويحدث تبيغ الدم في ارتفاع التوتر الشرياني وخاصة الأحمر المرافق باحتقان الوجه واليدين والقدمين كما يحدث في فرط الكريات الحمر الحقيقي.

المراجع:

1- ابن القيم: الطب النبوي.

2- ابن الأثير الجزري: جامع الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم.

3- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري.

4- ظافر أحمد العطار: الحجامة تشفي الشقيقة، مجلة طبيبك، مارس 1984م.

5- الإمام النووي: شرح صحيح مسلم.

6- كونبايف وساليشيف: مقالة عن الحجامة في الموسوعة الطبية الكبرى (الروسية) الطبعة 3 المجلد 12 لعام 1983م.

7- محمود ناظم النسيمي: الطب النبوي والعلم الحديث، المجلد 3 الطبعة 3، 1991م.



وقت الرحيل

ابتسام إسماعيل شاكوش

تلفت أحمد يمنة ويسرة، وأخرج رأسه من فرجة الباب. لا أحد في الدار، ابتسم بفرح طفولي. أغلق الباب من الداخل وعاد إليها، مرر أصابعه بحنان فوق بطنها المنتفخ. تراجع خطوة ووقف يتأملها بكلف، جميلة تبدو رغم سوادها الكابي وأذنها المقطوعة، اندفع نحوها بخفة عاشق وضمها بقوة إلى صدره بينما راحت يداه تتنزهان على جلدها اللدن.

تركها قليلاً.. اطمئن إلى خلو الدار، ثم عاد إليها. إنها حقيبته الجلدية التي رافقته أيام خدمة العلم، فتح سحابها وأخرج رزمة النقود يعدها للمرة الألف - ربما -، ويقبلها متلذذاً برائحتها الواخزة التي أسكرته، فأغمض عينيه تاركاً شلال الأحلام يهدر بين جنبيه. غداً، في يوم ما سيذهب إلى المدينة لاستخراج جواز سفر، ويسافر خارج البلد. ماجدوى الانتظار هنا؟ .. سيعمل ويعمل حتى يجتمع لديه مبلغ من المال يمكّنه من بناء منزل جديد، سيعود حاملاً مهره على كفه فتفتح أمامه الأبواب المغلقة، رفاقه مرت حياتهم سهلة بلا متاعب. تركوا المدارس ليلتحقوا بخدمة العلم. وبعدها كانت عروس كل منهم بانتظاره إلا أحمد.

سمع وقع خطوات تعبر المدخل، هبط قلبه من الخوف، تلفت حوله بسرعة، جاس المكان بنظرة عجلى، ثم دسّ حقيبته في طيات الفراش، وجلس مرتبكاً لاهثاً.

كان القادم والده الذي ماعرفه إلا ساخطاً على الناس والحياة، وماعهده إلا مديناً مفلساً. أنت هنا اليوم؟ - قالها الأب - لمَ لمْ تذهب إلى العمل؟ وديوني ألاتفكر فيها؟ والباب الذي ماينفك يُقرع من الدائنين.. تفو.. على ماحزرته وخمنته. فرحت بإنهائك خدمة العلم، ظننتك ستحس بي.. هه.. ياحسرة.. الرجال هناك يجلسون في ساحة القرية أمام دكان سليم، وفي جيب كل واحد منهم نقود تشتريك، وأنا.. مفلس.. مديون.. لا.. بل محسود من الجميع! لأن أولادي ذوو أخلاق حسنه وسمعة طيبة.. وماذا تنفع الأخلاق مع الإفلاس؟ يحسدونني وأنت جالس هنا كالحريم.. والعمل يبعد منك مسيرة ربع ساعة...

كان الجفنان المسبلان والرأس المطرق علامات تشير إلى أن أحمد يستمع في خشوع إلى اللازمة اليومية التي اعتاد الأب ترديدها كلما رأى أحد أولاده في المنزل، في حين كان خياله يرمح في سهوب معشبة كحصان جموح يتعقب طيف سلمى.

تنبه أحمد.. لايدري منذ متى توقف والده عن الكلام. مسح الغرفة بنظرة سريعة استقرت على الفراش المطوي، ثم حَوّل نظره بسرعة خشية أن يتنبه أبوه، تلفت بحذر وانسلّ من البيت قاصداً ساحة القرية.

الشمس تبدو في الأفق الغربي برتقالة شهية. بعد دقائق ستمر سلمى، ستراه مشمراً عن ساعديه المفتولين، مظهراً أعلى صدره من خلال أزرار القميص التي تعمد تركها مفتوحة، تبتسم له بسرعة، ثم تطرق حياء، تعود فتنظر إليه، تتعثر قدمها بحجر في الطريق فتوشك على السقوط تهوي مستندة بكفها على ذراع السلّة التي تحمل وقد ارتطمت بالأرض فيختل توازنها وتنفلت ضفائرها من تحت الوشاح. تتوقف قليلاً، ثم تودعه بنظرة تحمل من معاني العتب ماتحمل، فيتمنى لو أن حجارة الطريق كانت أكثر عدداً ونتوءاً لتتيح له المزيد من نظراتها، ثم يعود فيلوم نفسه على هذه القسوة، ويتمنى لو يداوي ما أصابها من ذلك الحجر.

عاد أحمد من الساحة خفيفاً مرحًا كالسنونو يطير على غير هدى مسفاً مصعداً في أجواء تعبق برائحة سلمى، متجنباً ما استطاع اللقاء بوالده. نام سعيداً وقد عدل عن فكرة السفر، وقرر خطبة سلمى في أقرب فرصة.

في الفجر.. كان مؤذن القرية ينادي للصلاة.. صحا أحمد... بدّل ثيابه بسرعة واتجه إلى المطبخ، فتش في الأركان، ملأ طبقاً بحبات الزيتون المملحة وأحضر بضع حبات بندورة.. ثم بصلة كبيرة، صرّهنّ جميعاً في قطعة من وشاح أمه القديم، دخل الإسطبل فأسرج البغلة الشهباء بعد أن ملأ عليقتها بالتبن والشعير وأخذ زاده متجهاً إلى الغابة الشرقية.

وصل أحمد إلى الغابة سابقاً رفاقه بساعات. تفقد «المشحرة»(1) القائمة، دار حولها، انتزع منها بعض الحجارة، سدّ الثقوب المفتوحة في جدرانها خوفاً على الفحم من الاحتراق. ثم أخذ منجله وشرع في تقطيع زنود الأشجار المحيطة لتكون مادة للمشحرة القادمة، وحين وصل رفاقه كان قد اتخذ قراراً يلغي مافكر فيه طيلة الأيام الماضية من الهجرة والسفر.. وهل يطيق بعداً من سلمى؟ فليردد والده تلك اللازمة حتى يمل فيسكت. أما هو فسيعمل ويعمل حتى يجمع مهر سلمى، لذلك كان يشعر، كلما قطع شجرة جديدة، أن المسافة التي تفصله عنها قد تضاءلت. وفي المساء كان التعب قد أخذ منه كل مأخذ فاستلقى على كومة من العشب اليابس وسبح في بحر الأحلام.

الصيف فصل خير، لكنه قصير، يجب أن تُستغل كل ساعة فيه، لذلك دعا أحمد رفاقه للنوم في الغابة حول المشاحر المشتعلة، وأرسل أحدهم ليأتي بالزاد للجميع. لابأس! إن غاب عن سلمى بضعة أيام فيراها خلالها في أحلامه.. ستمطره عيناها بوابل من العتب، لكنها ستكون في أعماقها سعيدة مثله، لعلمها أنه ما ابتعد منها إلا ليزداد قرباً، وستمحو بسمتها كل أثر للفراق.

بعد عشرة أيام من النوم على فراش من أكياس الخيش، وغناء بنات آوى يتجاوب صداه في النهر القريب والجروف البعيدة، اجتمع لدى أحمد ثمانية

أكياس من فحم السنديان الفاخر. ماعليه إلا نقلها إلى القرية، ثم استدعاء تاجر الفحم لينقده ثمنها. استلقى تحت شجرة وراح يفكر، كم هي جميلة هذه القرية؟ كل مافيها جميل، وسلمى.. لا لن يستخرج جواز سفر حتى لاتراوده فكرة الهجرة مرة أخرى. والده لاينقصه شيء، هو دائمًا هكذا، يستدين ويعقد الصفقات الخاسرة، ثم يجلس في البيت يندب حظه. كان يحلم دائمًا أن يكبر أولاده ويعملوا ويعطوه الأموال ليعيش على هواه. المبلغ الذي يأخذه منهم لايكفي إلا لنفقة البيت أما تجارة الأبقار فيصرون دائمًا أن يتركها لمن يتقنها، يقولون كفاك خسائر وكفانا.

كان أحمد يروم النوم، لكن الوساوس أخذت تعصف بالنفس الحالمة حتى كادت أن تأتي على شعلة الأمل فيها. أيكون الأب قد كشف سر الحقيبة وانتزع أحشاءها؟ هاجس بدأ صغيرًا، ثم راح يكبر ويكبر حتى احتل ساحة تفكيره بكاملها، وزاده هدوء الغابة وصرير الجنادب الرتيب كآبة ووحشة، حتى إذا أتى الصباح وليدًا أبيض يمزق ستائر الليل، كانت آخر مشحرة قد تم نضجها، صب أحمد في جوفها سطلاً من الماء ليتأكد من انطفاء آخر جمرة فيها، وسارع إلى بغلته الشهباء، حَمَّلها كيسين من الفحم، وسار قاصدًا القرية ومازال نفسه كرة تتقاذفها الشكوك والأوهام.

أمام البيت، في الحاكورة الصغيرة، تسمر أحمد أمام حبل يتأرجح وسطه في الهواء. يحيط أوله بجذع التوتة العتيقة وينتهي طرفه الآخر برسن بقرة كسول، جلست تجتر ببلادة ما أكلت من طعام الأمس، ارتعد أحمد... أتراه..؟

رمى العصا من يده، وترك البغلة تسير بحملها وحيدة إلى المستودع. ركض بسرعة إلى البيت، أجال الطرف في أنحاء غرفته. كانت حقيبته الجلدية تقبع ذليلة كسيرة، فاغرة الفم ضامرة البطن، مكشوفة على حافة السرير، والوالد جالس يترقب وقد أضاف إلى لازمته اليومية فقرات مطولة.

على متن سفينة مبحرة نحو الغرب، اتخذ أحمد لنفسه مجلسًا منفردًا. جلس بعيدًا من البحارة والمسافرين، موليًا وجهه شطر الأفق الأزرق اللامتناهي، جامد القسمات والتفكير، تفيض نفسه بمرارة منعته من إلقاء نظرة الوداع على الأرض التي يحبها بكل ذرة في كيانه... والتي تعيش فيها خطيبته سلمى.

1- المشحرة: مجموعة من الحطب الأخضر تبنى بشكل هرمي وتغطى بطبقة من التراب العازل ثم تُحرق بشكل بطيء لتفحيمها.

كلمات مضيئة:

العمل المثمر

وحيد الدين خان

سألني أحد المسلمين المثقفين: ترى، ما حل المشكلات التي يعانيها المسلمون في الهند على شتى المستويات؟ فقلت: الصبر. فقال: وما معنى الصبر؟ فأجبت قائلاً: الصبر هنا يعني الإعراض عن المشكلات واستغلال المتاح من الفرص والإمكانات في حالتنا الراهنة. قال محدثي: أعترف بأن القرآن الكريم يؤكد على الصبر كثيرًا، ولكن الصبر ليس أمرًا مطلقًا.. فعندما يتعمد الآخرون (والمراد بهم في هذا السياق الهندوس) التلاعب بمشاعرنا - نحن المسلمين - وإثارة عواطفنا بلا مسوغ، وعندما نراهم يعتدون علينا بشكلٍ علنيٍ سافر، فكيف يمكننا إذن أن نلتزم الصبر؟ أفلا يكون الصبر، والحالة هذه، مرادفًا للجبن والاستسلام؟

فقلت لمحدثي: لقد اتخذت للحكم على الصبر معيارًا خاطئًا.. فليس معيار اللجوء إلى الصبر أو التخلي عنه هو أن تلتزم الصبر مادمت لا ترى فيه جبنًا أو استسلامًا، وتتخلى عنه حينما يبدو لك وكأنه الجبن والاستسلام. هذه عاطفية محض، بينما تُبنى المعايير دائمًا على أساس مبدئي.

ومعيار الصبر الحقيقي الوحيد هو النتيجة ليس غير. فلا يجوز التخلي عن ممارسة الصبر إلا إذا كان يؤدي إلى أية نتائج إيجابية.. وباستثناء هذه الحالة يجب أن نلتزم الصبر في كل الظروف الأخرى ولو كان ذلك يبدو للبعض نوعًا من الجبن والاستسلام.

لقد كان المسلمون في مكة يتعرضون لكل ألوان الإثارة والاضطهاد من جانب الكفار؛ مما جعل عمر بن الخطاب يطالب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يأذن للقتال ضد أولئك الظالمين.. فما كان جوابه - عليه الصلاة والسلام - إلا أن قال: «يا عمر إنَّا قليل». وهذا يعني أنه لا ينبغي اللجوء إلى أسلوب القتال والصدام، مهما اشتد الظلم وكثرت المحن؛ فيما إذا كان عدد المسلمين قليلاً، وعدد معارضيهم كثيرًا؛ ذلك لأن الإقدام في تلك الحالة لا يحقق فائدةً ما، إن لم يتسبب في جلب مزيدٍ من الخسائر والنكسات على أحسن تقدير.

ومن هذا نعلم أن الإسلام لا يسمح إلا بالإقدام المثمر، أما الإقدام الذي لا يثمر شيئًا أو الذي يتمخض عن نتائج عكسية، فلا يتفق وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم.. وأي عملٍ يتعارض مع سنة الرسول صلى الله عليه وسلم سيعد عند الله مرفوضًا.

إن تبنّي المواقف العملية مع أخذ نتائجها المتوقعة بعين الاعتبار هو المنهج الإسلامي الأصيل، وأما الإقدام المجرد على خطوة ما تحت عوامل الحماسة والعاطفية من غير اكتراثٍ لما يكمن وراءها من نتائج، فهو الجاهلية بعينها!


هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية
تصدق ولو بقيمة بطانية
لتقيهما زمهرير الشتاء
نستقبل البطانية أو قيمتها
التي قدرت بـ ٣٥ ريالاً في
مكتب : هيئة الإغاثة الإسلامية
العالمية بالرياض حسب
العنوان الموضح أدناه
هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية
بالمملكة العربية السعودية
مكتب الرياض
هاتف : ٤٩٣٠٠٣٣
شمال
جنوب
طريق خريص الدمام
الموقع
أسواق
الربوة



خالد الشريقي

كتب هرزن المنفي الروسي البائس إلى صديق له في عام 1855م يقول: إن الحياة في لندن شبيهة بضجرها بحياة الدّيدان في قطعة من الجبن..(1).

لم يعش هرزن ليسمع كامو(2) وهو يتساءل عما اذا كان للحياة معنى(3)، وعما اذا كانت تستحق أن تعاش، ولم يسمعه عندما قرر بحزم أن هذا العالم غير معقول على الاطلاق(4).

كان كامو قد أدرك أن العبث مرض من أمراض العصر الشائعة، وأن كل إنسان يحمل صخرته على كتفيه كما فعل سيزيف، وهو على معرفة تامة بأنه لا أمل مطلقًا في بلوغ الهدف.

رأى بعض النقاد أن الإنسان في مواجهته لأزماته الحضارية قد رفض سيطرة العقل، واعتبره قاصرًا محدودًا بعد أن تعرّض لحربين عالميتين زرعتا الرعب والمأساة في عيني كل إنسان، وأفقدتاه القدرة على بلوغ الحقيقة.

لقد غدا الإنسان في عزلته غريبًا، ولم يعد يشعر بانتمائيته كما يرون، بعد أن أيقن أن العقل لم يعد قادرًا على حلّ معضلاته ومشكلاته في عالم فقد فيه المنطق، وكان ردّ الفعل عنده، قناعته بأن حياته عبث لا معنى لها ولا قيمة، فتردّى مذبوحًا في قلقه ويأسه وغربته وشعوره بالعدم والذنب.

لم تأت هذه الأفكار طفرة واحدة؛ لمجرد أن الإنسان لاقى الأهوال في حربين عالميتين كبيرتين، وإلاّ لتحتّم علينا أن نتساءل: لماذا بقي الإنسان مؤمنًا بعقله وهو الذي عاش حروبًا لا تنتهي، منذ أن وجد نفسه إلى جانب إنسان آخر.

صحيح أن الإنسان واجه التّفنّن في التعذيب والسّحق في حربيه الأخيرتين؛ لكنه واجه أيضًا عذابًا في حروبه الأخرى بنسبة ما بلغته تلك العقول من قدرة على التفنن في التعذيب.. لكنها هل نجحت؟ هل تمكنت من أن تحصد أفكاره من رأسه، وأن تحقنه مصلاً يجعله يقرّ بعدم جدوى الحياة وعيشها؟ .. وبأن لا شيء جدير بأن يُناضل ويُكافح من أجله، ليهدأ بعد ذلك، ويستريح، وييأس ويكف عن ضجيجه، ويلتمس الهرب في الانتحار كما يريد كامو، ولتستمر تلك القوى متخمة براحتها وهدوء بالها!

في كل مرة يخرج فيها هذا الإنسان من عذابه، يكون أقوى مما كان وأعتى وأصلب عودًا وشبابًا وتصميمًا... لماذا لم يهزمه الخوف والعذاب إذن؟.. لماذا لم يمتد يأسه إلى القناعة بقصور العقل ومحدوديته، والاستسلام لعبث ولا معقولية العالم والحياة؟ .. فينغمس في حياته الخاصة، ويغوص في قلقه وغربته وتفاهته.. أو ينتحر تخلصًا من اللاجدوى التي يغرق فيها...

هل حاول واحد منا أن يتساءل: لصالح من يستسلم الإنسان ببلادة وخمول لعبث الحياة ولا معقوليتها؟

تمكن سارتر بذكائه الخطير(5) من أن يفلسف العبث واللامعقول(6): لقد جاء الإنسان إلى هذا العالم من دون تبرير أو تفسير - كما يرى -. ويضيف بأنه ألقي به من دون سبب معقول، كما أنه يخرج من العالم مقضيًا على وجوده بالكيفية نفسها، فهو يموت من دون أن يسأل عما اذا كان يفضّل الموت أو يستمر في الحياة(7).

ويقرر سارتر(8) إنه من خلال حرية الإنسان اللامعقولة يتحقق رفضه، وهو عندما يقول (لا)، يتحول إلى كائن بطولي، ينبثق العدم من داخله. والوجود في رأى سارتر ينبثق من العدم.

ولنتساءل هنا أيضًا: هل في إمكان الإنسان العبثي أن يتمرد ويقول: لا؟.. مع أننا نعرف أن كامو قد أعلن فلسفة التمرد.. وهل يجد هذا الإنسان القدرة على الرفض؟.. أو يجد الوقت الكافي ليقول: لا؟. ومادام إنسانًا عبثيًا، ومادامت حياته لا معنى لها، فهل تستأهل حياته هذه الـ(لا)؟.. في الوقت الذي يعرف فيه أن حياته لا معقولة وعبث في عبث..

يشير سارتر - في تداخل فكري - إلى أن الإنسان الفرنسي تحرر من عدم الثقة الذي سيطر عليه وفقد

بسببه إيمانه بالبطولات، وبأنه من ثم تغلّب بواسطة رفضه على عدم الثقة هذه، فكانت الـ(لا) دعوة مطلقة إلى إقرار الاختيار الحر.

مما لا شك فيه أن المقاوم الفرنسي كان رافضًا، ولكن هل يعني هذا أنه كان عبثيًا بالضرورة؟.. وهل كان المقاومون الفرنسيون إبان الاحتلال النازي عبثيين مدركين أن حياتهم خاوية ولا معنى لها، وأنهم يموتون بمحض المصادفة، في حين أنهم كانوا يصنعون موتهم بأيديهم؟...

سيكف الثائر عن ثورته ضد المحتل عندما يفقد إيمانه بكل شيء، ويرى أن حياته لا قيمة لها، وأنها عبثية ولا معقولة... وإلا فهو ثائر من أجل لا شيء.. وهو لن يكلّف نفسه مثل هذه الثورة.

سارتر نفسه توصّل إلى هذه الحقيقة من خلال بطولات المقاومة الفرنسية: «حينما ينجح الجميع في التعبير عما في مشاعرهم بوساطة الصمت، فإن الله يهبني قدرة خارقة لكي أعبر عما أشعر به وأعانيه..».

لكن سارتر الذكي الخطير ينعطف مشيرًا إلى أن الإنسان لا شيء سوى جملة أفعاله التي تتحقق بالفعل، فإذا كان العدم مقيمًا في أعماق الإنسان، واذا كان العبث يغلّف العالم؛ فالسبيل إلى لقاء العدم والعبث والانتصار عليهما هو الحرية المطلقة المتعيّنة في جملة أعمال أو مشروعات تخفّف حين تنفذ ـ ولا تقضي ـ من ثقل العدم والعبث وحصارهما للإنسان.

حتى هذه الحرية هي عبثية لا معقولة، وهي لا تقضي على العبث والعدم، وإنما تخفف من حدتهما، والعبث يبقى عبثًا، واللا معقول يبقى لا معقولاً.

يرى كُتّاب اللامعقول أن فترة سيادة العقل قد اضمحلّت، وأن العلم نفسه قد حطّم كل المرتكزات التي كانت تستند إليه من قبل؛ وبذلك فإن التسلسل المنطقي للوجود قد فقد في رأيهم، وأصبح من غير الضروري وجود علّة محددة لحدوث الأشياء، وأن الظواهر قد تخلق نفسها من العدم، وبذلك فهم قد أطاحوا بقوانين العلاقة الحتمية بين العلّة والمعلول، كما أطاح أينشتين بالمفاهيم العقلية عن الزمان والمكان.

إن الانقلاب العلمي ـ كما يقولون ـ قد جعل التفكير المنطقي في تفسير الكون والوجود ينهار، مما جعل عالم اليوم يخلو من المنطق والعقل في ظل ظروف انهيار القوانين المنطقية العقلية التي تنظم حياة الناس.

والإنسان العبثي تبعًا لذلك فقد إيمانه بالعلم والعقل وبالآخرين وبنفسه.. وانعدم تفاهمه معهم ومع نفسه أيضًا.. وضاعت منه كل معتقداته، فهو إنسان خائب ساكن لا يجد القدرة على التحرك.

العالم كله لا معقول وغير منسجم بعضه مع بعض كما يرون؛ ومع ذلك فإن هذا الذي فقد الأمل مازال يبحث عن الأمل.. عن القشة التي تنقذه من الغرق.. في الوقت الذي لا يريد فيه أن يعثر على هذه القشة، لأنه يرفض الإيمان بأي شيء.

بعضهم وجدها في حرية الاختيار، واعترف بأنها حرية غير معقولة. صحيح أن أوروست(9) كان حرًّا في اختياره. لكن: هل كان عبثيًا؟.. لو أنه اقتنع بعدم جدوى الحياة لما انتقم لمصرع أبيه، ولبقي إنسانًا ضائعًا قلقًا لا يجد نفسه ولا يعترف بقيمة أي فعل يقدم عليه.

و«بيكيت» نفسه: هل كان عبثيًا عندما انضوى تحت صفوف المقاومة الفرنسية بعد احتلال الألمان لباريس؟.. هل كان لا يجد التفاهم مع أبطال المقاومة؟.. وهل فقد الأمل مع الآخرين كما فقده الإنسان العبثي؟..

صحيح أن «بريخت» نحا منحى التغريب في مسرحياته، لكنه كان يؤمن بضرورة تغيير العالم، وكان ينتمي إلى الآخرين، ويتفاهم معهم، ويجد الجواب والأمل دائمًا.

أما الإنسان العبثي فقد فقد شخصيته ولم يعد ينتمي إلى الآخرين ويتفاهم معهم.. إن العبثيين أناس يجلسون في غرفة كبيرة، كل واحد منهم بدوره، وقد أدار ظهره للآخر ينطق جملة لنفسه.. ومن هذه الجمل التي لا ترابط بينها تتألف أحاديث مجتمعهم:

السيدة مارتان(10): أستطيع أن أشترى خنجرًا لأخي.. وأنت لا تستطيع أن تشترى إيرلندا لجدك..

السيد سميث: إننا نمشي على أقدامنا.. ولكننا نستدفئ بالكهرباء أو الفحم..

السيدة مارتان: الذي سيبيع اليوم ثورًا سيملك غدًا ثورًا.

السيد سميث: في الحياة يجب علينا أن ننظر من النافذة..

السيدة مارتان: نستطيع أن نجلس فوق الكرسي حينما لا يكون للكرسي كرسي..

السيد سميث: يجب علينا أن نفكر في كل شيء..

السيدة مارتان: السقف فوق والأرض تحت..

السيد سميث: حينما أقول نعم فهذه طريقة الكلام..

السيدة مارتان: لكل شخص نصيبه..

السيد سميث: المعلم في المدرسة يعلّم الأولاد القراءة، ولكن القطة ترضع صغارها وهم صغار..

السيدة مارتان: سأعطيك شبشب زوجة أبي اذا أعطيتني نعش زوجتك..

السيد سميث: كاكاتو ويس (يرددها عشر مرات)..

السيدة مارتان: كم كاكاو (عشر مرات)..

السيد سميث: الكلاب لها براغيث..

السيدة مارتان: كاكتوس كوكمكس.. كوكا ردار.. كرنب..

السيد سميث: ياكركر كركرتنا...

إن الأفكار العبثية انتشرت فوق المسرح، وقد نشط كتاب كثيرون في تقديم مسرحيات من هذا النوع، لا أحداث ولا مضمون لها، إنها ليس أكثر من حوار الطرشان، كما أن كُتّابها أنفسهم لا يعرفون ماذا يكتبون، ولا ماذا يقصدون بكتاباتهم هذه.

عندما سئل بيكيت: ماذا تقصد بجودو؟(11)، أجاب: لو أنني عرفت لقلت هذا في مسرحيتي...

وقال يونيسكو: إن موضوع المسرحية لا شيء.

وكتاب مسرح اللامعقول لا ينتمون إلى أي مجتمع أو عالم على الإطلاق، تمامًا كأبطال مسرحياتهم، وقد أوضح ذلك يونيسكو بقوله: إنني لا أنتمي إلى هذا العالم على الإطلاق، وأنا لا أعرف لمن ينبغي أن ينتمي إليه العالم. حتى إن يونيسكو قد تعجب من الناس عندما ضحكوا بعد مشاهدة مسرحياته، لأنه اعتقد بأنه يكتب دراما مفجعة وليس كوميديا تضحك الناس.

هؤلاء الكتاب يختصرون آراءهم في أن العالم الكبير مادام يقوم على اللامعقولية والعبث، فلا مناص للعالم الصغير(المسرح) من أن يكون كذلك.

ويشير بعض هؤلاء الكتاب إلى أنهم لا يعرفون كيف ينتهون من المسرحية التي بدؤوا بكتابتها، وأنهم عندما يبدؤون الكتابة في بعض الأحيان؛ فإن ذلك يكون دون تحضير مسبق، ودون خطة معينة؛ الأمر الذي يقودهم إلى الطريق المسدود، فلا هدف يرمون إليه من وراء مايكتبون، إلا ما يختلف النقاد والمتفرجون في تفسيره.

إن كل ما يقوله أبطال مسرحياتهم لا معنى له ولا هدف، وهو لا يعدو أكثر من ثرثرة لا طائل تحتها، لأن كل ما قالوه لا يدور حول حادث معين... إن ما يشغل هؤلاء هو التفاهة بعينها:

توسو: نعم هنا يمكننا أن ننام بطريقة مريحة(12)..

ميتارو: ولكن علينا أولاً أن نعرف من أين تأتي الرياح..

نامـور: لا أهمـيـة لذلك.. الشيء المهم فـعـلاً أن نعرف إلى أين تذهب..

توسـو: فلننم تحت المظلة ولنتـخلص من انشغـالنا بالرياح..

....

توسو: المهم حسب ما أرى أنا هو أن ننام..

ميتارو: المهم هو معرفة من أين تأتي الرياح..

نامور: لا.. المهم هو أن نعرف إلى أين تذهب..

ميتارو: إنني مصرّ على القول بأن الشيء المهم هو معرفة من أين تأتي الرياح..

نامور: وهو كذلك.. معرفة من أين تأتي الرياح.. ثم علينا أن نعرف بعد ذلك إلى أين تذهب الرياح بعد أن تكون قد أتت..

ميتارو: لكننا ابتعدنا عن محور القضية وهو كيفية معرفة من أين تأتي الرياح..

نامـور: نعم هذه هي الحـقـيـقـة.. إننا نحـاول أن نعـرف من أين تأتي الرياح.. وعلينا أن نعـرف إلى أين تذهب..

مـيتـارو: أريد أن أوضّح لك مـعرفـة من أين تأتي الرياح..

نامور: اسمح لنفسي بأن أضـيف أن الناس جميعًا يتّفقون بأن الشيء المهم فعلاً هو معرفة إلى أين تذهب الرياح..

سيبقى هذا الحوار إلى مـا لا نهاية دون أن يصلوا إلى معرفة من أين تأتي الرياح، وإلى أين تذهب...تمامًا كعدم وصولهم إلى جـواب في حوارهم الطويل حول سؤالهم: إذا قرع جرس الباب فهل يعني هذا أن أحدًا بالباب؟..(13).

إن الأحاديث المسلية التي يتبادلونها لا تعدو هذه الحكايات(14):

«ذات مـرة قدّم خـطيب باقـة ورد إلى خطيبـتـه، فقالت له: شكرًا، ولكنهـا قبل أن تقول له شكرًا، أخذ منها الورد لكي يعطيـها درسًا مفيـدًا، ولما قال لها إنني أسترده، قـال لها: إلى اللقـاء.. وهو يسـترده، وذهب إلى حال سبيله...».

«وذات مرة أكل عـجل صغيـر كـمـية كـبيرة من الزجاج المسحـوق مما اضطره إلى الوضع، فوضع بقرة، ولكنه لما كـان ذكرًا، فان البـقـرة لم تسـتطع أن تدعوه ماما... وكذلك لم تسـتطع أن تدعوه بابا، لأن العجل كان صغيرًا جدًا؛ ولذلك اضطر العجل إلى الزواج من إنسانة، وقـام المسؤولون باتخـاذ كافـة الإجراءات التي يمليها العرف السائد..».

إن ما يلاحظ أن العبث واللامـعقول لم يزدهرا إلا في الدول الأوروبية، وسيكون من قبـيل المغالطة(15) مـا ذهب إليه بعض النقـاد من أن هذا المسـرح يكشف زيف المجتـمع الأوروبي، كمـا أن كُتّاب العبـث الذين ظهروا في فـرنسا وكتـبوا بلغتهـا ونشروا هذا المذهب، لم يكونوا فـرنسيين، وهذه ظاهرة جـديرة بالاهتـمـام. ومن هؤلاء الـكتـاب بيكيت الإيرلنـدي، ويونيـسـكو الرومـانـي، وأرابال الإسـبـانـي، وتـارديو وبينجـيـــه السويسريان، وجلدرون البلجيكي وغيرهم(16).

قلنا إن الحديث عن غـربة الإنسان وقلقه وشـعوره بالعدم لم يكن طفرة واحدة...

كـان جان جـاك روسو أول من اسـتـعمل تعـبيـر الغـربة(17)، لّما أدرك أنه عندمـا يتـولى بعض النواب تمثيل الشـعب، فـإن هـذا الشـعب لا يمارس سـيادته بنفسه، ويبدأ بالانعزال داخل وطنه ويشعر بالغربة.

وكـان فرانز كـافكا هو الفنان الذي شعـر بغـربة البـشر بـحدة تفـوق شـعور جـمـيع الفنانين الســابقين عليه،(18)؛ وذلك عندما أصبح الإنسان لديه (حالة)، أو رقمًا بين أرقام كثيرة، أو شيئًا بين الأشياء.

وتقرر العدمية بأن الوجود ليس له معنى، لكنها ما تلبث أن تكشف عن انحلال وتعـاسة وهمجيـة العالم الغـربي، وبأن كل من يـتـصـور بأن في هذه الدنيـا مـا يسـتـحق أن يعـاش من أجلـه، أو يسـتـحق اهتـمـام الإنسانيـة، إنما هو أحمق أو نصـاب... فجـميع البـشر أغبيـاء وشـريرون، المظلومون والظالمون، المدافعون عن الحرية والمستبدون معًـا، وإعلان ذلك يتطلب كثيرًا من الشجاعة.

كـان الإنسـان من قـبل قـد أحس بضـيـاعـه في مواجـهة الآلة، وتطورها، والمكتـشـفات والاخـتـراعات الصناعيـة التي كانت السبب المباشر في نمو رأس المال بشكل مـتـسـارع؛ إلا أن أفكاره مـا لبثت أن نضـجـت لتـفـضح الزيف، وتطورت لتـقـود الناس إلى تحـقـيق وجـودهم وأمنهـم، لأنهم كـانوا يؤمـنون بالإنسـان وبالحياة وبأنفسهم، وبأحقـية العيش، وبأن الحياة ينبغي أن تعاش على أحسن وجه.

إن الأفكار التي ينادي بها كتاب العبث الآن ليست وليدة المصـادفة، لكنهـا لم تكن من قبل تدعـو إلى عبث ولا معقـولية الحياة كما هي عليـه الآن، ولم يكن التفاهم منعدمًـا بين الناس، كانت أفكـار القلق والغربة والتّشتت تدعـو الناس إلى البـحث عن حيـاة أفضل، لأن الحيـاة تستحق أن تـعاش، وأن يُضَحّى من أجلها، حتى يحصد الأبناء مـا زرعـه الآباء، ولم يـفـقـدوا إيمانهم بالحـيـاة وبالآخرين، فلقـد كانت أوضاعهم تقّوي فيهم رغبـتهم في تحسينها، ومن ثم إلى انتزاع حقوقهم بالقوة.

أمّا لو أنهم كانوا ينادون بعدم جدوى العيش وبلا معـقـولية الحيـاة والعالم، وبأن كل أعـمالهم وأفعـالهم عـبث في عـبث.. لو كـانوا ينادون بهـذا، فلن يكونوا وقتها أكثر من خـانعين راضين، مستسلمين للاحتلال، ليس لهم طمـوح أو مـطلب، وسـتـضيـع أوقـاتهم في ترديد ما قاله أحد أبطال مسرحية يونيسكو(19):

«إنني شخصيًا في كثير من الأحيان أشك في كل شيء، أشك في فـائدة الحيـاة، في مـعنى الحـيـاة، في قيمي، فـي كل المذاهب الجدليـة، لم أعـد أدري بماذا أتمسك، فربما لا توجـد حقيقة.. ولا توجـد رحمـة، إن الذي نفـعله قد يكون شـرًا، وقد يكون خيـرًا، وقـد لا يكون خيـرًا ولا شـرًا، فمن المحـتـمل ألا تكون لحـيـاة الجنس البشـري أية أهمـيـة، ولا لفنائه... وربما لم يكن للكون بأكمله أية فائدة).

الهوامش:

1ـ إدوار كار، الجيل الخائب.

2ـ أسطورة سيزيف.

3ـ سبق لنيتشـه أن أعلن عن ازدهار العدمـية التي تعني الاقتناع بـأن الوجود ليس له معنى.. كـما عـبّـر بيـكيت عن ذلك بقـولـه:(ا شيء أكـثـر واقعية من العدم.

4ـ كـمـر كـجارد أول من اسـتـعـمل كلمـة (اللامـعـقـول) من خـلال دراسـتـه لمشكلة الاغتراب عند الإنسان المعاصر.

5ـ استمر سارتر معتمداً في كتابته المسرحية على الأشكال المسرحيـة التقليدية، وهو لا يمثل أية ثورة في الحقل المسرحي كما فعل كتّاب العبث.

6ـ سارتر، الوجود والعدم.

7ـ على لسان إحدى بطلاته في قصـة (الغثيان) يقـول سـارتر: وُجـدت مـن دون سـبـب، يمتـدّ عمري رغمًا عني، وأموت بمحض المصادفة.

٨ـ يقول يونيسكو إن البريختيين مجانين، وإن سارتر من أعظم المغفلين.. أولاً: يقرأ هيـديجر وهاسيرل ويعجب بهما ويصبح تلميذاً لهما.. لماذا؟.. لأن ألمانيا كـانت في ذلك الوقت دولة قـوية... وبعد أن تنهزم ألمانيا، يصبح محـبًا للإنسانية ووجوديًا. الآن الوجودية في مبدئها كـانت فلسفة العبث.. كـيف يمكن أن تصبح إنـسانيـة؟.. ولكن هكذا تهب الرياح. ثـم تصـبح روسـيـا قـوية، وهكذا يتحـول سارتر بالطبع إلى الماركسـية.. أعتـقد أن أيديولوجيـة سارتر وإحـساسه النبـيل ينبعثان من الحسد والغيرة... إنه قصير النظر وجبان مثل كل الجبناء.. وهو يـخضع لقوة الحـوادث التاريخية، ثم يهـرع إلى نجدة التـاريخ... إن سـارتر تحركـه كراهية نفسه.

9ـ سارتر، مسرحية (الذباب).

10ـ يونيسكو، مسرحية (المغنية الصلعاء)، وليس فيها أية مغنية صلعاء.

11ـ مسرحية (في انتظار جودو).

12ـ أرابال، مسرحية (فاندولين).

13ـ (المغنية الصلعاء).

14ـ المصدر السابق.

15ـ يقـول يونيـسكـو في حـديث له: «إن عـدم ثقتـهم ـ يعني المفكرين الفرنسـيين ـ بالولايات المتحدة وحبها للبشرية على ما أعتقد هو أكبر ظلم في التاريخ»...

16ـ يقـول سـارتـر في حـديث له عن بيـكت ويونيسكو وجـونيه وأداموف وأرابال وغـيرهم بأنهم ينضمـون تحت اسم (المسرح الجديد) أو (المسرح النقدي)، رافضًا تسميته(اللامعقول)؛ لأن أي كـاتب درامي ـ فـي رأيه ـ لا يمكن أن يرى الحـيـاة الإنـسـانيـة على أنهـا شيء غيـر معقول.

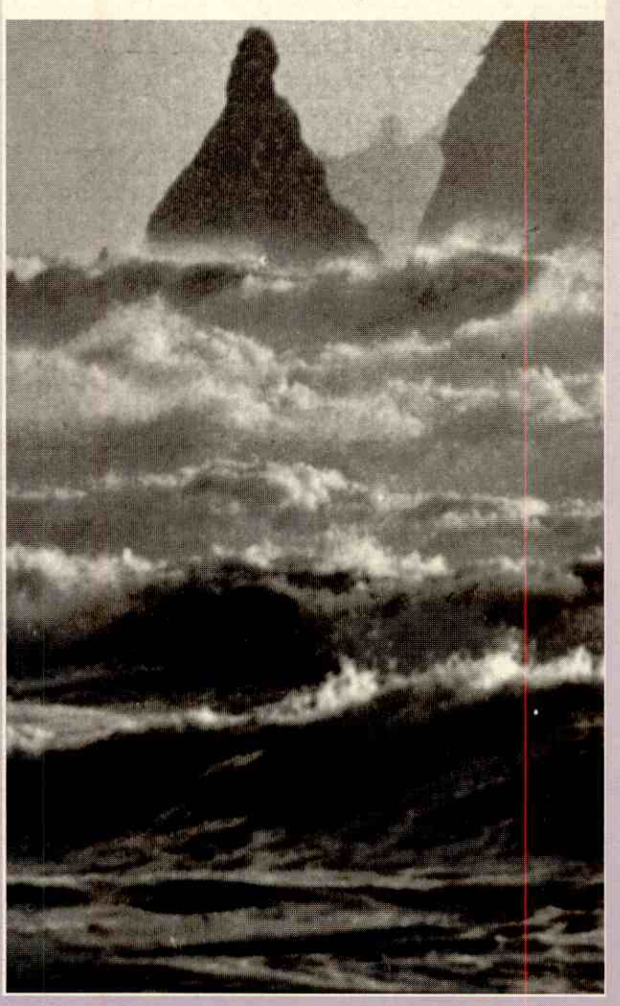
17ـ أرنست فيشر، كتاب (الاشتراكية والفن).

18ـ المصدر السابق.

19ـ مسرحية (قاتل بلا أجر).



شعر: **فاطمة حداد**



صـــورٌ على الشطآنِ مـــوجُك أم سطورٌ تُطبعُ؟
وحكايةٌ أزليَّـــةٌ بِلُغى الجـــميع تُسجِّعُ؟
أم وشـوشـاتُ أحبَّـةٍ وصـدى الزمـان يُرجِّعُ؟
أم راقـصـاتٌ من رذاذٍ برقُـهـا والبُـرقُعُ؟
مـرهونة للشط تسـقي مـدمنًا لا يشـبع!
يا سـرّ أجنحـةٍ ترفُّ على مـداك ولا تطيـرْ
سـحـرٌ يهـيجُ وينثني ياغلب وثَّاب قـديرْ
مـاشـدَّهُ للتـربِ أهوَ الموطن الغـالي الأثيـرْ؟
أم للأحـبـة ينثني عن حـضنهـا يأبى المسيـرْ؟
يـبقى لعـوبًا حـولهـا أبدًا يسـيـر ولا يسـيـرْ
ياعـالَمَ الأسـرارِ هل لي للسـرائر اسـتـبين؟
عـمَّـا بلُجّك من دليلٍ عن حكايا الراحلين
كم من خـفيٍّ في غـيـاهب قـاعِك العـاتي دفين
ورمـوزِ آثارٍ توارتْ عن عـيـون البـاحـثين
من قـبل بدءِ الخلق كـانت من مـلايين السنين
حتَّام تحتضنُ الصـخور أما سئمت من الصـخور؟
وإلامَ تلثمُ جلمـدًا وعـلامَ من حـجـر تثـورْ؟
صـلْدًا يظلُّ وأنت في أعـتـابه فـيضٌ يغـورْ!
طال العناق ومـا اسـتطعت تهـزُّه عـبـر الدهورْ!
ومـتى اسـتـجـابت للقطا ترنو وتبـتـسم النسـورْ؟!
ياسـاحـرَ الألبـابِ والعُـشَّـاقُ حـولك تُنثرُ
والفـاتناتُ هفتْ بشطِّك تسـتـحمُ وتُنشـرُ
والأنجم انعكسـت تضـمك في الدجى وتُسـعَّـرُ
أتُراك تشـعـر بالأحـبـةِ مثلمـا هي تشـعـر؟
لك مـثلهـا روحٌ وأفـئـدة وعينٌ تُبـصِـر؟


الجزيرة
الجزيرة
تكفيك
المسائية
تثري
مساءك
تصدران يوميا عن« مؤسسة الجزيرة »للصحافة والطباعة والنشر.. ص.ب:٣٥٤ الرياض: ١١٤١١ هاتف« ٤٠٢٥٥٥٥ »..تلكس ٤٠١٤٧٩ جزاتي اس جي.



قصة قصيرة:

ساعة الحائط العتيقة

خليل إبراهيم الفزيع

اليوم آخر أيام العام الدراسي..

دخلت ليلى إلى غرفة المدرسات، شاردة الذهن، تائهة النظرات، وجلة الخطوات، وقد خُيِّل إليها أن نظراتها أو كلامها، أو مجرد إيماءة منها، كفيلة بأن تفضح أمرها، وكأن كل ما حولها يشير إليها بأصابع الاتهام، وهي التي عُرفت باستقامتها حتى أصبحت مضرب المثل بين زميلاتها. حاولت أن تبدو طبيعية في كل تصرفاتها، قالت صديقتها الحميمة جدا التي تعرف كل أسرارها ما عدا سرها مع جابر:

ـ تبدين غريبة هذا اليوم!

خيل إليها أن أفكارها أصبحت كتابًا مفتوحًا يمكن أن يقرأه الجميع، لاذت بالصمت، تشاغلت بما أمامها من أوراق، عادت الساعة القريبة البعيدة تدق: تك.. تك.. تك.. يبرز صوتها واضحًا رغم الضجيج الذي يملأ رأسها بشتى الأفكار، ويشحن قلبها بمختلف الأحاسيس.. تلك الساعة المعلقة في ردهة منزل والدها، أضحى صوتها يلاحقها أينما ذهبت، ووالدها لايريد أن يتزحزح عن موقفه، لايريد أن تتزوج إلا من يليق بأسرتها حتى وإن انقضى العمر كله.

ضجرت بالصمت، ضاق ذرعها بهذا التوتر الذي يهز كيانها، انتهزت خلو الغرفة إلاّ من صديقتها الحميمة جداً، عادت للحديث عن حالها، وهو موضوع يستأثر باهتمامها دائمًا، حاولت ليلى أن يبدو صوتها حياديًا. وهي تقول:

ـ تقولين إن طاعة ولي الأمر واجبة، ولكنه ظالم.

وحدثت نفسها:

ـ كم أتحرق شوقا لزوج أمنحه حبي وحناني، ويمنحني وفاءه وإخلاصه، أشرب معه من ينابيع الهوى حتى نرتوي، أغرس معه بأيدي الحب زنابق السعادة.. آه.. كم أتوق للحياة الزوجية والأطفال، وإغراق الزوج بطوفان الحب والتفاني في خدمته والإخلاص له.

وانتبهت على صوت صديقتها الحميمة جدا:

ـ لايذهب بك الخيال بعيداً، حتى لاتفقدي عقلك!

خاطبت نفسها: وهل بقي لي عقل لأفقده؟!

عادت الساعة العتيقة تلح على ذاكرتها، ينتابها القلق كلما داهمتها تلك الساعة بعقاربها التي تأبى التوقف، وبندولها المتأرجح يمينًا ويسارا، وصوتها المنتظم الرتيب: تك.. تك.. تك... ورناتها التي توحي بالوحشة وهي تعلن ذوبان الزمن.. ذوبان الشباب من قبضة العمر.. ذوبان الأحلام من قبضة الأماني، وجابر ينأى عنها كلما ظنت أنه قريب منها، ووالدها الذي تحبه يركب موجة العناد.

عندما تتوعك صحته تتفرغ لتمريضه، تتلبسها حالات القلق إذا غاب، وتنتابها حالات الانزعاج إذا ألم به طارئ، لكن هذا الحال تغير منذ أن رفض زواجها من جابر، ولم تعد تهتم به ولا بأي شيء آخر.

لاحظت إحدى المدرسات حديث ليلى مع صديقتها الحميمة جدا، فقالت بعد أن خمنت أي حديث يمكن أن يجري بين الاثنتين:

ـ يارب ارزقنا بابن الحلال..

وعقبت أخرى:

ـ أو حتى ابن الحرام..

فَعَلَّقت إحداهن:

ـ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات.

تشاغلت عن بقية الحديث الذي دار بين المدرسات، والذي تحول إلى حوار ساخن لم تعد تسمع منه شيئًا، بعد أن عاد صوت الساعة يلح: تك..تك..تك.. كمطرقة تنهال ضرباتها فوق رأسها.. إنها تقتحم تفكيرها كلما حاولت التأمل في حالها.. تسمع دقاتها.. تحس بوجودها مهما ابتعدت عنها زمانًا ومكانًا.

ها هي تقترب من توديع عقدها الرابع، ووالدها يحول بينها وبين الزواج، أحيانًا تمنت الموت لترتاح من حياة بلا حياة، وموت بلا موت. تشتعل الرغبة في داخلها، تلتهب الشهوة في جسدها، تمزقها الحيرة، تقذف بها الحسرة في أغوار سحيقة من الأفكار الجنونية الطائشة، وكلما حاولت خنق هذا التمرد في داخلها واستكانت إلى طمأنينة حالمة، عاد غول التمرد أشد ضراوة وفتكا بالبقية الباقية من هدوئها وطمأنينتها، كلما خلت إلى نفسها، وغرقت في الأحلام، كلما أوت إلى مضجعها، وداهمتها الكوابيس.. وبين الأحلام والكوابيس يظل جابر قاسمًا مشتركًا يملأ حياتها في اليقظة والمنام، وصوت الساعة الهرمة يخترق أسوارها التي كانت حصينة، تلك الساعة التي لاتريد التلاشي من الذاكرة، بإطارها المذهب الذي جار عليه الزمن كما جار عليها، وغيّر لونه وشكله كما غير لونها وشكلها، وتصدعت بعض ملامحه كما تصدعت بعض ملامحها: تك.. تك.. تك.. وجابر يدنو وينأى. إنه سهم أصاب منها مقتلاً، أسر قلبها كلامُه، وشغف فؤادها تفكيره، فاندفعت وراءه بكل قوتها وعنفوانها، يبتعد منها كلما قاربت الوصول إليه، تراه على تباعده قريبا، وعلى تنائيه دانيا.

قال لها في اليوم التالي لمقابلته والدها:

ـ والدك لايريدنا أن نتزوج، تعلل بأعذار، لم أخبره شيئا عن حبنا.

قالت:

ـ كيف لي أن أستغني عنك بعد أن أصبحت الهواء الذي أتنفسه؟

ـ أعتقد أن اعتراضه لن يمنعنا من الزواج.

استفسرت بلهفة:

ـ كيف؟

ـ ليس أمامنا إلا أن نضعه أمام الأمر الواقع، علينا أن نسافر ونتزوج، ثم نعود زوجين في غير حاجة إليه.

مانَعَتْ وأصرَّ، مانعتْ وزيَّنَ لها الفكرة، مانعت وسهَّلَ عليها الأمر، مانعت وحاصرها بالإلحاح، مانعت ثم.. لم تعد تمانع..

دخوله في حياتها قلب كل قناعاتها. كانت كشجرة مهملة في أرض يباب، جادت عليها المزن بوابل من الغيث الذي أنعش وجودها، فأورقت أغصانها لتبدو كأجمل ما تكون، أحيانًا تشك في صدق نواياه، يثقل عليها بطلباته، فلا تتردد عن الاستجابة، تأخذ من والدها دون علمه وتعطيه، تعرف أن ذلك خطأ، لكنها مندفعة في حبه دون حدود، حتى عندما اتهم والدها السائق بالسرقة وهي تعرف أنه بريء، لم يؤنبها ضميرها، انساقت وراء عالم صنعته لنفسها، لتجد نفسها متوجةً على عرش الأحلام حينا، وطريدة في صحراء اليأس حينا آخر. ينهكها الحرمان، فتنهار مجهدةً مرهقةً مستسلمة، بعد أن أيقنت أن والدها لايريد إنقاذها من هذا الضياع.

هاتفها جابر صباح هذا اليوم، واتفقت معه على كل شيء، وساعة الحائط العتيقة ببندولها المتأرجح تذكرها بحياتها المتأرجحة بين الأمل واليأس.

أنهت يومها الأخير من العام الدراسي، وغادرت المدرسة ولازالت دقات الساعة تطاردها وتذكرها بوالدها الذي سيطول انتظاره..



الندوة العربية السادسة للمعلومات تناقش دور المكتبات في إرساء نظم المعلومات

سفارة المملكة في بريطانيا تقيم معرضا للكتاب

اليونسكو تضيف مواقع جديدة لقائمة التراث العالمي

2400 دار نشر في معرض القاهرة للكتاب وسط اعتراضات شديدة

فهرسة مخطوطات جامع صنعاء أولى ثمار مشروع «ذاكرة العالم» الذي أعلنته اليونسكو

السعودية

افتتاح الموسم الثقافي النسائي بمكتبة الملك عبدالعزيز

تحت رعاية صاحبة السمو الملكي الأميرة نوف بنت عبدالعزيز افتتح القسم النسائي بمكتبة الملك عبدالعزيز العامة في الرياض موسمه الثقافي، في الأسبوع الأخير من شهر رجب الماضي، بندوة عنوانها «الجمعيات الخيرية بين الواقع والطموح».

شاركت في الندوة د. مي العيسى، والجازي الشبيكي، وأدارتها د. نورة الشملان؛ حيث ناقشت واقع الجمعيات الخيرية، ودور المجتمع في دعم أعمالها تحقيقًا للأهداف التي أقيمت من أجلها.

نشاطات ثقافية وفنية لمجلس التعاون

تنفذ الأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية مجموعة من النشاطات والبرامج الثقافية والفنية خلال العام الميلادي الجاري 1996م.

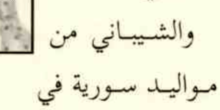
تشمل النشاطات: ندوة عن الطفل، والدورة الرابعة للمنشطين الثقافيين (في المملكة العربية السعودية)، والمعرض الرابع للفنون التشكيلية (في الكويت)، والندوة الثانية للتراث الشعبي (في قطر)، والمهرجان الشعري الثالث (في البحرين)، والمعرض الثالث للخط العربي (في سلطنة عمان)، والمعرض الخارجي للفنون التشكيلية لفناني دول المجلس (في روما)، والأسبوع الخليجي الثقافي الخارجي (في بكين).

مسابقة نادي أبها الأدبي

أعلن نادي أبها الأدبي عن مسابقته السادسة والعشرين في مجالات: الشعر (مجموعة شعرية لاتقل عن خمس قصائد)، والقصة (مجموعة قصصية لاتقل عن خمس قصص قصيرة)، والبحث (علمي أو تاريخي أو جغرافي أو تربوي لايقل عن ثلاثين صفحة). والمسابقة مفتوحة لكل المثقفين من الجنسين محليًا وعربيًا، عدا أولئك الذين سبق لهم الفوز بإحدى جوائز النادي على مدى السنوات الثلاث الماضية، كما يشترط أن تكون النصوص جديدة ومكتوبة باللغة العربية الفصحى.

أما الجوائز، فيخصص لكل موضوع ثلاث جوائز مادية؛ حيث تبلغ الجائزة الأولى 3000ريال، والثانية 2000ريال، والثالثة 1000ريال.

وفاة الشيباني


أحمد الشيباني

توفي في جدة يوم 17 رجب الماضي الكاتب والمفكر أحمد الشيباني.

والشيباني من مواليد سورية في العام 1923م، وعاش في لبنان، ثم غادرها بعد نشوب الحرب الأهلية، وأقام بالسعودية - التي تعود إليها أصول أجداده -؛ حيث مارس الكتابة في صحفها ومجلاتها مثيرًا قضايا فكرية على جانب من الأهمية، وحصل على الجنسية السعودية من جديد. وكتب لفترة باسم مستعار هو «ذبيان الشمري»، إلى جانب كتابته باسمه

توزيع جوائز المدينة المنورة

الأمير بدر بن عبدالعزيز

رعى أصحاب السمو الملكي الأمراء: بدر بن عبدالعزيز نائب رئيس الحرس الوطني، ونواف بن عبدالعزيز، وعبد الإله بن عبدالعزيز، وعبدالمجيد بن عبدالعزيز أمير منطقة المدينة المنورة في نهاية شهر رجب الماضي الاحتفال بتوزيع جائزة المدينة المنورة في عامها الثاني في فروعها الثلاثة: البحث العلمي، والنبوغ والتفوق الدراسي، والخدمات العامة.

وحجبت جائزة البحث العلمي لهذا العام في مجالها العام والمستكتب لعدم اتفاق المحكمين على الموضوع، فيما منحت جائزة النبوغ والتفوق الدراسي لـ ٦٥ فائزاً من مختلف المراحل الدراسية بدءاً من الابتدائية حتى الدكتوراه. وفاز بجائزة الخدمات العامة في مجالاتها الأربعة كل من: محمد علي مغربي (خدمات اجتماعية)، وأمانة المدينة المنورة (المرافق والخدمات)، وشركة طيبة للاستثمار والتنمية العقارية (نشاط ثقافي)، ومكتب ناصر الرشيد بالرياض (التصميم المعماري).

الحقيقي، وترك العديد من الترجمات للفكر الغربي استفاد منها أجيال من المثقفين. ومن أهم هذه الكتب المترجمة: نقد العقل المجرد، نقد العقل المعملي، تدهور الحضارة الغربية، قصة الفلسفة، آخر أيام سقراط، تاريخ الفكر الأوربي الحديث، والحضارة والتاريخ.

معرض تشكيلي جماعي

شارك ٤٩ فناناً وفنانة في المعرض الجماعي الثاني عشر للثقافة والفنون الذي نظمته ـ مؤخراً ـ الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في جاليري «كرا» بجدة.

وقدمت الجمعية خمسة دروع تذكارية لأفضل الأعمال كانت من نصيب خالد الأمير عن لوحته «تكوين»، ومهدي محمد جريبي عن لوحته «أصالة»، و محمد إبراهيم الرباط عن لوحته «حوار»، وعبير أحمد عن لوحتها «ملامح»، وفاطمة محمد عن لوحتها «طبق ملون»، ونالت تسعة أعمال أخرى شهادات تقدير.

كتب جديدة

التعليم العالي في المملكة العربية السعودية: بداياته وتطوره، تأليف د. عبدالمحسن بن سعود الداود، صدر عن دار أركان في الرياض.

وقفات حرة، نظرات اجتماعية، للكاتب عثمان بن ناصر السعيد، صدرت عن دار طيبة.

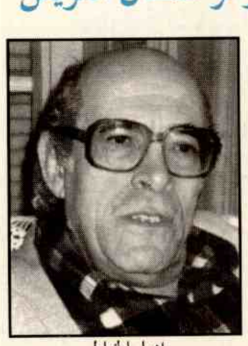
أبو نصر الفارابي؛ دراسة لجوانب من علمه، وببليوجرافيا بآثاره وما كتبه عنه المعاصرون باللغة العربية في الدوريات أو المؤلفات المستقلة، تأليف أبي عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، وأمين سليمان سيدو، صدر عن دار ابن حزم للنشر والتوزيع.

المكتبة الإلكترونية: الآفاق المرتقبة ووقائع التطبيق، تأليف كينيث أي داولين، ترجمه إلى العربية حسني عبدالرحمن الشيمي، وصدر عن عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض



الإمارات

الفائزون بجوائز سلطان العويس



إدوار الخراط

أعلنت ـ مؤخراً ـ أسماء الفائزين بجوائز سلطان العويس الثقافية في مجالات القصة والرواية والشعر، والدراسات الأدبية والنقدية، والدراسات الإنسانية والمستقبلية.

فاز بجائزة القصة الأديب المصري إدوار الخراط، وبجائزة الشعر الشاعر عبدالوهاب

البياتي، وبجائزة الدراسات الأدبية والنقدية د. ناصر الدين الأسد، وتقاسم جائزة الدراسات الإنسانية والمستقبلية كل من د. عواطف عبدالرحمن (مصر)، ود. محمد غانم الرميحي (الكويت). وكان علامة الجزيرة العربية الشيخ حمد الجاسر قد نال في وقت سابق جائزة الإنجاز الثقافي.

وتحدد يوم السابع والعشرين من شهر شوال المقبل (17مارس 1996م) موعدًا للاحتفال بتكريم الفائزين.

معرض وثائقي

أقيم في رأس الخيمة معرض وثائقي عن جزر طنب الكبرى والصغرى وأبي موسى تحت عنوان: «عروبة الجزر الثلاث».

ضم المعرض وثائق ومراسلات معروضة على شكل مجسمات جدارية بين مسؤولين بريطانيين وإيرانيين والقواسم حكام إمارتي رأس الخيمة والشارقة، تدل على عروبة الجزر الثلاث بما لايدع مجالاً للشك.



البحرين

دعوة لإنشاء رابطة دولية للغة العربية

دعا المشاركون في ندوة «اللغة العربية وتحديات القرن الحادي والعشرين» إلى إنشاء رابطة دولية للغة العربية بإشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تهتم بوضع برامج ومشروعات لنشر اللغة العربية وتدريسها في العالم الإسلامي.

وأوصت الندوة بالعمل على تدريس اللغة العربية في الجامعات الأجنبية، وإعداد معجم عام في اللغة وآخر تاريخي، ودعوة الدول العربية إلى اعتبار التعريب هدفًا قوميًا لاتراجع عنه، وتوصيات أخرى.

وكانت الندوة قد عقدت - مؤخرًا - في المنامة بمشاركة نخبة من أساتذة اللغة العربية من مختلف الأقطار.

مؤتمر الإبداع في الإعلام

تنظم جمعية الإعلان في دول الخليج بالتعاون مع الجمعية الدولية للإعلان - فرع البحرين - مؤتمرًا ومعرضًا للإبداع في الإعلام والتسويق تحت عنوان: «المبدعون.. الإبداع في التسويق والاتصالات» خلال الفترة من 20 إلى 23 شوال المقبل (10-13 مارس 1996م).

يشارك في المؤتمر 800 مدعو من مؤسسات إعلامية مختلفة، وتتخلله محاضرات عن آفاق الإعلام والإعلان.

المعرض الرابع والعشرون للفنون التشكيلية

أقيم في المنامة - مؤخرًا - المعرض الرابع والعشرون للفنون التشكيلية في إطار احتفالات البحرين بيومها الوطني.

اختيرت الأعمال المعروضة بدقة وعناية شديدتين من قبل لجنة فنية متخصصة، راعت في اختيارها إبراز أرقى الأعمال وما وصلت إليه الحركة التشكيلية البحرينية من تميز وحضور. وأقيمت على هامش المعرض نشاطات ثقافية تمثلت في ندوات ومحاضرات شارك فيها نقاد تشكيليون عرب وأجانب.



قطر

دور حماية حقوق الملكية في التطور الثقافي

استضافت الدوحة أعمال ندوة حول حماية الحقوق الملكية الفكرية في التطور الثقافي، التي نظمتها منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) بالتعاون مع وزارة الإعلام والثقافة القطرية.

ناقشت الندوة جوانب مختلفة ذات علاقة بحماية حقوق المؤلف عن الاتفاقات العربية والدولية المنظمة لذلك.

كتب جديدة

التوحيد والوساطة في التربية الدعوية، تأليف فريد الأنصاري، صدر ضمن سلسلة «كتاب الأمة» عن مركز البحوث والدراسات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالدوحة.



الكويت

كتب جديدة

التصوير الشعبي العربي، تأليف أكرم قانصوه.

الصراع على القمة: **مستقبل المنافسة الاقتصادية بين أمريكا واليابان، تأليف لسترثارو، ترجمه إلى العربية أحمد فؤاد بلبع.**

صدر الكتابان السابقان ضمن سلسلة «عالم المعرفة» عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت.

صفحات من تاريخ الكويت في ظل الاحتلال العراقي، تأليف د. حياة ناصر الحجي، صدر بدعم مالي من مؤسسة الكويت للتقدم العلمي.

صقر الخليج: عبدالله مبارك الصباح، تأليف د. سعاد الصباح، صدر عن دار سعاد الصباح للنشر.





أدباء الأقاليم يؤكدون رفضهم للتطبيع الثقافي مع إسرائيل

أكد المؤتمر العاشر لأدباء مصر في الأقاليم استمرار رفضه لأشكال التطبيع الثقافي وغيره مع اسرائيل، وطالب بضمان حرية التعبير لجميع الأدباء والمفكرين بصرف النظر عن انتماءاتهم الأيديولوجية أو مواقفهم السياسية.

جاء ذلك خلال مناقشات المؤتمر الذي افتتحه وزير الثقافة فاروق حسني، وتم خلاله تكريم عدد من الرموز الأدبية من أدباء الأقاليم، ومناقشة بحوث ودراسات دارت حول مفاهيم الهوية في الأدب، والإعلام من منظور غربي وتراثي، والمسرح الإقليمي، ومجال النشر، وغير ذلك من الموضوعات.

ندوة تناقش وضع الأطفال في العالم

استضافت مؤسسة الأهرام الصحفية ندوة عالمية حول «وضع الأطفال في العالم سنة 1996م» نظمتها اليونيسيف بالتعاون مع الأهرام والمركز القومي للأمومة والطفولة في منتصف شهر رجب الماضي.

ناقشت الندوة عدة موضوعات من أبرزها: تقرير اليونيسيف عن وضع الأطفال في العالم، وقضايا النزاع المسلح وأثره في الأطفال.

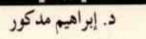
مؤتمر الفلسفة الإسلامية والتحديات المعاصرة

تنظم كلية دار العلوم بجامعة القاهرة مؤتمرًا دوليًا تحت عنوان «الفلسفة الإسلامية والتحديات المعاصرة» خلال شهر ذي القعدة المقبل (أبريل 1996م).

يناقش المؤتمر عدة محاور من بينها: الفلسفة الإسلامية والحوار مع الآخر، والفلسفة الإسلامية والتطرف الفكري، والفلسفة الإسلامية ومشكلات الإنسان المصري.

ينتظر أن يشارك في أعمال المؤتمر مجموعة من الشخصيات الإسلامية والأكاديمية، إضافة إلى بعض المستشرقين.

وفاة العلامة البحاثة د. إبراهيم مدكور

فقدت اللغة العربية واحدًا من رجالاتها الكبار، الذين عملوا بإخلاص من أجل الحفاظ على نقائها وتطورها بوفاة رئيس مجمع اللغة العربية د. إبراهيم بيومي مدكور عن عمر ناهز 93عامًا.

ويعد د. مدكور - المولود عام 1902م - كاتبًا ولغويًا وفيلسوفًا إضافة إلى ممارسته العمل السياسي، وقد تخرج في كلية دار العلوم عام 1927م، وحصل على درجة الدكتوراه من السوربون في الفلسفة عام 1934م، ومارس التدريس بالجامعات المصرية، كما مارس السياسة لمدة 17عامًا عضواً في مجلس الشيوخ قبل الثورة، ووزيرًا لمدة يوم واحد في أول وزارة تشكلت بعد الثورة، ونال جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية.

وانضم الفقيد إلى عضوية مجمع اللغة العربية عام 1946م، وأصبح كاتب سره عام 1959م، ثم صار أمينه عام 1961م، وخلف د. طه حسين في رئاسة المجمع عقب وفاة الأخير عام 1973م.

وشهد مجمع اللغة العربية تحت رئاسة د.

وسط اعتراضات على قرار تأجيله: 2400 دار نشر في معرض القاهرة الدولي للكتاب

مراسل الفيصل - القاهرة:

تقرر تأجيل افتتاح معرض القاهرة الدولي للكتاب في دورته الثامنة والعشرين إلى الثالث من شهر شوال المقبل (22 فبراير1996م) بسبب توافق موعده السابق مع شهر رمضان المبارك، مع تخفيض فترة امتداد المعرض إلى عشرة أيام فقط بدلاً من 15 يومًا، نظرا لارتباط أرض المعارض بمواعيد مسبقة لإقامة معرض دولي صناعي.

وقد أثار قرار التأجيل وتخفيض مدة العرض اعتراضًا لدي شركات التوزيع لما يتوقع أن ينجم عنه إحجام بعض الناشرين العرب والأجانب عن المشاركة، وانخفاض حجم المبيعات والتعاقدات الخاصة بالتصدير.

وصرح مصدر مسؤول بالجهة المنظمة للمعرض أن عدد دور النشر المشاركة هذا العام قارب 2400 دار نشر تنتمي إلى 76دولة من بينها 4 دول تعرض للمرة الأولى، مقابل 1800 دار نشر شاركت في معرض العام المنصرم. وستتم الاستعانة - للمرة الأولى - هذا العام بشركات خاصة لتنظيم المعرض وتصميم ديكوراته، وتعديل طرق عرض الكتب بما يحقق للمعرض تنظيما ناجحًا لايقل عن معرض فرانكفورت الدولي للكتاب.

وقررت اللجنة العليا للمعرض تغيير المحور الرئيس للمعرض هذا العام من «العالم والعلم والهوية» إلى «نحن والعالم»، واستمرار نشاط المقهى الثقافي على أن تقتصر مناقشاته وندواته على إبداع الشباب.

وسيشهد المعرض صدور الملحمة الشعبية «الظاهر بيبرس» في خمسة مجلدات ضمن سلسلة «أدب الحرب» بعد سبعين عامًا من طباعتها آخر مرة؛ بالإضافة إلى استكمال الأجزاء الباقية من السلسلة ومن بينها: «الحرب والسلام» لتولستوي، وسيرة عنترة وسيرة الأميرة ذات الهمة.

مذكور نشاطًا كبيرًا خاصة في مجال المطبوعات، والمعاجم، ومن أهم المعاجم التي أنجزت في عهده: «المعجم الوسيط» و«معجم ألفاظ القرآن الكريم». وللفقيد العديد من المؤلفات والأبحاث، منها: نشأة المصطلحات الفلسفية في الإسلام، مجمع اللغة العربية في 30عامًا، مع الخالدين، في الفكر الإسلامي.

بعد انقطاع طويل: كتابان جديدان لنجيب محفوظ

يصدر قريبًا عن مكتبة مصر كتابان جديدان للأديب الكبير نجيب محفوظ هما: «أصداء السيرة الذاتية»، و«القرار الأخير».

و«أصداء السيرة الذاتية» آخر ما كتبه الأديب الكبير، أما «القرار الأخير» فهي مجموعة قصصية تضم قصصًا سبق نشرها فرادى في الصحف والمجلات خلال عامي 1987و1988، لكنها لم تنشر قبلاً في أية مجموعة قصصية.

فهرسة لمخطوطات مكتبة البلدية بالإسكندرية

يجرى حاليا عمل دؤوب لفهرسة المخطوطات النادرة الموجودة في مكتبة المجلس البلدي بمدينة الإسكندرية المعروفة بـ «مكتبة البلدية».

وتعد مكتبة البلدية من أعرق المكتبات العامة؛ حيث افتتحت عام 1892م، وفيها مجموعة من المخطوطات التي لاتقدر بثمن، بعضها نادر لاتوجد منه نسخة أخرى في أي مكتبة في العالم، ويعود تاريخ بعض مخطوطاتها إلى القرن الرابع الهجري.

يشرف على عملية الفهرسة الباحث د. يوسف زيدان، مسؤول التراث والمخطوطات بالهيئة المصرية العامة للكتاب.

اتحاد أفريقي للفنون والإعلام

تقرر تأسيس اتحاد أفريقي للفنون والإعلام يتخذ من القاهرة مقرًا له.

جاء ذلك خلال اجتماعات المجلس التنفيذي للاتحاد العالمي للفنون والإعلام، التي عقدت - مؤخرًا - في واشنطن، واختيرت مصر عضوًا بالمجلس.

مجمع ثقافي فني

تقرر إنشاء مجمع ثقافي فني جديد في شارع عماد الدين بوسط القاهرة يجمع بين الكتاب والمسرح والفنون التشكيلية.

يقام المجمع على أنقاض مبانٍ قديمة، ويرتفع عشرة طوابق، تخصص ثلاثة منها للعرض المسرحي، ويضم قاعات للفن التشكيلي، وبنكًا للمعلومات، إضافة إلى محلات تجارية أسفله، ويستغرق تنفيذ المشروع قرابة عامين.

اكتشاف حمام روماني في شمال سيناء

عثر على حمام روماني في منطقة تل اللولي بشمال سيناء يعود تاريخه إلى القرن السادس الميلادي.

وتبلغ مساحة الحمام المكتشف 250 مترًا مربعًا، وهو مبني من الطوب الأحمر، ويتكون من أربع قاعات مزينة بالبلاط المرسوم، وجدرانه ملونة بأشكال هندسية جميلة، ويوجد به خزانات للمياه الباردة والساخنة.

كتب جديدة

ظل الصمت، مجموعة قصصية لربيع الصبروت.

قيام وانهيار آل مستجاب، مجموعة قصصية للأديب محمد مستجاب.

محاضرات وندوات

أقامت اثنينية الأستاذ عبدالمقصود خوجة بجدة أمسية ثقافية أدبية احتفاء بالشاعر الأديب عبدالله حمد القرعاوي، تحدث فيها الشيخ عثمان الصالح، والشاعر حسن عبدالله القرشي، ود. عبدالله مناع، ود.رضا عبيد، وآخرون.

نظم نادي مكة الثقافي الأدبي أمسية قصصية شارك فيها كل من: عمر طاهر زيلع، وفهد المصبح، وحسن حجاب الحازمي.

«الحفاظ على المباني التاريخية في عمارة الطين»، عنوان محاضرة ألقاها في دار الآثار الإسلامية بالكويت، د. صالح لمعي مصطفى.

«الحداثة والسرد: الرواية العربية في سورية نموذجا»، موضوع محاضرة ألقاها في مدينة حمص، نبيل سليمان.

«التراث والحداثة ومفهوم التقدم»، موضوع محاضرة ألقاها في مدينة حمص، د. علي عقلة عرسان.

«أحدث ما توصل إليه الطب في علاج تصلب الشرايين التاجية باستعمال مقويات الشرايين»، عنوان محاضرة ألقاها في العيادات الاستشارية بالرياض، د. سميح رمضان لاوند.

«دور المنظمات غير الحكومية في التنمية»، موضوع محاضرة ألقاها د. محمد سعيد الحلبي في دمشق.

«ثقافة الطفل المصري وآفاق المستقبل»، عنوان ندوة نظمتها مكتبة القاهرة الكبرى، تحدث فيها مجموعة من المهتمين بأدب الطفل، منهم: عبدالتواب يوسف، وسعد لبيب، ورتيبة الحفني.

«دمشق القديمة.. الواقع والآفاق»، موضوع حوار مع المهندس زهير تغلبي محافظ دمشق عقد في مكتبة الأسد في دمشق.

«كيف استقبلت اسرائيل مفاجأة حرب أكتوبر؟»، عنوان ندوة أقيمت في نادي أعضاء هيئة التدريس بجامعة المنصورة، تحدث فيها المؤرخ العسكري جمال حماد، وأدارها د. محمد رفعت النحاس.

«الإسلام في الأدب الغربي»، عنوان محاضرة ألقتها في مقر رابطة الأدباء بالكويت، د. سناء الحمود.

«الأمن المائي العربي»، عنوان محاضرة ألقاها الدكتور واثق رسول أغا في دمشق.

«تمثيل الحقيقة في الفن والأدب»، عنوان محاضرة ألقاها في مقر جمعية محبي



حكايات قريتنا، مجموعة قصصية لمحمد عبداللاه.

صدرت الكتب الثلاثة السابقة عن الهيئة العامة لقصور الثقافة في القاهرة.

صورة الدم في شعر أمل دنقل، تأليف د. منير فوزي.

الثورة السلوكية واليسار الجديد في غرب أوروبا والولايات المتحدة، تأليف محمد نصر مهنا.

صدر الكتابان السابقان عن دار المعارف.

خرزة المشي، مجموعة قصصية لمحمد اليحيائي، صدرت عن دار شرقيات.

غدا القرن 21، تأليف رجب سعد السيد، صدر ضمن سلسلة «العلم والحياة» عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

موسوعة جائزة نوبل، إعداد محمود قاسم، صدرت عن مكتبة مدبولي.

ديار الحب، رواية لفخري فايد، صدرت عن مكتبة كل شيء.

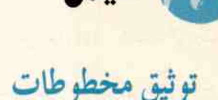
الجسر الذهبي، ج6، مختارات من الأدب النمساوي المعاصر في القصة والشعر، أعدها وقدم لها أودلف أويل، وترجمها إلى العربية د. مصطفى ماهر، وصدرت عن المكتب الثقافي النمساوي.

إصلاح الأمم المتحدة، تأليف د. حسن نافعة، صدر عن مركز البحوث والدراسات السياسية بجامعة القاهرة.

التدوين التاريخي ودور المخطوطات السياسية في العالم الإسلامي، تأليف د. محمد نصر مهنا، صدر عن دار الفجر للنشر والتوزيع.



اليمن



توثيق مخطوطات جامع صنعاء الكبير

قامت لجنة من الخبراء المصريين بتوثيق مخطوطات جامع صنعاء الكبير، الذي يعود تأسيسه إلى بداية عهد الدعوة الإسلامية، والبالغ عددها ٥٠٠ مخطوط، وتعكس تطور الخط العربي وكتابة المصاحف خلال الفترة الواقعة بين القرنين الأول والرابع الهجريين. ويأتي هذا الإنجاز كثمرة أولى لمشروع (ذاكرة العالم) الذي تشرف عليه منظمة اليونسكو، وكان قد عثر على هذه المخطوطات عام 1972م في خبيئة داخل سقف الجامع. ويذكر أن اليونسكو أسندت أيضًا إلى الخبراء المصريين مهمة توثيق مخطوطات جامعة برنستون في أمريكا، التي تعد أكبر مجموعة من المخطوطات العربية في العالم.

ندوة دولية عن جزيرة سقطري

تنظم جامعة عدن ندوة دولية حول موضوع «جزيرة سقطري.. الحاضر والمستقبل» خلال الفترة من5 إلى 9 من ذي القعدة المقبل (24-28مارس 1996م).

تناقش الندوة مجموعة من الجوانب التاريخية والجيولوجية والجغرافية والطبيعية لهذه الجزيرة العربية، إضافة إلى وضعها الاقتصادي.

الفنون الجميلة بالقاهرة، د. عز الدين إسماعيل.

«ارتياد الفضاء بين العلم والقرآن»، عنوان محاضرة ألقاها في مسجد الفتح بوسط القاهرة، د. منصور حسب النبي.

«المعلوماتية في التربية والتعليم العالي»، موضوع محاضرة ألقاها الدكتور منصور فرح في مكتبة الأسد في دمشق.

«حب الوطن من خلال كتابات مولانا أبو الكلام آزاد»، عنوان محاضرة ألقاها في المركز الثقافي الهندي بالقاهرة، د. أحمد القاضي.

«النص الشعري والأدباء»، موضوع ندوة نظمت على هامش الملتقى الشعري السابع في اتحاد الكتاب العرب في دمشق بمشاركة عدد من الأدباء.

«البعث والتفاعل عند الأحياء والأموات في مصر القديمة»، عنوان محاضرة ألقتها في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، د. فايزة هيكل.

«ملامح من الإعجاز الفني في القرآن الكريم»، عنوان محاضرة ألقاها في نادي المدينة المنورة الأدبي الدكتور عبدالسلام الراغب.

«السياسات الدولية في منظمة الخليج العربي»، موضوع محاضرة ألقاها موسى الزغبي في المركز الثقافي في دمشق.

«القصة والتراث في الخليج العربي»، عنوان محاضرة ألقاها ضمن فعاليات الملتقى الثقافي الرابع لدول مجلس التعاون الخليجي في الكويت، د. مرسل العجمي.

«أثر المبيدات الحشرية على الخضروات المزروعة بالكويت»، موضوع محاضرة ألقاها في مقر جمعية المهندسين الزراعيين بالكويت، د. محمد متولي.

نظم المعهد الثقافي الإيطالي بالقاهرة ندوة حول كتاب «شعراء صقلية العرب» لمؤلفته فرانشيسكا كوارو، تحدث فيها - إلى جانب المؤلفة - د. محب سعد الدين، وإدوار الخراط.

«أهمية العلم ودور المعلم»، عنوان محاضرة، ألقاها في كلية التربية للمعلمين في نزوى بسلطنة عمان، الشيخ أحمد بن حمد الخليلي.

«الترسبات الكهفية والاستفادة منها في الدورات المناخية»، عنوان محاضرة ألقاها في سلطنة عمان، البروفسور جورج بروك.

«فن الترميم»، عنوان محاضرة ألقاها في مكتبة الكتب النادرة بالجامعة الأمريكية في القاهرة، د. نصري إسكندر.

«حديث أدب صدر الإسلام» عنوان محاضرة ألقاها في نادي المنطقة الشرقية الأدبي، د.محمد بن سعد بن حسين.

«مسألة الشباب بين النظرية والممارسة»، عنوان محاضرة ألقاها في نادي المدينة المنورة الأدبي، محمد جميل كتبي.





الأردن

جامعة اليرموك تناقش قضايا النص

تنظم جامعة اليرموك مؤتمرها السادس للنقد الأدبي، وموضوعه: «النص .. إشكالاته وقراءاته» في التاسع والعشرين من شهر صفر المقبل 1417هـ (15 يوليو 1996م).

يناقش المؤتمر عدة محاور من بينها: مفهوم النص وتأويله، وإعادة قراءة النص الشعري القديم، والبحث عن قراءة للنص الشعري الحديث، وعلاقة المبدع والمتلقي بالنص.

وتحددت بداية شهر مارس المقبل (منتصف شهر شوال) موعداً نهائياً لاستقبال البحوث المشاركة.

كتب جديدة

القطار، مجموعة قصصية لمحمود الريماوي، صدرت عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في عمّان.

حالات النهار، مجموعة قصصية لخليل قنديل.

البنى السردية: دراسات في القصة الأردنية، تأليف عبدالله رضوان.

صدر الكتابان السابقان عن منشورات رابطة الكُتّاب الأردنيين.

سيرة القبيلة، مجموعة شعرية لعبد الناصر مجلي، صدرت عن دار الكرمل.

مكان تحت الشمس: تأليف زعيم الليكود الإسرائيلي بنيامين نتنياهو، ترجمه إلى العربية محمد عودة الدويري، وصدر عن دار الجليل للنشر.

سورية

وفاة الجندي والتغلبي

فقد الوسط الثقافي والأدبي اثنين من رموزه بوفاة الأديب د. سامي الجندي، والكاتب الصحافي نشأت التغلبي.

و د. سامي الجندي طبيب أسنان ووزير سابق، وتفرغ للأدب بعد أن ترك السياسة، حيث قدم مجموعة من المؤلفات من بينها: «عرب ويهود» و«كسرة خبز» و«صديقي اليأس»، و«سليمان»، كما ترجم «مجنون إلزا» لأراجون، و«بيت الأرواح» لإيزابيل أليندي، وشارك أخاه في ترجمة «مائة عام من العزلة» لجابرييل جارسيا ماركيز.

أما نشأت التغلبي، فقد بدأت حياته الصحافية بإصدار جريدة «عصا الجنة»، وانتقل إلى مصر بعد الانفصال، ثم عمل في دار الصياد» الصحفية في بيروت، وانتقل منها إلى مجلة «الحوادث»، حيث ظل يعمل بها حتى وفاته.

توصيات الندوة السنوية للتعريب

عقد المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر في الفترة من 18 إلى 20 ديسمبر الماضي، ندوته السنوية في دمشق وكانت مخصصة لتعريب التعليم العالي في الجامعات العربية. شارك في الندوة 16 باحثا ونوقشت خلالها عشرة تقارير من عشرة بلدان عربية مشاركة. وجاءت خلاصة آراء المشاركين في الندوة على شكل توصيات أقرها المشاركون تتلخص فيما يلي:

العمل على توفير الكتاب الجامعي الحديث والمعرب المواكب لحركة التطور العلمي. العمل على توحيد المصطلحات العلمية العربية المتداولة. دعوة الجامعات ومؤسسات البحث العلمي إلى التعاون الوثيق مع المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف في دمشق الذي يعود فضل إنشائه إلى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. تعزيز دور مجامع اللغة العربية في الوطن العربي والتنسيق بينها في مجال توحيد المصطلحات. دعوة مكتب تنسيق التعريب في الرباط إلى مراجعة المعاجم المتخصصة التي سبق له إصدارها وإخضاعها إلى التصويبات الواجبة التي استدركها المتخصصون. العمل على إعداد الأساتذة الجامعيين الأكفاء في مختلف الاختصاصات، حيث يكونون قادرين على إلقاء الدروس والمحاضرات بلغة عربية سليمة وميسرة. العمل على تعريب ألسنة الأساتذة الجامعيين في مختلف الاختصاصات الذين يلقون دروسهم باللغات الأجنبية بإقامة دورات تأهيلية لهم. إضافة إلى دعم التعاون بين الجامعات العربية في إطار التعريب.

وفاة الشاعرة هند هارون

توفيت الشاعرة السورية هند هارون ـ التي عرفت باسم (أم عمّار) ـ عن 68 عامًا على إثر أزمة قلبية؛ حيث ولدت في مدينة اللاذقية شمالي سورية عام 1927م ونشأت في كنف أسرة عريقة. ومنذ أيام دراستها في المرحلة الإعدادية بدأ نبوغها الشعري وقدرتها الفائقة على التعبير وتسجيل الأحاسيس.

وكانت تنشر قصائدها الوطنية والوجدانية تحت الاسم المستعار (بنت الساحل)، وما لبثت أن أظهرت نشاطًا ثرًا في المشاركة بالندوات والأمسيات الشعرية والأدبية. ولقد سجلت أهم قصائدها الوطنية في عهد الوحدة بين مصر وسورية من 1958م حتى 1961م؛ حيث دعيت إلى إلقاءالعديد منها في القاهرة والإسكندرية وبور سعيد. وعقب زواجها رزقت بوحيدها عمّار الذي كان يكبر ليكبر مرضه معه حتى توفاه الله بعد نيله شهادة الثانوية العامة. وتركت هذه الفاجعة في نفسها أثرًا بالغا، وجعلها تنحو في شعرها إلى الرثاء فسجلت في هذا المجال صورًا شعرية رائعة.

ولقد خلّفت الشاعرة هند هارون العديد من الدواوين من أهمها: ديوان عمّار، وبين المرسى والشراع، وسارقة المعبد.

كتب جديدة

سر الروح، تأليف أبي الحسن إبراهيم بن عمر الرباط الخرباوي البقاعي، تحقيق عبدالجليل العطا.

منتخب من كتاب الشعراء، تأليف أبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهاني، تحقيق إبراهيم صالح.

صدر الكتابان السابقان عن دار البشائر للطباعة والنشر في دمشق.

الإسلام: الدولة والمجتمع، تأليف سامي زبيدة، ترجمه إلى العربية عبد الإله النعيمي.

المذبحة تحت المجهر: الهولوكست، تأليف يورجن جراف، ترجمه إلى العربية جواد بشارة.

مزاح خاسر، ديوان للشاعرة عناية جابر.

صدرت الكتب الثلاثة السابقة عن دار المدى للثقافة والنشر.

هموم ناشر عربي، تأليف محمد عدنان سالم، صدر عن دار الفكر.

شيء من الذاكرة، تأليف محمود القاضي، صدر عن دار كنعان للدراسات والنشر.



العراق

كتب جديدة

نهاية صيف، رواية، تأليف موسى كريدي.

أشواق طائر الليل، رواية، تأليف مهدي عيسى الصقر.

بلقيس والهدهد، رواية، تأليف علي خيون.

القنطرة، رواية، تأليف محمد شاكر السبع.

سابع أيام الخلق، رواية، تأليف عبدالخالق الركابي.

صدرت الروايات الخمس السابقة عن دائرة الشؤون الثقافية العامة في بغداد.



لبنان

المطبوعات الأجنبية في لبنان

أقر مجلس الوزراء اللبناني مشروع قانون يرمي إلى تشجيع طبع المطبوعات الأجنبية في لبنان، بإعفائها من الضرائب ومنحها شروطًا ملائمة، صرح ذلك نقيب الصحافة اللبنانية محمد البعلبكي.



كتب جديدة

محاضرات في علم الإعلام العام: الميدلوجيا، تأليف ريجيس دوبري، ترجمه إلى العربية فؤاد شاهين وجورجيت حداد.

العلوم الطبيعية في فلسفة ابن رشد، تأليف حسن مجيد العبيدي.

صدر الكتابان السابقان عن دار الطليعة في بيروت.

أبواب النوم، مجموعة شعرية لعبده وازن، صدرت عن دار الجديد.

ديوان أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم، جمع وشرح د. محمد التونجي، صدر عن دار الكتاب العربي.

مشروع النهوض العربي، تأليف وجيه كوثراني، صدر عن دار الطليعة في بيروت.

برلين، بغداد، ريو: مدخل إلى القرن الحادي والعشرين، تأليف آلان ليبياتز، ترجمه إلى العربية هاشم الحسيني، وصدر عن دار المسار للنشر والأبحاث والتوثيق.

قطاع الفلسفة الراهن في الذات العربية، تأليف علي زيعور، صدر عن مؤسسة عزالدين للنشر.

التأويل والحقيقة: قراءات تأويلية في الثقافة العربية، تأليف علي حرب، صدر عن دار التنوير.



تونس

مشروع لإصدار 4 معاجم جديدة

ناقشت ندوة علمية احتضنها المجمع التونسي «بيت الحكمة» مشروعًا لإصدار أربعة معاجم جديدة بثلاث لغات: العربية والفرنسية والإنجليزية في مجال الأرصاد الجوية والهندسة الميكانيكية والمعلوماتية وعلوم البحار.

ينتظر أن تعرض نتائج الندوة على مؤتمري التعريب الثامن والتاسع المزمع عقدهما خلال العام الميلادي الجاري.

مركز لفنون الخط العربي

يفتتح في العاصمة التونسية خلال الأيام القليلة المقبلة «مركز فنون الخط العربي».

يرمي المركز إلى الحفاظ على أساليب الخط العربي وأنماطه الفنية، وترسيخها وتطويرها في تونس بالتعاون مع المعاهد المماثلة في العالم العربي، والإحاطة بالطاقة الفنية الشابة في هذا المجال. كما ينظم معارض لكبار الخطاطين للتعريف بهم، وإبراز القيمة الجمالية والتشكيلية للخط.

مصري وتونسي يتقاسمان جائزة الشابي

تقاسم الكاتب المسرحي المصري عبدالغني داود والكاتب التونسي سمير العيادي جائزة أبي القاسم الشابي للنص المسرحي لعام 1995م.

ونال داود الجائزة عن مسرحيته «اللعنة من فوق المنبر»، فيما أهّلت العيادي للجائزة مسرحيته «عليسة».

المكتبات ودورها في إرساء نظم المعلومات

بدعوة من الاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات، وبالتعاون مع مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات بزغوان ومركز التوثيق القومي في تونس، عقدت الندوة العربية السادسة للمعلومات في الفترة من 24-26أكتوبر/ تشرين الأول 1995م حول «المكتبات الوطنية والعامة ودورها في إرساء النظم العربية للمعلومات.

وقد شاركت في الندوة وفود من الأردن والبحرين وتونس والجزائر والمملكة العربية السعودية وليبيا ومصر. كما شارك فيها وفد من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ووفد من المعهد الفرنسي للبحوث والدراسات حول العالم العربي والإسلامي.

وخلصت الندوة إلى عدد من التوصيات العامة، أهمها: دعوة الدول العربية التي لم تنشئ حتى الآن مكتبات وطنية، إلى ضرورة الإسراع بإنشائها، والارتقاء بالمكتبات الوطنية القائمة حاليًا، والاهتمام بالإيداع القانوني للنتاج الفكري الوطني في كل دولة عربية، وتأكيد أهمية الضبط الببليوجرافي الوطني، والاستفادة من إمكانات تقنية المعلومات، واتخاذ الإجراءات اللازمة لربط المكتبة الوطنية والعامة العربية بالنظام العالمي للمعلومات.

رسائل جامعية

«جهود المماليك في نشر الإسلام في الهند 602-689هـ»، عنوان رسالة ماجستير نوقشت في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، تقدم بها عيسى بن عبدالله محمد الضعيان.

«الادارة الصحية والمستشفيات»، موضوع رسالة ماجستير نوقشت في كلية العلوم الإدارية بجامعة الملك سعود، تقدم بها عبدالله عبدالعزيز محمد السليمان.

«الحقيقة المحمدية عند فلاسفة الصوفية»، موضوع رسالة دكتوراه نوقشت في كلية الآداب بجامعة القاهرة، تقدمت بها عفت السعدني.

«علي الجارم لغويًا»، موضوع رسالة ماجستير نوقشت في كلية الآداب بقنا التابعة لجامعة جنوب الوادي المصرية، تقدمت بها نوال سعدي.

«اقتصاديات التعليم»، موضوع رسالة ماجستير نوقشت في كلية التربية بأسيوط، تقدم بها جمال عوض سيد.

«البطلان في قانون المعاهدات»، عنوان رسالة دكتوراه نوقشت في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، تقدم بها محمد شوقي عبدالعال.

«المسؤولية الجنائية في مجال الصحافة» عنوان رسالة دكتوراه نوقشت في جامعة السوربون في باريس، تقدم بها أحمد فتحي سرور.

«الشعر بين زهير وابنه كعب»، موضوع رسالة دكتوراه نوقشت في كلية اللغة العربية بمدينة إيتاي البارود المصرية، تقدم بها صابر إبراهيم.

«الدراسات اللغوية المقارنة بين اللغتين العربية والعبرية»، موضوع رسالة دكتوراه نوقشت في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، تقدم بها حسني علي حسني.

«علاج وتقويم الدوار الحركي في الأذن»، موضوع رسالة دكتوراه نوقشت



وتقرر أن يكون موضوع الندوة السابعة المزمع عقدها في الأسبوع الأول من أكتوبر/تشرين الأول 1996م: «النشر والضبط الببليوجرافي للنتاج الفكري العربي».



المغرب

كتب جديدة

لسان آدم، تأليف عبدالفتاح كيليطو، صدرت في طبعة فرنسية أصلية، وأخرى عربية قام بترجمتها عبدالكبير الشرقاوي، عن دار توبقال.

اللغة والسلطة والمجتمع في المغرب العربي، تأليف جلبير جرانجيوم، ترجمه إلى العربية محمد أسليم، وصدر عن دار الفارابي للنشر في مكناس.



الباكستان

مؤتمر دولي للأدب والثقافة

أقيم في إسلام آباد - مؤخرًا - مؤتمر دولي للأدب والثقافة الديموقراطية، استمر ثلاثة أيام بمشاركة مثقفين من مختلف أنحاء العالم.

هدف المؤتمر إلى تبادل وجهات النظر حول سبل تعميق الديموقراطية ودعم الأدب والثقافة، من خلال مناقشة دور المثقفين في تعزيز السلام العالمي، وكيفية مواجهة التحديات في العالم الجديد.



إيران

أول مؤتمر للفن الديني

أقيم في طهران «المؤتمر الأول للفن الديني» بمشاركة نحو 60 مفكرًا ومبدعًا من مختلف أنحاء العالم في الأسبوع الأول من شهر رجب الماضي.

ناقش المؤتمر نحو 15عنوانًا تتعلق بمبادئ الفن الديني وحدوده، وعقد بعيدًا عن الجو الرسمي المباشر، حيث غابت عنه وزارة الثقافة والإرشاد.

جنوب أفريقيا

نجيب محفوظ
ثالث أهم مؤلف عالمي

اختارت صحيفة «ستار» كبرى صحف جنوب أفريقيا الأديب الكبير نجيب محفوظ بوصفه ثالث أهم مؤلف عام 1995م.


نجيب محفوظ

جاء ذلك ضمن الاستفتاء السنوي الذي اعتادت الجريدة نشره في نهاية كل عام ميلادي لاختيار أهم مئة شخصية سنويًا.



فرنسا

مواقع جديدة تضاف لقائمة التراث العالمي

قررت لجنة التراث العالمي التابعة لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) إدراج 29 موقعًا جديدًا في قائمة التراث الثقافي والطبيعي العالمي، ٢٣ منها ثروات ثقافية (مدن وصروح) وستة مواقع طبيعية (مناظر وتكوينات جيولوجية).

من بين المواقع المدرجة: معبد أبي سمبل (مصر)، مدينة أفينيون (فرنسا)، بحيرة

في كلية الطب بجامعة القاهرة، تقدم بها خالد عبدالباري حشيش.

«أثر الطلب السياحي الخارجي على التنمية السياحية في شرم الشيخ بالقاهرة، موضوع رسالة ماجستير نوقشت في كلية السياحة والفنادق بالقاهرة، تقدمت بها سها محمد عبدالوهاب.

«ديكور التكايا المصرية»، موضوع رسالة ماجستير نوقشت في كلية الفنون الجميلة بالقاهرة، تقدمت بها سناء عبدالله عبدالشكور.

«دور التلفزيون الليبي في التنمية الريفية»، موضوع رسالة دكتوراه نوقشت في كلية الإعلام بجامعة الزقازيق، تقدم بها اللافي إدريس.

«الأمثال المولَّدة وأثرها في الشعر العباسي»، عنوان رسالة دكتوراه نوقشت في كلية الآداب بجامعة طنطا، تقدم بها فيصل حداد القذافي.

«الإبداع والتدريس والتصميم المعماري»، موضوع رسالة دكتوراه نوقشت في جامعة الأزهر، تقدم بها المهندس أشرف محمد سلامة.



البندقية (إيطاليا)، وبإضافة هذه المواقع الجديدة يرتفع عدد المواقع في لائحة التراث العالمي إلى 469 موقعًا موزعة على 105 بلدان.

من ناحية أخرى قررت اللجنة إضافة المتنزة الوطني في يللوستون بالولايات المتحدة إلى اللائحة الحمراء للمواقع المهددة بالزوال بسبب الحروب أو الكوارث الطبيعية، والبالغ عددها 18 موقعًا، منها مدينة القدس الشريف، ومدينة روبرفنيك القديمة بكرواتيا.

يذكر أن اليونسكو قررت تدريس مادة حماية التراث الإنساني في المدارس الثانوية بخمسين دولة.

أحدث الكتب

حياة ما بعد الياء، نصوص متنوعة للشاعر العراقي عبدالقادر الجنابي، صدرت عن منشورات فراديس في باريس.

المؤسسة الفرنسية، تأليف إيمانويل بافيون، صدر عن دار نشر انتربوس.

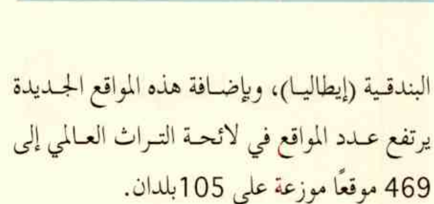
إغراء البراءة، تأليف باسكال بروكر، صدر عن دار نشر كرايسي.

مثقفان في العصر: سارتر وآرون، تأليف جين فرانسيس سيرنيللي، صدر عن دار فايار.

مجتمع الثقة، تأليف آلان بييرفيت، صدر عن دار نشر أوديل جاكوب.

موسوعة الحضارة الإسلامية، تأليف ماليك شبريل، صدرت عن دار نشر ألين ميشيل.

أنتولوجيا الشعر الأفريقي جنوب الصحراء 1945-1995م، تأليف برنار مانييه، صدر عن منشورات اكتيسود.



إسبانيا

«كتاب في جريدة» ملحق ثقافي لمبدع عربي

اتفق ممثلوا 14 صحيفة عربية في اجتماع عقدوه في غرناطة برعاية منظمة اليونسكو على إصدار ملحق ثقافي شهري مشترك لأحد المبدعين العرب، يشرف عليه الشاعر العراقي شوقي عبدالأمير، تحت عنوان «كتاب في جريدة».

وتقرر أن يكون المقر الرئيسي للمشرفين على الملحق في بيروت، وألا يخدم الملحق أي إعلان سياسي أو ديني، أو ينطوي على إثارات أخلاقية.



بريطانيا

مؤتمر صيانة المخطوطات وترميمها

أقامت مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي في لندن مؤتمرها الثالث عن «صيانة المخطوطات وترميمها» بمشاركة خبراء عرب وأجانب.

ركز المؤتمر على جوانب استخدام التقنيات الحديثة في الحفاظ على المخطوطات، والأساليب التقليدية المعمول بها في هذا المجال من واقع تجربة بعض البلدان العربية والأجنبية مثل: مصر واليمن وتونس وإيران.

معرض للكتاب السعودي

نظمت سفارة المملكة العربية السعودية في بريطانيا معرضًا للكتاب السعودي في مقر الملحقية الثقافية السعودية في لندن.

ضم المعرض مجموعة من المصاحف التي قام بطباعتها مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة وبعض إصدارات دور النشر السعودية.

دعوة لإنشاء بنوك معلومات صحفية

طالبت ندوة «مصادر المعلومات في الشرق الأوسط» التي أقيمت - مؤخرًا - في لندن ضمن أعمال مؤتمر «المعلومات الفورية بالاتصال المباشر» بإنشاء بنوك معلومات صحفية عربية وتسهيل إجراءات استخدامها.

أشرفت على تنظيم الندوة مؤسستا B.B.C و U.P.I، وأدارها مايكل رونسون بمشاركة مجموعة من خبراء المعلومات من مؤسسات إعلامية وجامعية عربية وغربية.

أحدث الكتب

خيام القبيلة، قصائد للشاعر د. إبراهيم العواجي، ترجمتها إلى الإنجليزية مريم إسحق الخليفة شريف، وصدرت عن دار أصداء في لندن.

عبق نساء.. عرق رجال، مجموعة قصصية لنبيل أبو الحمد، صدرت عن أرميل جاليري.

حوار في بنيوية الفن والعمارة، تأليف رفعت الجادرجي، صدر عن دار رياض الريس.

الحرب السرية في الشرق الأوسط، تأليف أندرو راثميل، صدر عن دار نشر توريس.

النساء والكتابة والمكان: جغرافيات كولونيالية وما بعد كولونيالية، إعداد أليسون بلانت وجيليان روز، صدر عن مطبعة جليفورد.



ألمانيا

معجم لشعراء فلسطين

قامت مجموعة من المستشرقين في جامعة برلين الحرة بإعداد معجم عن الشعراء الفلسطينيين منذ عام 1948م وإلى بداية الانتفاضة.

يشمل المعجمُ - الذي يشرف عليه المستشرقان بيرجيد زيكام، وفريدريكا بانانيك - الشعراءَ

الفلسطينيين المعروفين والمغمورين، وقد تم إعداده بعد زيارة ميدانية لفلسطين عام 1992م.

أدباء أوروبا في ندوة عن توماس مان

التقى أكثر من ثلاثمئة شاعر وأديب أوروبي في ندوة أقيمت - مؤخراً - في برلين لمناقشة أعمال الروائي الألماني الشهير توماس مان (1875-1955م).

ويعد توماس مان أحد أشهر أدباء ألمانيا المعاصرين، وحصل عام 1929م على جائزة نوبل للأدب، وعام 1949م على جائزة الأديب كلاوس مان (1906-1949م).

وقد جذب توماس مان الانتباه إليه للمرة الأولى بقصته القصيرة «السيد فريديمان الضئيل» التي صدرت عام 1898م، وبدأ نجمه يعلو بصدور روايته «بودنبروكس» عام 1900م، بعدها توالت رواياته ومسرحياته، وقد أدى هجومه على الفاشية في بلاده إلى نفيه إلى سويسرا عام 1933م ثم سحبت منه الجنسية الألمانية عام 1936م.

جائزة جاكوب لساجارا

فاز المؤرخ والأديب الإيرلندي إيوا ساجارا بجائزة «جاكوب» التي تمنحها الأكاديمية الألمانية لتبادل الخدمات.

ويعد جاكوب من أشهر مؤرخي وأدباء أوروبا خلال نصف القرن الأخير.



الولايات المتحدة

جائزة الكتاب لكونيتمر

منح الشاعر ستالي كونيتمر (90عاماً) جائزة الكتاب القومي الأمريكي في مجال الشعر عن ديوانه الأخير «الممر».

يذكر أن جوائز الكتاب الأمريكي تعادل «الأوسكار» في مجال السينما، وتبلغ قيمة الجائزة عشرة آلاف دولار.

وفاة آخر أعضاء حركة أجراريان الأمريكية

انسدل الستار - أخيراً - على حركة «أجراريان» الأدبية (أنصار الإصلاح الزراعي) بوفاة الكاتب والناقد أندرو ليتلي، آخر الأحياء من أعضائها عن عمر ناهز 92عاماً.

ولد ليتلي في تينسي عام 1902م، وأسهم عام 1930م في إصدار البيان الجماعي للحركة الذي حمل عنوان «سأؤكد موقفي»، وحذر من مخاطر التطور الصناعي وتأثيره في الريف.

ومن أبرز أدباء الحركة: روبرت وارين، آلان تاتي، ورونالد دافيدسن.

أحدث الكتب

البحث عن القمر، رواية جديدة لتوني هيللرمان، صدرت عن دار نشر كولينز.

تنيسي وليامز: الإنسان والكاتب، تأليف ليلي ليفريتشي، صدر عن دار نشر هودر.

الأمم المتحدة وحقوق الإنسان: 1945-1995م، مجموعة من الأبحاث والوثائق، صدرت عن منظمة الأمم المتحدة في نيويورك.

البرتغال

إلغاء مشروع سد لإنقاذ رسومات صخرية

قررت الحكومة البرتغالية إلغاء مشروع إقامة سد على نهر كوا في شمال البرتغال لإنقاذ رسوم محفورة على الجدران الصخرية للنهر.

وتوصف هذه الرسوم بأنها أكبر معرض في الهواء الطلق لفنون العصر الحجري. وسوف تتكلف الحكومة البرتغالية - نتيجة لهذا القرار - قرابة 160مليون دولار في صورة تعويضات للشركات المنفذة للسد، وسحب العمل في المشروع، وإعادة البيئة إلى حالتها الطبيعية.

جائزة كاموس لساراماجو

منح الروائي جوزيه ساراماجو جائزة كاموس الأدبية لعام 1995م، وهي أرفع جائزة أدبية برتغالية، وتحمل اسم الشاعر البرتغالي لويس دي كاموس (1524-1580م).

ولساراماجو روايات كثيرة لعل أشهرها: «خوت دي ريكاردو» و«مرسى من الحجر».



النمسا

كنوز العالم تعرض في فيينا

يقام حاليا في فيينا معرض يضم مجموعة من التحف والاكتشافات الأثرية التي عثر عليها خلال المئة عام الماضية في 22 دولة من أنحاء العالم.

يقام المعرض بمناسبة مرور مئة عام على افتتاح متحف إيفيروس التاريخي النمساوي في فيينا.



كندا

رحيل صاحب «الرجل الشرير»

توفي الروائي روبرتس ديفز عن عمر ناهز 82عاماً.

ويعد ديفز من أبرز روائيي كندا، وقد بدأ الكتابة منذ حقبة الثلاثينيات الميلادية، وأصدر 30رواية، وترشح عام 1993م لنيل جائزة نوبل، وآخر رواية أصدرها عام 1995م بعنوان «الرجل الشرير».


إبداع صحفي جديد
صباح كل سبت
أنتم على موعد مع
مجلة
الشرق
AL SHARQ
أسبوعية سياسية ثقافية اجتماعية
نقلة صحفية في عالم المجلات الأسبوعية
مقالات لأشهر الكتاب والمتخصصين
الجديد والمفيد من الموضوعات التى تهم كل أفراد الأسرة
www.shialtareekh.com

كتب وردت

القرآن والعلم المعاصر

يناقش هذا الكتاب التوافق بين الدين والعلم، وهو خلاصة الأفكار التي أوردها الطبيب الجراح الفرنسي موريس بوكاي الذي اعتنق الإسلام عام 1982م، في كتابه REFELEXIONS SWLE CORAN وقام بترجمته والتقديم له والتعليق عليه د. محمد إسماعيل بصل ود. محمد خير البقاعي.

يقول المؤلف: «لقد وجدت هذا التوافق بين الدين والعلم في تفكير يقوم على المعطيات العلمية يوم أن شرعت في دراسة القرآن الكريم»، ويثبت بوكاي - وفق مناقشة موضوعية وموازنات تاريخية - أن القرآن الكريم جاء بأدلة علمية منذ خمسة عشر قرنًا وأكدها العلم الآن، مما يثبت أن القرآن كتاب الله الذي لم يمسه التحريف والتعديل.

يشتمل الكتاب على عرض مختصر ووافٍ لكل النتائج التي خلص إليها المؤلف في ثلاثة كتب أصدرها قبلاً: التوراة والقرآن والعلم 1976م، والإنسان من أين أتى: أجوبة العلم والكتب المقدسة 1981م، ومومياء الفراعنة والطب، رمسيس الثاني في باريس 1987م. كما يتضمن الكتاب الأفكارالمرئية التي طرحها بوكاي في محاضرات وأبحاث ومقالات متعددة.

وفي الكتاب يرد المؤلف على بعض الاعتراضات التي جوبه بها من بعض الكتاب على ما جاء في كتبه وأبحاثه ومحاضراته، فأصلح الأوهام والآراء المغلوطة التي جاء بها هؤلاء فيما كتبوه، وتساءل: إن كان بعض هذه الأوهام مقصودًا، لأنه لايمكن أن يقع في المخالفات التاريخية إلا أولئك الذين لهم فيها مآرب أخرى.

يقع الكتاب في ١٥٢ صفحة من القطع المتوسط، وصدر عن دار ملهم للطباعة والنشر في حمص بسورية.



الاتجاهات الجديدة في أدب الأطفال

دراسة تناولت الكتابة في أدب الأطفال، والدور الثقافي لمن يتصدى لهذا المجال الأدبي الذي يتسم بالخصوصية، ويتطلب استعدادًا مميّزًا، بوصفه أحد أهم السبل التي يكتسب الطفل من خلالها القيم والاتجاهات واللغة، وعناصر الثقافة الأخرى.

ويؤكد بهاءالدين الزهوري في دراسته: «أن السهولة والبساطة اللتين يتسم بهما أدب الأطفال لا تسوغان بأي حال، أن يكون هذا الأدب تصغيرًا لأدب الكبار، فليس كل عمل أدبي مقدم للكبار يصبح بمجرد تبسيطه أدبًا للأطفال». والدراسة تركز على اشتراطات معالجة أدب الأطفال، من وجوب التوافق مع قدرات الأطفال ومراحل نموهم العقلي والنفسي والاجتماعي، ومن حيث أهمية سكب مضمون العمل الأدبي المقدم للأطفال في قالب أسلوبي خاص.

عالج المؤلف موضوع دراسته في مقدمة وعشرة فصول، تحدث فيها عن مفهوم أدب الأطفال وخصائصه الأساسية، وأدب الأطفال والمجتمع، ووسائل تنميته، وناقش مفهوم النشاط الأدبي الترويحي وأسسه وأهدافه وأنواعه. ثم تحدث عن رعاية الموهبة الفنية عند الطفل، وأسس كشفها وأساليب رعايتها. وتحدث عن مصطلح الحكاية الشعبية، وأهميتها، وتوظيفها في قصص الأطفال، ثم ناقش استخدام الحيوان في حكايات الأطفال، والقيمة التربوية لحكاية الحيوان. بعد ذلك تحدث المؤلف عن قصيدة الطفل في الكتاب المدرسي وتجربة الشاعر سليمان العيسى، وناقش خصائص شعر الأطفال، وقدم نصوصًا شعرية مدروسة. ثم تناول مسألة التذوق اللغوي والفني وأساليب تنميته عند الطفل، ومشكلات قصص الأطفال في سورية. بعدها ناقش حال أدب الأطفال في العالم العربي، واختتم كتابه بالحديث عن تجربة أدب الأطفال في سورية وبدايته وتطوره، والعلاقة بينه وبين وسائل الإعلام.

تقع الدراسة في 183صفحة من القطع المتوسط، وصدرت عن دار حمص في سورية.



أشهر الأمثال

كتاب جمع فيه الشيخ طاهر الجزائري - رحمه الله - طائفة مختارة من الأمثال المشهورة، انتقاها من كتب الأمثال والأدب ورتبها على حروف المعجم، ثم ألحق بها طائفة أخرى من الأمثال مما جاء على وزن (أفعل) وختم الكتاب بعدد من الفوائد تتعلق بالأمثال.

قرأ الكتاب وكتب مقدمته وحواشيه د. مازن المبارك، رئيس قسم اللغة العربية، بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بدُبي.

وقدم المحقق تعريفًا بالمؤلف الشيخ طاهر بن صالح بن أحمد حسين بن موسى بن أبي القاسم الصمعوني الجزائري الدمشقي الحسني، المتوفى عام 1338هـ الموافق 1920م. وأشار إلى آثاره العلمية، كما أورد مقتطفات مما قاله معاصرو الشيخ الجزائري عن سعة علمه وإنتاجه الغزير. وقد وصفه بعض تلامذته بأن تأثيره الفكري والثقافي ودوره الإصلاحي والتنويري في الشام مماثل لتأثير الشيخ محمد عبده في مصر.

وقد ضبط المحقق النَّص وخرّج الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، كما ضبط الأمثال مع الإشارة إلى أماكنها ومصادرها.

صدرت الطبعة المحققة في 200 صفحة من القطع المتوسط عن دار الفكر في دمشق، ودار الفكر المعاصر في بيروت.

من القلب

ديوان شعر يضم ٤٣ قصيدة للأديب السوري وليد قنباز. وقد اشتملت على القصائد العمودية وقصائد التفعيلة. كتبها الشاعر خلال الفترة من 1958-1992م، وعالج فيها قضايا وطنية وإنسانية واجتماعية لصيقة بالأسرة الصغيرة، مع انفعالات وجدانية.

قدم عبدالرزاق الأصفر للمجموعة بعد قراءة نقدية، ووصفها بأنها: «لاتصنف تحت لواء أية مدرسة شعرية»؛ فهي تجمع بين التقليدي والجديد، والذاتي والاجتماعي، وبين الوضوح والغموض، وبين الموضوعات الساخرة الضاحكة والجادة. والشاعر نفسه يحاول تأكيد عدم اصطباغ نتاجه الشعري بأي توجه مصنف، ويتساءل: «أفلا يُسمح لدفقة من العواطف الفطرية تبلورت كلمات خرجت من شغاف القلب، ومن دون أي انتماء خارجي أن تقول كلمة ما».

وقصائد المجموعة تتسم بأنها مباشرة في الطرح، إلا القصيدة التي اتخذت مسمى «لماذا؟»؛ فقد حشدها الشاعر بالتساؤلات الرمزية المحيرة. يقول:

تنادي رسومًا من المستحيل
يعشي سناها سنى كل جيل
فتُحرق مني سحاب الجفون
وأغدو صراخًا بوادي الجنون

إلى أن يقول:

وألمح في عمق عمق الشعور
شظايا المصير وسَعَد المَنونْ

تقع المجموعة في ١٦٢ صفحة من القطع المتوسط، وقد صدرت عن دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر بدمشق.

١ـ جوائز المسابقة :

جوائز عديدة تقدمها المجلة لأصحاب الحلول الفائزة على النحو التالي:

أ ـ ثلاث جوائز مالية تمنح لثلاثة فائزين (٥٠٠ ريال، ٣٥٠ ريالاً، ١٥٠ ريالاً)

ب ـ خمس جوائز اشتراك مجاني في المجلة لمدة عامين (٢٤ عدداً).

ج ـ عشر جوائز اشتراك مجاني في المجلة لمدة عام واحد (١٢ عدداً).

د ـ خمس جوائز عبارة عن مجموعات من إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض، قيمة كل مجموعة في حدود مائة ريال.

٢ـ شروط المسابقة :

أ ـ الإجابة عن جميع الأسئلة، وإرفاق القسيمة الأصلية ـ وليس نسخة مصورة ـ للمسابقة مع ورقة الإجابات التي يوضح فيها الاسم ثلاثياً أو رباعياً ـ إن أمكن ـ وعنوان المراسلة.

ب ـ ترسل الإجابات على العنوان التالي:

مسابقة ، مجلة الفيصل ،
ص.ب. (٣) الرياض (١١٤١١)
المملكة العربية السعودية

(مع ضرورة ذكر رقم المسابقة على المظروف)

جـ ـ أية إجابات تصل بعد ٤٥ يوماً (حسب التقويم الهجري) من صدور العدد لن يلتفت إليها.

د ـ من حق القارئ أن يشترك باسمه في المسابقة الواحدة أكثر من مرة شرط إرفاق قسيمة المسابقة مع كل رسالة.

تنبيه: نرجو من الإخوة المشاركين عدم لصق القسيمة على ورقة الإجابات أو قص أجزاء منها، وإنما يكفي وضعها مع ورقة الإجابات داخل المظروف.

أجوبة مسابقة العدد 228

ج1 : من الأنكحة التي كانت في الجاهلية:

نكاح الخدن: كانوا يقولون: ما استتر فلا بأس به وما ظهر فهو لؤم. وهو المذكور في قول الله تعالى: ﴿ولامتخذات أخدان﴾.

ونكاح البدل: وهو أن يقول الرجل للرجل: انزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي وأزيدك. رواه الدارقطني عن أبي هريرة بسند ضعيف جداً.

وذكرت أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ غير هذين النوعين فقالت: «كان النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء: نكاح الناس اليوم: يخطب الرجل إلى الرجل وليّته أو ابنته، فيصدقها ثم ينكحها. ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها حتى يتبين حملها. فإذا تبين، أصابها إذا أحب. وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد. ويسمى هذا نكاح الاستبضاع. ونكاح آخر: يجتمع الرهط «ما دون العشرة» على المرأة فيدخلون؛ كلهم يصيبها. فإذا حملت ووضعت، ومرَّ عليها ليال، أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع، حتى يجتمعوا عندها، فتقول لهم: قد عرفتم ما كان من أمركم، وقد ولدت فهو ابنك يا فلان، تُسَمِّي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها، لايستطيع أن يمتنع منه الرجل. ونكاح رابع: يجتمع ناس كثير، فيدخلون على المرأة لاتمتنع ممن جاءها، وهن البغايا ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن. فإذا حملت إحداهن ووضعت، جمعوا لها، ودعوا لها القافة ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاط به ودعي ابنه لايمتنع من ذلك. فلما بُعث محمد صلى الله عليه وسلم بالحق، هدم نكاح الجاهلية إلا نكاح الناس اليوم».

وهذا النظام الذي أبقى عليه الإسلام لا يتحقق إلا بتحقق أركانه من الإيجاب والقبول، وبشرط الإشهاد. وبهذا يتم العقد الذي يفيد حلَّ استمتاع كل من الزوجين بالآخر على الوجه الذي شرعه الله، وبه تثبت الحقوق والواجبات التي تلزم كلاً منهما.

ج 2 : اتفق الفقهاء علي وجوب حَدِّ شارب الخمر، وعلى أن حدَّه الجلد؛ ولكنهم مختلفون في مقداره:

فذهب الأحناف ومالك إلي أنه ثمانون جلدة. وذهب الشافعي إلى أنه أربعون. وعن الإمام أحمد روايتان. قال في المغني: وفيه روايتان: إحداهما أنه ثمانون، وبهذا قال مالك، والثوري، وأبوحنيفة، ومن تبعهم، لإجماع الصحابة؛ فإنه روي أن عمر استشار

نتائج مسابقة العدد 228

أ ـ فازت بالجائزة المالية الأولى، وقدرها 500 ريال سعودي، سمراء بنت صقر المنصور، حلب، سورية.

وفاز بالجائزة المالية الثانية، وقدرها 350 ريالا سعوديا، محمد الزيادي، طنجة، المغرب.

وفاز بالجائزة المالية الثالثة، وقدرها 150 ريالا سعوديا، معاذ عبدالله إبراهيم، عمان، الأردن.

ب ـ فاز بجائزة الاشتراك المجاني في المجلة لمدة عامين (24 عددا)، كل من:

1ـ عبدالفتاح نور محمود منصور، الدقهلية، مصر.

2ـ فاطمة إبراهيم محمود، خميس مشيط، المملكة العربية السعودية.

3ـ كمال الدين قاسم، المسيلة، الجزائر.

4ـ محمد بن أحمد بن الحاج خليل عاشوراء، المهدية، تونس.

5ـ طيبة مصطفى الأمين، الخرطوم، السودان.

ج ـ وفاز بجائزة الاشتراك المجاني في المجلة لمدة عام واحد (12 عددا)، كل من:

1ـ لجين محمد إبراهيم فائع، خميس مشيط، المملكة العربية السعودية.

للاشتراك املأ هذه القسيمة
(عنوان الاشتراك من الخلف)

الاسم: ....
العنوان: ....

أسئلة مسابقة العدد 231

السؤال الأول:

حرَّم الإسلام الرِّبا، وعدَّه من كبائر الإثم التي أمر باجتنابها. اذكر آيتين من كتاب الله تعالى تدلان على ذلك.

السؤال الثاني:

دعا الإسلام إلى أن يبذل المسلم من ماله، ويتصدق على إخوانه المحتاجين. اذكر ثلاث آيات (رقم الآية واسم السورة)، وثلاثة أحاديث شريفة تحضّ على ذلك.

السؤال الثالث:

عندما يتوجه المسلم لأداء صلاته في المسجد؛ فإنَّ له أن يدعو ربه بأدعية مختلفة سنَّها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. اذكر دعاءين منها.

السؤال الرابع:

عرفت البلاد العربية الصحافة على فترات متقاربة. متى وأين تأسست الصحف التالية: الزوراء، السفير، كوكب أفريقيا؟

السؤال الخامس:

راجز عربي، طوَّر هو وأبوه الرجز؛ فجعلاه كالقصائد، وعالجا فيه موضوعاتهما، فصار رجزهما متونا لغوية يحافظ عليها المشتغلون باللغة، ويكثرون الاستشهاد بها. من هو؟

الناس في حد الخمر؟ فقال عبدالرحمن بن عوف: «اجعله - كأخف الحدود - ثمانين». فضرب عمر ثمانين، وكتب به إلى خالد وأبي عبيدة بالشام.

وروي أن عليًا رضي الله عنه قال في المشورة: «إذا سكرَ هَذَى، وإذا هذى افترى، فحدوه حد المفتري». روى ذلك الجوزجاني، والدارقطني وغيرهم.

والرواية الثانية: أن الحد أربعون، وهو اختيار أبي بكر من علماء الحنابلة، ومذهب الشافعي؛ لأن عليًا جلد الوليد بن عقبة أربعين، ثم قال: «جلد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين، وأبو بكر أربعين، وعمر ثمانين. وكلٌّ سنة وهذا أحب إليَّ» رواه مسلم.

وعن أنس قال: أوتي رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل قد شرب الخمر، فضربه بالنعال نحواً من أربعين. ثم أوتي به أبوبكر، فصنع مثل ذلك. ثم أوتي به عمر فاستشار الناس في الحدود. فقال ابن عوف: «أقل الحدود ثمانون» فضربه عمر. رواه البخاري ومسلم.

ج 3 : هو أبوعبدالله، محمد بن حسين بن محمود بن محمد الرشيد (1226-1276هـ - 1811- 1859م) ويعرف بمحمد بن باشا باي. بويع بإمارة تونس سنة 1271هـ، وكان عهده عهد رخاء، وكان شجاعًا حازمًا عارفا بدقائق الصنائع. وهو أول من أدخل المطبعة إلى الديار التونسية، وأول من ضرب السكة باسمه من الذهب والفضة والنحاس، وأول من أصدر دستورًا حديثًا سمي «عهد الأمان» في 10 سبتمبر1858م، ويعد أول دستور في العالم الإسلامي في العصر الحديث. ومن المؤلفات من يرجع الفضل في إدخال المطبعة إلى تونس إلى الوزير جبران خيرالدين باشا التونسي (1810-1879م) وزير البحرية التونسية - آنذاك -.

ج 4 : هو الطبيب العربي علاء الدين أبو الحسن علي بن أبي الحزم القرشي، المعروف بابن النفيس (ت 1288م). أحد أطباء دمشق المشهورين. كان إمامًا في علم الطب، وصنف فيه كتابه «الشامل». ولكتابه «شرح تشريح القانون» أهمية قصوى، لأنه، في وصفه للرئة، سبق غيره إلى اكتشاف الدورة الدموية الرئوية، ووصفها وصفًا علميًا صحيحًا، فسبق بذلك مايكل سرفتس الذي يعزو الأوربيون إليه هذا الاكتشاف. وهذه الدورة تسمى الدورة الدموية الصغرى. أما الدورة الدموية الكبرى التي ينسبها الأوربيون إلى هارفي؛ فإن مكتشفها هو الطبيب العربي أبو الفرج موفق الدين بن القف (ت 1286م). ولاريب أن هذا أعظم اكتشاف في التشريح قام به العرب.

ج 5 : مؤلف: «الفرسان الثلاثة»، و«الكونت دي مونت كريستو»، هو الأديب الفرنسي الكبير الكسندر دوماس الأب (1802-1870م). أما مؤلف «غادة الكاميليا» فهو الأديب الكسندر دوماس الابن (1824-1895م). وهما معًا من أشهر الروائيين العالميين في كل العصور.

2- فادي عبدالحي خزام، دير الزور، سورية.

3- مريم عودة محمود، الزرقاء، الأردن.

4- أميرة عبدالعزيز فؤاد عفيفي، القاهرة، مصر.

5- ياسر أحمد عوض القحوم، المكلا، اليمن.

6- رابحة عند الماء، تاونت، المغرب.

7- عصام بابكر آدم، كسلا، السودان.

8- منير بن محمد الصغير الحميدي، الرديف، تونس.

9- خليل النقاش، ميلة، الجزائر.

10- لولوة بنت عبدالرحمن الطاسان، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية.

د - كما فاز بجائزة مجموعة من إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض، كل من:

1- أحمد سلمان يعقوب الشوملي، البحرين.

2- مريم وردة المحمد، حلب، سورية.

3- أروى أحمد محمد عمر الجحدلي، صنعاء، اليمن.

4- مرزوق عبد ربه عبدالعال، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.

5- كمال محمد حسن حميدة، البحيرة، مصر.

ويأتيك بالأمثال

وَجهُ الحَجَرِ وِجْهَةً مَّا لَهُ

«وجْهَـةً مَّـا لَهُ» و«وَجْهَـا مَّـا لَهُ» ويُرْوَى: «وجْهَـةٌ»، و«جهةٌ»، و«وجْـهٌ» بالرفع، و«ما» صلة في الوجـهين، والنصب على معنى وجه الحجر جهتـه، والرفع على معنى وجه الحجر فَلَهُ وجْهَةٌ وجهَـةٌ. يعني أن للحـجر وجْهَـةً ما، فإن لم يقع موقـعًا مـلائمًا فأدِرْه إلى جـهة أخـرى، فإن له - على كل حال - وجهة مـلائمة إلا أنك تخطئها؛ أي إن لكل أمـر وجه، لكن الإنسـان ربما عجز ولم يهتد إليه.

يضرب المثل في حسن التدبير.

قول جميل وعفو أجمل

ثار رجل على أمير الأندلس عبدالرحمن الناصر، فغـزاه الناصر وظفر به أسيـرًا، وفيـما كان عـائدًا مع جيشـه إلى مقر حكمه، وقـد حمل الثائر مقـيدًا على بغل، اقترب الناصـر منه وقال في تَشَفٍّ: يابغل، ماذا تحمل من الشقاق والنفاق؟! فقال الثائر: يا فرس، ماذا تحمل من العـفـو والرحـمـة؟ فـقـال الناصـر: والله لاتذوق على يدي موتًا أبدًا.

من العاقل

قـال عـمـرو بن العـاص - رضـي الله عنه -: ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، ولكنه الذي يعـرف خيـر الشَّرَّيْن، وليس العـاقل الذي يحتـال للأمر إذا وقع، لكنه الذي يحتـال للأمر ألا يقع فيه.

سرقة

اتهم فـولتيـر يومًا بأنه سـرق بعض أفكاره من أحـد زملائه، وتجـرأ صـديق له وسـأله عن صحـة الاتهـام فقـال سـاخرًا: إذا كـان هذا الكـاتب قـد سبقني إلـى ما كتبت فيكون قـد سرق من الموضع نفسه الذي سرقت منه!!

عدو عاقل

سُئل كسـرى أنو شـروان: أي الناس أحب إليك أن يكون عـاقـلاً؟ قال: عدوي!! فـقيل له: وكيف ذلك؟ قال: لأنه إذا كـان عاقلاً كنت منه في أمن وعافية.

استراح من حيث تعب الكرام

سمع الأحنف بن قيس يومًا رجلاً يقـول: ما أبالي أمـدحت أم هُجيت، فـقال: لقـد استـراح هذا من حيث تعب الكرام.

حكمة

مَنْ رام عيشًا هنيئًا يستفيد به
في دينه ثم في أخراه إقبالاً
فلينظُرنَّ إلى مَنْ فوقه أدبا
ولينظرن إلى مَنْ دونه مالا

ثلاثة.. وثلاثة

سـئل حكيم: أي الأمـور أشـد تأديـًا للفتى وأيهـا أكثـر إضـرارًا به؟ فـقال: أشـدها تأديـًا له مشاورة العلماء، وتجربـة الأمور، وحسن التثبت، وأشـدهـا إضـرارًا به الاسـتـبـداد، والتـهـاون، والعجلة.

حائط الإسلام وبابه

خطب سـعـيـد بن سـويد فـي الناس بحـمص يوما، فـقال: أيهـا الناس إن للإسلام حـائطًا منيـعًا، وبابًا وثيـقًا، فـحـائط الإسلام الحق، وبابه العـدل، ولايزال الإسلام منيـعًا مـا اشتد السلطان، وليست شدة السـلطان قتلاً بالسـيف، ولا ضربًا بـالسوط، ولكن قضاء بالحق وأخذ بالعدل.

اصطناع الكرام

ولاتصطنع إلا الكرامَ فإنهم
يجازون بالنعماء مَنْ كان منعما
ومَنْ يتخذ عند اللئام صنيعة
تجده على آثارها متندما

ماقل ودل

سُئل الرئيس الأمريكي الراحل وودر ولسن عن الوقت الذي يحـتاج إليه لإعـداد خطاب يسـتـغرق عشر دقـائق، فقال: خمسة عـشرَ يومًا على الأقل. فقيل له: وكم تحـتاج لخطاب يستغرق إلقـاؤه ساعة كاملة؟ قال: بضعة أيام. قـيل له: وخطاب يستغرق عدة سـاعات؟ قال: أنا مـستـعد الآن لأن ألقي أي خطاب يستمر حتى الصباح.

إنصات وإنصات

قـال أحـد الحكمـاء ناصـحًا تلمـيـذه: إذا جـالست الجـهـال فـأنصـت لهم، وإذا جـالست العلمـاء فأنصت لهم، فـإن في إنصاتك للجـهال زيادة في الحلم، وفي إنصـاتك للعلمـاء زيادة في العلم.

الكريم واللئيم

قيل: إذا سألت كريمًا حـاجة فدعه يفكر، فـإنه لايفكر إلا في خـير، وإذا سـألت لئـيمًا حاجة فعاجله لئلا يشير عليه طبعه أن لايفعل فيرجع في كلامه.

خوف.. وخوف

قـيل: مـسكين ابـن آدم، لو خـاف النار كمـا يخاف الفقـر لنجا منهمـا جميـعًا، ولو خاف الله في باطنه، مثلما يخاف الناس في ظاهره لفاز بالدارين.

قالوا:

- نحن قد نرغب فـي سرد القصـة مرتين، ولكننا لانرغب في سماعها أكثر من مرة!

الكاتب الأمريكي وليم هازلت

- إذا كان الشـر عظيـمًا، فالرحـمة أعظم منه.

جبران خليل جبران

- أسـوأ شـيء يعـانـي منه الكـاذبون هو شعورهم الداخلـي بأن غيـرهم سيكشفـون زيفهم وخداعهم يومًا ما.

الفيلسوف روديارد كيبلنج

- نحن لم نعـد نعـيـش أمس، ولم نعش - بعد - الـغد. الشيء الوحيـد الثابت أمـامنا هو حياتنا اليوم.

الرئيس الفرنسي السابق ديستان

- ليس هناك شيء يمـكن أن يسـبب إيذاء للرجل العظيم في حياته أو بعد رحيله.

سقراط

- إننا نعـيش لنتـعلم، ولكن عندمـا يجيء الوقت الذي نشـعر فيـه أننا قد علّمنا أنـفسنا، نجد أنه لم يعد في العمر بقية.

كارولين ويلز

- الفن من أجـل الفن وحـده، عـبـارة لا استـسيـغـهـا، أمـا الفن الذي يـبـحث عن الصـدق، الفن الذي يجسـد الجمـال ويحلل العواطف البشـرية بصدق، فهو عقـيدة أسعى إليها بلا تفكير.

جورج صاند

- يمكن للآلة أن تقـوم بعمل خـمسين من الرجـال العـاديين، لكـن لايمكن لآلة مـهـمـا بلغت من قوة ودقة صنـع أن تقوم بعمل رجل واحد غير عادي.

العالم الأمريكي ألبرت هبارد

استراحة العدد

هكذا كانوا

روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بلغه أن أحد أبنائه اتخذ خاتمًا واشترى له فصًا بألف درهم، فكتب إليه مؤنبًا: «بلغني أنك اشتريت فصًا بألف درهم، فبعه وأشبع به ألف جائع، واتخذ خاتمًا من حديد، واكتب عليه: رحم الله امرءا عرف قدر نفسه».

أهم شيء

كان الفيلسوف برتراند رسل يلقي محاضرة عن الواقعية في الأدب، وفجأة قاطعه أحد الحضور قائلاً: لكننا يا سيدي نريد أن نعرف أهم شيء في حياة الإنسان.

فنظر رسل إلى محدثه فوجده يلعب بعود ثقاب بين أسنانه، فقال له: أهم شيء بالنسبة إليك الآن أن تذهب فورًا إلى طبيب أسنان!

صلاح الوالي والرعية

قال الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن أعظم ما افترضه الله سبحانه وتعالى من الحقوق، حق الوالي على الرعية وحق الرعية على الوالي، فريضة فرضها الله لكل على كل، فجعلها نظامًا لألفتهم، فلا تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة، ولايصلح الولاة إلا باستقامة الرعية، فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه، وأدى الوالي إليها حقها، عز الحق بينهم، واعتدلت معالم العدل، وطمع في بقاء الدولة، ويئست مطامع الأعداء. وإذا غلبت الرعية واليها، أو أجحف الوالي برعيته، اختلفت هنالك الكلمة وظهرت معالم الجور.

بين أديبين

كان الأديب الشيخ السمني ـ أحد ظرفاء مصر في مطلع القرن الميلادي الحالي ـ جالسًا يومًا في مكان تقع عليه فيه أشعة الشمس ، فرآه الصحافي الأديب عبدالله فكري، فقال مازحا: يا شيخ «سمني» ألا تخشى أن «تسيح»؟ فرد الشيخ السمني على الفور: لاتخاف فأنا «أقدح» فكري فقط.

قصة اكتشاف

كانت المصادفة سببًا في اكتشاف صناعة الورق النشاف؛ إذ نسي أحد أصحاب مصانع الورق البريطانيين ذات يوم أن يضع مسحوقًا معينًا في أحد أحواض عجينة الورق العادي، وكانت النتيجة أن خرج الورق خشن الملمس، يختلف في مظهره عن الورق العادي.

فظن الرجل لوهلة أن خسارة لحقته، لكنه ما لبث أن اكتشف في هذا الورق ميزة امتصاصه للحبر عند الكتابة، وسرعان ما غمر الورق النشاف مكتبات العالم.

من ألاعيب جحا

أنشأ جحا يومًا مسرحًا، وجعل رسم الدخول عشرة دراهم، فلم يدخل أحد، فَخَفَّضها إلى خمسة دراهم، فلم يدخل أحد أيضا، فأنزل الأجرة إلى درهمين، إلا أن أحدًا لم يقبل بالدخول، فما كان منه إلا أن صاح في الناس: الدخول مجانًا، فهرول الجميع داخلين، وما كادوا يفعلون حتى أغلق جحا الأبواب، وقال: إنكم لم تدعوني أكمل كلامي، فالدخول مجانًا لكن الخروج بعشرة دراهم.

ضيف

كان عالم البيئة ألبرت شفيتزر في إحدى رحلاته بأفريقيا برفقة أحد تلاميذه، وفيما كان التلميذ يحاول ارتداء معطفه يومًا وجد خنفساء تسعى فوق المعطف، فألقى بها على الأرض، وهم بوطئها بقدمه، فربت شفيتزر على كتفه مانعًا إياه من قتلها قائلاً بهدوء: تمهل يا بني وتذكر أنك ضيف في أرضها!

الوحيد

لم يفز أحد بجائزة نوبل مرتين سوى شخص واحد، ذلك هو الكيميائي البريطاني فريدريك سانجر، الذي حصل على هذه الجائزة العالمية عامي 1958، 1980م.

السعادة

سُئل الفيلسوف الفرنسي مونتسكيو عن السعادة فقال: لو أن المرء اكتفى بأن يكون سعيدًا لهان الأمر، فليست السعادة أمرًا صعب المنال، ولكن مشكلة البشر ـ أينما كانوا ـ أنهم يريدون أن يكونوا أسعد من غيرهم، والصعوبة في تحقيق هذه السعادة تكمن في أننا نتصور دائمًا أن غيرنا أسعد حالاً منا، ولو قنع الناس بما هم فيه من سعادة، لعاش العالم كله في سلام.



لوحة من إبداع الخطاط العبقري الراحل هاشم محمد البغدادي (1917-1973)، نصها الآية الكريمة: ﴿ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله﴾



يهدف الباب إلى تشجيع المواهب الناشئة التي تتلمس لها سبيلاً إلى الإبداع الفني والكتابة الأدبية، ولذلك تقوم تباشير باختيار عمل أدبي أو أكثر وفق معايير فنية محددة وحسب المساحة المتاحة، ومن ثم يُعرض على أحد النقاد المعروفين الذي يتناوله بالمتابعة النقدية أو التعليق أو التوجيه لتكون خطوة ثابتة لهذه المواهب في طريق الإبداع. وهذه دعوة للمواهب الأدبية الناشئة للمشاركة في هذا الباب، علماً بأن هناك مكافأة رمزية تشجيعية للعمل الذي يحظى بالنشر.

قصة قصيرة:

عبث الانتظار

نوره عبدالعزيز العقيل

جلست في قاعة المحاضرات مثقلة بالتفكير والشرود، والخوف يجتاحها من كل مكان.. وكُلَّما مرّ شخص هنا أو هناك.. يقفز قلبها.. آه لقد قرُب الموعد.. بين يديها يقبع كتاب متعدد الأوراق.. تقلبه بين الحينة والأخرى.. وأخذت يديها (يداها) تلاعب الأوراق.. ويرتفع معدل خوفها كلما مرت الدقائق، وكأنها في ميدان سباق.. تمرق الثواني والدقائق بسرعة البرق.. وترتفع يدها مع كل حركة تصدر في جنبات تلك القاعة.. أخذت تحدث نفسها بعبارات تقطر خوفًا وقلقًا: آه، بعد قليل تكون المواجهة. إن الخوف يجتاح جميع أوصالي.. يعبث بي.. ماذا حدث لي، أه، حتى يديَّ ترتعشان من شدة الخوف.. وبينما هي تغط في الشرود.. وتبحر في سفينة التفكير تدخل عليها إحدى المشرفات، وتقترب منها وتهمس لها: بعد دقائق يحين موعد المناقشة. رفعت رأسها وبدأت نبضات قلبها تتسارع بارتقاب. ثم قالت: نعم.. نعم أعرف ذلك.. وعاودت الإبحار في عالم التوجس والانتظار، ثم تساءلت: كيف تكون الأسئلة.. هل هي مباشرة أم لا؟ هل هي صعبة أم لا؟ هل هي في صلب الموضوع أم من واقع الحياة الذي يعج بالمواقف العديدة والذي له صلة بموضوع رسالتي؟. ويا ترى هل أسلوب الأسئلة سلس ومفهوم أم يأخذ في الالتواء والتلميح؟ آه، ماذا تراني أواجه؟ رباه.. لطفك وعونك.. فما من معين لي سواك.. أعنّي فإني على مشارف التحول من نقطة إلى أخرى وكأني سأخوض معركة.. المنتصر فيها والخاسر هو أنا.. هل يتحقق لي النجاح؟ آه، متى تمر الساعات التي أزج فيها إلى محكمة لا أعرف ما قراراتها؟ وقع نظرها على وريقاتها.. آه هذه الكلمات التي تملأ أوراقي.. ترى هل تجد القبول والرضا أم تواجهها عاصفة الأسئلة والمناقشة الحادة التي تمزق حروفها.. وتعتقل معانيها؟ يارب عونك.. وأخذت يداها ترتعش (ترتعشان) مجددًا وشفتاها تتمتم (تتمتمان) بالدعاء وطلب المعونة.. وعاودت التساؤل: ترى هلى أخرج من هذا المكان والابتسامة تنير وجهي أم الخوف والفشل يغزو (يغزوان) قلبي؟ آه ما أ شد خوفي وقلقي.. وتأوهت من عاصفة القلق المزمجر في داخلها، وشعرت بوطأة الدقائق المخيفة في أثناء شرودها، والخوف يعبث بها، والأفكار تخوض في أمواج مفكرتها وتتكسر على شاطئ قلبها، الذي يحمل في طياته تعب الليالي وألم الانتظار والخوف القاتل. بعد لحظات يتسرب إلى سمعها طرق خفيف على الباب.. استدارت، فإذا بالأستاذة ومساعدتيها وبعضًا من أوراق في حوزتهن.. يقبلن إلى المكان المعد لمناقشتها.. ومن غير شعور منها أخذت تجرّ ساقيها بتثاقل، وكأنها تحمل أثقالاً.. سحبت نفسها وحملت بين يديها التي تأبى (اللتين تأبيان) السكوت من عبث الارتعاش أوراقها، مضت إلى حيث جلسن، وألقت بالسلام.. وبعد لحظات بدأ العد التنازلي وبدأت الدقائق تمر ثقيلة. فأعلنت الحرب، وسُلَّت السيوف، ورأت بريقها يلمع في أيديهن، وصهيل الأسئلة يتسابق إليها، دنت إحداهن منها فارتعدت فرائصها، وسقط قلبها إلى قدميها، فبادرتها بالسؤال عن موضوع رسالتها، ومن ثم هرولت الأسئلة مسرعة تجادلها في لب الموضوع، ثم أخذت الأخرى

بنصيبها في المعركة.. وحمي الوطيس: هذه النقطة لم تشبعها من البحث والتقصّي. وهنا نجد شرود (شروداً) عن لب الموضوع.. وهناك نلاحظ وجود بعض العبارات التي تتطلب المزيد من المراجع.. وهنا...و...

ومازال سيل الأسئلة يتقاذف عليها من هنا وهناك دون رحمة.. وبين يديهن (أيديهن) تقبع كلماتها المنمقة بحروف جميلة وألفاظ تتحدى الفشل.. فتفجر أسئلتهن على قارعة إجاباتها أحلاماً مبعثرة في أعماقها.. وأخيراً.. سكنت العاصفة الهوجاء من الأسئلة المميتة، وبدأت تهدأ أو ترى ضياء شاطئ الأمان، لترسو على عبارات الاستحسان.. فأخذت تغزو أذنيها عبارات الثناء والتعبير عما بذلته من جهد خلال ثلاث سنوات مضت من البحث والدراسة، فشعرت أن عاصفة الخوف ابتعدت عنها، وللحظات قلائل استمتعت بهديل الثناء والتقدير، فتلاشى الإرهاق والقلق في زمن الانتظار وأصبح بعيداً في أدغال الذكرى.. فطربت نفسها.. وأخيراً أزف موعد الإعلان عن النتيجة المنتظرة.. ولكن لحقها اعتذارٌ بارد سقيم من قبل إحداهن بتأجيل موعد الإفصاح عن النتيجة إلى الغد.

في الغد تكون النتيجة، آه ما أشد عناء الانتظار، أما تزال تنتظرني سويعات أخر لتفتك بما بقى من أملي وتتركه أشلاء وتقتلني أمواج التوجس والخيفة؟ آه، عبء الانتظار جاثم بثقله على كاهلي، أناخ بحمولته على قلبي، لا أستطيع التحمل، ولكن ما لي حيلة إلا رجائي بعون ربي أن يمطر عليّ بمنّة وفضل منه صبراً أتجلد به، وأشد المئزر لأمتطي صهوة العزيمة فأصارع الساعات المتبقية.

في الغد تستيقظ وترفع رأسها، وتتمتم بالدعاء، ثم تنهض وتمتد يداها باستحياء لتزيل الستار لتعطي المجال لأشعة الشمس للتسلل عبر نافذتها.. تتطلع إليها.. ويبدأ الأمل في قلبها مجدداً مع إشراقة اليوم الوليد، لتضيئ شمس فرحها وتنبلج الحقيقة من وراء الغيوم. وبعد مضي بعضاً (بعض) من الوقت كانت النتيجة التي أنارت وجهها، فتبسّم ثغرها كما تبسم الصبح بعد ليل طويل، وأخذ الفرح يقطر من عينيها.. واستقبلتها أمنيات الأمل واحتضنتها. وتمتمت بالحمد والثناء لله.

التعليق:

لغة القاصة جيدة، مع ما اعتراها من الأخطاء النحوية والإملائية، وقد وُضعت تصحيحات لبعض الكلمات بين قوسين، كما أن على الكاتبة أن تعتني بهمزات الوصل والقطع، وكذلك علامات الترقيم.

والأسلوب معبر، وجميل، ويدل على حسّ أدبي واعد، وإن اعتراه الوهن في بعض الفقرات. أما بناء القصة فجيد، مع المبالغة في تصوير حالة الخوف والقلق من قبل بطلة القصة. ويتمتع البناء بحبكة من التوتر الذي برعت الكاتبة في شدّ القارئ به.

د. عبدالله المغامري الفيفي

كلية الآداب، جامعة الملك سعود

متابعات

الأخت بثينة محمد فتحي راشد، دبي، الإمارات العربية:

يبدو واضحاً من قصتك «صحوة في الوقت المناسب» أنك تملكين فكراً ناضجاً وحباً للخير، ولكن يعوزك فن الكتابة القصصية. وهذا الفن يُكتسب بكثرة المطالعة في روائع القصص العالمي والمحاولات المستمرة للكتابة، ولايزال الطريق أمامك رحباً، بما أنك في بداية المرحلة الثانوية، وهي مرحلة تستدعي قراءات متعمقة للوصول إلى النضج الفكري والفني.

الأخ منتصر حسني إبراهيم، ليسانس آداب، جامعة القاهرة:

قصيدتك «ومضى زمان» فيها اضطراب في الوزن، ولكي تستمر في طريق الإبداع الشعري تلزمك معرفة أوزان الشعر وأعاريضه وأضربه، وهذا لن يكون إلا بقراءة دواوين فحول الشعراء؛ كأبي الطيب المتنبي وأبي العلاء المعري، والشعر الجاهلي. ويمكنك البدء بتقليد أو محاكاة بعض الأشعار عند هؤلاء كي يستقيم عمود الشعر عندك.

الأخ حاتم عبدالقادر، إدفو، مصر:

قصيدتك «الله معنا» فيها خلل عروضي بيّن، إذ في صدر بيتها الأول «تسعى لها الشمس أحياناً فتحجبها» جاء الوزن مسايراً لبحر البسيط: «مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن»، ثم خرجت بقية أبيات القصيدة عن هذا الوزن، وعندئذ لم تلاق القصيدة إلا في حرف الرّويّ. فوزن الشعر يجب أن يستقيم في كل الأبيات وليس في بعض منها.

وعموماً، فإن قصيدتك تدل على وجود بصمة شعرية حية لديك، تفتقر إلى رعاية جيدة كي تعطي أُكلها.

الأخت نجاة، الجزائر:

نأخذ عليك عدم كتابة اسمك صراحة والإشارة إليه بـ «نونو»، وفي خواطرك التي تسمينها «قصيدة» بعض التعابير الموفقة من حيث المعنى، غير أن ضعف اللغة يبدو واضحاً، لذا فإنك في حاجة إلى مخالطة دائمة للأساليب العربية المشرقة، وإلى مقدار من دراسة اللغة حتى تمتلكي الحد الأدنى الذي يتيح لفكرك أن يستقبله القارئ باهتمام وعناية.

الأخ محمد بن عبدالله الغامدي، كلية الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية:

قصيدتك «جنود اليوم» موزونة، ولكن شابها بعض الأخطاء النحوية، ولانتكلم هنا عن تلك التي جاءت لضرورة.

كما تشع في قصيدتك روح طيبة. نتمنى لك النجاح ومداومة القراءة، لأنها السبيل إلى صقل اللغة وامتلاك أدوات التعبير السليم.

الأخ محمد حسن الهيثمي، سيدي سليمان، المغرب:

قصتك «الكابوس» تعبر عن مشاعرك النبيلة تجاه إخوانك المسلمين في البوسنة، ولاشك أن حسن اختيارك موضوع القصة يدل على حس مرهف، ولكن أسلوبك في التعبير يحتاج إلى صقل، كما أنك في حاجة إلى الاطلاع المتعمق على النتاج القصصي لكبار الأدباء، لمعرفة الاتجاهات الحديثة في القصة القصيرة، إلى جانب الاهتمام بالدراسات النقدية. فالاطلاع هو أفضل ما يمكن أن يوصى به كل متطلع إلى شق طريقه في مجال الإبداع الأدبي.

الأخ محمد فتحي محمد بشير، الإسكندرية، مصر:

قصتك «السبع» تفتقر إلى السبك الفني، كما أن بها أخطاء نحوية غير يسيرة. نأمل الاهتمام بزيادة حصيلتك اللغوية، لأنها الأساس لامتلاك أدوات التعبير بمختلف أشكاله.

الأخ حسن باكور، مراكش، المغرب:

قصتك «رحيل الليل» ذات وصف رتيب لا يضيف شيئاً، وليس فيه دلالة فنية أو وجدانية أو فكرية، فضلاً عن استخدامك مفردات في غير موضعها. نأمل تكرار المحاولة، آخذاً في الحسبان أن القصة القصيرة تعتمد على تكثيف الحدث، وعدم الإطالة في سرد تفاصيل لايقتضيها البناء الفني.

الأخ عبد الإله نماي الرحيلي، المدينةالمنورة:

في قصتك «قاعة الدرس» وصف للطبيعة يعكس بعض المشاعر والرؤى، ولكنه أقرب إلى الإنشاء منه إلى الفن، وفيها غموض يخلو من أي دلالات، ولكن طلبك النصح دليل على حرصك على المضي في هذا الطريق، ولاننصحك إلا بما نصحنا به أصحاب الرسائل التي سبقت في هذا الباب، وهي نصيحة لمن يبغى المثابرة والنجاح.



الأخت إيمان رحال، دمشق سورية:

الأستاذ الأديب عبدالله الجفري يكتب بانتظام في جريدة «الحياة» بلندن، ويمكنك إرسال استفساراتك إليه مباشرة عن طريق الجريدة. نشكر لك ثنائك على المجلة، ونأمل أن نكون عند حسن ظن القراء دومًا.

الأخ الفاضل محمد، الداخلة، المغرب:

نعتذر من عدم تمكنا من إيجاد العناوين التي طلبتها، ومرحبًا بك صديقًا للمجلة.

الأخ محمد صادق بن عروس، المسيلة، الجزائر:

ستصلك أعداد من المجلة، نأمل أن تفيد منها، وأن تحرص دائمًا على الاستزادة من ينابيع الثقافة، فأنت لاتزال في بداية الطريق، واهتمامك بالاتصال بالمجلات الثقافية وأنت في سن الثالثة عشرة دليل على أنك سوف تسير - إن شاء الله - في الطريق الصحيح للثقافة الجادة.

الأخ عبدالرحمن علي محمد طاهر، الفاشر، السودان:

قصيدتك وصلت، وسوف تأخذ طريقها إلى التقويم. أما عدم وصول المجلة بانتظام إلى مدينتك، فهذا أمر سيهتم به القسم المختص، فشكرًا لك حرصك على مجلتك.

الأخ إبراهيم حميد الحطامي، صنعاء، اليمن:

نشكر لك كلمات الإعجاب والإشادة بالمجلة، كما نبلغك شكر الدكتور حسن ظاظا الذي يمكنك مراسلته على عنوان المجلة.

الأخ تامر عبداللطيف إدريس، حمص، سورية:

صداقتك الدائمة للمجلة كانت تحتم علينا تزويدك بالكتاب الذي طلبته، ولكن للأسف لايوجد منه سوى نسخة واحدة خاصة بالمكتبة، أما العددان اللذان طلبتهما، فسوف يصلانك في أقرب وقت، وشكرًا لك حرصك على المراسلة.

الأخ موساوي محمد، وجدة، المغرب:

هناك كثير من الأقسام والكليات في الجامعات العربية المختلفة تُعنى بدراسة تاريخ اليهود ولغتهم، وهي تستطيع أن تمدك بالمراجع التي تحتاج إليها أو تدلك على طرق الحصول عليها، أما الكتاب الذي طلبته، فلا يتوافر في المجلة، لذا نأمل قبول اعتذارنا من عدم تمكنا تلبية طلبك، مع التمنيات لك بالتوفيق.

الأخ منير حبيب، اللاذقية، سورية:

كتاب الدكتور علي شلش «الأدب المقارن بين التجربتين الأمريكية والعربية»، قيمته خمسة عشر ريالاً، ترسل بشيك إلى المجلة، وهناك كتب أخرى كثيرة صدرت عن دار «الفيصل» الثقافية.

الأخ سيد محمد عبدالعال، أسيوط، مصر:

من سياسة المجلة إبلاغ كتابها بموقف مقالاتهم، وبخاصة أن الكم الكبير من المقالات الذي يصل إلى المجلة يحتم ذلك؛ لأن هناك مقالات يتأخر نشرها لظروف يقتضيها تحقيق التوازن في المادة المنشورة. لذا نأمل المعذرة من كل كاتب يتأخر نشر مقالته، ومرحبًا بمشاركات جميع الأخوة القراء، وشكرًا لك مشاعرك النبيلة تجاه مجلتك.

الأخ عبيدة عبدالرحمن، دمشق، سورية:

تقول في رسالتك: إن الاسم والعنوان مستعاران. ونسألك: هل هذا يليق بمن يتصدى للحكم على الآخرين؟ نأمل في المرات القادمة أن توقع رسائلك باسمك الأصلي، فليس هناك مايشين، كما نود أن تكون أحكامك على من تتصدى لنقد أعمالهم الأدبية والنقدية مبنية على أسس موضوعية، ذلك أن العاطفة كثيرًا ما تقود إلى الجور، وهذا ما لا ترضاه أو تقصده. وفي باب «مناقشات وتعليقات» متسع لتبادل الآراء والتحاور حول القضايا التي يطرحها كتاب المجلة.

الأخ محمد كرزون، حلب، سورية:

نعتز بمقالاتك التي ترسلها إلى مجلتك «الفيصل»، ولكن يصعب إبلاغ الكاتب بموعد نشر مقالته، لأن هناك ظروفًا قد تطرأ وتؤدي إلى تأجيل موعد النشر، مما يسبب الإحراج. لذا نكتفي بإبلاغ الكاتب بموقف مادته المرسلة من النشر، سواء كانت مجازة للنشر أم لا، ثم نتخير للمادة المجازة الوقت المناسب لنشرها. لذا نأمل من الأخوة الذين تصلهم إخطارات بإجازة موادهم للنشر ألا يرسلوها إلى مكان آخر إلا بعد إبلاغ المجلة.

الأخ براك فوزي، سكيكدة، الجزائر:

سيصلك قريبًا - إن شاء الله - العددان المتضمنان للقائمتين البيليوجرافيتين عن اللغة العربية والبيئة، ونفيدك أن هناك ملفات أخرى قادمة ستتضمن قوائم ببليوجرافية، نأمل أن يفيد منها الأخوة القراء.

الأخ محمد قاسم زيد، صعدة، اليمن:

نشكر لك حرصك على اقتناء المجلة، كما نشكر لك مشاعرك الفياضة، ونأمل ألا تثقل على نفسك بإرسال الهدية التي أشرت إليها. أما بخصوص الاشتراك السنوي في المجلة، فإن قيمته للأفراد 150 ريالاً، وبعد الاشتراك سوف تصلك الأعداد بانتظام في مقر إقامتك - إن شاء الله -.

الأخ أحمد شعبان صديق، أندونيسيا:

نشكر لك إطراءك. وكما هو موضح في هذا الباب، فإننا لانستطيع إرسال أي إصدارات إلى الأخوة القراء، لذا نأمل المعذرة، وسوف تصلك - إن شاء الله - أعداد سابقة من المجلة.

الأخ عادل الشوربجي، المدينة المنورة:

سنحاول إرسال الأعداد التي طلبتها إذا توافرت لدينا منها نسخ كافية. ونشكر لك حرصك على اقتناء مجلتك «الفيصل»، ونأمل أن توافينا - والأخوة القراء - بملاحظاتك لنفيد منها في تطوير المجلة.

بين القارئ والقارئ

أرجو من الأخوة قراء «الفيصل» الكرام تزويدي ببعض مصادر الأدب العربي، وبخاصة في العصر العباسي؛ حيث إنني أدرس الأدب العربي في تلك الحقبة وفي حاجة إليها، وأتساءل كذلك عن مدى إمكان تزويدي بقاموس عربي - عبري.

صالح السيد حنفيش عبدالجواد
البستان، الدلنجات، البحيرة، مصر

آمل من قراء «الفيصل» من الذين لديهم فائض من الكتب والمجلات الثقافية أن يتكرموا بتزويدي ببعض منها، علماً بأنني من دولة تشاد، والآن أدرس في السودان، ويهمني كثيراً الاطلاع على الثقافة العربية والإسلامية.

عبدالسلام أحمد الصافي
ص.ب 1482، الخرطوم، السودان

آمل اقتناء موسوعة «أطلس تاريخ الإسلام»، وغيرها من الموسوعات الثقافية العامة، فهل هناك من يستطيع مساعدتي؟

الصحراوي سيدي أحمد
ديدي الطالب يويا
بوساطة مكتب الإرشاد رقم 106، شارع القيروان
العيون 70000، الصحراء المغربية

توجد لديّ أعداد زائدة على حاجتي من مجلة «القافلة» التي تصدرها أرامكو السعودية، وأنا مستعد لإرسالها لمن يطلبها.

أحمد جاسم أحمد القويضي
ص.ب 35109، الأحساء 31982

أطلب الأعداد التالية من سلسلة عالم المعرفة الكويتية، وهي: العدد رقم 13: الملاحة وعلوم البحار عند العرب، د. أنور عبدالعليم، العدد رقم 23: الرمد ماضيه وحاضره، عبدالسلام الترمانيني، العد رقم 28: أفريقيا في عصر التنوير، لويد. ب. س، اليهود في المدن العربية. وكذلك أي كتاب مصور يتحدث عن الملك فيصل - رحمه الله - مقابل أي كتاب عن تونس

ندى أحمد الخطاب
ولاية قفصة، القصر 2111 طريق قابس، مكتبة ابن رشد، تونس

عناوين

الأخ حسن محمد شحاته، طنطا، مصر:
عنوان معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي:
جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ص.ب 715
الأخت ناريمان حسن وردي، القاهرة، مصر:
عنوان د. ناصر الدين الأسد:
رئيس المجمع الملكي للبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت)
ص.ب 950361
ت: (815474) و (815471).
عمان، الأردن
الأخ حسن بو درفة، المغرب:
عنوان جمعية الإمارات الطبية:
ص.ب 6611 دبي
عنوان جمعية كليات الطب في الشرق الأوسط:
مصر، جامعة الإسكندرية، كلية الطب
طريق الجيش، الشاطبي.
عنوان مجلة اقرأ:
جدة، شارع الصحافة
مؤسسة البلاد للصحافة والنشر
ص.ب 9486، جدة 21413
سنترال التحرير 6711000
عنوان مجلة كلية الملك خالد العسكرية:
المملكة العربية السعودية، ص.ب 22140، الرياض 11495
فاكس 4913768
هاتف رئيس التحرير محمد بن فيصل أبو ساق: 4916572.
الأخ راجي خليل، الخرطوم، السودان:
عنوان الندوة العالمية للشباب الإسلامي؛ الاتحاد الإسلامي للمنظمات الطلابية: السودان - الخرطوم ص.ب 3602 ت 225699

ملحوظة:

تهدف هذه الزاوية «بين القارئ والقارئ» إلى إيجاد قناة مباشرة بين القراء أنفسهم لتبادل المعلومات عن الكتب النادرة أو المجلات التي توقفت عن الصدور أو نفدت أعدادها.

إيضاحات

تعتذر المجلة سلفاً من عدم تقديم اشتراكات مجانية، ومن عدم التجاوب مع طلبات للحصول على إصدارات أخرى (كتب ومجلات) لاعلاقة لها بها.

المسائل الشخصية كطلب وظائف أو مساعدات مالية أو إعانة على زواج، أو ماشابه ذلك والتعارف بين هواة المراسلة، ليست من اختصاصات المجلة ولا اهتماماتها، ومن حقها عدم الالتفات إلى رسائل تختص بهذه الأمور أو الرد عليها.

يتعذر على المجلة الرد الشخصي البريدي على جميع القراء الذين يراسلونها وذلك لكثرة الرسائل، وتكتفي بالرد عليهم من خلال «ردود خاصة»، أو بنشر مشاركاتهم في الصفحات المخصصة لذلك.

الرسائل ذات العلاقة بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية أو بأي نوع من خدماته، يُرجى توجيهها إليه مباشرة على عنوانه: ص.ب ٥١٠٤٩ الرياض ١١٥٤٣ المملكة العربية السعودية.

عند مراسلة الصفحات المخصصة للقراء (مناقشات وتعليقات، بريد، المسابقة، تباشير، ردود خاصة - بما في ذلك زواياها الجديدة: بين القارئ والقارئ، عناوين) يرجى ذكر اسم الباب أو الزاوية على المظروف، مع شكرنا للجميع.

واتضحت النوايا

أطلت علينا مجلة الفيصل العزيزة في عددها 225 بإطلالة مشرقة وممتعة وغنيَّة، حازت اهتمامي لما تطرحُه من قضايا جادة، بعنوان «التبعية وأزمة المصطلح» للدكتور زيد بن عبدالمحسن الحسين. قرأتها باهتمام، وأعدتُ قراءتها بدراية وتمحُّص؛ لأنني وجدتُ فيها ما كان يشغلني من أمور فكرية ذات منحى إفسادي لأذواقنا العربيةً وتكويننا العام، وما فيه من سمات يختصُّ بها ويتفرَّد عن الآخرين. لقد وضع الدكتور زيد ـ مشكورًا ـ يدَهُ على ما نعانيه من جراحٍ فتاكة، ومن أزمة ضياع الشخصية العربية، والجري دون هدى وراء تسميات ومذاهب ومصطلحات لاتقدِّم لنا إلا الضياع، وفقدان الشخصية، والذّوبان المطلق في آنية الآخرين، الذين لا يكنُّون لنا إلا العداوة.

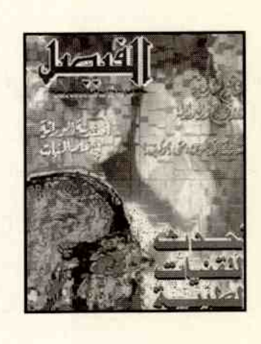
شَعَرْتُ بالسعادة تغمرني وأنا أتابع هذه الإطلالة المتوهِّجة بالغيرة والوعي. فالدكتور تناول التبعية بإيجاز يتناسب مع مساحة الإطلالة على عدة مستويات: اجتماعية وسياسية وفكرية وأدبية، وأعطى الموضوع جُلَّ اهتمامه وتركيزه لما له من أهمية. وتناوله بموضوعية وكان غيورًا على قضية ذات بعد قومي يمسّ وجودنا وخصوصًا في مثل هذه الظروف والأزمنة. فالتبعية وباءٌ مُعْدٍ خطيرٌ يبثُ في عقول شبابنا ومفكرينا الكثير من الأمراض والآفات التي تسلبهم وجودهم وكيانهم. وهنا تكمن خطورة المأساة والمشكلة؛ لأن التبعية تؤثر في ذوي العقول النيِّرة الذين يحملون على عاتقهم رسالة التوجيه والتنوير. فكيف إذا استولت على العامة؟ فالاستقلالية الفكرية حاجة ماسة لمفكري أمتنا الذين نأمل منهم الكثير ونتوخَّى منهم أنْ يغترفوا من واقعنا وتراثنا وحياتنا ليقدِّموا لنا المفيد النافع. والتبعيةُ المبنية على الوعي والإدراك وطبيعة الظروف بعد التنحيص العقلي المنطقي هي استقلال للشخصية ورافد للفكر. والتأثُرُ بين الأفراد والأمم والجماعات واردٌ وهو أمرٌ حتميٌّ لا خلاف حوله، ولكن ليس استلابًا وتجميدًا للفكر والرؤى وذوبانًا في الآخرين وجريًا دون دراية.. ولقد لَفَتَ الدكتور الانتباه إلى قضية أدبية تشغل المثقفين المتابعين على مساحات واسعة من الأرض العربية ألا وهي قضية المذاهب الأدبية التي ألبسناها لأدبنا دون رغبته وأحطناها به دون أن تناسبه، واستعرْناها من أجساد غيرنا وكأنها من تراثنا رغم اختلاف الظروف السياسية والفكرية. فالغرب وضع لها أسسًا وتبنتها مدارس أدبية وفنية وفكرية لاتتناسب مع ظروفنا. وهذا الموضوع يتطلَّبُ مواقفَ جادة وموضوعية بعد إفلاس هذه المذاهب والمصطلحات وانهيارها، ونحن لم نزل نبحثُ في أمرها ونُنظِّرُ لها.

إنّ قضية المعاصرة والتراث والحداثة وما بعد الحداثة والشرق الأوسطية والصحوة الإسلامية والعنف الإسلامي وإلباس المصطلحات الوضعيَّة على حقائق اهتم بها الشرع والربُّ، وغير ذلك من تسميات نجري وراءَها لاهثين ونردِّدُها جاهلين على منابرنا وإذاعاتنا دون تريُّث وتدبرٍ لها، هي في يقيني جديرة بالبحث والنقاش والتعقيب والإثارة لتأخذ حقَّها من الدراسة والوضوح؛ لأنَّ الاهتمام بها وتبنِّيها على الساحة الثقافية العربية هو لصالح الشخصية العربية التي تقتلعها التيارات الهوجاء، والعواصف التي تدكّ كلَّ أسسِ بنائنا.

حبَّذا لو حدَّدتْ مجلة الفيصل محورًا خاصا لتبرز هذا الجانب وتجلو كلَّ جوانبه، فتكشف الحقائق، وتثبت ما يفيدنا ويُغْنينا، وتبعد منها مالا يتناسب مع شخصيتنا، وهي جديرة وقادرة على ذلك. وحبذا لو أنَّ الدكتور زيد أفسح المجال لبعض الآراء والأساليب المواجهة لهذه التبعية وكيفية تعريتها، فإني أشعر بالألم وأنا أسمع وأتابع هذه التُّرَّهات التي لا أساس لها ولا ضوابط لوقف رواجها واستيرادها دون ضوابط لأجيالنا ومجلاَّتنا. فنحن بحاجة ماسةً لتلمُّس الطرقِ الصحيحة وتعرية وفضح ما يمس تراثنا ووجودنا بالتشويه والتزييف. كفانا مجاملات، فقد آن الأوان لنفتح صفحات مجلاتنا وصُحُفنا للوقوف أمام هذه الزوابع الماكرة، وبذلك نكون قد حافظنا على ما نغار عليه ونبحث عنه ضمن ركام الضياع؛ فلكلِّ أمةٍ لبوسها ولكلِّ أدبٍ ظروفه.

محمود محمد أسد
ص.ب 12522 حلب ـ سورية

المحاذير الشرعية .. ليست حاجزًا..



في العدد 226 من مجلة الفيصل الغراء طالعت مقالاً للأستاذ خليل الصمادي يدور حول الصحافة النسائية والمجلات النسائية الملتزمة وغير الملتزمة وأهداف كل منها. وكشف الكاتب الأهداف الخبيثة للصحافة المغتربة، وأنها ما وجدت إلا لِبَثّ سمومها في المجتمع العربي والإسلامي. ولكم أسعدني ذلك الكمّ الذي لا بأس به من المجلات والصحف الملتزمة التي جعلت من تعاليم الدين الإسلامي وفضائله وآدابه منهجًا تسير على هديه وتنهل من معينه، للرّد على صُحف الفساد والتصدي لمعاول هدم تلك الصحف للأخلاق والفضيلة، ولإنقاذ المرأة من الجهل وتبصيرها بأمور دينها ورسالتها في حياتها. ورغم طغيان صحف التغريب والإغترار ببهارج الغرب التي تحمل في طيّاتها نيران الحقد على الإسلام وأهله، والتي يقوم عليها شرذمةٌ ممن أسرت عقولهم شراك الزيف والتقليد والتبعية الغريبة، والذين هم إياد لنشر الشرّ وألسنة لدعوة الشباب للإنحلال من الدين والخلق والانزلاق في مهالك الغواية وقيود التبعية. أقول، مع ذلك كله، تبقى المجلات والصحف الملتزمة، مجلات الطهر والنقاء منابر تشع بنور التقوى والفضيلة، ولن تستطيع - بإذن الله - رياح البُغض للعرب والمسلمين صدها عن أهدافها السامية.

وما استرعى انتباهي في المقال ما ذكره الكاتب الكريم من المشكلات التي تواجه الصحافة الملتزمة الهادفة، حيث ذكر أن المحاذير الشرعية مشكلةٌ في عمل المرأة الصحفي، كيف هذا؟ هل أصبح التقيد بأوامر الشارع ومراعاة الآداب والمُثل الإسلامية عائقًا في سبيل نجاح المرأة في هذا الشأن؟، إن هذه الآداب ما وُضعت إلا لحكمة عظيمة تتجلّى في الحفاظ على المرأة من الدنس والدَرن وتحميها من الانحدار للباطل، ولتكون سدًا منيعًا من الذئاب البشرية الذين يرون المرأة سلعة رخيصة وأداة لقضاء الشهوة والوصول إلى مآربهم الشخصية.

تستطيع المرأة أداء دورها الصحفي بكل إتقان مع التزامها تعاليم الشرع التي توفر لها النجاح في ذلك. وأمثلة ذلك كثيرة من النساء اللواتي برزن في مثل هذه المجالات.

لقد تعددت وسائل الاتصال والإعلام الحديثة وتنوعت وكثرت فوائدها بغض النظر عن المساوئ التي تغلب المحاسن، وبإمكان الصحافة النسائية الهادفة التي تقوم عليها المرأة الاستفادة من تلك الأجهزة المتنوعة في عملها الصحفي بما توفره من خدمات جليلة، فعلى سبيل المثال يُمكن لها إجراء اللقاءات والحوارات والمناقشات مع شخصيات مُعينة عبر وسائل الاتصال كالهاتف أو بواسطة الخدمة البريدية، وغير ذلك كثير، ويكون ذلك دون ارتكاب أيّ محذور ينافي أوامر الإسلام، وهذه أهم ميزة في هذه الوسائل.

وفي الختام أنا واثقٌ من أن الكاتب العزيز لم يقصد ما ذكره، أو أنني لم أفهم المعنى الذي أراده، وهذا محتمل جدًا. وليست كلمتي هذه - والله - إلا من باب التواصي بالحق، وإن كان هناك من توضيح أو تصحيح فإني منتظر. أسأل الله أن يغفر لنا الخطأ ويتوب علينا.

محمد أحمد عبدالله
بلخزمر - الباحة

عن أي ثقافة نتحدث ؟



في العدد 228 كتب الدكتور زيد بن عبدالمحسن الحسين عن المثقف ورسالته الغائبة، والدكتور خضر الشيباني عن المثقفين العرب والبعد الغائب. لقد بدا واضحًا

اتهام المثقف العربي بتخلّيه عن دوره في نقد الواقع، وبلورة الوعي، والسعي نحو البحث عن حلول للأزمة القائمة ذات الأبعاد المتعددة. وأحب أن أطرح رؤيتي الشخصية لدور المثقف العربي والمعوقات التي تعترض طريقه. وبداية أتساءل: هل صار المثقف العربي المشجب الوحيد الذي نعلّق عليه عثراتنا وهفواتنا؟ نعم هناك فئات تدعي الثقافة ونراها دائمًا في المقدمة وعلى المنابر، إن هذه الفئات من المثقفين لاتمثل «كل» الحالة الثقافية. إن أزمة المثقف ودوره الثقافي جزء من أزمة شاملة تعاني منها الأمة، والمثقف العربي - قبل كل شيء - هو إنسان يبحث عن حياة كريمة آمنة.

ونحن نظلم «كثيرًا» من المثقفين حين نحمّل المثقف مهمة إصلاح المجتمع العربي. لقد طرح المثقفون العرب رؤاهم وأبدالهم عبر حوارات نهضوية - تنويرية؛ إلا أن هذه الأبدال والحلول بقيت في إطار النخبة المثقفة، ولم يسأل أحد نفسه: ما رأي الجماهير في الثقافة المطروحة؟ لقد ابتعد «معظم» المثقفين العرب عن الجماهير، وقلة هم الذين اختاروا الطريق الوعر وأخذوا يعبّرون عن هموم المسلم - العربي في هذا العصر. لقد اعتلى العلمانيون العرب «جلّ» المنابر الثقافية وانحرفوا بالثقافة الإسلامية - العربية عن جادة الصواب، لكن المواطن العربي - المسلم لا يزال أصيلاً يبحث عن جذوره ويعرف مصادرها ومنابعها، وتراه لايلتفت لما يصدر عن الثقافة «العلمانية».

ولنضرب مثلاً حيًا على الحالة الثقافية، فنجد أن التلفاز أكثر المنابر الثقافية التي تؤثر في وعي الجماهير، ومعظمها يسعى إلى تشويه الوعي الإسلامي وتسطيح العقل المسلم عبر وسائل مختلفة، لعل أبرزها تصوير نمط الحياة الاستهلاكية الغربية على أنها النموذج الأمثل.

لقد صارت منابر التلفزة مشرعة لمن لا علاقة لهم بالثقافة، فعن أي ثقافة نتحدث؟! وعن أي مستقبل ثقافي؟ ان جعل المنابر الثقافية لاتعبر عن رأي الشعب والأمة هو إخلال بحق الأمة والشعب.

محمود بن تركي الداؤد
كلية الآداب، جامعة حلب، سورية.

بين الحوار والصراع !



قصة الصراع بين الجديد والقديم ليست مطروحة في عصرنا هذا فقط. فالصراع بين الأصالة والحداثة، هي قصة الصراع الأبدي بين كل ثنائيات الأضداد ، كالظلام والنور مثلا.

ولولا الظلام لما قدَّرْنا نعمة النور، ولولا العمى لما عرفنا قيمة الإبصار. وتتوالى الثنائيات: كلّ ضدّ مع ضدّه؛ كالخير والشر، والجمال والقبح، إلى آخر ما هنالك من كلّ تركيب يدخل في علم البديع تحت بند الطباق، كالصبح والليل كما جاء في قول الشاعر:

أزورهُمْ وسوادُ الليل يشفعُ لي
وأنثني وبياضُ الصبح يُغري بي

هنا أتى الطباق مقابلة بين ما جاء في شطري البيت.

أقول هذا بعد أن قرأت مقالة حسني المختار المنشورة في العدد 221 من مجلة الفيصل وعنوانها: أدونيس: وهم الكونية والتطلُّع لِنوبل، وكانت مقالة هادئة وعميقة، وقد أثارت في ذهني بعض اللقطات.

اللقطة الأولى: هي تغيير الشاعر اسمه من علي أحمد سعيد إسبر إلى أدونيس، وذلك عندما عثر على أسطورة أدونيس والخنزير البرّي، وكان قد بدأ بنشر نتاجه، منسحبًا من كلّ ما هو عربي إسلامي إلى الأسطورة مُعللاً ذلك بالعبور إلى الكوني. لقد أعجب بشخص أدونيس الرامز إلى الحبّ، ولم يعجبه الاسم الرامز إلى الاستعلاء. هدف إلى التحرُّر من التراث الجامد - حسب زعمه هو -، ليكتسب حريّة أوسع!

هل الهروب من القبيلة والعشيرة

والأرض والتراث الروحي عملية صعبة؟ إلاّ إذا كان هروب «الجبان» شجاعة، تاركًا عشيرته تقاتل وحدها!

اللقطة الثانية: ترى أمن أجل سحر جائزة نوبل صفّى شعره القديم في صيغة كتابة نهائية من كلّ ماله صلة بالثورة الفلسطينية، والعروبة، والحزب القومي السوري، وخرجت الطباعة الملائمة لشروط لجنة الجائزة؟ من أجل مَنْ فعل ذلك؟ أتركُ السؤالَ مفتوحًا، ممتدًا من الشاطئ السوري العزيز الجانب إلى الشاطئ اللبناني، فالشاطئ الفلسطيني، لأرى ليمون حيفا ويافا يبكي شفقةً على شاعر تنكّر للشذى والعطر.

هل أمسي مأخوذاً ومصادراً بوهم نوبل؟

لا.. ماهكذا تورد يا سعد الإبل!

هل على حساب تراب محمود درويش، وسميح القاسم، وتوفيق زيّاد، تلهث، وتركض فوق جثث الموتى وهم أحياء، غير ناظر إلى عيون الفلسطينيات اللوزية، اللواتي يبكين الشهداء بالدماء؟!

اللقطة الثالثة: اتهامه بانتحال شعر غيره سرقةً كما يفعل الأقدمون، وقد ورد في كتاب «الأغاني» شيء أخفّ من السرقة، كان الشاعر يهب الشاعر مقطوعةً أو بيتين ويتنازل عن الملكية عن طيب خاطر.

أما أن يسرق شاعر كأدونيس مقالة صحفية كاملة لجيدار بونو، يعرض فيها أفكار عالِم الفيزياء المشهور برنار يسبانا كي يدخل بها الحداثة، فهذا مايستنكره كلّ أديب شريف يحترم ملكية الآخرين، ولايتطاول عليها بالسرقة.

اللقطة الرابعة: الهدم، التدمير، الخبث، تحت ستار الوصول إلى الكونية، ما هكذا فعل العباقرة.

أن نهدم الشكل الخارجي ونحافظ على الجوهر، مشروع جديد للحداثة قابل للحوار؛ لا للصراع، وهدم القيم.

إن مسرح الجمال ينتج القيم، الأخلاق، والحبَّ والخيرَ، يغني الإنسان ولايفقره. أن نمسّ الإطار العام في الشكل ونحافظ على المضمون ضمن التركيز على قيم علم الجمال الذي أنتجه الفكر اليوناني منذ ثلاثة آلاف سنة، كلّ هذا قابل للحوار أيضا. لا للصراع بسيف غير مشرِّف يلوّح به ناكر للجميل، مع الاعتراف بأدونيس شاعراً.

أن نروج لشعر المجون أمر مستنكر، فنصف وطننا العربي تمثله الأمهات والبنات، ولدينا أسلوب التورية والتلميح يغنينا عن العبارة الفاضحة.

«إنّ من البيان لسحرًا» وموقف القرآن الكريم من الشعر لا يجرُّنا إلى الاستغراق في الجملة التوراتية في المزامير ونشيد الإنشاد وسفر أشعيا، فلغتنا ليّنة، مطواع غنية، وجميلة أيضًا، إذا حرثنا في أرض التراث الجميل المصفّى من الشوائب نعثر على ضالّتنا المنشودة.

وإذا كانت رؤية أدونيس مجرد نزوة لتدمير العالم واكتساحه فقد خاب فأله. العالم الجديد استمرار واستطالة للعالم القديم، لازلنا نبحث في الأساطير ونوظّفها، ونستبدل أسماءها بأسمائنا الأصلية تحت ستار رموز الحبّ. فالحبّ للأم، للأرض العامرة بالإنسان، العارمة بالإحساس، للغة والتاريخ بعد عملية فرز الأصيل والحقيقي منه، لا انقطاع بين التراث والحداثة؛ فالأداة هي اللغة، و هي مستمرة، رَغْمَ تبديل الحلل، وتنوّع الألوان. وإلا نكون قد وقعنا في الخطأ ذاته الذي وقع فيه زعماء التيارات السياسية عندما استوردوا النظرية الجاهزة، الوردة الجاهزة ليزرعوها في تربة تختلف، فسقطت الوردة مع سقوط النظرية. وفي بلادنا أشياء وأشياء من الورد الجميل، وفي بستان الديانة الإسلامية الذي أزهر في مكة المكرّمة واستنارت بأنواره المدينة (يثرب) في أعراس الدعوة الجديدة للحق والتوحيد والخير والجمال، لتبعد استغلال الإنسان للإنسان.

نبحث في تراثنا لنجد ما نوظفه من أجل إنسان جديد هو مشروع حلم بمستقبل أفضل! فالفكر ونشاط الدماغ ينسحب على الشعر في إنجاز مشروعه.

في مقطع من قصيدة يأتي بها كاتب المقال والشعر لأدونيس:

ـ من أنت؟ من تختار
يامهيار؟
ـ لا الله أختارُ ولا الشيطان،
كلاهما جدار؛
كلاهما يغلق لي عيني هل
أبدّل الجدار بالجدار؟

ماهذا الجنوح في الفكر، من الهلال ونجمته، إلى عثار الماركسية التي ألغت الروح، وركزت في التطبيق على الإنسان المنتج وحوّلته إلى رقم كالآلة، وليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

ولا أقصد مقولة الماركسيين: الدِّين أفيون الشعوب. بل أقصد أن الإنسان لايستطيع أن يعيش من دون الأشياء الروحية التي يلوذ بها ويعيش بها، ولها، حتى يعمّ السلام العالم، وتنتهي الحروب!

لقد بدّلتَ اسمك وكان الاستبدال فأل خير عليك، فهل إذا رفضت الله والشيطانَ ترى ملاك الحداثة الذي لا اسم له بين الملائكة، يأتي إليك تحت عباءة الحداثة

وتطريز ما بعدالحداثة؟ من أنتَ؟ بودلير؟ رامبو؟ لينين الذي هدم الجدار ليبني؟

بنى على الهشاشة، سقط البناء الفارغ من الإنسان على الإنسان ذاته. الخلود، الأرض التي تظلُّ تعطي أورادها، يكسوها الطلُّ اللؤلؤي عند الخيط الفاصل بين الظلام والنور. ولابدّ من وجود ناظم لحبات العقد، من نقطة تقع بين الحوار والصراع، انتقلتَ وانحزتُ إلى الحوار، إلى العقل، إلى الرؤية الواضحة.

والشعر لا يأتي صافيًا إذا لم يقترب الشاعر من الله، من النفحات الربانية، من القدرة المبدعة، من هذه العناصر تُخْرِجُ الروحُ روحًا من روح، ونورًا من نور!

يوسف الحاج

حمص، سورية

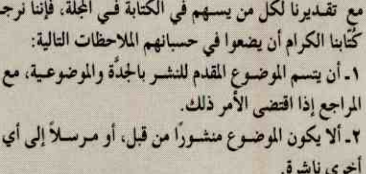


الصيد والطرد في شعرنا العربي

قرأت باستمتاع شديد مقالة: (الصيد بالصقور رياضة الأجداد) للأستاذ كامل يوسف حسين المنشورة في مجلة الفيصل الغراء في العدد 229. ولاريب أن الكاتب قد أبدى إحاطة واسعة ومعرفة عريضة بهذه الرياضة التي مارسها الأجداد، وعاد لها شبابها وتجددها في الخليج العربي في العصر الحديث. فذكر أبرز مصادرها في اللغة العربية، ووسائل الصقارين العرب في اصطياد الصقور، وأهم الأدوات التي يقتنيها الصقار ويستخدمها في ترويضها وتدريبها على الصيد، إلاّ أنني - مدفوعًا بالرغبة في إثراء الموضوع والمساهمة في إضاءة بعض أفكاره - رأيت أن أسطر هذه الإضافة المتواضعة حول الصيد والطرد في شعرنا العربي والذي يُعَدُّ - في رأيي - من مصادر هذه الرياضة الجديرة بالاهتمام، ولا سيما في العصر العباسي؛ حيث ألفينا الشعراء يتناولون هذه الرياضة وأدواتها التي يستخدمونها في القنص مثل الفخ وقوس البندق، في شعرهم ويصفونها وصفًا دقيقًا. ولعل أبرز هؤلاء الشعراء أبو نواس الحسن بن هانئ؛ فقد خصّ (البزاة) في شعره بسبعِ أراجيز من أصل ست عشرة أرجوزة وزعها على: الصقر واليؤيؤ والزرق والشاهين. ومما قاله في الصقور:

لا صيد إلاّ بالصقور اللُّمحِ
كل قطاميٍّ بعيد المطرحِ
يجلو حجاجي مقلة لم تجرح
لم تغذُه باللَّبن المضيّح
أمّ ولم يولد بسهل الأبْطَح
إلاّ بأشراف الجبالِ الطُّمَّح
أحصُّ أطراف القُدامَي وَحْوح
أبرشُ ما بينَ القرا والمذبَحِ

ملاحظات عامة



مع تقديرنا لكل من يسهم في الكتابة في المجلة، فإننا نرجو من كُتّابنا الكرام أن يضعوا في حسبانهم الملاحظات التالية:

١- أن يتسم الموضوع المقدم للنشر بالجدَّة والموضوعية، مع توثيق المراجع إذا اقتضى الأمر ذلك.

٢- ألا يكون الموضوع منشورًا من قبل، أو مرسلاً إلى أي جهة أخرى ناشرة.

٣- حين تردّ المجلة على كاتب ما بأن موضوعه «غير مناسب للنشر» فإن هذا لا يعني أنه «غير صالح للنشر» في غيرها، وإنما يعني عدم مناسبته لسياسة النشر فيها.

٤- أن يرفق الكاتب (الذي لم يسبق له الكتابة في المجلة) مع موضوعه، الاسم والمؤهلات العلمية والإنتاج الفكري - إن وجد - وعنوان المراسلة، في ورقة مستقلة.

٥- الموضوعات المنشورة في هذه المجلة تعبّر عن آراء أصحابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.

الفيصل
مجلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار الفيصل الثقافية

اللمح: الذكية، القطامي: الصقر الحديد البصر، بعيد المطرح: البعيد المدى في طيرانه، اللبن المضيح: الممزوج بالماء، أشراف الجبال الطمح: الجبال العالية المشرفه، الأحص: القليل الريش، القدامى: ريش مقدم الجناح، الوحوح: المنكمش، الأبرش من شعر الرأس: ما خالط لونه لون آخر غيره، القرا: الظهر.

يقول: إن الصيد لايكون إلاّ بالصقور الذكية، حديدة البصر، التي نشأت في أعالي الجبال، قليلة الريش في قوادمها، ضامرة الجسم، خالط لونها لون آخر وخاصة بين الرأس والرقبة. هذه هي صفات الصقور التي استخدمها العربي في طرده وصيده.

ومن أراد من القراء الأفاضل أن يقف على تفصيل ذلك فليعد إليه في مظانه الأصلية وخاصة دواوين الشعراء أو بعض المراجع الجادة مثل كتاب: الصيد والطرد في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثاني الهجري، للدكتور عباس الصالحي، بغداد 1974م، أو كتاب: شعر الطرد إلى نهاية القرن الثالث الهجري، للدكتور عبدالرحمن رأفت الباشا، بيروت1974م.

د. بهاء الدين سليم عايش

صنعاء، اليمن.



من هو شاعر الكرنك؟

كان من بين موضوعات العدد 217 من مجلة الفيصل، في باب من تجاربهم، موضوع «محطات» عن تجربة الشاعر السوداني محيي الدين فارس، الذي ذكر - في معرض حديثه - أن المهندس الشاعر علي محمود طه هو صاحب الجندول والكرنك وليالي كليوباترا. ولنا وقفة مع قول الشاعر إن علي محمود طه صاحب الكرنك؛ حيث إنه من المعروف أن صاحبها هو الشاعر أحمد فتحي الذي ولد في الثامن من أغسطس سنة 1913م وتوفي في الرابع من يوليو 1960م. ولم يعرف الناس أحمد فتحي قبل أن يغني له محمد عبدالوهاب أنشودته الحلوة «الكرنك». وقد صادفت هذه الأنشودة هوى في نفوس الناس لأكثر من سبب، أولاً: لأنها ظهرت في عصر سادت فيه الأغنية الدارجة حتى على ألسنة أصحاب الأسماء الكبيرة من أهل الغناء، ثانيا: لأنها تناولت غرضًا جديدًا في عصر لم يطرق فيه أهل الغناء بابا غير باب الحب حتى مَلَّهُ الناس بعد أن أصبحت معانيه مكررة لاتثير وجدانهم. ورب ضارة نافعة؛ فقد ذهب أحمد فتحي إلى الأقصر مرغمًا لا مختاراً، وعاش هناك فترة من أحلك فترات شبابه، ولكن هذا المنفى - كما سمّاه - هو الذي مَهَّد له - عن غير قصد - أن ينظم أنشودة الكرنك التي عبَّدَت له جسر الشهرة.

صلاح عبدالستار محمد الشهاوي

الرمز البريدي 31721 دمشيت، طنطا، مصر

العنوان

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ - المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٦٥٣٠٢٦ - ٤٦٥٣٠٢٧ - ٤٦٤٧٨٨٤ -
فاكسملي: ٤٦٤٧٨٥١

ردمد ١١٤٠ - ٠٢٥٨ رقم الإيداع ١٤/٠٥٤٢

الأسعار:

السعودية ٨ريالات - الكويت ٦٥٠ فلسا - الإمارات ٧دراهم - قطر ٧ريالات - البحرين ٧٥٠ فلسًا - عُمان ٧٥٠بيسة - الأردن ٥٠٠فلس - اليمن ٤٠ريالاً - مصر جنيهان - السودان ١٥٠ جنيهًا - المغرب ٨دراهم - تونس ٦٠٠مليم - الجزائر ١٠دنانير - العراق ٤٠٠فلس - سورية ٣٠ليرة - ليبيا ٨٠٠درهم - موريتانيا ١٠٠أوقية - الصومال ٢٠٠٠شلن - جيبوتي ١٥٠فرنكًا - لبنان مايعادل ٤ريالات سعودية - الباكستان ٢٠ روبية - المملكة المتحدة جنيه استرليني واحد.

الاشتراكات السنوية:

للأفراد ١٥٠ريالاً سعوديًا، للمؤسسات ٢٥٠ ريالاً سعوديًا.

الإعلانات:

يتم الاتفاق عليها مع إدارة المجلة.

تأملات في أحوال الزمان



د. خضر الشيباني

قد يقول لك بعض الناس: إنّ الزمان زمان الشطارة والفهلوة، وما استطعت أن تغلب به فالعب به؛ فالمهم أن تتحقق الغاية بغضّ النظر عن الوسيلة، والمهم أن تحصل على الجاه والمال والمنصب، وتتمتع بالحظوة لدى ذا أو ذاك من علية القوم ووجهائهم، ولايهم بعد هذه الإنجازات المرموقة ما تفعله من (بهلوانيات)، وما تتمرغ فيه من كذب، وما تسقط فيه من أوحال، وما تتلقاه من صفعات.

وقد يقولون: إنّ (المصلحة) هي الحَكَمُ الأوّل والأخير، وما سوى ذلك من قيم ومصطلحات ومعايير إنما هي للفاشلين والحالمين والحمقى والسُذّج، فانس (الكرامة)، وألقِ عنك لباس (الوفاء)، واكتسب مناعة ضد (الصدق)، وتعلم كيف تسكب ماء الوجه حتى إذا لم يتبق منه شيء فاصنع ماشئت.

وقد يقولون: إن الحياة دقائق وثوان؛ فانتهز الفرصة أينما كانت وكيفما جاءت، وعضّ عليها بالنواجذ فهي لن تتكرر ولن تعود، ولا تأبه ولاتبال بما تدوس عليه في الطريق من مشاعر الآخرين، وما تطأ عليه من أحاسيس الأقربين، وما تتمرّغ فيه من أوحال النفاق ودنس الخداع؛ فكلّ ذلك هيّن مقابل المردود المادي والصيت الاجتماعي والمنصب الرنان.

وقد يقولون: انطلق في سعيك الحثيث نحو غايتك دون أن يهمك ما قد يدركه الناس بأنك حققت ما حققته بالالتواء والاعوجاج، لأنّ منصبك سيفرض احترامهم لك، ودراهمك ستجعلهم يلهثون خلفك، وجاهك سيغفر لك هفواتك وزلاتك، لتلهج ألسن الجميع بذكرك، وهم يضفون عليك أفضل الخصال وأجلّ النعوت وأندر الصفات.

وقد يقولون: ألقِ عنك جانبا قيود (الوقار) وسلاسل (الالتزام) وضوابط (المبادئ) وأسْر (القيم)؛ فكلّ ذلك لايشبع معدة، ولايشتري عقاراً، ولايُكوّن من المال رصيداً.

وقد يقولون: انطلق حرّاً من المعوقات كافة، رائدك المصلحة، وديدنك البحث عن المكاسب، ومعيارك الوحيد المنفعة الشخصية المباشرة، وليأت بعد ذلك الطوفان.

وفي زمن الانبهار بالماديات، والتباهي بالممتلكات، والتسابق إلى الكراسي، فإنّ تلك (النصائح!) تبدو منسجمة مع واقع الحال، ومتناغمة مع عوالق النفس. فعندما تختلط الأمور وتتراكم الضغوط وتتعقد الصّلات وتكثر المتطلبات وتتقلب المفاهيم، يتأرجح الإنسان بين الصحيح الواضح، الذي قد لايفضي إلى حلّ عاجل مطلوب، والقبيح المستهجن، الذي يُزيّنه له الشيطان فيحسب أنه يحسن صنعا.

وفي عالم بهتت فيه (المعاني)، وخفت فيه صوت (الحقيقة)، وضعفت فيه الكوابح الخُلُقيَّة والضوابط الذاتية، فإنّ الإنسان يسقط ضحية سهلة سائغة لهوى النفس ومطالب الجسد وغرور الذات وتضخم (الأنا).

ومن هنا كانت أهمية (التشريع) الذي يُغلق الباب أمام عواصف الهوى وإعصارات المزاج وتخبطات النفس، ليرسي اللبنات الراسخة في تربية (الفرد المسلم) وتنشئته النشأة الصالحة في إطار الضوابط القويمة والرؤية الناضجة والاهتمامات الواعية، وصدق الحق عز وجل: ﴿ومَن لم يجعلِ اللهُ لهُ نوراً فما لهُ من نُور﴾ النور:40.

وفي رحاب (التربية الإسلامية) لاتكون القضية خاضعة لحسابات الخسارة والمكسب أو مرتبطة بمسوّغات (التبريريين) وتطلعات الموهومين، ولاتكون هناك خيارات إذا كان الصدق والصلاح والكرامة والقيم هي الأمور المطروحة للمساومة والتحوير والتبديل.

وفي ظلال (الرؤية الإسلامية) يكون ما تُزيّنه النفس من ابتذال وانتهازية وخداع أمراً من عمل الشيطان الذي يجري من ابن آدم مجرى الدم، وقد آلى على نفسه أن يغويه ويورده موارد الهلاك.

ولا يغرنّك - يا صاحبي - حال أولئك الذين تعتقد أنهم أنجزوا شيئا باستغلال الوسائل المشبوهة، فهم يعيشون حالة بائسة من الفزع من فقدان ما أدركوه من مال وجاه ونفوذ؛ لأنهم يعرفون أنّ من يتجمّع حولهم الآن سيكون أوّل هاجرٍ لهم وناقد لسلوكهم ومتحامل عليهم إذا كان ذلك في مصلحته، وكأنّ ذلك مصداق لقول العامّة: (إذا سقطت البقرة كثرت سكاكينها). إنهم - يا صاحبي - يعيشون حالة كئيبة من القلق والهواجس، ويخافون انفضاح حقيقتهم وانكشاف أمرهم، فتجدهم يحيطون أنفسهم بالضعاف من أمثالهم، وما دروا أنّ اللبنات الضعيفة لا يسند بعضها بعضاً؛ بل هي سبب في الإطاحة بالتركيبة المتداعية كلها، ثم الأبلغ من هذا وذاك قول الخالق عزّ وجل: ﴿أفَمَنْ أسَّسَ بُنيانَه على تقوى منَ الله ورِضْوانٍ خيرٌ أم مَّنْ أسَسَ بُنيانَه على شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فانهار به في نار جهنَّمَ واللهُ لايهدي القومَ الظالمين﴾ التوبة:109.

ونقرأ في كتاب الله الكريم، وليتنا نمعن النظر ونستوعب، قول الحق عزّ شأنه: ﴿فأمَّا الزَّبدُ فيذهبُ جُفَاءً وأمَّا ما ينفعُ الناس فيمكُثُ في الأرضِ كذلك يضربُ اللهُ الأمثال﴾ الرعد:17. تلك هي إحدى السنن الكونية الخالدة التي خلقها خالق الكون فلن تجد لها تبديلاً، وما سوى ذلك من حالات مريضة تبرز، أكثر ما تبرز، في عصور الضعف والانحطاط، فإنها تنمو كالطفيليات، وقد تنجح لفترة، ولكنّ سنة الله مهيمنة لاريب في ذلك، ليجتاح النبات الأصيل تلك الطفيليات، وتقضي عليها نسمات الهواء الطلق، وتحرقها أضواء الشمس الدافئة.

ونقرأ في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وليتنا نتمثّل المعاني ونتمسّك بالقيم، قوله: «قل آمنتُ بالله ثم استَقمْ» رواه مسلم في صحيحه. ذلك منهاج حياة تلتقي فيه عقيدة التوحيد بالسلوك المنضبط والالتزام الحياتي المتماسك، فتسير حياة الفرد في عناق مع حلاوة الإيمان وطهارة الفعل وسموّ الغاية واحترام الذات.

هكذا كانت الأمة التي رباها المصطفى صلى الله عليه وسلم، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتحارب الظلم، وتعمّر الأرض بكلّ العنفوان والحيوية والصدق، مدركة أنّ الدنيا ليست دار مقام ولكنها امتحان واختبار، ومنفذ لإحدى نهايتين: فإمّا الفوز الأبدي أو الضياع السرمدي.

وهكذا ينبغي أن تكون الأمة اليوم، في تركيبها الفكري وخططها العملية وممارسات أفرادها الحياتية، إذا أرادت لنفسها مخرجاً مما يحيط بها من ظلام دامس وهزيمة نكراء، وهجمات شرسة، وتكالب عليها من الأعداء، وإشفاق عليها من الأصدقاء.